2020
30.12.2019

رواية

بختيار عليّ

ترجمة: فدوى درويش

مساء الفراشة

Bachtyar Ali

ئیوارەی پەروانە

Parwane's Evening

مســاءُ الفَراشـة

بختيار علي

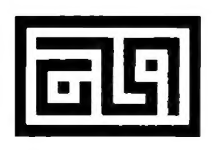
رواية

ترجمتها عن الكردية

فدوى درويش

مراجعة

رفعت فرج



2019

مسـاءُ الفَراشـة

بخـتيار عليّ

مســاءُ الفَراشــة / رواية
(ئێوارەی پەروانە)
بختيار علي

ترجمتها عن الكردية:
فدوى درويش

الإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- سبتمبر 2019
978 - 9921 - 712 - 15 - 5 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2019/1097

Author: Bachtyar Ali.
Ewaray Parwana (Parwana's Dusk)

Translated from Kurdish by:
Fadwa Darweesh
Revised by:
Refaat Farag



هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: @DarAlKhan_kw
انستغرام: daralkhan_kw

1

أنا خندان الصغيرة، الفتاة التي عايشت قبل سنواتٍ عدّة أحداثًا رهيبةً. كان من الصعب عليّ حينئذٍ إدراكُ كلّ ما يجري أو حتّى محاولة القيام بتدوينه. كان لا بدَّ أن أكبر قليلًا لأتمكّنَ من استيعاب ما جرى. تلك الأحداث التي تبدو لي الآنَ كتلةً متماسكةً، ليس لوجود عَلاقة وثيقة فيما بينها، إنّما لأنني أصبحت أدرك تمامًا أنّه لا يمكن فصلُ أقدار البشر ومصائرهم بعضها عن بعض بسهولة. نصرالدين المعطّر، حتّى هذه اللحظة، يطلبُ منّي أن أتمهّل. كذلك فتّانة مقتنعةً بأنّ الوقتَ ما زال مبكّرًا لفَهم حقيقة ما جرى في تلك الحقبة. كلاهما لديه شكوكٌ أن تكون الحكاية قد انتهت. ليس فقط لأنّ جميع الذين عاصروا تلك الأحداث ماتوا أو هاجروا، أو أنّهم تائهون في إحدى زوايا هذه البلاد المُنهَكَة، وإنّما لأنّ آثار تلك الأماكن التي كنّا نرتادها، أنا وبروانه، أو كلٌّ منّا على حِدة، قد أُزيلت وتلاشت. لكن، على ذلك، يوجد لديَّ هاجسٌ مريبٌ وغامضٌ يتملّكُني ويدفعُني لسرد تلك القصّة. ربّما هو هاجسُ تفكير الإنسان في عوالِمَ عاشَها ولم يستطع فهمَها، أو هاجسُ الأيام التي تغادرنا ولا يمكننا استعادتُها إلا من طريق الحكايات، أو ربّما هاجسُ الاعتذار من تلك الممالك التي كنّا نراها كسراب أو كسحابةٍ من غبار. لكن، على كلّ هذه الهواجس، ما زلتُ أتذكّر كُلَّ شيءٍ جليًّا. أذكر الليالِيَ الطويلةَ التي قضيتُها مع معصومة في مدرسة «الأخوات التائبات»، حين أفضَت لي بكثير من الأسرار عن حياة بروانة في أيامها الأخيرة. صحيحٌ أنّ معصومةَ توفّيَت، لكنّها قبل موتها أخبرتني أنّ حياتَها كانت حافلةً، مرّ على

رأسها كلُّ ما يمكن للمرء أن يتصوّرَه، ولم يعد لديها ما يستحقُّ العيشَ هناك في هذه الحياة. ما كان ينبغي أن تموتَ بهذه السرعة، كان عليها أن تكون الشاهدَ الحقَّ على أحداث هذه القصّة. إضافةً إلى معصومة، كان العثورُ على تلك الصرّة البيضاء، صُرّة ميديا غمكين التي تحوي جميع كتاباتها عن غابة اليأس تلك، سببًا مثيرًا ومحفّزًا لأعيدَ التفكيرَ في كتابة رواية مصيرية. حتمًا هو مصيرٌ قاتمٌ وقاسٍ إلى درجة أنّه لم يتركنا لحظةً واحدة إلى أن وصل بنا الأمر في النهايّة إلى السقوط بين النار والخديعة، إلى ذاك المساء المؤلم والذي نتذكّره الآن باسم: «مساء بروانة».

ما زال الوقت مبكّرًا لأتحدّثَ عن الليلة القارسة والمثلجة بين تلك الجبال الوَعِرة. يعود أصل الأحداث إلى ما قبل عدّة فصول، بدأ كلٌّ شيء منذ تلك الليلة الربيعية اللطيفة، حيث كان علينا أنا وبروانة أن نحمل قصعتَين ونوزّعَ لحم الأضاحي التي يقدّمها والدي سنويًّا قبل عيد الأضحى. أتذكّر ذلك جيّدًا. كان أولُ أيام الفرح؛ إذ الناسُ جميعًا وفي جميع أنحاء المدينة منهمكون بذبح أضاحيهم. لم يسبق للمدينة أن قدّمت هذا الكمّ من الأضاحي. كانت أسرابُ الطيور تعودُ من الجنوب، تحلّق منتشيةً فوق احتفالات الدماء في ذلك الربيع. من الجدير بالذّكر أنّه غالبًا ما يكون للخوف والدماء صوتٌ خفيٌّ يستدرجُ ضحاياه بصمت. كانت رائحةُ الدم تفوحُ من أرجاء المدينة، من كلّ حيٍّ وكلّ شارع وزقاق. بخلاف عادتها كانت بروانة ترغب في رؤية الأضاحي، لم يَسبق لي أن رأيتها على تلك الحالة، لم يسبق أن رأيتها تراقب الساحة من خلف النافذة ساعات طويلة، حيث كان رجال كبار

وضخام يجلبون ثيرانًا سوداءَ، كنّا نشاهدهم معًا كيف يندفعون في غباءٍ وحماقة بين الثيران، ثم يخرجون عبر باب خشبيّ صغير وهم يتجادلون ويتخاصمون ساحبينَ خلفَهم أحدَ الثّيران، ثم يجولَون به في كلّ شوارع المدينة المكسوّة بالغبار، إلى أن يصلوا به إلى بيت من بيوتهم.

إنّنا نعيش هنا منذ أشهر عدّة، في مبنى يطلُّ على ساحة للنجّارين والجزّارين. لكن أول مرّةٍ تكتظُّ الساحة قبيل عيد الأضحى بهذا الوجه وتزدحم سوقُها من دون بيع. منذ أيام عدّة والمدينةُ تحوّلت إلى بركة دماء. أينما ذهبت لا ترى سوى الدماء. رائحة الدم تفوح من الصغار والكبار في البلدة. عانينا كثيرًا أنا وبروانة أثناء ذهابنا إلى المدرسة، كان طريقُنا محفوفًا بحُفرٍ مملوءةٍ بالدماء. قلت مستاءة: «آه... ما كلُّ هذه الدماء؟» بينما استمرَّت بروانة في السير من دون أن تعيرَني أيَّ اهتمام، لكن بعد أن كرّرتُ تلك العبارة مرّات، قالت: «اصمتي واحذري ألّا تتلوّثي بالدماء». كنت أعرف أنّها مستاءة من إعادتي المتواصلة للجملةَ نفسَها. يبدو أنّ يومَ خروجنا لتوزيع اللحم كان الأكثرَ دمويةً، قلت، يومَئذٍ، إنّ الدماء سوف تُغرق المدينة، إنّهم لم يتركوا ثورًا على وجه الأرض إلا ضحّوا به. كيف لهذه الدماء أن تُزال عن أشجار هذه المدينة وجدرانها! أجابتني بروانة، بأنّ كلَّ شيء مؤقَّت وأنّ لكلّ شيء عمرًا، سَرعان ما ينتهي هذا العمرُ ومن ثمّ يتمُّ نسيانه. كلّ شيء يكونُ واضحًا وجليًا فقط وقتًا محدَّدًا وسرعان ما يتحوّل إلى تراب، فكلُّ شيء يستحيلُ إلى رمادٍ وغبار.

كانت بروانة تحمل على رأسها وعاءً فيه لحم، بينما جداول

من الدماء تسير في الطريق. عانينا كثيرًا ونحن نسيرُ بينها ونقفز من فوقها. كلّما مشينا خطوة، اعترضنا المزيد من الدّماء، حتّى في محاولتنا الالتفاف من زقاق آخر، للتخلّص من الدماء، لم نفلح، فقد كانت الأزقّة الأخرى أيضًا مملوءةً ببرك صغيرة. الأمر الذي كان يثيرُ حنقنا وغضبنا أكثر، هو مشهدُ أولئك الأطفال الذين يلطّخون أيديهم في برك الدماء، ثم يطبعونها على الجدران وعلى الأشجار وعلى أجسادهم ووجوههم، أو على وجوه بعضهم. بالإضافة إلى مشهد تلك الطيور الملطّخة باللون الأحمر وهي تملأ السماء من فوقنا. لقد زادتني تلك الصورة غيظًا وسخطًا. أمَّا بروانة، وكما كلِّ يوم، كانت تجهد لئلّا تتلوّثَ حتّى ولو بلطخةٍ صغيرة.

على شعورها بالخجل جرّاء حمل وعاء اللحم على رأسها -قسرًا وبضغط من والدها- والسير به في تلك الليلة الربيعية اللطيفة بين بيوت الحيّ لتوزيع قطع اللحم عليهم بيتًا بيتًا، مع ذلك كانت حريصة جدًّا ألّا تُمَسّ بنقطة دم واحدة. تلك الدماء التي كان الناس ودون أيّ حذر يغوصون فيها بأقدامهم، حتّى تمتلئ أحذيتهم وثيابهم فينقلونها إلى أماكنَ أخرى لتصير كلُّ الأماكن ملوّثةً بالدماء، بما فيها بيوتهم والبساتينِ النظيفة والمقاهي والسينما وكذلك منتزهات البلدة.

كانت ليلةً معتدلةً من ليالي الربيع، تفوحُ من تلك اللحوم روائحُ أنفاس حياة ممزوجة بالخوف، رائحة أنفاس ما بعد الموت. من حينها لم يغادر مشهدٌ أولئك الرجال مخيّلتي، ظلّت صورهم معلّقةً بذاكرتي وقتًا طويلًا، صورهم وهم يطرحون الثيران الضخمة أرضًا على العشب في الساحة ثمّ يقومون بذبحها. مشهدُ تلك الرؤوس

المحطّمة والألسنةُ المسودّة الطويلة تشي بحسراتٍ وآهاتٍ في عيون البهائم الفاقدةِ أرواحَها. الحقيقة أنّه مشهدٌ مثيرٌ للرعب. كان أبي ملطّخًا بالدماء من رأسه حتّى أَخْمَص قدمَيه، كذلك أخي، حتّى الجزّار الصغير الذي يضحك من حين إلى آخر مثل طفلٍ، كانت تغطّيه الدماء. أمّي، المرأة الصمّاء والخرساء، الضئيلة الحجم والمريضة، بدأت لحظة ذبح الثور تصرخ ويصدر عنها صوت مخلوقٍ مستاء ومريض، مخلوق عاجز عن الكلام. أمّا بروانة فلم تهدأ، تجدها لحظة أمام النافذة، وبعد لحظة في غرفة النوم، ثمّ تعود مرّة أخرى إلى النافذة. تقترب من مصدر الأنين الموجع لأمي، وتعاود الرجوع إلى النافذة من جديد. لم يغب نظرها عن الدماء حتّى وهي تصفّ الصحون. فجأة تنهّدت وقالت: «خنذان الصغيرة، أتعرفين بأنني لن أكون موجودة هنا في العيد القادم؟».

كان والدي يُقسِّمُ اللّحمَ، بينما أنا وبروانة حملنا على رأسينا قصعتَي اللحمِ لموسِم الأضاحي ذاك وخرجنا من البيت.

كانت تلك جولتنا الثالثة. وصلنا إلى حيّ بعيدٍ لم يسبق لنا أن رأيناه، في شارع مغلق يسودُه الصمتُ وتفوح منه رائحةُ الربيع، شارع مليءٍ بالفراشات في ذلك الربيع الدامي. شارع مختلفٍ عن جميع شوارع المدينة في الأيام ما قبل العيد الاستثنائيةّ، حيث لم تطله الدماء، كان نظيفًا، طبيعيًا. هناك وقفنا أمام بابٍ خشبيّ ضخم، تغطّيه قوافلُ من النمل، طرقنا البابَ بالحلقة الحديدَية القديمة وكذّلك قرعنا الجرسَ مرات عدّة. بعد لحظات فتحَ لنا شابٌّ نحيلٌ، وقال وهو شبه متفاجئ ومرتبك: «كنت بانتظاركما»، بابتسامة خفيفة، هزّ برأسه وقال بصوت

فيه بعض الحزن: «أهلًا وسهلًا... أهلا وسهلا. آه... نعم، إنه موسِمُ الأضاحي، كنت قد نسيتُ، لم يخطر لي بأنّنا في موسِم الأضحى».
الشابّ هو فريدون ملك، والذي سأُلاقِيه بعد ذلك فقط في الليالي المظلمة، وفي ساعات الفجر وبين الأتربة والزوابع البيضاء.

2

بعد موت عمّتي، وبعد أن هزّتنا أحداثُ الحياة والحرب والوطن، وطرأت تغييراتٌ كثيرةٌ، خرجنا آخر مرّة في أحد الأيام، خرجنا أنا وفتّانة ومعصومة، عبر الباب الحديدي، غادرنا مدرسة «الأخوات التائبات» ولم نعد إليها مرة أخرى. معصومة التي يسكنها خوفٌ كبيرٌ من الله ومن الطيور، استقرّ بها الحال في معمل للخياطة. حينها كان أخوتي قد رحلوا عن البلاد، أما والديّ فقد ماتا منذ فترة بعيدة. كان عليّ أن أعيش وحيدة في منزل كبير وفارغ، محاولة أن أجدَ عَلاقة بين حياتنا وبين تلك المصائب التي حلّت بي في سنوات الخوف والوَحدة التي عشتها. بالرغبة ذاتها كانت فتّانة أيضًا تحاول أن تنسج خيوط حكاية بلا نهاية. أمّا معصومة التي حملت السرّ أثناء تلك السنين كلّها، تقول إنّ فتّانة قاصّة أفضل منها، لكنّها تظل راوية شفاهية. كنت أنظر إلى معصومة بحزن وأقول: «ينبغي أن تُدوّن القصص كلّها على الورق، وإلا، فستموت. أمّا أنا، فهذه ليست مجرّد حكايةٍ، إنّها قصةُ وجودِ بروانة في هذا العالم». في الواقع، لم يكن لأحدٍ أن يفهمَ أنّ موتَ بروانة الحقيقيَّ هو أن ينساها أحبَّاؤها.

كنتُ أستعرضُ صورًا لبروانة. الصورَ التي سبقَ لها أن أهدَت عددًا منها إلى عشّاقِها الكُثر، وكتبَت خلفَ كلّ صورةٍ عبارةَ «إليكَ، بشرط ألّا تنسانيَ بعد موتي». أعلمُ بأنّني، فقط، عن طريق تدوين هذه القصّة يمكنُني أن أعِيدَ إحياءَ ذكرى بروانة، وأجعلَ منها كائنًا حيًّا. لكنَّ فتّانةَ تحذِّرُني قائلةً:

«سوف تقتلينها مرة أخرى. إنّ أبطال القصص ليسوا سوى ظلالٍ قاتمةٍ، إنّهم أشبهُ بسرابٍ».

بدأتُ أمارسُ الضغطَ على معصومةَ كلَّ يوم أكثرَ فأكثر. هي الوحيدةُ التي تستطيع أن تساعدَني في الوصول إلَى الشخص الذي سوف يساعدُني في مهمَّتي. وحدث أن عرّفتني هي إلى نصرالدين المعطّر الذي عاد بعد «مساء بروانة» إلى المدينة، ليعيش حياةَ عبثٍ ولا مبالاة وسط فتياتٍ جميلاتٍ يرقصنَ في الحفلات والأفراح على أنغام الموسيقى السريعة. المعطّر، الرجل صاحب الابتسامة الخجولة والشبيهة بابتسامة الفتيات، عاد إلى الحياة بعد أن ترك الخدمة العسكرية في الجيش، عاد إلى حياة الحانات ووميض فلاشاتِ التصويرِ والعتمة المائلة للاحمرار... هو الذي قضى نصفَ حياته في تحميضِ تلك الأفلام، كان يقولُ عن فنّ التصوير: «إنّه فنّ الترحَالِ نحو الحقيقة. في البداية تبدأ من ظلامٍ شاملٍ، ثم تظهر كلوحٍ زجاجيٍّ أسودَ، وتنتهي بصورةٍ ملوّنةٍ رائعة».

إنّ الأمر الذي جعلني أشعر بالقلق مع هذا الرجل، هو نظرتُه الغريبةُ إلى الحياة والحبّ والموت. إنه يرى كلَّ شيء كما رؤيته لتحميض فيلم. يبحث في بداية كلّ أمر عن مساحة ظلام ويبقى أسيرَ نهايةٍ تُحيلُ صورَه صافيةً ومشرقة، وهذا ما جعله لا يستطيع التفكيرَ أو التنبُّؤَ بتلك النهاية المخيفة والغريبة التي وصل إليها فريدون ملك وبروانه. كان يقول: «إذا لم تكن الحقيقة مثل صورة جميلة ومشرقة، فهي ليست حقيقة».

قرأتُ عليه بعضَ أقوالِ بروانة ممّا دوّنته ميديا في مذكّراتها: «الحياة سحابةُ غبار، والحقيقةُ تكمنُ في عملية جمع ذرّات الغبار تلك». كنتُ أسترسَلُ في قراءة هذه العبارة وأضيف قائلةً: لكن أين، أين ذرّات الغبار تلك؟ ما الذي يمكننا معرفته؟ ما الذي يمكننا أن نثقَ به؟ لا، قطعًا لن نحظى أبدًا باستقرار وسلام روحيّ، لذلك علينا أن نرضى بنصف هذه الصور الواضح التي تنطوي على فراغ دائم من الشكّ والتردّد.

كان المعطّر دائم الحضور في عالم نساء المدينة بمعطفِه الطويلِ ونظراتِه الخجولةِ واللطيفة. تحدّثت إليه أول مرّة في حفلة عرس إحدى صديقاتي. اختبأت معصومةُ حينَها بينَ أشجار الحديقة حتّى لا يراها أحدٌ، قالت لي: «إنّه هو ذاته، إنّه نصرالدين المعطّر». لكنها وصفته لي وصفًا يسيرًا: «رجل يحمل آلة تصوير قديمة، في زيٍّ كرديّ أزرقِ اللون». عندما رأيتُه وسطَ ذلك الازدحامِ، بينَ بحر لا نهائيّ من الراقصين، وهو يتحدّث إلى مجموعة منَ الفتيات الجميلات ويضحك معهنَّ، ينفردُ مع كلّ واحدة على حِدة ويعطيهن بطاقاتٍ صغيرةً ليحصلن بموجبها على صورهنّ فيما بعد، مهما يكن، فقدْ شعرت انطلاقًا من ضحكته ونظراته وملاحظاته وعلاقاته أنّه شخصٌ سعيد. فوحُ تلك العطور الرائعة التي يستخدمها كان يُثملُ النساء والفتيات، يجذبهنَّ ليجتمعنَ من حولِه في أعدادٍ كبيرة. لكنّي لم أفهم كيفَ استطاع، بهذه النظرات التي تشبه نظراتِ النساءِ وبقوام متناسق كقَوام فتاةٍ، أن يعيشَ سنواتٍ عدّة في الجبال الوعرة مقاتلًا شجاعًا ذائع الصِّيت. عندما اقتربت منه كان صوت آلة الأورغ يصدحُ بألحان

صاخبة، بحيث يصعبُ على أحد سماعَ الآخر. قالت معصومة: «في أجواء الصخبِ والشهوةِ هذه لن يفهم منكِ أيَّ شيء».

ردّدت عبارتها: صخب الشهوة... صخب الشهوة... هذه العبارة ليسَت لَها، إنّها كلماتُ زينب كويستاني التي طالما ظلّت تطهّرنا سنوات من الشهوة. عندما رآني نصرالدين مدَّ يدَه وقال: «سيّدتي العزيزة، أقدّم لكم بالغَ احترامي وتقديري». لكن حين أخبرتُه أنّني خندان الصغيرة، الفتاة التي يقال عنها زورًا إنّها تمتلك قدرة على إثارة العواصف، تغيّرَ لونُه، وتظاهرَ أنّه لا يعرفني. أعرف أنّ معصومةَ أخبرَته بكلّ شيء. حلّت بيننا موجةٌ من الراقصين وأبعدت بعضنا عن بعض، ثم التقينا بعيدًا عن صوت الأورغ وبعيدًا عن نظرات المراقبين. قلتُ: «أنا شقيقة بروانة... بروانة». رمقني باستغراب وازداد دهشةً وقال: «...ألا تيأسين؟» أجبته: «اسمع، أنا لا يأس لديّ، لكنّني أحتاج مساعدتك». لم يجبني، لم ينبس ببنت شفة، فقط أدار لي ظهرَه في هدوء واختفى بين الحشود. ربّما لم يظهر تلك الليلة في الحفلة مرة أخرى.

في اليوم الثاني رأيته أمام محلّ التصوير خاصّته. كان المطر يهطل بغزارة؛ إذ تغيّر الطقس فجأة، كان يحتمي بمظلّة كبيرة. بينما رآني، تفاجأ مرة أخرى وحاول أن يمرّ أمامي متجنّبًا التحدّثَ إليّ، ثم قال صراحةً: «خندان الصغيرة، دعيني وشأني، فأنا لم أَعُد أفكّر في الماضي». الماضي يمثّل له عالَمًا لا يدركه. لقد انتهت حياته التي عاشها في الجبال الوعرة مع نهاية ذلك المساء القارس «مساء بروانة». الآن هو يعيش حياة أخرى، يستمدّ سعادته من تحميض صور فتيات

المدينة. أمّا في الليل، فكان يقضي وقته في مقهى صغير ومظلم مع مسؤولي الفرق الرياضية، حيث يدور جلّ حديثهم عن حياة الملاعب وغرف النوم. لم يكن يشغلهم غير ذلك. فيما بعد عرفت أنه يعاني من حالة تأنيب الضمير. أدركت مؤخّرًا أنه خارجٌ من محنة كبيرة. قضى سنواتٍ طويلةً تحت ضغط تلك الأحاسيس الغريبة والشعور بالذنب بسبب موت بروانة، هو من يتحمّل مسؤوليةَ ذهاب فريدون إلى تلك الغابة. فقط، حين تعرّفتُ إليه عن قرب، أدركتُ سبب ذاك الحزن الخفيّ في عينيه. الحزنِ الذي يدفعُه دومًا إلى حياة الحفلات الصاخبة والميادين الكئيبة والمعزولة هربًا من مواجهة ذاته. كان نصرالدين قد رهن كلَّ حياته لكي يفقد ذكراها وينساها، قال مرّة: «كنت طوال حياتي على خطأ، لم تكن أيّ من تلك الأمكنة تمثّل عالمي الحقيقي».

تُزيِّن المصابيحُ والأضواءُ الملوّنةُ محلَّه، وتغطّي صورُ الفتيات والممثّلات الجدرانَ. تبعثُ الألـوان المثيرة في الأستوديو فيّ القشعريرة، لحظات، عندما شاهدت عيونه الذابلة وفتياته وتمعّنتُ جيّدًا في عالمه، كدّت أحملُ حقيبتي وأعودُ أدراجي وأتخلّى عن تلك القصة تمامًا. لحظة تراءت لي أصابعُه الطويلةُ والرفيعة كأصابع امرأة أو كأصابع عازف بيانو شيطاني. سرعان ما قام نصرالدين منفعلًا بإطفاء الأضواء كلِّها وقال: «خندان الصغيرة، ماذا تريدين؟» أجبته مباشرة ودون أيّ تردّد:

«أريد دفاتر مذكّرات ميديا غمكين».

بالطبع لم يكن نصرالدين المعطّر على معرفة سابقة بي. بدأ ينظر

إليّ بحذر. لم يوافق أن يعطيَني تلك المذكّرات بسهولة. قال: «إنّها بابٌ على عالم من الأسرار... أسرارٍ خطيرةٍ ورهيبة». كان نصرالدين نفسُه قد حصل على هذه المذكّرات بعد محاولات عدّة، وجهد بذلَه أثناء سنوات طويلة. أخذها من شخص يدعى العجوز موسى. كان عليّ أن أُطلعَه على تفاصيل حياتي اليومية... أن أرويَ له عن جميع أوجاعي وآلامي. قمت أيّامًا عدّة، من الصباح الباكر، بزيارته في أستوديو التصوير. تحدثت إليه عن تداخل المصائر وعن تشابه الأقدار. أخبرتُه انطلاقًا من تلك الزيارات، أنّ حياتي مع تلك الأخوات كانت استمرارًا لقَدَرٍ سيّئٍ ومأساة رهنت حياتي، وأنّها استمرارٌ للدمار الذي بدأ مع عشق بروانة. وأكّدت له أنّ المحنة ذاتها عاشَتها كلٌّ منّا، عالَمُنا هو العالمُ ذاتُه. أثناء سنوات وحدتي القاتلة لم يكن لي هاجسٌ أو أمنيةٌ سوى التفكير في بروانة. طالما حسبتُ أن الحياة تعاقبني بسبب عَلاقاتها الفاشلة... كلّ هذا الجحيم الذي أحترقُ بنيرانه هو بسببها. لو لم تغادر هي، لكان عليّ أن أغادر أنا. لو لم أُقحَم في ذاك المصير، لأُقحِمَت هي فيه لا محالة. اعتقدتُ أنّ حياتنا هي محصّلة ونتيجة حياةٍ صعبة. ولدتُ متأخّرة عنها سنوات عدّة، أي كنت أصغرها عدّة سنوات، كنت أقلّ جمالًا منها. لم أمتلك سحرَها الذي كانت تظلّل به على قلوب الرجال كظلّ فراشة، لكنّني كنت أملك أمنيّاتٍ وأحلامًا أكبرَ من أمنيّاتها وأحلامها. تحمّلت بسببها، عدّة سنوات، كلَّ ذلك الألم؛ لأن حياتي تمثّل حقيقةَ وجودِها. في خيالي، تقمّصت حياتها هي. كنت أقول: لولا أنها لُعبة، لكان القدرُ قد رمى بروانة عوضًا عنّي في عالم الأخوات التائبات، ولرمى بي وسط تلك الغابة في الوادي السحيق.

كان نصر الدين، وسط بريق الأضواء الملوّنة، يهزّ برأسه ويقول: «الحقيقة هي أنّ بروانة الآن ميتة... ميتة». هو يعلم أنّ مصيري مرتبط ارتباطًا غريبًا بمصيرها. يعلم أنّ حياتي ليست سوى ظلّ حياتها، يعلم أنّني بريئةٌ من الذنوب التي أحاول أن أتحمّل وزرَها. لكنّه يعلم أيضًا أنّني أنا، والكثير من الفتيات التعيسات مثلي اللائي يعشن قصص حبّ هذه الأرواح المقيّدة، كنّا سنحيا حياتها وننتهي نهاية تشبه نهايتها.

حين جاء بدفتر المذكّرات الملفوف في منديل أبيضَ، كان يعلم بأنه يضع بين يديّ أسرار قضيةٍ جُلّ أبطالها إما ماتوا أو هاجروا، أو أنّهم مختفون في مكان ما في هذه البلاد. هو يعلم جيدًا أنّي أُقدم على كتابة قدرٍ لا يمكن استكمالُه، وتحويلُه إلى قصة متكاملة من دونه ومن دون هذه الدفاتر، وبالتأكيد من دون أقوال معصومة المفعَمة بالخوف والمرارة. قلت له: «لا تنسَ، ففي النهاية لعبة الشطرنج هذه هي حكاية حياتي المثيرة أيضًا. أرغب، قبل موتي، أن أفهم ماهية تلك الحياة التي عشناها... حيث تحمّلت عناء البقاء في منزل مهجور، ليس لديّ ما أقوله سوى سرد هذه الحكاية... لا شيء آخر». أدار ظهره إلى صور الممثّلات المشهورات، أدار ظهره إلى نظرات وابتسامات تلك الفتيات الحكيمات اللائي لوّنَّ حيواتهنّ بابتسامات ورقية... وناولني الدفاتر قائلا: «جزءٌ من القصة التي تريدين كتابتها موجود بين دفّات هذه الدفاتر، أمّا الجزء الآخر، فهو كامنٌ في أثناء حياتي وفي انكساري ووَحدتي».

كان يغمض عينيه ويدير ظهره إلى العالم الغريب الذي ارتمى فيه بثمالة: «لا تنسَي، أنا أيضًا خسرت حياتي وفقدتُ مستقبلي، تركتُ

خلفي كلَّ مبادئي ومعتقداتي».

لمّست الدفاتر بيدي وأنا على قناعة بأنّ تلك الحكاية هي حكاية أقداري المترامية. هي حكاية أجزاء عمري المهدورة. إنّها محاولةٌ لملمة أقدارنا جميعًا، الأقدارِ المتواريةِ والمخيفة. هي حكاية مرتبطةٌ بقدَر أولئكَ النساء الأسود، النساء اللائي قضين حيواتهنّ في ظلمة الاستغفار والتوبة. كما هي مرتبطة تمامًا بأناس نثروا حيواتهم هباءً للريح، حين خرجوا في ليلةٍ ثلجيةٍ من قلب غابةٍ حالكةٍ، وانتشروا في الأرض ولم يتركوا خلفَهم أيَّ أثر.

لكن، الآن، الأمرَ المهمَّ هو أنّ من سيقوم بتدوين تلك الحكاية، هي أنا وليست فتّانة. على قناعتي أنّ فتّانة يمكنها أن ترويَ الحكاية بأسلوبٍ أكثرَ سحرًا وتأثيرًا... لكنّي، وعلى مدى سنوات طويلة، منعت معصومةَ من الانزلاق والكشف عن عنوان نصرالدين المعطّر لفتّانة، فهو المفتاح الوحيد للوصول إلى مكامن القصة الصعبة القاسية. وعلى لجوء فتّانة إلى أساليبَ ملتويةٍ محاولةً استخدام جمالِها للوصول إلى حقيقة الحادث. حادث مِحور حبكته هو قَدَري ومصيري. غالبًا كنت أشعر بالذنب تجاه تلك الفتاة الجميلة التي لم تتوانَ وهي تُجهد نفسها لهدم جدران الخوف والوَحدة التي كنّا نعاني منها في تلك المدرسة، انطلاقًا من سرد الحكايات الطويلة. حين غادرنا معًا مدرسة الأخوات التائبات، نظرت بحسرة وهي تردّد ديباجة إحدى الأخوات قائلة: «في إحدى الليالي، بينما كان متيّمًا بالقمر، خرج من البيت كالمجنون، لكنّه بدل أن يجد القمر، عثر على كتاب، وصار ذلك الكتاب سبب إعيائه...».

3

في نهاية الفصل، حينما كتب فريدون ملك رسالته الأولى إلى بروانة، وعلى أنّنا كنّا في بداية موسِم الخيال، خيّمت على حياتنا كآبةٌ وضجرٌ كبيرَين. ظلّت بروانة تبكي وهي تردّد: «سوف أرحل». لم أكن أعلم إلى أين تريد الرحيل، لكن منذ فترة لاحظت أنّ دائرة عَلاقاتها تتّسع اتساعًا غريبًا. نادرًا ما كانت ترجع معي مساءً عند عودتنا من المدرسة. حتّى في الحافلة كانت تجلس بعيدة عنّي وتنزوي على مقعد بعيد عن مقعدي، مرتدية الثوب المدرسي الأزرق والقميص الأبيض بأكمام طويلة. كانت تبقى شاردةً وعيونُها معلّقةٌ بالخارج، نادرًا ما تلقي إليّ بنظرها. أحيانًا كانت تترجّاني ألّا أرافقها، تفضّل أن تبقى دومًا بعيدة عن ناظري وتذهب بمفردها. كنت أعلم أنّها في طريق العودة من المدرسة، تذهب إلى مكان ما، تذهب إلى أولئك الأوغاد من معارفها في المحلّات والأسواق، أو ترافق أحد عشّاقها في مشوار على أطراف المدينة. لكن، في النهاية كلّ ما تقوم به كان بدافع اليأس الذي بدأ يتسلّل إلى حياتها ويدمّرها ببطء.

اليأس يفعل أكثر من ذلك. كانت في بعض الأيام تسعى لتغيّر هيئتَها فتبدو مثل ملكة، بحيث لا يجرؤ رجلٌ أن يفكّر بالحصول عليها بسهولة، حتّى المدرّسون في المدرسة كانت ألسنتهم تعجز عن النطق بحضورها. لا بدَّ أن أذكر هنا أنّها كانت على الدوام طالبةً مجتهدةً، وأمام اجتهادِها وذكائها كان المدرّسون يغضّون الطرف عن سلوكها. في اليوم الذي عُثر، لديها، على رسالة غرامية من رجلٍ عجوز غني،

هو صديق لوالدي ومن جهة أخرى صديق معروف لمسؤولين كبار في الدولة، حينها لم تتعرّض بروانة لأيّ استجواب، ولم تُجرح مشاعرُها ولو بكلمة واحدة بشأن تلك العَلاقة. الآن، حين أفكّر بالأمر، أدرك أنّها كانت تتخبّط في دائرة مفرغة وقاتمة، باحثة عن بصيص نور. النفق المظلم المكوّن من الغرف المظلمة والممرّات الطويلة للبيت، غيّر مسار حياتها نحو التسكّع والتشرّد الدائمين، نحو ضوءٍ خفيّ ومجهول. حياة البلدة بطرقاتها الطويلة المملوءة بمياه الأمطار والطين الأسود والعواصف التي لم يكن لها أن تهدأ قطّ... وحرارة الشمس الحارقة صيفًا، البلل الذي يتركه أخوها على فراشه، صراخ أمّها شبه المستمرّ ولا شاغل لها سوى الأمور المنزلية... كل هذه الأمور تراكمت لتصنع ذاك اليأس القاتل الذي هزّ كيان بروانة. منذ أن بدأت بالدخول في دوّامة العَلاقات العاطفية المتنوّعة والمتعدّدة، لم أعد أشعر بدفء الأخوّة البريئة بيننا. حلّ بيننا نوعٌ من الاغتراب وصارت بليدة في مشاعرها معي، أحسست أنّها لا تحبّني أو حتّى إنها لا تعدّني حقًّا أختها. فقط في آخر الليل حين تطفأ الأنوار، تبدأ ثرثرتنا بصوتٍ خفيض تحت اللحاف قبل النوم. في الصباح، مع شروق الشمس، ننهض بسرعة، نبدّل ثيابنا صامتتين دون أن نتفوّه بكلمة واحدة، وفي المدرسة تظلّ هي برفقة مجموعة فتيات جميلات، كنّ قد شكّلن ثلّة بنات البلدة اللائي هنّ أكثر جمالًا وغرورًا وتأنّقًا. كنّ خليطًا من الرقّة والعجرفة والقسوة والخطايا. يمتلكن سحرًا مثيرًا في الإقدام على الحياة والتظاهر برغبة حارقة لإثارة نار العشق والغيرة والإثارة لدى الرجال. كلٌّ واحدة منهنّ كانت متورّطة في عشرات قصص العشق والسياسة والمال المتداخلة والمعقّدة. كنت أعلمُ بطبيعة الحال أنّ

معظم عَلاقات بروانة مع الشبان تتمُّ من طريق أولئك الفتيات. إنهنّ صائداتها القساة. كلّ واحدة منهنّ تصطادها بطريقتها الخاصّة لأجل شخص يخصّها. أمّا هي، فتقع في شَرَكهنّ جميعًا. ترتشف من كلّ السموم. في الوقت نفسه تقحمُ نفسَها في عشرات العَلاقات التي لم تكن تفهمها، ولا تميّز بعضها عن بعض. كانت واثقة أنّ الرجال الذين تتعرف إليهم بهذه الطريقة لا يمكن لأحدهم أن يكون رجلَ أحلامِها، لكن في النهاية تطلبُ من كلّ شخص منهم أن يساعدَها في السفر إلى الخارج إلى بلاد بعيدة، تطلبُ منهم أن يأخذوها إلى أرض أخرى وأن يطيروا بها من هذه البلاد. دائرةُ عَلاقاتِها كانت واسعةً، ابتداءً من فتيان المدرسة المغفّلين الذين يرَون جلَّ حياتهم ووجودهم في عَلاقات عابرة، إلى أولئك الرجال الأثرياء الذين يسعَون لإضافة فتاة مثل بروانة إلى عدد عشيقاتهم، لكي يتفاخروا أمام معشوقاتهم وأصدقائهم وأعدائهم. لكنّها كانت تدرك تمامًا وأكثر من أيّ شخص آخر، أنّها في أي دائرة مفرغة تدور.

كانت تجهش بالبكاء كلّ ليلة وهي تروي لي قصصًا وأحاديثَ تؤرّقها. شاركتها كلّ لحظات الخوف والشكّ والبكاء التي عاشتها. شعرت أنّ قدري مرتبطٌ بحياتها بصورة غير اعتيادية. قلت لها: «سيقتلونك، سيقتلونك... لماذا تفعلين هذا بنفسك؟ فحتمًا أنتِ لست عاهرة».

كانت تقول: «لا أعرف، لكن كلّ خوفي هو من هذه البلاد ومن هذه الحياة السيّئة ومن أن يتمَّ دفني حيّة، هذه الفكرة تكاد تقضي عليّ».

«لماذا لا ترتبطين بشابّ في عَلاقة حبّ جميلة وتنتهين من كلّ هذا؟ لماذا تُدخلين نفسك في هكذا دوّامات شيطانية؟».

مسحت دموعَها وأجابت بابتسامة أضفت عليها براءة فراشة :"خنذان الصغيرة، لا تنسَي بأنّني لا أشبهك، أنا لا أشبه أحدًا، أنا شخصٌ مختلفٌ».

أحيانًا كانت تقوم بحزم أمتعتها وتحضير حقيبة السفر مردّدة: «لم يبقَ الكثير، سوف أرحل... سوف أرحل».

كنت أراقبُها وهي تجلس على حافّة السرير وتبدأ بجمع أغراضها، علبة زينتها وأشرطة الشَعر الجميلة والهدايا التذكارية التي حصلت عليها من شباب مخادعين، ودفاتر مذكّراتها الصغيرة وقطع صغيرة من الذهب، وبعض الأشياء الصغيرة التي كان لكلّ منها حكايةٌ لها، مثل بعض الأزهار وحمّالات صدر من الشيفون وعدد من ريش حمام بيضاء وخُصلات شعر بعض الرجال وأشياء أخرى.

أحيانًا كنت أصحو في منتصف الليل، أجدها منهمكةً بجمع أمتعتِها، فترمُقني بنظرة وتقول: « اعذريني يا خنذان، عليَّ الرحيل، يجب أن أجهز نفسي».

كنت أبكي وأقول: «بروانة، خذيني معك، ليس لديّ ما أفعله هنا».

لكنّها كانت تتجاهلني ولا تجيبني. أحيانًا كانت تمسّد بيدها رأسي قائلة:

«سوف تضيعين معي يا خندان، أنت فتاةٌ محظوظةٌ، لست مثلي. لكن أستحلفك ألّا تنسيني إن أنا رحلت إلى بلاد أخرى أو متّ».

ظلّت مثل المجانين تطلب من الجميع أن يتذكّروها مردّدة على الدوام: «إن متّ، لا تنسوني».

كما لو أنّ ريحًا قويّةً اقتلعتها من بين عشرات الأشخاص. غادرت، تاركة خلفها عبارة وحيدة، «عندما أموت، لا تنسوني». عانقتها وقلت لها: «لن أنساك أبدًا».

لكنّ الخوف لم يفارقها، بدا في عينيها شكٌّ وخوف رهيبين. ارتمت على أريكة قديمة، وضعت رأسها على تلك الطاولة الصغيرة فوق سجّادة فارسية مزهّرة قائلة: «كم أخشى من صقيع الموت...»، قلت: «من قال إنّ الموت بارد... من قال ذلك؟»، رفعت رأسها في الهواء الخانق للغرفة، وبتلك الريبة الغريبة نفسها قالت:

«الأمر يعود للمكان الذي يدفن فيه الإنسان».

كانت تحلُمُ بالرحيل إلى مكانٍ أكثرَ دفئًا وحيوية. كثيرًا ما كانت بعد تجميع أمتعتها، تبقى عدّة ليالٍ في صمت وفي حالة انتظار، دون أن تتفوّه بكلمة واحدة، تتأمّلني ثم تعاين بنظرها الجهات الأربع من حولها بالصمت نفسه.

أحيانًا تُخرِجُ من حقيبتها كتابًا وتبدأ بقراءته حتّى وقتٍ متأخّرٍ من الليل. كنتُ أستغرب كيف لها هذه القدرة على السهر ساعات طويلة في مواصلة القراءة. من الواضح أنها وسيلة لقتل الوقت والتغلب

عليه ببعض النسيان. أحيانًا أخرى، تستغرق في التفكير ساهية وبيدها الكتاب، لا أعرف أمضمونُ الكتابِ هو ما يخطف تفكيرها أم أمور أخرى؟ لكن، على الدوام، كانت حَالة الشكّ والانتظار والحزن بادية عليها.

تأخّر بها الوقت كثيرًا إلى أن أدركتُ أنّ جميع الرجال الذين في حياتها يخدعونها. في البداية تأمّلت أن ترحلَ برفقة ساعاتيّ ثريّ فلا تعود أبدًا. ذاك الرجل الذي خدعها وأوهمها أنّ بإمكانه التلاعب بالزمن من خلال أسلوبه الساحر، وأنه يستطيع أن يعود بها إلى عهود الممالك والإمارات ويعيشان معًا بسعادة بعيدًا عن المشكلات. قالت بروانة: «سأرحلُ إلى مكانٍ ليس فيه أيُّ شيء يذكّرني بهذا العالم... راحلة إلى مدينة صغيرة تحت شمس أبدية، شمس يمكن للبشر أن يعيشوا على أرضها بحُرّية». «الأرض»، الكلمة الّتي تضفي صدًى سحريًا على صوتها، هي تعرف أنّ الأصداء الرائعة لمثل هذي الكلمة تثملها.

في تلك الليلة كانت سعيدة للغاية. وضعتْ يدها على كتفي وقالت: «صدّقيني يا خندان، إنه يستطيع أن يتلاعب بالزمن». طلبت منها بكل هدوء: «خذيني معك يا بروانة». أجابت: «لا... لا، حتّى هذه اللحظة لا أعرف ما الذي سوف يحدث، لا أعرف». مرّت كثيرٌ من الليالي لم تذُق فيها بروانة طعم النوم، انتظرتْ طويلًا وعيونها معلقة على الطريق، تراقب من الشرفة الساحة أسفل المنزل والشوارع من حولها. لكن لا أحد هناك، سوى النجّار وبعض الشيوخ الذين عادة يخرجون بعد أذان الفجر. بعد أسبوع، جاءت وهي ترتجف، قالت:

«خنذان، خنذان، لقد انتحر... انتحر». ذاك الشابّ الساعاتيّ انتحر في منتصف ليلة تحت شجرة توت هرمة في أحد البساتين. لقد ودّع كلّ شيء وأنهى حياته برصاصة. في اليوم التالي، ذهبنا أنا وبروانة للعزاء، فاحت رائحة دمه من كلّ الأشجار والجدران. عشرات الساعات المعلّقة على الحيطان أشارت واقفة إلى الساعة التي انتحر فيها، حدَّقت بروانة إلى الساعات بطريقة طفولية، لكنّها لم تتمالك نفسَها أمام الرائحة المنبعثة من شجرة التوت في ذلك البيت. لم تبكِ بروانة، لكنّ الحزن والخوف خيّما عليها بصورة مقلقة.

بعد موت الساعاتي، ظهر في حياتها أشخاصٌ آخرون أكثر أهمّيةً منه. أرتني يومًا صورة شخص جديد، وهي مقتنعةٌ أنّ طيفًا من النور يحرسُها. قالت إنّه يملك قدراتٍ للتواصل مع الأنبياء، وأنّه يُرسل رسائلَ عبر أرواح الأموات. ثم إنّ هذا الشاب الخجول لديه قدرةٌ على إيقاف العواصف، وقدرةٌ على إحاطة نفسه بدارة من السكون وسط العاصفة، بحيث تقف العاصفة خارج حدود دارته. هو تاجرٌ، يبدو أنّه، وفي أثناء رحلاته التجارية نحو شرق آسيا، قد اقتنى وجه بوذيٍّ مسكين. بعد أسبوع، فقط، من معرفته بروانة، أصابته رصاصةٌ طائشةٌ وسط السوق وأردته قتيلًا. قلت لها مرةً: «ارْمِي تلك الحقيبة، دعيها... لن تهاجري أبدًا». كانت ترتدي، في تلك الليلة، فستانًا أزرقَ طويلًا، ردّت برويّة: «لكنّ روحي لا تشي لي بذلك، أتمنّى أن أهاجر ولا أعود أبدًا». كانت حلقة عَلاقاتها تضيق كلَّ يوم أكثر فأكثر. صديقاتها، أولئك الجميلات في المدرسة بدأن بالرحيل الواحدة تلوَ الأخرى. عادت إلى البيت مساءً وهي منهكة القوى ومخطوفة

اللون شاحبة، تقول لي بصوت خافت: «خندان، لقد رحلت نازك ذات العيون الزرقاء... خندان، مندانة أصبحت الآن في كوكب آخر... خندان، بورهان أيضًا ذهبت... خندان، لقد رحلت فريشته... خندان... خندان...». لم يكن لقصص رحيل تلك الفتيات أن تنتهيَ، حيث بدأن بالاختفاء فجأة من قاعات الدراسة. لكن مع ذلك لم يكن واضحًا في أفق حياة بروانة أيّ رحيل مفاجئ. اليوم، وعندما أفكّر بتلك المصائب كلّها، أرى لو لم تكن هي قد حلمت بالسفر مع فريدون ملك، ربّما لبقيت علاقتها به مجرّد علاقة عابرة في حياتها، ولكان هو الآخر مجرّد حالة من حالات الفشل بالنسبة إليها. لكن، مَن يعلم؟ مهما يكن، فإنه بعد كلّ هذه الحكايات المؤلمة، نستطيع القول إن جميع قصص الرحيل تلك كان لها منطلق واحد. حتى لو كانت متوافقة ومتماثلة، هذا لا يعني بالضرورة أن تنتهيَ في وقت واحد وفي المكان نفسه.

4

أخيرًا، وفي منتصف ليلة ربيعية لطيفة، أصبح حُلم هروب بروانة حقيقة. قبل ذلك، ومنذ أسبوع، لا تنام الليل، فجأة غزا أرقٌ وخوفٌ شديدان كلّ حياتها. قبلها بأيام عدَّة قالت لي: «خندان الصغيرة، تعالَي معي اليوم لنذهبَ وننهيَ كلَّ هذه العذابات ونقطعَ دابرَ كلِّ شيء». سبق لي أن التقيت فريدون ملك عدّة مرات تحت جنح الظلام أو في قلب ضباب أصباح باكرة، لكن دون أن أتحدّث إليه، كان يعمل حينئذٍ في مخبز كبير. في شارع ضيّق، دخلنا أنا وبروانة عبر باب بيت قديم ثم اجتزنا ممرًّا يؤدّي إلى فناء يضجُّ بأصوات البط والديكة، إلى أن وصلنا غرفة وجلسنا على مقعد مهترئ مكسور. من غرفة في الطرف الآخر من البيت مفتوحة على مخبز، دخل فريدون ملك بثيابه الملطّخة بالطحين. أخذ بروانة بين ذراعيه واحتضنها، بدا أنّه رجلٌ محترمٌ، في عينَيه سحرٌ وجاذبيةٌ خفيفةٌ، لم يكن يختلف كثيرًا عن باقي الرجال. لكن وقتئذٍ ووسط ذلك الغبار الأبيض المتطاير من حوله، لاحظت في نظراته خوفًا جليًّا. ذلك مع بداية فصل القتل والرعب الذي بدأت الدولة تمارسه بصورة موسعة ودموية. أفقنا في الصباح فوجدنا الشوارع مملوءة بالدماء، زجاجًا مكسورًا وآثار حرائق. في الليلة الفائتة، قامت الشرطة برجم شابّين من أصدقاء فريدون. نعيش زمنًا عصيبًا، دائمًا نعيش في خوفٍ دون وجود سبب مباشر لذلك. حتى أنا كنت أرتعد من الخوف، مع العلم أنّه لم يكن لدي ما يجعلني أخاف. مع حالة الذعر والهلع تلك، ظلّ نصرالدين المعطّر، وإلى يومنا هذا، مستغربًا يتساءل كيف عاش فريدون ملك تلك الفترة

العاصفة بالأحداث الرهيبة، ولم يتطرّق بحرف واحد إلى السياسة ولا إلى النضال! أمنيته الوحيدة الرحيل عن تلك الأرض. كان يقول: «سوى عالم الفراشات الرائع، والبحر اللا نهائي من الجمال، فأنا متحرّر من كل ألم وأمنيةٍ وخيالٍ آخرَ». أتذكّره بثيابه المغبّرة بالطحين وهو يتحرّك في الصالة بيأس، حينها رفع يديه وقال: «صديقايَ لم يكونا سوى مغنّيين ثَمِلَين». في تلك الليلة، قعدت على مقعد، وبدأت أراقب بخجل الحبيبين الذين لم يكونا يشعران بوجودي. حين تحدّث فريدون عن رفاقه، طالبته بروانة من فورها بالرحيل: «إنّ اليوم الذي سيتمكّنون منك ويقومون بقتلك أنت أيضًا هو يوم قريب، يحدِّثني قلبي بذلك. تأكّد يا فريدون، سأبقى معك إلى الأبد». رفع فريدون رأسه وقال: «ليس بإمكان أحدٍ أن يبقى معي إلى النهاية، كلّ شيء واضح أمام عيني، أرى أنني سأبقى وحيدًا». كرّر فريدون هذه الجملة في تلك الليلة عدّة مرات، وفي كلّ مرّة، ترمقه بروانة متجاهلة ما قال. تغيّر، في كلّ مرة، مسار الحديث بطريقة ذكية، تنظر في اتجاه آخر، تشغل نفسها بأمور أخرى. حين غادرنا وتركنا فريدون خلفنا، كاد الحزن أن يقضي على بروانة. ظلّت أسبوعًا كاملًا وهي تعاني في حالة كآبة وحزن. لكنّني كنتُ قد تعوّدتُ على أسابيعها وشهورها وسنواتها المتكرّرة التي تمضيها تعاني الانتظار والحزن، لذا لم يكن لي أن أتوقّع حدوث أمرٍ جَلَل.

لم يكن الأسبوع قد انتهى حين تسلَّم فريدون ملك عن طريق سائق عجوز رسالةً من نصرالدين الكائن في قرية نائية. الرسالة التي قلبت حياتنا رأسًا على عقب. الآن، يعدُّ نصرالدين أن تلك الرسالة

بداية جميع أخطائه، لكنه اعتقد حينها أنه يُنقذ زميله من كارثة ومن حبٍّ، بل من جحيم. أمّا اليوم، فهو يشعر بخجل وحرج شديدَين عندما يتذكّر تلك الأيام. حين عثرنا على تلك الرسالة بين مجموعة كبيرة من رسائل فريدون القديمة، قال المعطّر حينها بندم شديد: «كلُّ شيء بدأ من هذه الرسالة، حين قمتُ بكتابتها في ليلة ربيعية تحت خيمة للبيشمركة في الجبال القارسة. اعتقدتُ يومئذٍ وبسذاجة أنني أنقذ عاشقًا».

في ليلة من ليالي الربيع الرائعة، فريدون وبروانة قرّرا الرحيل. حزمت بروانة، كالعادة، حقائبها. أردت أن أقدّم لها شيئًا... أن أفعلَ شيئًا لأجل الفتاة التي عاشت معي كظلّي، ظلٌّ لطيفٍ يتحرّك في أرجاء البيت. كانت متاعب العيش بين الجدران تجعلُها تكره حتّى رائحة الطعام الذي تعدّه كلّ يوم لوالدها وأخوتها. منذ وقتٍ طويل، لم تجلس إلى المائدة، تلك المائدة التي كنّا نجتمع أنا ووالديّ وأخوتي حولها دون أن ينظرَ أحدنا إلى الآخر أثناء تناول الطعام، أمّا هي، فكانت تنزوي وحيدة، بعيدًا عنّا جميعًا، حتّى عن أمي أيضًا. أمّي التي تتخذ زاويتها وتنثر، كحيوان مفترس ومعزول، فتات الطعام من حولها، ترمقنا بنظراتٍ حاقدة وهي تصرخ وتصدر أصواتَ احتجاج.

جهّزت بروانة حقيبتها في تلك الليلة، وقالت: «هذه المرّة سأرحل فعلًا». كانت ليلةً أكثر صفاءً وهدوءًا من أيّ ليلة أخرى. تغطُّ حديقتنا في نوم عميق أكثر من أيّ وقت مضى، والجدران صامتة كما لم تكن من قبل. يُحدث شخير الأب والأخوة اهتزازًا خفيفًا في هواء الغرفة الخانق، ما عدا ذلك كلّ شيء يلفّه صمتٌ وسباتٌ وحالةُ إغفاءٍ

عميقة. ربّما هو انعكاس للقطيعة بين بروانة وكل ما حولها، قطيعة بين بروانة وهذا البيت، بينها وبين الغرفة والسياج والصالون والحديقة! تجمع حاجياتها بأسًى شديد مردّدة: «الفراشات ليست ملكًا لأيّ مكان...». حتّى أمي لم تشعر بحركة بروانة ولم تستيقظ من النوم. بقيت طوال تلك الليلة متعلقةً حذاءها، تجوب البيت ذهابًا وإيابًا، تخرج إلى الشرفة لتلقي نظرة إلى الشوارع الغافية، إذ على فريدون الحضور فجرًا بسيّارة أحد أصدقائه ليصحبها ويتّجه بها إلى المجهول.

يلفّ -عامّة- هدوءٌ وصمتُ الليلَ، سوى أصواتِ سيّاراتِ شحنٍ عسكريةٍ تمرّ من حين إلى آخر، أو عواء كلب شارد، أو سقوط شهابٍ يكسر ذلك السكون. خُيّل لي أنّ كلّ شيءٍ غافٍ، السماء، الرب، حتّى الأشياء الصغيرة نائمة. أصابني شكٌّ حول حقيقة كوني أنا الأخرى نائمة أم يقظة؟ كنت أتخذ في عتمة الغرفة مقعدًا متلبسة بالقلق والخوف، وهي تراقب من الشرفة الشارع بأنواره الخافتة والغريبة. مع أنّ الطقس لطيف، لكنني شعرت ببرد قاتل يسري في جسدي. صوتٌ خفيٌّ من داخلي يقول: «لن تمرَّ بسلام». مصيبةُ بروانة الكبيرة أنّها تجهل كيف يسير العالم من حولها. من حين لآخر تنظر إلى ساعتها، فتضفي على نظرتها ابتسامة خفية، ابتسامة مرارة وسحر. أحسستُ أنّها هي الأخرى تشعر بالبرد، لكنّ الطقس لطيف، لا أعرف لماذا خيّم كل ذاك السكون الثقيل، الصمت العميق لأصص الزهور، والرؤى المخيفة اللا محدودة لزهور الحديقة. ارتدت بروانة قميصًا أسود وتنّورة رماديةً وشعرها مربوط من الخلف بشريطة بيضاء رفيعة. في كلّ مرة تلقي نظرة إلى الخارج، ثم تعود لتدخل الغرفة

قائلة: «أنا متأكّدة أنّه سيأتي، ما زال الوقتُ مبكّرًا، أليس كذلك؟». وتعانقني في كلّ مرة بلطفٍ وتقول: «عديني أن تكوني عاقلة، عديني إذا ما أرسلت إليك الرسائلَ أن تردي عليها، عديني أن تنقلي لي أخبار صديقاتي، عديني إذا متّ ألّا تنسيني». هززتُ رأسي في صمت وقلتُ بقلب يفيض حزنًا: «أعدك... هذا وعد». أيقنتُ أنّها ذاهبة هذه المرة، وأيقنتُ أنّ الأشياء من حولها سوف تغضّ النظر عنها لكي تغادر. يغضّ الأب النظر عنها، والنجوم تظهر، كما كلّ ليلة، بطريقة طبيعية وهادئة، وتتظاهر الحديقة بالنوم لتغطّي على رحيلها، يرغب الجميع أن تحلّق بخفّةِ فراشةٍ وتطير من الحديقة دون أن تؤثر في وحدة الكون. لكن، قلت في نفسي: «لا يمكننا أن ننظرَ إلى الإنسان كما ننظر إلى الفراشة، لا يمكن». في تلك الأثناء دخلت إلى الغرفة ورمقتني بابتسامة غريبة، كما لو قرأت كلَّ ما دار في خاطري من يأس ومخاوف: «خندان، لا تنسيني، لا تنسي بروانة، اعلمي... بأنني بروانة... بروانة». هكذا تجيبني دومًا، في الوقت الذي يبدو كل شيء لي مثل لغز، تجيب بهذه العبارة الساحرة. حتّى في موتها أيضًا، أجابتني بالعبارة ذاتها التي يلفّها الغموض والإثارة، بأسلوب أفقدني القدرة على التمييز بين حدود الإنسان وحدود الفراشات في حياتها، وقدرها، وكيف اختلطت تلك الحدود. نظرت إليّ وقالت: «بم تفكرين؟»، قلت: «أفكّر في أصباح الشتاء حين احتسينا الشاي معًا على عَجَل ثم نذهب إلى المدرسة، وفكرت بذلك العمر الذي عشناه معًا، وفي أحاديثك المضحكة مع زميلاتك في المدرسة»، ضحكتْ حينها وهي تضع رأسها بين كفّيها وقالت: «خندان، كم أنت طفلة، أنت فعلًا مثل الأطفال».

بزغ الفجر، وظهر فريدون فجأة في الساحة. نظرت بروانة إلى حقيبتها الصغيرة ثم إلى فريدون ووقفت مشوّشة تكاد تنسى أن تودّعني. لم أشعر أنّها سعيدة جدًّا، فقط تلمّست رغبتها الشديدة في الرحيل. لم تكن القضية قضية سعادة أو حرية فقط، بل كانت كالارتماء إلى داخل حلم. في ذلك الفجر، اتخذ فريدون هيئةً غريبة، هيئةَ سائح حقيقي. حملت معها حقيبتها إلى الباب، لم يستيقظ أحد، لم يقل لهًا أحدٌ، لا تذهبي يا بروانة، قبّلتها بصمت وبكيت. قالت: «كان عليّ أن أرحل، لا بدّ من الرحيل». نظرَت إلى الحديقة بهدوء، مدّت يدها نحو المنزل وقالت: «إنّه الجحيم...». أنا متأكّدة أنّها أرادت قولَ شيء آخرَ، أنا متأكّدة أنّها أرادت تحرير عدّة كلمات مخنوقة في روحها، لكنّ الوقت لم يسعفها... رحلت ولم تقل شيئًا آخر.

5

المدينة هي شكل من أشكال الحصار. لذلك الخروج من أيّ مدينة في العالم ليس سهلًا. في اليوم التالي عندما وصلتني رسالة من بروانة، قبل أن أفتحها أدركت أنّها لا تزال في المدينة، وأنها لم تتمكّن من كسر هذا الحصار بعدُ. كنت أعلم أنّ اختراق الحصار الذي فرضته الحكومة على المدن وتجاوزه لم يكن بالأمر الهيّن. كانت قد كتبت على قصاصة ورق صغيرة: «خندان الصغيرة، لا تخافي؛ فأنا مازلت هنا. في الأيام القادمة سوف نحاول العبور». منذ الصباح الباكر وأنا أشعر بوجودها كأنّها لم تغادر بعدُ، كنت أتلمّس وجودَها بين الورود وأحسّ بها بقرب مزهريّتي، وفي لحظة وقوفي أمام النافذة ومع هبوب نسمات رقيقة، كنت أراها في تلك النسمات، في لون السماء وفي أشعة الشمس، لم أعرف كيف لهذا الإحساس أن يُخلق، لكن كنت على يقين أن الأمر له علاقة وثيقة ببروانة. الشعور بقرب بروانة منّي، والذي ظلّ يرافقني، أعطاني القوة والجَلَد على العيش. حتى بعد موت بروانة، عشت سنواتٍ وأشهرًا منكسرةً، بلا حُلم... واليوم عندما اقتربُ من هذه القصّة من جديد، تتولّد لديّ رغبة في إحياء بروانة إلى الأبد لكي استلهم منها حياة أخرى.

يومها، وحتّى حلول المساء، لم يعلم أحد في البيت برحيل بروانة. أبي كعادته كان في سوق الصاغة، مشغولًا بصيغته من أساورَ وخواتمَ وسلاسلَ، أمّا أخوتي، فمنذُ الصباح الباكر بدّلوا ثيابَهم وخرجوا من البيت دون أن يسأل أحد عن بروانة. عند عودتهم في

المساء، أول من سأل عنها كان والدي: «أين بروانة؟» أجبت: «لم أرها اليوم. استيقظت صباحًا لم أجدها في فراشها، ولم أشاهدها بعد ذلك». حينها بدأ أبي بالصراخ والبكاء وصبّ جامَّ غضبه على كلّ شيءٍ في البيت، حطّم الأبواب والنوافذ، كسر كلّ قطع التحف وكلّ ما طالته يده. أخوتي جرّوني من شعري إلى القبو، سحبوني على الدرج وانهالوا عليّ بالضرب والإهانة مثل المجانين. بقيت آثار دمائي على جدران القبو سنوات عدّة بعدها، الدماء النازفة من يديّ اللتين حاولت أن أحتميَ بهما، والدماء النازفة من أسناني المحطّمة والتي لطّخت الصناديق والأكياس والفرش القديمة المرمية في القبو بصورة فوضوية. حتى الآن، كلّما دخلت إلى ذلك القبو، أسمع دويّ صراخي، تكاد أذناي تسمع تلك الصرخات اليائسة المدوّية مهزومة بسقفٍ صدئ لتاريخ المنزل القديم، تاريخ كُتبَ بالصمت وتفكّك بانهيار حياتنا. كان والدي وأخوتي مستمرين في ضربي وهم يسألون: «إلى أين ذهبت؟»، كان بكاء والدي هو الأمر الأكثر إثارةً في حياتنا، فكلّما تعرّض لموقف أو مشكلة مؤثّرة، لم يكن يفعل شيئًا سوى البكاء واللطم وتكسير الأشياء من حوله. بقبّعته الموشومة بالعديد من الرسومات، كان يروح ويجيء في الغرفة دون أن يهدأ للحظة، مستمرًّا في البكاء واللطم على رأسه، حالته المتوتّرة تلك جرّاء ضرب رأسه بالجدران، كانت تثير أخوتي أكثر فينهالون بركل الكراسي والطاولات من حولهم، ولَكْم الجدران بقبضاتهم، لكن لم يكن لكلّ ذلك أن يشفيَ غليله ويهدّئ مَن روعه. إنه يصبّ جام غضبه والحقد المالئ روحه على جسده. أحيانًا كان يخرج في الصباح الباكر بمنامته وقبّعته، إلى حديقة المنزل ويبدأ دون سببٍ مباشرٍ بصفع وجهه

وصدره. لم أشعر يومًا أنّه يكنّ لنا أيّ حبّ، كثيرًا ما كنت أشفق على حاله من الوَحدة التي يعيشها. طوال حياته لم يحظَ بصديق حقيقي. عانى من الوَحدة مدّة طويلة، كان يجول الشوارع والأسواق متحسّرًا، منكسرًا لا يجد من يلقي عليه بالتحية. إلى أن تدخّلت عمّتي، أخته المتصوّفة، التي كانت تعمل خفية وبصورة سرية بتسيير مجموعة من النساء المتديّنات في المدينة، وتوجّههنّ نحو الرجال من روّاد المساجد. الآن صار لدى والدي بعض الأصدقاء الصغار في عالم المساجد المزدحمة، حيث يصغي الجميع وهم مطأطئي الرأس، بخجل وخوف، يهزّون رؤوسهم تأكيدًا بعضهم لبعض. كان يخرج كلَّ ليلة منتعلًا مشّايته البلاستيكية، ليسير تحت ضوء القمر وتحت المطر وفي الجوّ العاصف، يخرج ويتحدّث مع القلّة من أصدقائه. كان يعود إلى البيت أحيانًا وقد ابتلّ تمامًا بالمطر وهو يرتجف من البرد، لكن لم يكن يبالي بكلّ ذلك. أمّا في هذه الليلة، فقد حدث ما كان دومًا يخشى منه، اليوم وقد جلب له اختفاء بروانة العار، عارًا طالما كان يخشاه، عارًا أعاده من جديد إلى حياة الوَحدة والعزلة القديمة والتي عانى منها كثيرًا.

لا بدّ أن أؤكّد أنّه أثناء سنوات عديدة لم يهتمّ أحد بحياة بروانة، تلك الحياة الغريبة والبائسة. كانت تبقى كطيفٍ صامتٍ يقتصرُ عملُها على تنظيف باحة الدار والجدران والسجاد، تقوم بإعداد موائد الطعام التي لم تكن تجلس إليها، تنظّف الغرف التي تمتلئ زواياها بروائح العفن وتزيل عنها تلك الروائح. لم يلاحظ أحد، ردحًا طويلًا، كيف تتحوّل حياة بروانة يومًا بعد يوم إلى رماد، إلى مسحوق دقيق، أو

دقائق مثل التراب الذي يقوم النمل بجمعه، والذي كنتُ ألاحظه منذ سنوات على فراشها وبالقرب من الزهور التي تقوم بسقايتها، نعم كنت أرى ذلك الرماد... لكنّي لم أتحدّث عنه قطّ ولم أسألها يومًا، ما كل هذا التراب المنثور من حولك؟ ويدورها هي أيضًا لم تتطرّق يومًا للحديث عنه. كانت تعتقد أنّ المسحوق الدقيق إنّما يعبّر عن حياتها. الأشياء التي تستحيل إلى رماد إنّما هي ساعاتٌ عمرُها المهدور، لذلك كانت تبحث عن أسلوب حياة آخر... ولأجل ذاك الحُلم، كانت تتمنّى أن تحطّم السور الحديديّ للمدينة والتي أسمتها مدينةَ الدم، مدينةَ الدين والغبار والرماد.

منذ ذلك المساء، حين افتضح أمر هروب بروانة مع فريدون ملك، تغيّر كلّ شيء في حياتي. تلك الليلة، وبعد أن يئس أخوتي من شدّة ضربي، تركوني مدمَّاة أعاني العذاب وحيدة في قبو مزدحم بالمهملات، من أسرّة قديمة وكراسي مكسورة. بقيت وقتًا طويلًا أتأرجح بين الوعي واللاوعيّ... بين تصوّرات وأوهام سوداء. تراءت لي بروانة وهي على حصان مدمّى يطير نحو سماء من حديد... أو نائمة وسط بستان محترق تتساقط فيه أشياء وسط الدخان، إلى أن تختفيَ بروانة عن الرؤية. كلّما استعدتُ وعيي قليلًا، أدركت أنّ كلَّ هذا مجرد أضغاث أحلام وهواجس، وخيالات تراودني نتيجة حالة الإغماء والألم التي أعاني منها. علمتُ أنّ أبي، بعد يأس وفقدان الحيلة، لجأ في منتصف الليل إلى أخته الشيخة وطلب منها المساعدة في البحث عن بروانة. توجّه في الظلام إلى بيت أخته وطرق عليها الباب ورفع يدَيه متوسّلًا: «أنقذيني... أنقذيني يا أختاه ممّا أصابني،

بأيّ وسيلةٍ كانت، باللجوء إلى الشيطان أو بالاستعانة بقدرة الله، أنجديني من هذه الكارثة». أجابت عمّتي بصوتٍ أقربَ إلى الهمس: «كنتُ أعلمُ أنَّ الشيطان سيسرح ويمرح في بيتك يومًا ما... كنت أعلم أنّ الأوضاع ستُقلَبُ رأسًا على عقب وأنّ تلك الفتاةَ سوف تقودنا جميعًا إلى الجحيم والخراب والكفر». اجتمعت نساء يحملنَ الدفوف، نسوةٌ كنّ رَهنُ أمر عمّتي التي تستدعيهنَّ وتجمعهنَّ حتّى في أحلكِ الليالي وأكثرها رعبًا، خرجن كسرب طيور صامتة، دخلن في قلب الظلام بهدوء ورويّة، وجلنَ شوارع المدينةَ وطرقنَ أبواب المنازل بابًا بابًا، اقتربن من بعضهنّ حاملاتِ الدفوفَ. كنّ فئاتٍ عدّة من النساء، نساءِ طويلاتِ القامة وسمراواتٍ ونساءٍ صغيرات مريضات ونساء هزيلات شاحبات اللون وأخريات مكتنزات الجسم. كان الوقت متأخّرًا جدًا حين نزلن مع عمّتي إلى القبو وأحطن بيّ على صورة حَلقَة.

لم يسبق لي أن رأيت مشهدًا كذاك المشهد، لم أعش يومًا هذه الطقوس، كانت تتراءى لي كلّ الوجوه أطولَ وأنحفَ ممّا هي عليه في الحقيقة، والأصوات بدت أبعدَ وأخفضَ والألوان كانت تبدو باهتة. بدأن أولًا بتلاوة بعض الآيات القرآنية، ثم رأيت عمّتي بقامتها الطويلة والممتلئة، بشعرها الأسود الطويل والمجعّد، تقترب منّي بهدوء وهي تقول: «أين بروانة؟ أين ذهبت بروانة؟ أين تلك الشيطانة الزانية؟».

قرّرت ألّا أبوحَ بأيّ كلمة، كنت أعرف بأنّهم سوف يقومون بقتلها بمجرّد العثور عليها. أعلم أن مصير بروانة الآن في يدي. في تلك اللحظة وبالترافق مع الألم والعذاب اللذَين أعانيهما، شعرت بلذّةٍ

غريبةٍ تسري في جسدي. أنا سعيدة لارتباط مصيري بمصيرها. كنَّ يدرنَ من حولي وهنّ يرددن آيات قرآنية، لم أخف، لكنّي كنتُ أعلمُ أنّ هؤلاء النسوةَ يمتلكنَ شبكةً شيطانيةً تمتدُّ إلى كلّ حيّ في المدينة، وأنّ لديهنّ أعينًا في كلّ زاويةٍ وشارع فيها. حدّثنني أثناء ساعات عدّة عن فظاعة الذنب الذي ارتكبته بروانة، عن غضب السماء التي تكادُ تطبق فوقنا من هول ما حدث، وعن جحيم الرعب الذي تكاد كلّ بقعة من الأرض تلفظه، كما حدثنني عن سقوط نجم يجلبُ الكوارث والمصائب فتُغرق الأرض. لكنّني أمام كلّ تلك الأحاديث والأقاويل لم أتفوّه بكلمة واحدة، فقط اكتفيت بالبكاء وأنا أضغط بيدي على الجرح النازف من شفتَي. لم أحاول أن أستجديهنّ ولا حتّى أن أثور في وجوههنّ، إنّما كنت أراقبهنّ من وراء ستارة عالم آخر. كانت نظراتي تائهة، تتراءى أمام عيني فقط ظلالهنّ، وأشمُّ روائحهنّ القاتلة، روائحَ الليل والبخور والدماء. ثم وبعد ساعات عدّة، غادرن البيت مع دفوفهنّ.

طبعًا كان من الواضح أنهنّ ستتكفلنَ بنشر خبر هروب بروانة في المدينة كلِّها. أعلم أنهنّ لن يهدأنَ في البحث في أرجاء هذه المملكة حتى يعثرن عليها.

في اليوم التالي وبعد قضاء ليلة طويلة مع الكوابيس، وبعد الإنصات ساعات طويلة إلى صمت رهيب خيّم بأجنحته على البيت، في وقت متأخّر من الليل، صعدتُ السلالم مدمّاة، حاملة جروحي وآلامي، كان البيت فارغًا تمامًا. كلّ شيء يوحي بالسكون. جلست ليلتها على فراش بروانة، شعرت بفراغ أكبر، فراغٍ بدأ يتّسع من

حولي ويبتلعني أكثر. مسحت الدموع والدماء المنهمرة على خدّي وشفاهي. في الحقيقة لم يكن هدوءًا حتّى النهاية، بل سيطر عليَّ خوفٌ شديد من قادم الأيام. تبيّن لي سريعًا أن خوفي هذا ليس مجرد أوهام وتوجّس فتاة جبانة. كنت أسمع في أعماقي صوتًا خفيًّا يقول بأنّ أولئك النسوة لن يتركن بروانة، مهما بعدن فسوف يرجعن من جديد. طالما عشت هذه التجربة مع عمّتي. فقد كانت دومًا، وبصورة مفاجئة، تختفي ومن ثَم تظهر -أيضًا- بصورة مفاجئة، وفي كلّ مرة كنتُ أقعُ في حيرة كبيرة.

لا... لم أحسب لتلك الليلة الممطرة والمرعبة، لكنّ كلَّ شيء حدث بسرعة غيرِ متوقّعة. قبل الغروب بقليلٍ وبصورة مفاجئة، ظهرت نسوة الدفوف. دون أيّ استئذانٍ انتشرنَ في أرجاء البيت، دخلنَ الصالة والغرف والشرفة كما لو كان البيتُ بيتَهنّ. ازداد عددُهنّ. كنت قد التصقت بحائط بجانب أصص الورد دون أن أعرف ما الآتي؟ تُرى هل نجت بروانة منهنّ؟ أم ما زالت موجودة في المدينة؟

تمرّ النّسوة وبأيدهنّ الدفوف من أمامي دون أن يلتفتن إليّ. كنت واقفة بجانب أصيص ورود ذابلة. لم يرني أحدٌ. لكن لم أعرف تمامًا إن كنّ يتجاهلنني أم أنّهن حقًّا لم يلاحظنَ وجودي. وسط تلك الفوضى التي سرعان ما ملأت البيت، ظهر أبي، ثم أخي، وانضمّا إلى النّسوة وهنّ يبخّرن الغرف والممرّات بروائح عالم مجهول وخفي. بهدوء وكمخلوقٍ غيرِ مرئي، كنت أتبعهم، الجميع كان يبدو عليه السخط والاستياء. رأيت أخوتي كيف أخرجوا خناجرهم المخبّئة منذ زمن في صرّة ملابسهم. رؤية الخناجر كانت كافيةً لكي أدرك أنّهم

يريدون قتل بروانة.

كما لو أصابني مسٌّ من الجنون، ركضت من بين حشود النساء نحو الشرفة مقاومةً رغبةَ البكاء. شاهدت، من الشرفة، عددًا كبيرًا من الناس مجتمعين، أناسٌ لم يسبق لي أن رأيتهم. مئات الأشخاص الغرباء يقفون أمام منزلنا بانتظار حدوث شيءٍ ما. سمعت صوت عمّتي وهي تسأل: «أين تلك الطفلة؟ هل رأى أحدكم الطفلة؟»، حينها حاولت أن أحتميَ أكثرَ بزاوية الشرفة، لم أرغب بالخروج من هناك. قالت عمّتي لأخوتي: «تلك العاهرة موجودة في المخبز... إنّها تختبئ في المخبز بين أكياس القمح والطحين». سمعتها تخبر أبي: «جميع رجال الدين، الشيوخ، الدراويش... الصالحون... الجميع يفتون بضرورة غسل هذا العار». رأيت وجه والدي المتعب والكهل كيف ازداد حزنًا وكآبة تحت تأثير كلمات عمّتي. عادت إلى الأخوات ضاربات الدفوف. أثناء لحظات قليلة، دبّت حركة غريبة في البيت كلّه، لم أستطع أن أميّزَ ما يجري من هرج ومرج. ظلّت تصرخ: «أين هي تلك الطفلة؟» حاولت أن أختبئ في مكان ما، لكن سرعان ما التقطنني ورفعنني كما لو كنت دفًا بأيديهنّ.

سمعتُها جيّدًا، كان صوتها يعلو فوق ذلك الصخب في أجواء مشحونة بالخوف والتوتّر وهي تقول: «بدّلوا ثياب تلك الطفلة». حملتني إحداهنّ بسرعة بينما امتدّت عشرات الأيدي نحو وجهي. لم أميّز ملامحهنّ جيدًا، فقط شعرت بحركات أصابعهنّ وأظافرهنّ. كانت تتناوب عليّ الأيدي وتتبدّل الأصوات، لكنّها ظلّت تنادي: «هاتوها... هاتوها». إلى أن وجدت نفسي في غرفة معها، هي وثلاث

نسوة من حاملات الدفوف. أغلقن الباب بسرعة. أنزلن الستائر. وقفن أمامي. أمرت عمّتي: «ألبسوها ثوبًا أسودَ اللون»، وبسرعة فائقة نزعن عنّي ثيابي حتّى بدوتُ عاريةً تمامًا، عاريةً كعصفورٍ عليل وخائف. حاولت أن أغطّيَ جسدي بغطاءٍ أبيضَ لكنّهنَّ منعنني إلى أن ألبسوني ثوبًا أسودَ، لم أتحرّك كما لو كنتُ دميةً من خشب، لم أتفوّه بشيء. كنت أحدّق في عينيّ عمّتي التي جرّتني وسط الصخب بنظرة باردة... جرّتني نحو الباب حيث يقف والدي وأخوتي مع خناجرهم. والنسوة تنتظرنَ حاملاتِ تلك الدفوف الكبيرة. تجمّعت حشود الناس على أصوات صراخهنّ ولعناتهنّ. وكان صوت عمّتي يعلو محرّضةً أبي وأخوتي: «فليكن الله معكم... الملائكة معكم، الصحابة والصالحون من البشر معكم». كان الناس يفتحون أبواب منازلهم يتفرّجون على عائلة وهي تختفي خلفَ قافلةِ الانتقام، القافلةِ التي سوف تستردُّ شرفَها. يشاهدون النسوة وهنّ يردّدن: «لا إله إلا الله». وعبارات الذّكر. يراقبون الأطفال وقد جاؤوا ليسدّوا كلَّ المنافذ التي ربّما يهرب عبرها العاشقان. في ذلك الحين لم أكن أستوعب ما يحصل، فقط كنت أتساءل: «ماذا يجري؟» ولم يجبني أحد. كان عليّ أن أتقدّم تلك القافلة. وقف أخوتي بخناجرهم المنزوعة من غُمدها وهم يحيطون بيّ صامتين. كنت أنظر إلى السماء تارةً وإلى الأرض تارةً متسائلة إلى أين؟ كان والدي يدفعني ويقول: تقدّمي! فأرمقه بنظرة وأنا أتفقّد وجوه أولئك الشبان المنكوبين في أرتال، كصفوف العسكر وهم يتأمّلون أن يجدوا بروانة ميتة. كنت أرى أولئك العشّاق القدامى وهم يتقدّمون ليشهدوا على مصير فتاة أحبّوها يومًا. شعرت برهةً أنّ البلدةَ كلّها تسير خلفنا، وأنّ جميع سكّانها استيقظوا وخرجوا على

صراخ النسوة وأصوات دفوفهنّ. ارتفعت أصواتٌ تنادي عبر مآذن المساجد، ومن فوق الأبنية المرتفعة. بينما كنّا نتدفّق باندفاع في أحياء المدينة، نعبر الشوارع والأزقّة الضيّقة. بدأت تُفتح نوافذ موصدة منذ عشرات السنين، تلك الستائر المسدولة منذ أعوام، رُفعت. وبدأت تطلّ وجوهٌ كَهلَةٌ منهكةٌ وغاضبةٌ من كل منفذ مناديةً: «اعثروا عليهما». سمعتهن جيدًا تلك النساء المسنّات اللائي فقدن أسنانهنّ منذ خمسين سنة وهنّ يرددن بشفاههن المبلّلة «أوجِدوهما». رجال كهول كانوا يلوحون بعكاكيزهم في الهواء وهم يطُلُّون من خلف الأبواب وفي فمهم غلايينهم الهامدة. في كلّ شارع نَمُرُّ به كان يلتحق بصفوفهنّ شابٌّ بيده خنجرٌ ومعه فتاة محجّبة. عَندما اقتربنا من المخبز، قامت نساء الدفوف بتشكيل حلقة حوله بينما انهال الأب والأخوة ومعهم عشرات الأشخاص، لم يسبق لي أن رأيتهم، واندفعوا إلى داخل المخبز رافعين خناجرهم. كنت أتصوّر خريطة المخبز وأتخيّل كيف سيذهبون أولًا نحو بيت النار، ثمّ إلى غرفة العجن، وكذلك سيمرّون بين أكياس الطحين. من هناك، سيدخلون صالة المنزل الخلفي حيث سيجدونهما وسوف يقومون بجرهما إلى الخارج، وهناك تحت شجرة من أشجار الحيّ وسط الصخب والعويل، سيقومون بذبحهما. مشهد بروانة وهي مقطوعة الرأس، صورتها وهي مقتولة كادت تقضي عليّ. لم أكن أتمنّى رؤية هذه المشاهد لكنّني رأيتها قسرًا. كانت دمدمة الدفوف ترتفع شيئًا فشيئًا، وكذلك أصوات تكبيرات العجائز. في زحمة تهافتهم نحو المخبز وخروجهم منه، كانت صورة بروانة هي المشهد الوحيد الذي يتراءى لي. لم أر سوى عينيّ بروانة المتعبتين. نظرتُ حولي وشعرت وهلةً بتباطؤ نقر ضاربات الدفوف،

وكذلك خفتُ أصوات ابتهالات النّسوة قليلًا. سمعت صوتًا يهمس في أذني: «خندان، خندان الصغيرة، لا تخافي». التفت من حولي لأرى مصدر الهمس لكنني لم أجد أحدًا. في تلك اللحظة، خرج والدي منكسرًا، حزينًا وهو يقول: « لقد فرّا. لا أحد هنا». تلاه صوت يقول: «هناك من حذّرهم، هناك من أخبرهم بقدومنا، هناك من هبّ لإنقاذ الزانيين». صمت الرجال المنتشون والنساء الفاقدات الوعيّ، وكذلك توقّف صوت الدّفوف. خيّم صمتٌ مفاجئٌ على الحيّ كلّه. شعرت بهدوء يلفُّ كلَّ شيء من حولي. حتّى السماء جابها السكون. كانت عمّتي ترمقني وهي واقفة بين حاملات الدفوف. ارتفع صوتٌ يقول: «لا تيأسوا، لا بدّ أن نعثر عليهما اليوم». عادت النّسوة من جديد إلى العويل والابتهال إلى الله والاستنجاد بالأنبياء وإلى قرع الدّفوف. بينما كنت واقفة بينهنّ بثوبي الأسود لا أعرف ما الذي ينوينَ فعلَه. لا... كنت في قرارة نفسي سعيدة. متأكدة أنّ الشخص الذي همس لي: «لا تخافي يا خندان»، هو الذي أنقذ بروانة. ولكن من صاحب الصوت؟ لا أعرف.

خيّم الظلام. أعرف أنّ أولئك النسوة لن يستسلمن بسهولة. فجأةً بدأت السماءُ تتلبّد. أمطرت قبل الأوان. صوت حبّات المطر فوق الدّفوف خلق إيقاعًا أكثرَ قوةً وحماسًا. وضعوني في المقدّمة وسطَ طُرق فائضة بمياه الأمطار. كان المطر يتساقط من بين خُصلات شعري ويبلّلني. كنت أمضي وقافلة الكبار تتبعني. التصق ثوبي المبتلُّ بجسدي، وبدأت أتقلّص وأنكمش على نفسي. أول مرّة، شعرتُ بأنّ الثوب واسع ومقاسه أكبر بكثير من مقاسي، لكنّ اندفاعَ الحشود

ودفعَهم لي بسرعة لم يترك لي أيّ فرصة للتفكير، أو حتّى فرصة للنّظر إلى نفسي. كان الرجال الذين ارتفع بهم الشعور بالكرامة إلى أقصى حدّ، يبكون. وآخرون بدؤوا يتقدّمون مثل سيل وسط صوت الأمطار، وأصوات نداءات إلى الإله ووعيد بالانتقام. كان عليَّ أن أبقى في المقدّمة دومًا كرمز لشرف العائلة الذي لا بدّ أن يبقى طاهرًا، كرمزٍ للعفّة. كان عليَّ أنَ أتصدّرَ الجميع. إلى أن وصلنا إلى ساحة جامعَ المدينة الكبير، وصل البللُ إلى عظامنا، وبدأ الظلام يحيك خيوطَه القاتمة. هناك حيث تمضي النسوة أسوأ أوقاتهنّ. المطر، الليل، صور المآذن، كلّها كانت تثير فيهنّ حماسًا غيرَ اعتياديّ. وضعوني أمامهم لكي يصلّوا. رفعتُ رأسي نحو السماء وجدتُها في صورة مخيفة. القرب الشديّد من المآذن أثار في قلبي رهبةً. لم يسبق لي في حياتي أن كنت على هذه المسافة القريبة من المآذن. في باحة الجامع، بدت الظلالُ والوجوه والأصوات أكثر ثقلًا. لم أر في حياتي باحةً واسعةً كهذه. كان يصدرُ رنينٌ فولاذيٌّ من الأشخاص من حولي، وتصدر زقزقة خفيفة من العصافير الموجودة في المسجد. كانت الأسماك الصغيرة في الحوض تبدو مخلوقاتٍ معدنيةً زرقاءَ. بدا وجهُ عمّتي مصباحًا أزرقَ باهتًا. لقد كان باهتًا بصورة مبالغ فيها حين وقفت بين حاملات الدّفوف، وقالت بصوت غطّى على صوت الرعد وقرْع الدفوف وصوت المطر: «استمرُّوا في الصلاة إلى أن نجدَهما. صلّوا لأجل غسل هذا العار». كنّا نقف وأسرابٌ غريبةٌ من مخلوقات غير معروفةٍ، آلافُ الأيادي والعيون والشفاه التي تدفّقت ودخلت فجأةً إلى حياتنا وانتشرت في أنحاء المسجد، تدفّقوا كتيّار مثيرٍ للانتباه، توزّعوا تحت الأعمدة وتحت المآذن ومنهم من احتمى بمظلّة

الدراويش وفي ممرّ بين صالة العزاء وقاعاتِ الصلاة. نادت عمّتي بصوت كما لو أنّه يخرج من حنجرة تلك القباب الضخمة: «اتلوا صلاةَ الطّهارة، وابتهلوا إلى الله أن يساعدَنا لكي نحلّ عقدةَ إبليس المحكمة هذه». مع ندائها، كان بحر من المخلوقات يسجدون معًا في صلاتهم. اقتربت منّي امرأةٌ ذاتُ قامةٍ مائلةٍ ومعوجّة، أمسكت ذراعي بعنف وأخذتني إلى صالة كبيرة. كانت تسيل من جسمي مياه سوداء، حتى ظننتُ أنّ كلَّ سوادِ شعري ينساب مع مياه المطر فوق جسمي. وضعتني المرأة على سجّادة بجانب عمود وأمرتني أن أصلّي. أول مرّة، ومن المصيدة التي وقعت فيها، رفعت رأسي إلى السماء، بدت كما لو أنها مبنية من قرميد حالكِ الزُّرقة، بدت لي منخفضةً وقاتمةً. نظرت إلى أطراف تلك الغيوم القريبة التي انعكس ضوء القمر على بعضها وأضاءها. بخوف شديد، وضعت رأسي على السجّادة في وضعية السجود وأنا أُكمِل صلاتي ولكن صدرَ صوتٌ من أعماقي يقول: «اذهبي يا بروانه، ارحلي إلى مكان لن يتمكّنوا من الوصول إليك». صلّيتُ الليلَ كلَّه، وبعد كلّ صلاة كنتُ أقفُ وأنظر إلى تلك النار المشتعلة خلفَ السحاب من فِعلِ البرق. الآن، بدأ الأشخاص من حولي يرفعون سجّادهم ويقرفصون بين الأعمدة والسلالم. جلس بعضهم في العراء دون أيّ مظلّة تحميهم، كان المطر يتساقط عليهم دونَ توقُّف.

كنت أُغمضُ عينيَّ أثناءَ ترديدِهم كلامًا غيرَ مفهوم كالببغاوات، وأُجبرُ نفسي في محاولة لتجاهل أصوات الرعد، وكذلك أصوات النّسوة وهنّ يتهامسْنَ في أحاديثَ عنّي وعن بروانة. كنت أكره سماع

أصوات المزاريب حيث ترتطمُ مياهُ الأمطارِ مع أنابيب المعدِن فتصدرُ ضجيجًا مزعجًا كما لو أنّه صوتُ تكسيرِ الحديد. تسارعت دقّاتُ قلبي وهو يعتصرُ من الخوف والحيرة حولَ ما سوف يجري. أحيانًا كنت أرفع رأسي متأمّلة المآذن، كانت ترتسم أمامي طيور من ظلال القباب وصدى السحاب وحزن الليل. وأحيانًا أخرى، تبدأ ضاربات الدفوف بضرب دفوفهنَّ فيهيج الدراويش تحت المظلّة في أداءِ حركاتِ رقصتهم. كنت أحيانًا أخبِّئ رأسي بين ركبتيّ وأفكّر في بروانة. كانت عمّتي تتجوّل بين ذاك الحشد حاملةً بيدِها مصباحًا أزرقَ كما كلّ مصابيح تلك الليلة، كانت تتفقَّدُهم واحدًا واحدًا، تنظر إلى وجوه تلكم الفتيات والنّساء المشاركات في حملة الانتقام الظالم هذه، لكي يتطهرنَ من ذنوبٍ ارتكبنَها ولا يعلمُ بها سواهنّ. استمرّت عمّتي في جولتها إلى أن وجدتني بجانب أحد الأعمدة، فوقفت خلفي. كانوا بانتظار شيءٍ ما، بانتظار خبر ما، طال الليل، لا صوتَ ولا أحدَ يتقدّم من باب المسجد نحونا. كان أبي يمشي في الباحة في ذهابٍ وإيابٍ. أمّا أخوتي، فقد وقفوا منذ المساء مصطفّين تحت قُبّةٍ كبيرةٍ زرقاءَ ممسكين بخناجرَهم. لم يتوقّف هطولُ الأمطار وقصفُ البرق والرّعد الذي أبهر السماء في تلك الليلة. كانت بعض الخناجر تُضرب يمينًا وشمالًا في أعمدة وسلالم باحة المسجد، أحيانا تجد أحدهم يضرب بخنجره سلّمًا فيصدر قرقعة يجفل لها الجميع. وفي كلّ مرة يصدر صوت من أحد الشيوخ محذّرًا: «انتبهوا إلى الأعمدة». ظلّت عمّتي واقفةً قُربي حتى الفجر، كما لو كانت تحرس سجينًا. مع أنّ الليل بدأ يمضي إلا أنّ الظلامَ ظلَّ مخيّمًا ولم تظهر أيُّ خيوطٍ للضوء.

عند الفجر، دخلت امرأة فارعة القوام مرتدية ثوبًا أسودَ من باب المسجد. عبرت أمام جمع الرجال بهدوء، وقفت لحظةً تحتَ مظلّة الدراويش ونفضت عباءتها التي بدت أنّها كانت طوال تلك الليلة تحت المطر. ثمّ اتجهت نحونا، طرحت أسئلةً على بعض النسوة من الجمع ثم توجّهت بأسئلتها إلى عمّتي. وقفت خلفي تمامًا وبدأت تهمس إلى عمّتي ببعض الكلمات. لم أتجرّأ حتّى على النظر إليها.

شعرت أنّ السحاب يعانق الأرض، وبعمّتي والنساء الأخريات كيف تسمّرن وهنّ يراقبن السحاب، حتى قامت امرأة ومرّت أمامي وهي تهمس بخبر ما في أذن كلٍّ من ضاربات الدفوف وهنّ بدورهنّ تردّدن: «الشكر للّه». وقفت المرأة تحت المطر وطلبت حضور أبي، الذي بدوره استدعى أخوتي، الذين نادوا بدورهم حاملي الخناجر، وهم نادوا بدورهم أولئك الرجال المنتظرين بين السلالم والمآذنَ. فجأة، ارتفعت من خلفنا أصواتُ الذّكر والتكبير، ومن جديد بدأ قرع الدفوف يعلو. كنت أنكمش على نفسي بصمتٍ على سجّادة الصلاة التي أجلس عليها. بعد أن مضت ثلاثة أيام على هذه الحال دون نوم، تمنّيت الموت. كنت أتمنّى أن يبتلعَني الظلامُ والنسيانُ في تلك الليلَة الماطرة الكئيبة. تقدّم والدي نحوي، ودون أن يسألَني عن شيء ودون أيّ رحمةٍ جرّني على أرض الباحة، تمزّق الجلد عن ركبتيّ، كانت حبّات الحصى الصغيرة تجرح جسدي وتؤلمني. ثم سحبوني كَدُميَة محطّمة تحت المطر في ذلك الفجر الحزين والمخيف.

ارتفعت جلبةٌ من كلّ صوب، حشود غريبة من المخلوقات بدأت تزحف نحو الأبواب بسرعة كبيرة. نزلت مخلوقات مجهولة من تحت

القباب عبر سلالم طويلة جدًّا، فجأةً، ترك أبي يدي، فوجدت نفسي محاطة بعدد من الشيوخ العميان حيث كانوا بدورهم يتبعون الحشد الثائر الذي كان يفيض غضبًا وسِخطًا.

حرّرت نفسي من وسط حلقة أصحاب الجباب والعكاكيز والمناديل الملتفّة وسط تيّار بشري يندفع لعبور الأَبواب إلى الجهة الأخرى. انضممتُ إلى جموع الشحّاذين الذين تجمهروا في ذاك الصباح الباكر البارد أمام الأبواب. كانت تمطر بغزارة، من جديد، شعرت أنّ مياه المطر تغسل كلّ السواد عن شعري فيسيل على جسدي. كدّت أهوي من شدّة لمعان ضوء البرق الذي كان يحجبُ عنّي الرؤيا تمامًا، كما لو أُصبت بالعمى، وسط كلّ تلك الجَلَبَة والمطر والبرق والرعد، سمعتُ صوتًا يهمس إليّ قائلًا: «لا تخافي يا خندان سوف أحرّرهما». صوتٌ مرّ على مسمعي بسرعة ثمّ مضى. نظرت من حولي، لم أجد صاحب الصوت، فقط لمحتُ عكّازته. كان رجلًا بمعطف أسودَ يحمل بيده عكّازة، همس بتلك الكلمات بنبرة غريبة. مرّ بقربي ثم ابتلعَه فيضانُ الظلام والمطر بسرعة قصوى. وقفت وسط الجموع بالقرب من تلك العكاكيز التي تضرب أبواب المسجد بعنف، صرخت بأعلى صوتي: «اذهب، تقدّم، تقدّم نحو الأمام، اذهب...» دون أن أعرف إن كان يسمعني أم لا.

فيما بعد، حين التقينا بصاحب ذلك الصوت الحزين في محلّ بيع العصائر، وشاركناه شرب كأس من الشراب، سألته حينها بحسرة: «هل كنتَ تنصتَ في تلك الليلة إليَّ استغاثتي؟» أجابني: «لم اسمع صوتَك تلك الليلة فحسب، بل ظلّ صراخُك يرِنُّ في مسمعي سنواتٍ عدّة».

لا تزال الصرخة عالقة في حنجرتي عندما جرّني أحدهم من يدي وسحبني من بين تلك الحشود الغفيرة قائلًا: «ابنتي، حاولي أن تتقدّمي معتمدةً على نفسك، أنت بنفسك... إنّ مستقبلَك متوقّف على هذه الليلة». كانت تلك يد الملّا كوثر باخوان، حيث كان له الفضل في شرح الكثير من الأمور فيما يتعلّق بحياتي ومصيري. كانت يداه باردَتين جدًّا، مثل برودة تلك الليلة، بل باردة درجة لا تُقارن بقسوة ذلك الطقس الماطر والعاصف. أُصبت بنوبة سعال مفاجئة أعاقتني عن المشيٍ دون مساعدة واتّكاء على أحدهم. في كلّ وقفةٍ لي، كانت عمّتي تقفُ إلى جانبي وترمُقُني بنظراتها الغريبة. مرة أخرى، تجوّلنا في شوارع المدينة. وأحيَت ضارباتُ الدفوف حفلَ الابتهالات من جديد. مضينًا نتوغّل في قلب الليل أكثر فأكثر إلى أن وصلنا إلى شارع أعرفه جيّدًا، إنه الشارع الذي نسلكه عادة في طريق العودة من المدرَسة. لا تزال رائحة الأشجار والسماء عالقة فيه، تفوح منه رائحة جميع صديقاتي. استغربت: «يا ترى، ما الذي جاء بالقافلة إلى هذا الشارع، الشارع الأجمل في العالم؟». فجأة، وقف الجمع أمام مكتبة لبيع الكتب، رفعت عمّتي يدها مشيرة إلى المكتبة: «هنا... إنّهما هنا... الزانيان يَختَبِئَانِ وسط هذه الكتب الشيطانية». تمّت محاصرةُ المكتبة بسرعة وبطَريقة مثيرة، ارتفعت الأصوات مناديةً: «اخرجا...»، لكن لا جواب. حطّموا أقفال السّور وفتحوا الباب، كان قلبي يخفق بشدّة من الخوف مثل يمامة وسط عاصفة. لاحظت أنّ الجميع يتقدّم نحو باب المكتبة، أحاطوا بالسُّور في مجموعات. أمّا أنا، فوقفت في زاوية من المكان، مخبّئةً وجهي بين كفيَّ، محاولةً سدّ أذنيّ وعينيّ لكي لا أرى أو أسمع أيّ شيء. كنتُ أتمنّى لو أنّ كلّ

ما يجري هو كابوس وأنه سوف ينتهي بمجرّد أن أصحوَ من النوم. لكنَّ الأمور جرت جريًا فظيعًا. سمعت أصواتَ تحطيم واجهات المكتبة الزجاجية. تدافعت الحشود إلى الداخل، إلا أنّهمَ لم يعثروا إلّا على منديل صغير يعود إلى بروانة وزوج قفّازات قديمة تخصّ فريدون. وسط ذلك الهَرج والمَرج، فتحت عينيّ وصرخت: «شكرًا... شكرًا!». لكنّ صورةَ وجوهِهم الغاضبةَ القاسيةَ أثارت في قلبي الرعب، فأعود لإغماض عيني من جديد. بينما أخذت عمّتي المنديل، أخذ شخصٌ غير معروف القفّازات. كان المُلّا كوثر باخوان يهزّ رأسَه ويقول في صوت يشي بالحكمة: «هذا يَدُلُّ على أنّهما هربا كحيوانَين جريحَين... كمسخَين مذنبَين». كان صوته يختنق ويغور وسط بكاء حاملات الدفوف وعويلهنَّ اللائي وضعن الدفوف من أيدهنّ وهجمن على المكتبة، وبدأن بتمزيق الكتب بعد فقدان الأمل في العثور على المطلوبَين. كنّ يحملن مجموعات الكتب من على الرفوف ويبعثرنها، يرمينها تحت المطر، ثم جمعنها في كومة في الشارع. من حين لآخر كان الملّا كوثر يحمل كتابًا ويلوِح به يمينًا ويسارًا ثم يعيد رميَه فوق كومة الكتب، كذلك كان يفعلُ آخرون من الحشد. الأشياء التي لم يستطيعوا إخراجها من المكتبة أحرقوها في الداخل. في لحظاتٍ امتدّت ألسنةُ اللّهب إلى كلّ شيءٍ داخل المكتبة. كنتُ أرقبُ ما يجري من الزاوية التي ركنتُ فيها وَحدتي. شعرتُ فجأةً ببرد يغزوني ورجفان يتملّكني، لكن كنت أراقبُ النيرانَ بيقين وعيونٍ متعبةٍ وروحٍ منكسرةٍ، تلك النيرانُ التي بدأ المؤمنون يتراجعونَ أمامها نحو الخارجَ. حمل بعضُهم رفوفًا كاملة من الكتب من داخل المكتبة، جمعوها في كومة على رصيف الشارع وأوقدوا فيها النيران. شعرت،

أول مرّة، بحاجتي إلى الدفء، كانت النار بلهيبها المثير تدعوني إليها. بدأ النهار يلوح بالتدريج، وبدأت الأمطار المستمرة طوال الليل تهدأ. نهضت من مكاني، وبابتسامة غريبة اقتربت من النيران، نهضت ووقفت أمام ذلك الشيء العجيب، البخار الكثيف الذي كان يتبخّر من ثيابي حوّلني إلى كتلةٍ من الغاز. كنتُ أضعُ يديَّ تحت وركيّ وأراقبُ الكتب وهي تحترق، كيف تتلاعب بها ألسنة النار من جهة ونسيمُ الفجر من جهة أخرى. يا الله! إنّهم مستمرّون في جلب الكتب ورميها في النار، تأمّلت مليًّا تلك الأدوات وهي تحرق الكتب. لاحظت فراشات صغيرة تحترق، شاهدتها وهي تسقط من بين دفات الكتب وتلتهمها النيران لتتحوّل إلى رماد. الكثير من الفراشات، فراشات كبيرةٍ تساقطت من بين الكتب، كما لو أنها تحاول الطيران، ترتفع قليلًا لكن سرعان ما طالتها ألسنة اللهب. شعرت وهلةً أنّ ما تنثره الرياح ليس رمادًا بل هي أشلاءُ فراشاتٍ محترقةٍ، شعرت أنّها تحلّق وتقف على وجهي وهي مشتعلة بالنار، تقف فوقَ رأسي، تصطدم بصدري. تابعت مراقبة تلك الألسنة وأنا ابتسم. لم أر سوى ظلّ كسول للصباح والذي بدأ يمتدّ خلفي ببطء. في الداخل، كان أبي وعمّتي يقتربان منّي بخوف وهما يراقبان حالة الضحك التي أصابتني بصورة مفاجئة. رأيتهم وهم يحومون حول النار أزواجًا، يتأمّلون ابتسامتي بذعر، تلك الابتسامة التي بدأت تكبر على وجهي في ذلك الصباح وسط لهيب النيران والدخان، سيطرت عليَّ ساعة إثر ساعة وبطريقة تدعو للقلق، حتّى إنّ الأمر خرج عن سيطرتي. ابتسامة رافقتني بعد ذلك مدّة طويلة ولم تغادرني إلا بعد أن اكتويت بنار حريقٍ من نوع آخر.

6

كانت العودة، بعد تلك الليلة، إلى حياتي السابقة الآمنة والهادئة، أمرًا في غاية الصعوبة. في تلك الليلة، حين رأى والدي الابتسامة ترتسم على شفتيّ وسط النيران والدخان والأمطار، قال لعمّتي: «خذي هذه الفتاة... لتكن لكِ... ربِّيها مع بناتك، لقّنيها كلّ شيء عن العادات والتقاليد التي ينبغي للفتاة الالتزام بها لتصبح امرأة صالحة». الآن عليّ القول إنّني أدركت حينذاك بأنّ الأوان كان قد فات... فات. ولأنّني امتلكت شجاعة طفولية، لذلك استطعتُ أن أفكّر وأبتسم بعض الوقت. ابتسمت في مواجهة ذلك الظلام والظلم وتلك القسوة والخوف والانكسارات. لكنّني أدركت، متأخّرة، إلى أيّ حدّ يمكن لهذه الابتسامة الصغيرة الخجولة والتي تحمل معانيَ كبيرة، أن تهزم الرجال والقوانين والعالم، أو أن تخدش أنظمة الحياة وقيودها.

«خذيها... لتكن لك». كنت أعلم ماذا يعني هذا الكلام، ما الذي يضمرُه لي، وما ينبغي لي بعد الآن أمام عالم كهذا. في الصباح نفسه الذي أبعدوني عن النيران تراءت لي، إلى حدٍّ ما، ملامحُ حياتي الجديدة.

عمّتي، ومملكة الدفوف المهيبة وإمارة الذّكر اللا نهائي والغرق في روائح البخور. لم تكن المسألة متعلّقة فقط بأصوات الدفوف ولا بحالة فقدان الوعي، بل أكثر من ذلك، كانت الخشية من نظرات عمتي، تلك المرأة ذات الجسد الضخم والرأس الصغير، لم يكن ثمة انسجام بين وجهها النحيل وجسمها الضخم المرعب. كذلك

لا يوجد أي توافق بين وجهها النحيل وعينيْها الواسعتين والقاسيتين عديمتي الرّحمة، بالإضافة إلى صفّ أسنانها الصغيرة الملبّسة بالمصادفات والمسوّرة بشفتين رقيقتين تثيران فيّ الخوف. لا أتذكّر أنّنا، أنا وبروانة، كنّا قد تجاذبنا أطراف الحديث معها من قبل. دائمًا كانت تبعث فينا الذّعر بعينيها الغريبتين والمِسْبَحة الطويلة بيدها. كانت تعلم بقصة بروانة وعشّاقها الكُثُر، وكَذلك تعلم بلا مبالاة بروانة اتجاهها. أتذكّر منذ طفولتي الباكرة المشادَّة الدّائمة بينها وبين بروانة. عندما كانت تزورنا عمّتي، ترتدي بروانة أقصر الثياب وتُكثر من مساحيق التجميل على وجهها لتبدوَ كبائعاتِ الهوى، وتنظر إليها بغرور وتعالٍ، لكن تلك السيدة كانت تقابل كلَّ ذَلك بصبر لا مثيل له، تُظهر هدوءًا فوق طاقتها. كانت بروانة تريد أن تبعدَها عن حياتنا وعن التدخّل في أمورنا. أدركت العمّة أن لا أملَ في التأثير فيها واستدراجها نحو عالمها، لذلك أصبحت أنا هدفها. حاولت منذ البداية أن تبعدني عن بروانة حتى لا أكبر في ظلّ آثامها. منذ البداية كان ثمّة صراع خفي بينهما على امتلاكي. أثناء زيارات العمّة إلى بيتنا، كانت بروانة تسحبني بسرعة وتُدخلني إلى غرفتها وتقفل عليّ الباب: «لا تتحركي من هنا، أنت لا تدركين مدى خطورة هذه السيدة يا خندان... حقًّا لا تعرفين». كنت أفهم نظراتها المصوّبة نحوي، وأعرف الجهد الذي تبذله لكي لا أشبه بروانة في سلوكها، وأعلم مدى محاولاتها لتقرّبني إليها. والآن بعد ليلة النيران والمطر تلك، ها أنا أقف بين يديها بكل سهولة.

في الأيام التالية، وعلى حرماني من متعتي المفضّلة ألا وهي

الذهاب المدرسة، إلا أنني شعرت بسعادة غامرة، وأنّ الأمل بخلاص بروانة من طوق ذاك الحصار هو الذي بعث في أعماقي هذا الشعور الخفي بالسعادة. عمّتي متيقّنة تمامًا بأنّني أنا الأخرى من طينة أختي الملعونة، لكنّها تحفّظت في البداية، وتركت الفرصة لعبارة (الأب): «خذوها لكم». لكي يدوّي صداها في حياتي أكثر فأكثر وأدرك معانيها تمامًا.

هكذا جرتِ الأمورُ... في الصباح ذاته، اقتادوني بثوبي الأسود إلى بيت عمّتي. لم يسبق أن رأيت ذلك البيت سوى مرات قليلة. بعد ليلتين قاسيتين مرّتا عليّ، استطعت أن أنظر إلى العالم بطريقة جديدة. استطعت أن أرى الظلام والنيران وأمطار الفجر بعيون جديدة. حين وقعت عيناي على مشهد الغرف المغلقة والدفوف والسيوف والمسابح والشعر المقصوص والمبعثر في كلّ مكان بصورة مريبة، تملّكني خوف قاتل. لم يكن ثمّة منفذ لدخول الشمس سوى شق صغير بين نافذة إحدى الغرف وجدار البيت الخلفي. لم يكن للشمس سبيل آخر لاختراق ظلمة البيت. كان يطلُّ من الخلف على زقاق مهجور بائس، تغطّيه رمالٌ صفراءُ كرمال الصحراء. يتوسّط البيوت في الحيّ مسجدٌ صغيرٌ، ينتهي من الجانب الآخر إلى ساحة تملؤها بقايا قطع السيارات القديمة وأنقاض حديدية صدئة. شعرت منذ اليوم الأول أنه لا أحد ممّن في البيت ينظر إليّ نظرة ودّ. عمّتي التي لديها ثماني بناتٍ، أرملة عنيفة، تضفي عليها السلطة التي تتمتع بها بين نساء البلدة المتصوفات ألقًا خفيًا وساحرًا بالمقارنة مع بناتها الخجولات والمضطربات. بناتها الثماني كنّ يبللنَ فراشهنّ في الليل، وبعضهنّ

كنّ صُمًّا. لم يسبق لإحداهنّ أن رأت أيَّ مكانٍ خارجَ نطاق المنزل، ما عدا الذهابَ لدروس الدين. جميعهن ولدنَ في قلب هذه العتمة وتربين فيها ويرغبن بالموت فيها.

اختبرت بروانة هذا العالم قبلي. فقد كانت تلك المدّة القصيرة والقاسية مثل جحيم، كفيلة بجعل العلاقة بينها وبين عمّتي بذاك السوء. حينها، وبعد أفتضاح أمر إحدى علاقات بروانة العاطفية، تقرّر إرسالها إلى مملكة العمّة لكي تتعلّم الاستقامة من بناتها الورعات. لكنّ العمّة كانت متردّدة بشأن إبقاء بروانة في بيتها، بسبب تلك الأفكار الغريبة التي كانت تزرعها في خيال بناتها، قالت لوالدي: «ثمة إبليس يستقرّ في قرارة روح هذه الفتاة، ليس بمقدور وليّ أو درويش أو حتى نبيٍّ أن يتمكّن من ترويضها». عرفتُ في وقت متأخّر بأنّها فيَ حديثها وفي مداركها، لم تكن تقصد الشيطان بمعناه الرمزي، وإنّما تعني إبليس عينه، بالطريقة نفسها التي طُردَ فيها من الجنّة. عمّتي مقتنعة بأنّي عايشت الشيطانَ مدّة طويلة جدًّاَ.

في اليوم الذي كُشف أمرُ هروب بروانة، وحين دعت رفيقاتها من حاملات الدفوف وجميع وجهاء المدينة، حينها تكلّمت باللهجة ذاتها والمنطق ذاته، وأنّ الشيطان قد أفلت من قيوده، ولا بدّ من القبض عليه وربطه من جديد. منذ تلك الليلة، أصبحت قضية القبض على الشيطان هاجسها الوحيد. لديها إمكانات وقدرات كبيرة لدعوة الملالي والدراويش والصالحين لكي ينضموا إلى السباق المثير في عملية القبض على إبليس. كذلك فعلنا نحن -أيضًا- ومن دون دراية منّا، أثناء أعوام طويلة، شاركناهم تلك اللعبة. أمّا أنا، وبحكم قربي

من إبليس ومعايشته والمُضيّ في دربه، كان عليّ، وأكثر من الجميع، أن أدفع ثمن ذلك، لا سيّما أنّني لا أملك جسدًا حرًّا ولا غرور وغنج البنات، أو حتّى روحًا سامية تكون دليلي في هذا العالم. بعد أن رأيت عالم أولئك الفتيات والأرامل والنساء الغريبات اللائي كنّ يتوافدن أفواجًا إلى البيت، حينها شعرت بمدى سعة الدائرة التي تحاصرني من كلّ صوب. لذلك قرّرت أن أنضمَّ إلى تلك اللعبة. لم يكن لي أصلًا خيارٌ غيرُ ذلك.

في الليلة الأولى، تحدّثت إليّ عمّتي ساعات عدّة، كلّمتني عن إثم بروانة وعن النسوة المؤمنات الصالحات في البلدة اللائي يحفظن الإيمان، وعن الاحتفالات الدينية وعن الذّكر ومهرجانات الصلوات الضخمة التي تجري أيام الجُمع وتُقرّب النفوس بعضها من بعض. تحدّثت بصوت خافت، لكن بنظراتٍ مفعَمة بالبرودة والقسوة. كانت تعتقد وبصورة غريبة بصواب رأيها وحقّها في ما تقوم به. في النهاية قالت: «كلّ مسلم مسؤولٌ أمام المسلمين، فمنذ أعوام وأنا أحاول أن أنتزعَك من يدَ بروانة، أن أحرّرك، أنا مسؤولة عنكم أمام الله، أنا مسؤولة عنكِ بوجهٍ خاصٍّ». أكّدت عبارتها الأخيرة بحزم وبلهجة واضحة بأنّها لن تتركني حتى القيامة.

كنت أرمقها بابتسامة خفيّة، حين قالت: «أنا مسؤولة عنك». استمرّت في الحديث مع أنّ ابتسامتي شغلت تفكيرها، ولكنّها لم تُظهر ذلك. تظاهرت بلا مبالاة. كنت متأكّدة أنّها تعرف تمامًا أنّ تلك الابتسامة تختصر مجمل علاقتي بها. كذلك عَلاقتي بالأشياء وأيضًا علاقتي بالله. في اليوم التالي، ألبستني ثوبًا كأثواب بناتها

واصطحبتني برفقة مجموعة فتيات صغيرات يحملن الدفوف إلى حفل كبير. هذا شرف كبير، فيما يتعلق بها، لا تمنحه لأيّ كان. كلّ تلك السنوات لم تمنح بناتها فرصة حضور عالم الذّكر، واحتفالات ختم القرآن، وصلاة الجمعة، وجميع الاحتفالات الدينية الأخرى. أدركتُ أنّ السبب هو صممُ بناتِها الواهنات، اللائي تفوح منهنّ روائح البول القاتلة. لكنّها كانت تُسوِّغ عدم اصطحابها لهنّ بذرائع وحجج واهية وتقول: «الدرجة العليا للإيمان لا تكون بعبادة الله المتواصلة، إنما تكون بالانزواء عن الحياة». مع ذلك لم يكن حبّها لذاك العالم العجيب والذي حرمت بناتها منه، بالقليل. في اليوم الأول لحلقات الذكر، ووسط الجمع الغفير، شعرت بعلاقة بين صوتها وصوت تلك الدفوف المثيرة، إنّها علاقة لم تخلُ من الشهوة.

حياتي القصيرة التي عشتها كقارعة دفّ كانت حياة غريبة. قرّرت أن أنفِّذ كلَّ ما تطلبه عمّتي منّي. كنّا نحضر مع نسوة الدفوف الحفلات الدينية، واحتفالات ختم المصحف والمآتم، تعرفت أثناءها إلى جميع صور المراثي، واللطم، والجذب. غالبًا ما كنتُ أبكي في الليل من هول صدى أصوات تلك النسوة وهي ترنّ في أذني. تتراقص صور الموتى في مخيلتي، لكن على كلّ ذلك لم تفارقني الابتسامة قطّ. أجلس في صفّ فتيات الدفوف وأراقب أمواج المنتحبين وهم يلطمون أنفسهم كالمجانين. لم تغادر تلك الابتسامة شفتيّ. حتى في أثناء النوم لم تفارقني. كنت أستيقظ صباحًا والابتسامة مرسومة على وجهي. عمّتي مقتنعةٌ بأنّه ما دامت تلك الابتسامة الساخرة ترافقني، يعني أنني مازلت أنتمي إلى عوالم بروانة. كانت تمرّ أمامي من دون

أن تتفوه بكلمة، لكنها يومًا بعد يوم صارت تشدّني نحو عالمها أكثر. بدءًا من الحلقات الخاصة بتحفيظ القرآن والتفسير مرورًا بدروس الدين لدى أحد الشيوخ، التي تتحدث عن يوم القيامة وخفايا المحرّمات والمحلّلات ومعجزات الصوفيين ودراسة جزاء العشق والزنا. أحيانًا كانت بناتها يستيقظن في الصباح الباكر ويرتدن الجامع الأبيض القريب. إنّه أبعد مكان يمكنهنّ زيارته. بعد أن يضعن على رؤوسهنّ أجمل المناديل، يقطعن المسافة القصيرة من باب البيت إلى باب المسجد في صمت. كان اجتياز هذه المسافة لهنّ أكثر أهمّية من سفر طويل وخيالي. في أثناء تلك الرحلة، لم أكن أتفوّه بكلمة واحدة مع أولئك الفتيات الخجولات القاسيات وهنّ أيضًا لم يفعلن ذلك. كلما حاولتُ التحدّث إليهنّ تقترب الرؤوس الثمانية في حلقة، ليتهامسن بكلام غير مفهوم. غالبًا دون أن أقول أيَّ شيء، كنّ يجلسن أمامي ويَغشَينَ من الضحك بصورة غريبة. وأنا بدوري كنت أرمقهنّ بابتسامتي الشيطانية تلك دون أن أنبس ببنت شَفَةٍ. تقاسمت مع الكبيرات الأربع غرفة نومهنّ، مع أنّه من الصعوبة تمييز الكبيرات عن الصغيرات، فجميعهنَّ يمتلكن القوام والقد كليهما ولهن الصورة والتفاصيل كلتاهما. تغطي أربعتهنّ فراشهنّ بالنايلون. يستغربن كيف لا أحتاج إلى قطعة النايلون وكيف أنّي لا أتبوّل في الفراش. كلَّ صباح، كنّ يقفنَ في رتل أمام المغسلة في الحمام ويغسلن ثيابهن الداخلية.

كنّ يخلدن إلى النوم باكرًا، في الثامنة مساءً ينتهي يومهنّ. كذلك كنت أفعل، لأكسب وقتًا إضافيًا أختلي به إلى نفسي بعيدًا عن أعين

العمّة، فهو الوقت الوحيد الذي يُتاح لي فيه التفكير والتأمّل وحدي. قضيت طوال تلك الليالي بالتفكير في مصير بروانة. كنت أعرف أنّها مازالت على قيد الحياة. راودتني كثيرًا صور طفولتنا وصوت ضحكتها برفقة صديقاتها الحسناوات، وحالة الصمت والحزن الغريب التي تنتابها. كنت أظن أنّني كلما استعدّت صورتَها في مخيّلتي، أفي بوعدي حين قلت لها: «لن أنساك أبدًا».

في تلك الليالي، اكتشفت سرَّ تلك العائلة، السرَّ الذي لم أكن أعرفه. تعوّدت أن أفيق في منتصف الليل وأتسلّل بهدوء على رؤوس أصابعي دون أن يشعر بي أحد، وأتلصّص على غرف المنزل. رأيت ظلال رجالٍ كانت عمّتي تخفيهم في غرفة خلفية. في ليلة حالكة ماطرة، جاء رجل برفقة سيدتَين لم يسبق أن رأيتهما. فتحت العمّة الباب وأدخلتهم إلى تلك الغرفة. فهمت من الهمس الذي دار بين عمّتي والسيدتَين أنّ الرجل نحر زوجته ولجأ إلى هنا هربًا من الانتقام. في الليالي التالية، تنبّهت إلى أنّ الرجل غادر وجاء رجال آخرون. كانت تقدّم لهم الطعام والماء بنفسها، أما في النهار، فلم يكن أحد يفتح عليهم الباب.

لاحظت أنّ البنات الثماني يعلمن بأمر الرجال الغرباء المقيمين في البيت. أحيانًا كنت أشعر بهم وهم يخرجون من الغرفة المُغِمّة ليستنشقوا بعض الهواء في باحة الدار، بل كنت أشمّ روائح أجسادهم. كان طُرّاق الليل أولئك يظهرون بوجه مستمر الواحد تلوَ الآخر، يبيتون لياليَ عدّةٍ ثم يختفون دون أن يبقى لهم أثر. منهم من قتل زوجته، وآخرون نحروا أخواتهم، وبعضهم رشق طالبات المدارس بالأسيد،

أو قام بتنفيذ فتوى أحد الشيوخ بقتل كافر أو زانٍ. كلّ أسبوع، كان يغادر واحد منهم، كلّ مرّة كنت ألاحظ غياب أحدهم. أنا متأكّدة أنّ القافلة طويلة جدًّا. فهناك دومًا من يحلّ محلّ المغادر. بقيت أتلصّص من خلف الأبواب. سمعتها مرارًا وهي تتحدّث إلى النسوة الملفّحات حاملات الدفوف عن مقتل فتاة اقترفت الخطيئة، أو شابّ شاذّ أو عن إحراق بيتٍ يُقال إنّه وكر للرذيلة.

شعرت أنّ الهواء العفن والفاسد لهذه البيوت والمساجد وخيام العزاء بدأ يخنقني. روائح نسوة الدفوف تدوّخني، تشتّت ذهني. مضت أشهرٌ عدّةٌ دون أن أسمع أيّ خبر عن بروانة. كنت أرافق نسوة الدفوف إلى المآتم. بعد فترة، شعرت بأنني مثل الأخريات، بدأت أنفض الغضب والخوف من داخلي بالقرع على الدفوف بحماس. وجدت متعة كبيرة في اللعب بها. من خلف الدف، ومن بعيد، كنت أرى زميلاتي في المدرسة، لكنّني لم أعرفهنّ تمامًا. أيقنتُ أنّ مسافة كبيرة تفصلني الآن عن ذلك العالم. وفوق ذلك، لم تكن واحدة من السيّدات أو فتيات الدفوف تكلّمني. أعلم أن السبب هو ابتسامتي المستفزّة. إنهنّ ينظرن إليّ كما لو أنّي شريكة أبدية لإبليس. في إحدى المرات قالت لي إحداهن: «إلى متى ستبقين بيننا كشيطان قذر». حتى أنا بدأت أحسّ بذاك الشيطان يكبر في روحي يومًا بعد يوم. كانت روائح أولئك الرجال في العتمة تثير فضولي أكثر فأكثر. روائح الرجال المجهولين الذين يخرجون في الليالي المقمرة والعاصفة أيضًا ليستنشقوا بعض الهواء. في ليالي الصيف الحالكة، كنت أشعر بصوت شهيقهم وزفيرهم. همهمة صدورهم، كحيوانات جريحة،

تملأ فناء البيت. لكنّ تصميم البيت لا يدع مجالًا لتلتقيَ عين بعين من شدّة العتمة. كنت أنهض في حلكة الليل وأنا واثقة تمامًا أن الفتياتِ الأخرياتِ أيضًا مستيقظاتٌ، ويفكّرن بروائح أولئك الرجال الغرباء المتكئين على جدران الفناء الصغير وهم يتأمّلون في الظلمات الأبدية لهذا العالم. متأكّدة أنّ جميعهن مستيقظاتٌ، يحتمين بفراشهنّ جيّدًا ويسترقن السمع لهمهمة الأنفاس التي يحملُها الهواء الفاسد. كانت تراودني رغبة شيطانية وتدفعُني على النهوض في الليالي المقمرة، فأتلصّص من خلف الستائر، ألمح ظلالَهم وهم يدخّنون ويراقبون البيادر الشاسعة من بعيد، يتنهّدون بحسرة. فكّرت مئاتِ المرّاتِ بأنّه آنَ أوانُ الرحيل، يمكنني أن أرمي دفيّ وأقول لها: «اسمعي... هل تظنين أنّك امرأة شريفة! إذا لم تتركيني وشأني، فليكن! إلى الجحيم! لكن سوف أفضح أمرَك. إن لم تدعيني، فسوف أُفشي قصةَ الرجال الذين تخفينهم في تلك الغرفة، سأروي حكاية الغرباء الذين تتسترين عليهم». لكنّ قوةً خفيّةً في داخلي كانت تمنعني من القيام بذلك، لا شكَّ أنّه الشيطان نفسه الذي يسكنني.

بعد أن مرّت ليالٍ طويلة قضيتها دون نوم، ذاتَ ليلة، جاء الرجلُ الذي تفوحُ منه رائحةُ الريحان، كان موشّحًا بالصمت نفسه والسرية نفسها والعتمة نفسها. لمجرّد دخوله إلى الغرف وتجواله فيها كان ينثر أريج الريحان حوله. لكنّه -أيضًا، كما الرجال الآخرين- ينتظر ساعات الليل التي هي أكثر حلكةً وسوادَ لكي يظهر. لاحظت من الليلة الأولى أنّه أكثر نشاطًا وأقلّ ترويضًا من البقية. لكن مَن ذلك الرجل؟ أيّ شخصيّةٍ كانت؟ ما اسمُه؟ ما ملامحه؟ لا أعلم. فقط

أعرف أنه واحد من رجال الظلام، قطعة من العتمة تتحرّك، كان جزءًا من ذاك الليل المخيف. ينزوي وحيدًا، يضرب الأشياء بيديه محتجًّا، يعود من جديد إلى قلب الظلام. هو الرّجل الوحيدُ بينهم الذي كان يتجرّأ على دخول المنزل، يشرب من جرّة الماء نفسِها المركونةِ في الصالون حيث الفتيات نائمات، يمدّ يديه ليتلمسَ الدفوف المعلّقة إلى الجدار، يصعد الدرج إلى العليّة ليشاهد القمر، يفتح صندوق الثلج ويضع قطعًا منه في فمه للحصول على بعض البرودة. كثيرًا ما كان يتسلّل بهدوء ويعبر فوق الفراش المصفوف على الأرض في رتل. يقف طويلًا بالقرب منّا متأملًا كل واحدة في تلك العتمة ثم ينسحب بالتدريج. أحيانًا كنت أسمعه يتنهّد بحسرة. في إحدى المرات كان الظلام دامسًا أكثر من المعتاد، تسمّرت واقفة منتظرة، يومَها لم أشعر به إلا وهو يقف بالقرب منّي، يبدو هو أيضًا شعر بتحرك ما، توقّف قبل أن يصل إلي بخطواتٍ عدّة، انتبهت إليه، فقد بدأ قلبه يخفق بسرعة، وكذلك صوت أنفاسه. أمّا أنا، فابتسمت لذلك الكائن الأسود، كنت واثقة أنّه يراني. رأيته كيف يقترب منّي خطوةً بخطوةً، ويقفُ بعد كلّ خطوة، إلى أن وقف بمواجهتي تمامًا. ضمّني إليه بيدَين تفوحانِ بطيب الريحان، هذه أوّل مرّة يضمّني فيها رجل. همس إليّ قائلًا: أين أنت. لا أعرف مَن كان يظنّني! لا أعرف إن كان يقصدني أنا! أم إنّه يحسبني امرأة من أحلامه! كنتُ متأكّدة أنّ الظلام الدامس لم يتح له أن يميّزني. وأنه فور مغادرة هذا المنزل لن يعرف من تكون تلك التي ضاجعها. لكنّه ظلّ يكرّر مرارًا: أين أنت... أين؟ بدأ يشدّني إليه أكثر فأكثر بهمساته وبروائح عطرة وبأنفاسه، إلى درجة انهار كلّ شيء وسقطت تمامًا في أحضانه. تحت جنح الظلام الأبديّ لذلك البيت،

بين الدفوف وفي ظلّ خُصلات من شعر الشيوخ الصالحين الأموات، أنهيتُ حياة مظلمة ودخلتُ حياة جديدة.

لا أعرف كم من الوقت مضى، لكن، فيما يتعلق بي، كان بطول عمري كله. من ذلك الرجل؟ من يشبه؟ لا أعرف. سوى أنّه جزءٌ من سواد ليل لا حدودَ له. جزءٌ من الظلام، لا لونَ يميّزُه سوى العتمة، لا شيء يميّزُه سوى رائحة ريحان أسود يبدو أنّه نما في قلب الظلام ودفء جسده الخائف. لكنّه كان رجلًا حقيقيًا. يهزُّ معه تلك العوالم التي من الواضح أنّه مرتبطٌ بها بوساطة حبال خفيّة. كنت أحسّ بأنّه يحرّك كلَّ شيء من خلفه ومع حركات جسدِه، يحرّك الجدران والهواء والنجوم والمدن البعيدة النائمة والمآذن والمساجد والجبال، البحار والكون. أخيرًا وقبل أن يتوقّف العالم عن الاهتزاز مثل أرجوحة سوداء، ضرب رأسه بالجدار آخذًا نفسًا عميقًا، نفسًا بدا كأنّه صادر من الزاوية الأكثر قتامةً لروح ذاك الكائن الذي وضع الآن يديه بصمت على الجدار، وامتزج من جديد بالعتمة اللا نهائية لليل.

لم أعد أتذكّر متى رجعت إلى فراشي ومتى غفوت. لكن في الصباح عندما استيقظت كانت تفوح منّي رائحة الريحان بصورة لافتة. لستُ متأكّدة إن كانت عمّتي تعلم بالمصائب التي تحصل أم لا؟ فقد نظرت إليّ بطريقة غريبة، أمّا بناتُها، فكنّ يخرجن من الحمام الواحدة تلو الأخرى وهنّ يعصرن أثوابهنّ الداخلية، ينفضنها ومن ثمّ ينشرنها على حبل الغسيل. كنّ يرمقنني على الدوام بنظرات ملؤها الشكّ والحسد والحقد. أمّا أنا، فقد تظاهرت بانشغالي بدفوف صغيرة تهتزُّ أجزاؤها المعدنية، تُصدر رنينًا كما لو كان رنينَ جرسِ جهنم. كلّما

حدّقن إليّ يزداد فوح عبق الريحان منّي أكثر فأكثر.

قامت عمّتي بنشر القمح في الصالة وهي تمنع العصافير من الاقتراب منه. ومن حين لآخر ترميني بنظرة قاسية دون أن تنطق بكلمة، بينما أنا ألعب بالدفّ، فجأةً شممتُ رائحةَ صمتٍ يشوبه الخوفُ من كلّ شيء من حولي. حاولتُ أن أكسرَ الصمتَ وأن أتلاطفَ قليلًا، قمت بحركات تهريجية، علّقت الدّف وأزحت الحجاب عن رأسي، حرّرت خُصلات شعري وقلتُ: «الجوّ حارٌّ، درجة الحرارة مرتفعة جدًّا هذا الصباح». أول مرة في هذا البيت، أتجرّأ وأرفع صوتي لأقول شيئًا. كأنّ حضنَ ذاك الرجل قد زوّدني بشجاعة كبيرة، كنت أمسك الشعر المقصوص والمعلق وأقول: «يا الله، الحرُّ شديد... من أين يأتي كلّ هذا القيظ، أيّتها الحرارة من أين تأتين؟» أمّا عمّتي، فقد ظلّت تطرد العصافير وهي مستغربة من طريقة كلامي. قلت لبنات العمّة. لماذا ترتدين هذه الثياب الشتوية! إننا في فصل الصيف! مع عبارتي هذه، كان يهتز شيء ما بسرعة في الهواء وفي السماء وفي روحي، أيقنت أنها بداية عاصفة شديدة. كانت تتسع ابتسامتي أكثر: «لماذا ينبغي أن ترتدي ثيابًا شتَوية في الصيف؟ الثياب الصيفية خفيفة ورقيقة، أمّا الشتَوية فتكاد تخنقنا، أليس لديكنّ أثوابًا صيفية؟» كان يتغيّر إيقاع الهواءَ مع كلّ جملة أنطق بها.

أول مرّة، لعبت تيّارات الهواء بصفحات المصاحف المرتبة بصورة غريبة على رفوف ذات ألوان مختلفة. كلّما استرسلت بالحديث أكثر، علت جلبة صوت الصفحات أكثر. تسمّر الجميع مدهوشين وهم ينصتون إليّ. في هذه الأثناء، هبّت ريح قوية وفتحت دفّات

المصاحف جميعها معًا، واهتزّت لها الحلقات المعدنية للدفوف وتلاعبت بالشعر وأطاحت باللوائح المقدّسة. اشتدّ الهواء أكثر، وبدأ يحمل القمح المنشور على الأرض في تيّارات ويلفح بها على وجوهنا، وحطّمت الكؤوس المباركة، وصارت تقذف بنات العمّة إلى الجدران، وحملت الوشاح الرقيق عن رأسي وبدأ شعري يتطاير بحرية. صرخت وسط العاصفة: «يا لَها من متعة، أن نقضيَ الصيف بهذه الثياب». مع هتافي، كانت الريح تعبث داخل الغرفة أكثر، وقفت عمّتي وسط تيّار من القمح المتطاير وهي تنظر إليّ. اشتدّت العاصفة في الساعات التالية أكثر فأكثر. مزّقت صفحات المصاحف وطيّرتها أدراج الرياح، كما لو كانت قوة كافرة تمزّق تلك المصاحف. حاولت العمّة وبناتها إغلاق الأبواب أمام العاصفة التي هجمت بشدّةٍ، لكن لم يستطعن فعل ذلك.

حملت الرياح المصاحف، المصاحف الكريمة، النسخ الوحيدة لأولياء وشيوخ كبار. النسخ التي قضت العمّة ورفيقاتها أعوامًا طويلة في تجميعها. نسخة الشيخ معروف النودي، نسخة الأخ أحمد الصغير، نسخة الشيخ سراج الدين، ونسخة الشيخ محمد اوالان. حملت العاصفة خُصلات الشعر المقصوص والمعلق أيضًا وخرجت من الباب الخلفي للدار نحو البيادر القريبة ونثرتها، عشرات الدفوف تراقصت أمام الرياح المجنونة والعاصفة، وهي تصطدم بعضها ببعض وتتحطّم. عمّتي كانت تصرخ، وأنا تمسّكت بالباب بشدّة خوفًا من أن تحملني معها وبدأت أصرخ بدوري قائلة: «في هذا الصيف القائظ لماذا لا تدعين بناتك وشأنهن؟ لماذا لا تتركيهن يلبسن ما يرغبن؟

إلى متى تحجزينهن ليمتن هنا». حاولت عمتي أن تهجم عليّ كما لو كنت الشيطان بذاته، لكن الرياح منعتها. وسط هذه العاصفة المدمّرة، كانت تحاول أن تمسك بتلك الكتب الممزقة والدفوف المتطايرة، الخُصلات المجعّدة والشعرات المتناثرة. شاهدت بأمّ عينيها كيف تنهار مملكتها، شاهدت كيف تنهار المملكة التي قضت جلّ حياتها في إقامتها. رأت بناتها، اللائي لم يكنّ في الحقيقة خرساوات، كن يصرخن قائلات: «آه يا أمّي هذه الشيطانة هي السبب... هي السبب»، «لماذا لا تطردين هذه الملعونة يا أمّي»، «ألا تعلمين أنك لن تتمكّني من ترويض هذا الشيطان، ألا تعلمين أنّها لا ترغب أن تصبح طاهرة؟» كنت أسمع هذه العبارات وسط العاصفة بينما تتملّكني لذّةٌ كبيرةٌ وتسمو بي، متعة تشي حقدًا كبيرًا، متعة تجرّر حقدًا أعمى. كنت أصيح: «أوف... الله أكبر. الريح، الريح... أيّتها العواصف السريعة والشديدة، لا تهدئي... لا تهدئي».

من الواضح أنّ العاصفة لن تهدأ قبل أن تقلب البيت رأسًا على عقب. وقفت دَهِشة بين الدفوف والكتب والسبّحات المرمية وأنا أضحك. شعرت أنّ شدّة الرياح تتناسب عكسًا مع الدمار الذي يصيب المملكة. فهي تهدأ مع ازدياد الخراب الذي سبّبته، ومع هدوء العاصفة، كنت أسمع صرخات بنات العمّة أكثر، حيث كنّ يبحثن وسط العاصفة عن أوشحة رؤوسهن التي طيّرتها الرياح.

كانت رياح مفاجئة، رياح قادمة من الطرف الآخر من العالم. لم تكن تحسب لذلك، هي تظنّ أنّها هي من تحمي الجداران والأبواب والنوافذ، تظنّ أنّها تحمي الظلام. لكن اتضح أنّ الريح تستطيع أن

تصل إلى الداخل وتتجاوز الأبواب إلى الطرف الآخر. وقفتُ ضاحكة سعيدة فرحة بشعري المتناثر، المملوء بالتراب وحبات القمح. نظرت إليّ العمّة بغضبٍ وقالت: «أنت أخت إبليس، أخت إبليس... أخت إبليس...».

7

لم أكن مسؤولة عن هبوب تلك العاصفة، أنا التي طالما كرهت العواصف والأعاصير. أعرف أنّ الجميع، ومنذ صغري، يظنّ بوجود علاقة غريبة بيني وبينها. تلك الرواية التي تقول بهبوب عاصفة هوجاء يوم ولادتي، أطاحت بنصف المدينة، هي مجرّد قصّة خيالية، هي كذبة نسجوها لكي يجدوا رابطًا بيني وبين بروانة والشيطان.

لكن عليّ أن أسلّم أنه لا بدّ من وجود جانب من الحقيقة في هكذا قصص، هي ليست بالمطلق كاذبة. كانت تقول لي بروانة من حين لآخر: «أنت لست بريئة من دعم الشيطان لك». هي قصدت أيام طفولتي، حين كنت أرضع، حيث عبثت الرياح، بعد عناد، ببيتنا وقلبته رأسًا على عقب. أنا أيضًا أتذكّر بعض الأمور الغريبة. أتذكّر حين كنت في الصفّ الخامس الابتدائي، حين ضربني أحد الأساتذة ظلمًا، فلقة على قدمي أمام جميع التلاميذ بتهمة السرقة بينما كنت بريئة منها. بعد الحادثة مباشرة، ثارت عاصفة دمّرت نصف المدرسة! رياح مفاجئة ومجنونة مزّقت الستائر، حطّمتِ الصور والشعارات المعلّقة على الجدران. كذلك في الصف السادس الابتدائي، حين كنت أُجري الاختبارات النهائية، قام مدرّس في قاعة الامتحان، مدرّس عجوز وحاقد يضع نظّارة صدئة، ودون أن أرفع رأسي أو أقوم بأي مخالفة، قام هو بطردي من القاعة دون أيّ سبب. أتذكّر جيّدًا، لم أكد أخطو خطوة خارج القاعة حتّى ثارت زوبعة مرعبة، طيّرت دفاتر الاختبار من على مقاعد الطلبة، رفعت تنانير مئات الطالبات وعشرات المدرسات

بصورة فاضحة. في جميع تلك المرّات لم أكن مسؤولة عمّا جرى! هذه المدينة بحدّ ذاتها هي مدينة تبعث على الخوف، مدينة لا تروق للرياح، لكنّني لست أنا السبب في ذلك. الجميع يظن أنني أنا من تثير تلك العواصف. لكن لم أشعر ولو مرّة واحدة بأيّ علاقة تربطني بالرياح. طالما كنت فتاة هادئة.

جرتِ الأمورُ في بيت عمتي بعد العاصفة بطريقة غريبة وعصبية. فبعد انهيار مملكة العمّة، وبعد أن هدأتِ الرياح، تمّ شراءُ أوشحة جديدة للبنات الثماني، حذّرت عمّتي الجميع من الاقتراب منّي أو محاولة إزعاجي. لا لكوني بريئةً ممّا جرى، إنّما خوفًا من أن يقوم الشيطان الذي يسكن روحي بإيذائهم من جديد. منذ ذلك اليوم أيقنت عمّتي أنّ حربها الآن هي مع شيطان حقيقي، راقد في روحي.

في مساء ذات اليوم، أعادتني العمّة، يائسةً، إلى أبي. أعادتني إلى البيت الذي لم تطأه قدماي منذ ثلاثة أشهر، إلى حديقة الدار الصغيرة الذابلة، التي يبست حزنًا على فراق بروانة. لم تتفوّه طول الطريق بكلمة، لم تقل سوى أنّها لن تستسلم لأولئك الشياطين الذين يسعون لتدنيس كرامة عائلتها، وأنا بدوري لم أتفوّه سوى جملة واحدة: «لا تدعيه وشأنه، من طلب منكِ ذلك، أيّ كلام هذا؟» فيما بعد لم أعرف كيف روتْ القصة لوالدي؟ يا ترى هل أخبرته عن الرجل الذي ضاجعني تلك الليلة، أم أنّها اكتفت بقصّة العاصفة الهوجاء، حيث كانت مقتنعةً تمامًا أنّ شياطيني فعلت ذلك؟

اتّسمت عودتي إلى البيت بالصّمت والبرود. فرحتي الوحيدة

كانت بتلك الابتسامة، بشوق أمّي وصرختها. أمّي التي كانت كالعادة في زاويتها تضعف كدودة صغيرة. أمّا والدي، فلم يكلمْني كلمة واحدة، وأخوتي بدؤوا من اليوم الأول بإصدار الأوامر والطلبات التي كانت بروانة تؤدّيها لهم في السابق. مُنع ذكر اسم بروانة في البيت. لا أعرف ما جرى لها. ليس من السهل عليّ بعد قضاء مدة طويلة في بيت العمّة أن أعود لكي أعيش كما كنت. سمعت في إحدى المرات، مصادفة، الحديث الذي دار بين والدي وأخوتي، أدركت حينها أنّهم يبحثون عن بروانة. بعد عودتي كان لا بدّ أن أنشغل بأيّ عمل، لذلك قرّرت أن أقوم بأعمال تنظيف البيت، ودهن الجدران، والاعتناء بالزهور، وغسل باحة الدار والصالة، وغسل الملاحف الصغيرة التي كان أخوتي يفترشونها في الصيف على السطح. خلاف بروانة، كنت استمتع بالقيام بأعمال المنزل.

كنت أقوم يوميًا بغسل جميع الصحون والكؤوس الموجودة في البيت، أُخرج جميع الأوعية والملاعق القديمة وأقوم بتنظيفها. أنا متأكّدة أنّ هذه الصحون لم تستخدم منذ أكثرَ من عشر سنوات. أمضيت الكثير من الوقت في تنظيف والدتي التي لم تغادر تلك الغرفة منذ سنوات عدّة. كنت في السادسة من عمري حين سقطت، حينها شُلّت وفَقَدَت النطق، لم تعد تستطيع القيام بأيّ شيء سوى تلك الصرخات الغريبة. حينها سقطت من فوق السلّم المؤدّي إلى السطح مع سطل الملابس المغسولة، لا زلتُ أذكر، كان السطل مليئًا بسراويل الوالد وألبسة الأخوة الداخلية، بفساتيننا القصيرة. قبل سنين عدّة حاولنا قتلها، نعم، جميعنا اتفقنا على قتلها، أتذكّر جيدًا،

حين سحبوها إلى خارج الغرفة، كنّا أنا وبروانة نراقبهم، لم نفعل شيئًا، لم نقل لهم دعوها! لم نقل لا تقتلوها! وقفنا أمام النافذة إلى أن أخرجوها من الباب إلى الخارج. كنّا نعلم أنهم يقومون بقتلها لكن لم نبكِ عليها. لم نحزن عليها. بعد ساعة تقريبًا، أعادوها وهم يتقاذفون السباب. لم يتجرّأ أحد منهم أن يقتلها، كانت أيدي الجميع ترتجف من الخوف، في النهاية جرّوها كآلة قديمة ورموها في زاويتها المعتادة. بعد عودتي، بدأتُ أحسّ أكثر بمعاني صراخ ذلك الكائن. لكن مع ذلك ماتت ولم أتمكّن من القيام بواجب خدمتها بمثابتها أمّ.

أثناء الفترة القصيرة التي قضيتها في البيت، نادرًا ما انسجمت مع الأشياء. كان الصمت القاتل الذي يلفّ كلَّ شيء، وغياب بروانة، كان ثقيلًا... العيش دون بروانة صعبٌ جدًّا، النوم والوقوف إلى النافذة ومراقبة الحديقة، كل شيء بدا صعبًا وموحشًا. في المساء، كنت أجلس في الشرفة، أتفرّج على ساحة تجار المواشي، أراقب الشوارع الهادئة النائمة من حولي. أظلّ ساعات طويلة جالسة أتمعّن حركة الهواء والفراشات بصمت. أنصت إلى هسهسة الريح التي تخفي بين نسماتها هيجانًا. أحيانًا كنت أظن أن الزمن الذي يفصلني عن سنوات بروانة وعن الأيام الصامتة التي قضيتها في بيت العمّة، هو وقت طويل جدًّا، ظننت أنّ الحياة ربّما تستمرُّ إلى الأبد بهذا السكون والاستقرار. كلَّ يوم، كنت أجلس مع كأس الشاي، أستغرق بالتفكير في الماضي وبكل ما حدث، لم تكن بروانة تغيب عن فكري أبدًا، لكن انقطع تواصلي مع العالم الخارجي بطريقة ما. ومن ثَم، لم يكن هناك مَنْ استفسر منه عن أخبار بروانة وعن وضعها. لا أحد يعلم عنها

شيئًا، لا أحد يعلم أين هي الآن. من اليوم الذي سلّمني والدي فيه إلى نساء الدفوف، انقطع كلّ تواصلي مع العالم، حتّى أقرب صديقاتي ظننّ بأنّي مسافرة إلى بلاد بعيدة. لم أعرف كيف أعيد علاقتي معهنّ، لذلك، ولكي أتخلّص من تلك المواقف المحرجة، تركت كلّ شيء. بدأت أقضي لياليَ الصيف اللطيفة والطويلة في شرب الشاي على الشرفة الصغيرة، وحيدة، إلى أن ظهرت شيرين.

شيرين، هي الفتاة الوحيدة من ثلّة الفتيات الجميلات، كانت الأقلّ جمالًا بينهنّ والأقلَ غرورًا. بالإضافة إلى أنّ عددَ عَلاقاتِها العاطفيةَ كان أقلّ من عَلاقات رفيقاتها. مع ذلك، ودون سبب واضح، كانت، وبطريقة عجيبة، قد احتلّت مكانة بين الجميلات. طرقت الباب في وقت متأخّر من الليل، كنت في الحديقة ألتقط بعض التين من الشجر، الذي غالبًا تتساقط حباته ولا أحد يأكل منها. حين فتحت الباب، أوّل وهلة، لفحَتْها رائحةُ التين الطازج، قالت: «يا الله، أنت الآن كما في الحُلم، قبل شهرين حلمت بك وأنت في بستان كبير ترتدين ثوبًا أبيض وتلتقطين التين من الشجر». أخذتني بالأحضان قائلة: «أين كنت أيّتها الجنية؟» بدوري عانقتها وقلت: «إنّها قصّة طويلة، تفضّلي وادخلي». أرتني شيرين خاتم الزواج في إصبعها وقالت: «لقد تزوّجت. ألم تسمعي الخبر أيّتها القردة؟ انظري إليّ ألا أبدو عروسًا جميلة؟» دون شكّ لم أكن أعلم... من أين لي أن أعلم، في تلك الظلمات، انقطعت عنّي أخبار العالم. شيرين تظن أنّ الجميع يعرف قصّة زواجها الأسطوري. قلت: «أنا لم أكن هنا... كنت في مكان بعيد جدًّا». ابتسمت هامسة: «لديّ أخبار عن بروانة». يا إلهي، كانت تلك

الابتسامة الصغيرة كافية لسقوط الهدوء والاطمئنان المزيّفَين اللّذين كنت أتصنعهما لأيام طويلة مع شرب الشاي في الشرفة، ولكي يجتاحَ روحي شعور من الدهشة حتّى الأعماق. وضعت شيرين حقيبتَها على كرسيٍّ وقالت: «خندان، لديّ أخبار عن بروانة... نعم لديّ أخبار عن بروانة». خُيّل لي أنّ هذا الاسم يُجفل الفاكهة، يوقظ الطيور الصغيرة النائمة على الشجر والفراشات التي تعانق بتلات الزهور. كادت شيرين تحلّق من شدّة السعادة: «أتعرفين أين يعيشان... أتعرفين أين هما؟ إنّهما يعيشان في غابةٍ كثيفةٍ وسط وادٍ، في مكان غريب جدًّا». مدّت يدها والتقطت ثمرة تين من الصحن من أمامها، كانت فتاة حيوية ونشطة للغاية، واصلت الحديث دون توقّفٍ: «خجلُك الزائدُ هذا قاتلٌ... أين كنت؟... أين؟». هي تظن أنّي مستسلمةٌ ويائسةٌ، أجبتُها بابتسامتي المتعبة: «كنت هنا، في هذه الشرفة... أجلس هنا كلَّ ليلةٍ وأتأمّلُ السماء». ضمّتني إلى صدرها وقالت: «إنّهما في غابة عجيبة يا خندان! في غابةٍ بعيدةٍ ومحصّنة؛ لكن لا أحد يعرف تمامًا أين تقع هذه الغابة، ولا أحدَ يعرف أنّهما يختبئان هناك». سألتها بلهجة يائسة: «ماذا يفعلان في الغابة؟ أيّ غابة؟ عن ماذا تتحدّثين؟».

كانت شيرين في ذلك المساء موشّحة بالبياض، ترتدي ثوبًا أبيضَ وتنتعلُ حذاءً أبيضَ وتلفّ كتفَيها بوِشَاحٍ أسودَ، أمّا حقيبتُها، فكانت تشي بأنّها حقيبة عروس جديدة. منَ تلكَ الحقيبة الجميلة التي تفوح منها روائح العطور وموادّ تجميل غالية الثمن أخرجت تمثالًا صغيرًا، تمثالًا من الخشب لعاشقين سعيدَين. ناولتني إيّاه وقالت: «انظري، هي مَن أرسلت إليك هذا التمثال». نظرت إليّ بثقة وابتسامة: «لا

تحزني، المهمّ أنّنا عرفنا وضعها، أليس كذلك؟». كانت بروانة قد حفرت اسمَها أسفلَ التمثال، عرفتُ خطّها الناعم الجميل، إنّه خطُّ فتاةٍ تعيسةٍ في زاوية متوارية. كانت شيرين قد حصلت على التمثال عن طريق بائع متجوّل، الشاب ذاته كان قد زوّدها بمعلومات عن بروانة. حملت التمثال وتأمّلته جيدًا، تمثالًا صغيرًا أملسَ جميلًا. لكن فيما بعد، انتظرت طويلًا إلى أن عرفت قصّته الحقيقية. كان على البائع أن يقوم بجولات عدّة، يسافر فيها إلى مدن ومناطق متفرّقة، قبل أن يعود إلى الغابة وينقل لبروانة أخبارنا. قرّرنا أنا وشيرين، أن ننتظر البائع الشابّ، وقرّرنا أن نكتب لها رسالة طويلة ونرسل لها بعض الأشياء. حين ودّعتني ضمّتني مبتهجة وضغطت على يدي قائلة: «لا تخشي، لن ندعها تحتاج إلى أيّ شيء».

اليوم، عندما أفكّر بمدى السعادة التي عشناها تلك الليلة، عندما أفكّر بالفرح الذي غمرنا، ينتابني حزنٌ عميقٌ؛ لأنّه وأثناء أيام قليلة تطوّرت الأحداث بصورة درامية، ولم نلتق أنا وشيرين من جديد. بعد سنوات عدة، عندما سنحت لي الفرصة لأسأل عن أوضاعها، علمت أنّها في جنوب العالم، تعيش في بلدة صغيرة بعيدة جدًّا في جنوب أستراليا. حين ودّعتني شيرين وغادرت بهيئتها المتأنّقة، بثياب عروس جديدة رائعة، لم أكن أعلم أنّنا لن نلتقيَ مرّة أخرى، لم أكن أعلم أنّ ثمرةَ التين تلك هي الأخيرة التي أتناولها مع صديقتي، صديقة أيام المدرسة. الآن وبعد كلّ تلك السنوات، عندما أمسك ذلك التمثال الصغير بيدي، تراودني لحظات وحدتي اللطيفة والغريبة... تلك الأُمسيَة الهادئة والتي كانت الأخيرة لحياتي بوصفي شخصًا عاديًا،

قبل أن تعصف بي سنوات العقاب. اليوم، لم يبق لي أكثر من هذا التمثال. إذا كان قد بقي شيء من الماضي المديد فهو هذا التمثال الصغير، الذي يذكّرني بأصابع فريدون وبروانة وبابتسامة شيرين البريئة. أثناء المدة الطويلة التي عشتها بعيدة عن البيت، لم أكن أظن أنّ ذلك التمثال قد نجا وسط كل التغيّرات والمصائب التي حلّت بنا، فقد علمت أنّ كلّ أغراضي وأغراض بروانة الخاصّة قد أُحرقت ومُزّقت حينها. لكن حين عدّت إلى البيت المهجور والبارد، البيت الذي لم يقم فيه عزاء لأبي ولا لأمي، البيت الذي هجره أخوتي بعد أن أُقفلتْ أبوابه. كانت الغرف فارغة تمامًا. وسط ذلك الفراغ كان قد بقي أصيص زهر وحيد في مكانه، أصيص ميت، عندما رفعته وَجَدَت التمثال الصغير خلفه... تمثالًا مغطّى بالغبار. من الواضح أنّ يدًا غاضبة قد قذفت به إلى هذه الزاوية، واليوم لا أملك شيئًا سواه، لا شيء آخر... ولا أشمّ منه سوى رائحة حقيبة شيرين الفواحة ورائحة الغابة. رائحة العشق والموت.

8

مدينتنا البائسة تخبئ الكثير من قصص الحب الموؤدة. كان نصرالدين المعطّر برائحته الذكيّة يتجوّل في دروبها العابسة والضيّقة وهو يردّد: «آه، يا الله، ما كلّ هذا الحبّ غيرُ المكتمل؟ ما كلّ هذا العشق المجهض؟ قبل أن يثيره عدد قصص الحبّ الفاشلة، كان رجلًا فضوليًا... رجلًا عاديًا، من النوع الذي يهوى معرفة كلّ شيء عن مشاهير المدينة من النساء اللائي تحت الأضواء. وهذا الفضول القاتل لجمع المعلومات دفعه ليعملَ مصوّرًا متجوّلًا، هذه المهنة تمكنه من الوصول إلى أماكن يصعب على الآخرين الوصل إليها. بفضل آلة التصوير الكبيرة على كتفه، كان يعيش حياة مثيرة. يستطيع الذهاب إلى جميع الحفلات والمدارس والجامعات، وإلى الملاعب. يتمّ دعوته أيضًا إلى معارض الدولة ومسيراتها، حتّى في الاجتماعات السرّية كانوا يطلبونه. تجده حاضرًا في كلّ مكان كجنيٍّ خجولٍ، بابتسامته الأنثوية ونظراته الخنثوية. كان يلتقط الصور في المحاضرات وفي المنتزهات وفي المصايف أيضًا. تراه في أيام الصيف في وقت الظهيرة، على الضفاف المنحدرة لمسبح المدينة مرتديًا سروالًا قصيرًا وبيده آلة التصوير. فضولُه غيرُ العادي ذاك كان يدفعه للذهاب إلى مواقع الأحداث المثيرة في حياة تلك المدينة... كان يتدخّل بطريقة ذكية لحلّ المشكلات المعقّدة بين العشّاق. كان يقول للفتيات: «آها... هل أنتِ فلانة، هل تعرفين مَنْ مُتيم بكِ؟ أتعرفين من الذي لا ينام الليل هيامًا بكِ؟ ألا تهتمّين لمن يحترق بنار حبّكِ؟ نعم لا علم لكِ بمن سلبتِ لبّه، ذلك الذي يتسكّع لأجلك

في الطرقات؟». كان يذهب إلى سبّاحي المدينة ولاعبيها وشعرائها الشباب واحدًا واحدًا ويقول لهم: «افرح يا أخي، فأنا متأكّد أنّ فلانة مجنونة بك...»، «لماذا أنت مغفّل، لماذا لا تقرأ نظراتِ تلك السيدة؟»، «لا تغضب، حتى وإن كانت متزوّجة فهي تحبّك... أَتعرف ماذا يعني أنّها تحبّك؟». أمضى نصرالدين الكثير من سنوات عمره في تلك الأجواء، إلى أن جاء يوم شعر فيه بتحوّل حبّ الاطّلاع والفضول لديه من باب معرفة وكشف خبايا قصص العشّاق، إلى رغبة بتحرير قصص العشق غير المكتملة ومساعدة العشّاق.

أثناء فترة حياته في المدينة، بقيت الأمور تسير بصورة اعتيادية. غالبًا ما كان يقوم بنقل الرسائل بين مدارس البنات ومدارس الصبيان. جعل من أستوديو التصوير خاصته مكانًا للقاءات أولئك الطلبة العشّاق، الذين لا مكان لهم في هذه المملكة للقاء بعضهم بعضًا. كان يضحك دائمًا مع الجميع ويملأ قلوبهم بالطمأنينة. على ضفاف حوض السباحة، تعرّف نصرالدين إلى كوفاند السبّاح عن طريق فريدون ملك. كوفاند هو ابن حدّاد عجوز، قضى معظم حياته في سوق الحدّادين. في بداية حياته، اهتمّ اهتمامًا كبيرًا باللعب بالحديد ورفع الأثقال، ثم توجّه إلى السباحة، لكنّه، في النهاية، كان يُشاهد من نوافذ ملعب الرياضة الصغير وهو غارقٌ في التفكير، منكبًّا على رقعة الشطرنج مع الأستاذ إسماعيل لاعب الشطرنج الأكبر سنًا في البلدة. كوفاند شابّ طويل القامة، ولد بشَعرٍ مجعّد جميل، كان يعدُّ شعره الطويل هذا هو بمنزلة علامة نبوءةٍ. في صغره، كانت أمّه، وباستخدام كامل سلطتها، تضعه على كرسيّ كلّ شهر مرة، تلبس

قفّازات من النايلون وتصبغ شعره باللون الأسود. لكنّه غيّر كلَّ شيء بعد ذلك الصيف حيث التحق بمعهد الفنون في العاصمة. بعد ذلك كان يوجد كثيرًا في الشوارع وفي المسبح. كان حضوره يترك انطباعًا جميلًا حيث يوجد. أثناء سنوات إقامته في العاصمة تعلّم الإسراف في شرب الخمور كما كلّ الفنّانين. تعلّم التحدّث بصوت مرتفع دون خوف حول المرأة والفنّ. تعلّم أن يرميَ الزجاجات الفارغة في الأسواق. تعلّم التحايل على النُدُل وقضاء الليل في الطرقات. لكن، على كلّ ذلك، وأثناء سنوات دراسته الأربع في الجامعة، تعلّم الكثير من أسرار فنّ النّحت.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ كوفاند السبّاح وفريدون ملك كانا قد التقيا أول مرّة في بستان على أطراف المدينة. بعد عودته من العاصمة، كان كوفاند يميل ميلًا كبيرًا للجلوس وحيدًا في الغابة بين الأشجار ويشرب حتى الثمالة. ولو أنّه يمارس السباحة ممارسةً جنونية وكذلك لعب الشطرنج، إلا أنّه كان يشرب ويثمل كلّ نهاية أسبوع بهذا الوجه. التقى فريدون، أول مرّة، بكوفاند في حالة سُكر مزرية. في وقت متأخّر من ليلة صيفية، بينما كان فريدون يبحث في الغابة عن الفراشات، وبدل أن يعثر عليها، عثر على كوفاند بين شجرتي صنوبر سامقتين. ظنّ، أوّل وهلة، أنّها جثة لأحد الدراويش؛ لأن شعرَه الطويل كان قد أخفى ملامحه. لكن عندما أزاح فريدون الشعر عن وجهه، ورأى تلك الملامح الجميلة والشارب الكثّ القاتم اللون، ظنّ أنّه رجلٌ غريبٌ قادمٌ من مكان ما. كان كوفاند قد سقط بطريقة غريبة بين أوراق أشجار الصنوبر وأغصانها. تأكّد فريدون أنّه لن يستفيق قبل ساعات

عدّة. لكن الدوريّات الليلية للشرطة الخاصة التي تنصب الكمائن الليلية تتردّد عادة على هذا المكان. من اللحظة الأولى، سُحر فريدون بجاذبية كوفاند. بذل جهدًا كبيرًا لكي يجرّه إلى الشارع ومن ثم أخذه إلى بيته، أعني بيت فريدون ملك. وكانت تلك ليلة تعارفهما.

أثناء تلك الفترة، كان كوفاند مشغولًا بورشة عمل في قبو بيت والده الحدّاد. ورشة لتلك الأعمال الفنية المحفورة في خياله. لكن بالإضافة إلى ذلك، كان يملك شغفًا آخر مثيرًا للقلق. صحيح أن كل الذين كانوا ينظرون إليه ليلًا، عبر نوافذ صالة الملعب وهو في تأمّل عميقٍ في لوحة الشطرنج القديمة، كانوا يعدّونه رجلًا محظوظًا. لكن لا بدّ من القول أنّ كوفاند، ومنذ فترة طويلة، لم يكن ليذهب إلى النادي للعب الشطرنج أو الحديد فقط. باختصار كان قد وقع في حبّ فتاة ذات قامة ممشوقة، حيث كانت تتردّد على النادي بسروال ضيّق من الجينز وشعر طويل مفرود. كانت ترقص الباليه مع فريق راقصات الباليه. اسمها دل آرام. بالكاد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها. عندما أحسّت أوّل مرّة بحبّ كوفاند لها، كادت تطير فرحًا. لم لا، منذ اليوم الذي رأته فيه بشعره الطويل الذي يشبه شعر الدراويش وبقوامه الرياضي، خلب لبّها واحتّل أحلامها. في تلك الأيام، بدأت راقصات الباليه، بعد الانتهاء من التمارين، يتسللن معًا إلى قاعة الشطرنج. يجلسن مجتمعات أمام كوفاند. كانت الأمور مثيرة للضحك، لقد تسبّبت، بمنديلها ونظراتها واهتمامها، في خسارة كوفاند أمام الأستاذ إسماعيل ولأسبوعين متتاليين. في اليوم الخامسَ عشرَ، جمع الأستاذ حجارة شطرنجه وقال بلطف: «قل لي الحقيقة يا كوفاند، أيّة واحدة

منهنّ عشقتْ، أهي سنوبر أم بروا؟» مسد كوفاند شعره بيده، تنفّس بعمق ثم قال: «المصيبة هي أنني عشقت دل آرام». بعد ذلك، ومدّة أسبوعين، كان العاشقان يتمشّيان في الملاعب الصغيرة ضمن النادي. لكن ولأن جدار الملعب يطلّ على شارع كثير الازدحام، كان عليهما أن يتركا ذلك المكان ويفكّرا في إيجاد مكان آخر يلتقيان فيه. ويومئذٍ بدأت المشكلات تلاحقهما. لم توافق دل آرام أن تزور كوفاند في بيته ولا أن ترافقه إلى الغابة في أطراف المدينة. كان يساورها الخوف من كلا المكانين. وفي الليلة التي وجد فيها فريدون ملك كوفاند بين الأشجار، كان يعاني من مشكلة عدم وجود مكان آمن يلتقي مع حبيبته، المشكلة التي يعاني منها معظم العشاق في هذه المدينة. كوفاند الذي يعدُّ نفسه من سلالة الأنبياء، كان لديه قدرة عجيبة على الكلام، قدرة كانت حينها في أوج تألّقها. يتحدّث في كلّ مكان وبصوت مرتفع عن عدمية هذه البلاد: «ما هذه المدينة، التي ليس فيها مكان ليحتسي المرء كوبًا من الشاي برفقة فتاة. ما هذه الحياة إذا لم يكن هناك شبر واحدٌ يتنفس فيه المرء بأمان». كان كوفاند يسرح بخياله بعيدًا لدرجة يرى بضرورة وجود مكان لالتقاء العشّاق، كان يتحدّث عن إمبراطورية يرأسها عاشق و يمشي في الطرقات ويركل الأشياء بقدمه متذمّرًا: «لم يخلق المرء ليظلّ مشغولًا بمدينة كهذه، مدينة ليست سوى كتلة من الفوضى والكثير من الأسوار والهجران».

حين عرّف فريدون ملك نصرالدين إلى كوفاند، لاحظ تشابهًا لافتًا بين تفكير هذين الرجلين، مع اختلاف كبير بالهيئة. هو أشبه بتيسٍ كث الشعر ذي عينين وقحتين، بينما الآخر فهو نصف أمرد تقريبًا

حسب رأي امرأة خجولة. لكن هذا الخلاف البيولوجي بين صورتين مختلفتين في الحياة لم يكن عائقًا في التفاهم بينهما. بل على النقيض، بعد أول كأس من العرق أصبحا صديقين حميمين.

الآن، إذا أمعنّا التفكير في العَلاقة بين هذا الثلاثي المثير للجدل، نستطيع أن نرى بسهولة الاختلافات الكبيرة بين عوالم الرجال الثلاثة؛ لكن حينها، عندما تعارفوا كان لكل واحد منهم سبب لتعميق العَلاقة أكثر. فريدون ملك يعمل صباحًا في بيع الخبز، بعد الثامنة والنصف وحتى الظهيرة كان يقضي أوقاته متسكّعًا في مقاهي المدينة الصغيرة يلعب فيها لعبة النرد. يقضي فترات الظهيرة الصيفية في السباحة. أمّا في الشتاء، فكان يقف أمام المكتبة التي أُحرقت من قبل الأخوات المؤمنات، حاملات الدفوف، ليلة هروبه مع بروانة.

أمّا في المساء، فكان يمضي معظم أوقاته في صيد أنواع الفراشات من البساتين والغابات حول المدينة. حتمًا لم تكن حياة فريدون كلها على هذا النسق، فقد عاش فترة من عمره كأصغر زعران المدينة. لكن وبعد تعرفه إلى كوفاند ترك هذه الأمور. صار يقضي الأمسيات أمام صالات السينما والمقاهي أو يتجوّل في الشوارع والأزقّة، أو في ملاعب كرة القدم المكتظّة، متشرّدًا متمرّدًا فوضويًّا. غالبًا كان يعمل أجيرًا مساعدًا في مجموعة العمل التي تساعد كوفاند، حيث يقوم كلّ شهر بإعداد قالب تمثال. أحيانًا يعتريه اليأسُ فيحطم كلّ ما أعدّه، ومن ثم يضطرّ لحمل بقايا الجبس والكلس والخشب لرميها برفقة عدد من العمّال. تعلّم فريدون أثناء عمله ذاك بعضًا من تقنيات فنّ النحت... لكن، كان مقتنعًا أن لا فائدة من هذا العمل سوى أن الأمر

متعلّق برفقته لكوفاند، ومدى الطمأنينة والتي يشعر بها أثناء العمل معه. حينها كان كوفاند يعمل بحب وحماس كبيرين. لكنّ أهمّ من كل هذا هو أنّ فريدون تعلّم مع هذه المجموعة الصمتَ والتأمّل بعمق. يصف نصرالدين المعطّر صديقه فريدون ملك، بأنّه كان ابن الصمت. لكن أثناء السنوات الطويلة التي قضاها برفقة شباب طائشين في المشاجرات مع بائعي الخبز، قد شُوهت روح الشابّ الهادئة. عاش فترة طويلة وحيدًا. منذ سنّ العاشرة وجد نفسه طفلًا وحيدًا يعيش في بيت فارغ ويدبر أمور معيشته بنفسه. بعد وفاة والديه هرب من بيت عمّه ليعود إلى بيته في زقاق قديم في المدينة، ليعيش وحيدًا. حينها لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره، لكن هيئته كانت توحي بأنّه في الخامسةَ عشرةَ. حياة الوَحدة هذه أكسبته ميلًا شديدًا نحو السكينة والهدوء والتأمّل بعمق في أسرار الحياة، نتيجة ليالي الصمت الطويلة التي مرّت عليه. لكن كان لا بدّ له كل يوم، قبل شروق الشمس، أن ينسى كلّ ذاك الصمت وأن يدخل في معمعة وفوضى الأطفال أمام المخابز، حيث كان المشهد يشي بيوم أسوأ من الذي قبله. حتى زيارات عمّاته المتكرّرة له لم تكسر صمت ممالك الليل لديه. لم يكن فريدون يصمد في صمته دائمًا، فكان يسهر مع رفاقه حتى الفجر وهم يغنون ويلعبون ويلهون، حتى إنّ عمّاتِه كنّ أحيانًا يعاقبنه، وأحيانًا أخرى يضحكن لحاله.

اليوم، عندما يتحدث نصرالدين عن فريدون، فهو يتحدّث عن شابّ نحيف وطويل، شابّ نبت شعر ذقِنه قبلَ الأوان. فقدَ الملامح الطفولية مبكّرًا وتحوّل إلى شابّ جميل. لكنّني لاحظت في صوره أنّه

شابّ نحيلٌ صغيرُ الحجم. يظهر في أغلب الصور مرتديًا ملابس كرة القدم، يجلس القرفصاء مع فريق الكرة، هو الشخص الثالث من طرف اليسار، واضعًا ثلاثة أصابع على الأرض كمن يحاول النهوض، في حركة متميّزة منه. لكنّه في النهاية يبقى أحد الشباب المثيرين للانتباه من بين شباب نشؤوا في ضواحي المدينة. عاش منذ العاشرة بلا أسرة، تعلم مبكرًا الطّعن بالسكاكين، كما جميع مراهقي تلك الفترة. أثناء مدة قصيرة، صار من أخطر الزعران من حاملي السكاكين في شمال المدينة، حتى إنّ الزعران أصحاب السوابق في الطعن والمشكلات كانوا يعملون له ألف حساب. تعلّم أيضًا، في البساتين والبراري الممتدة في ضواحي المدينة، الإفراط في شرب الخمور. كان يعود مع رفاقه في آخر الليل ثملًا مع مسجّل صغير يصدح بأغنية المغني شاروخ «لن أموت إذا ما أتيت هذه المرة». كانوا يصدرون زعيقًا وأصواتًا مزعجة وهم يعبرون شوارع مملكة عشقه القديم، حيث تقف فتيات خجولات في المساء أمام الأبواب. تلك الفتيات اللائي جاء معظمهنّ من القرى إلى المدينة. تفوح منهنّ روائح الطبيعة. كان فريدون دائمًا مغبّرًا بتراب البراري، مرتديًا لباسًا كرديًّا أسود اللون، يحمل في جيوبه سكاكين صغيرة يتسكّع مع رفاقه الذين هم ثلّة من الصبيان الأشقياء المشرّدين. كانوا يتشاجرون مع مجموعة أخرى من الزعران ممّن يقفون في زوايا الحارات، أو مع شباب متسكّع في شوارع المدينة. كان هو الأكثر صيتًا وشهرة في المشاجرات التي تحدث في الأزقّة الضيّقة والمظلمة مستخدمًا السكاكين. دومًا كان يحمل على جلده أثر طعنة. إلى أن جاء يوم، وإثر هزيمة نكراء له في لعبةٍ، قام بطعن أحدهم ثماني طعنات بالسكين، لكن من كان ذلك

الشخص الذي طعنه؟ إنّه أحد أصدقائه المقرّبين... كان يومًا عصيبًا في حياة فريدون، حيث ارتمى، بحزن شديد، على جسد صديقه الجريح في المشفى على مرأى من الأطباء وقبّله. كلّ من كان هناك، شهد على ندمه وعلى الدموع التي سالت من عينيه. كانت تلك الحادثة نهاية حياة فريدون مع عالم السكاكين والزعران القتلة، الذين كانوا قد حوّلوا المدينة إلى جحيم.

يومذاك، حين غادر المشفى، صدر صوت من أعماقه يقول له: «ارحل عن هذه المدينة، قبل أن تتحوّل إلى حيوان حقيقي... غادر هذه المدينة». منذ تلك اللحظة، سيطر عليه سحر الرحيل إلى أرض أخرى وعالم آخرَ. منذ اليوم الذي رمى بسكينه، راوده حلم السفر الطويل، كان يمشي في الشوارع متمتمًا: «سأذهب إلى مكان بعيد، مكانٍ لا يعرفني فيه أحد، ولم يسمع فيه أحد باسمي، سيكون من الأفضَل لو كان خاليًا من البشر، سيكون أفضل لو كنت وحيدًا... لا شيء أكثر متعة من حياة الوَحدة، لاسيما في أرض يختارها المرء بنفسه». مشى ساعات طويلة واضعًا يديه في جيوبه الفارغة، جاب المدينة من أقصاها إلى أقصاها، وفكره مشغول بمدينة أخرى.

أثناء رحلاته الطويلة، أحبّ عشرات الفتيات. كانت قصص حبّه كلّها سريعة وقصيرة، تنتهي بلا أمل ولا هدف، أطول قصة حبّ عاشها، كان عمرها من عمر طريق مدرسة تلك، الفتيات بلباسهنّ المدرسي الأزرق وعيونهنّ المملوءة بالخوف وهنّ يرقبن اقتحامه وخروجه من حياتهنّ. والمصيبة الكبرى أنّ فريدون كان يبحث دومًا بينهنّ عن فتاة أخرى وعن حبّ آخر.

اليوم، حين يقوم نصرالدين بعرض ألبوم صوره الأنيق، تجد فيه عشرات الصور لفريدون، صوره في حوض السباحة، وفي الملعب أثناء اللعب، في زوايا وأزقّة البلدة المزدحمة، وصور يظهر فيها مرتديًا لباسه الكردي الأسود. كان يهزّ نصرالدين رأسه وهو يتأمّل الصور ويقول: «كلّها كانت مصادفة... كانت مصادفة... إن لم تكن مصادفة لما تعرفت عليه، ولو لم أعرفه لما تعرفت إلى كوفاند، ولو لم أتعرّف إلى كوفاند، لكانت لهذه القصّة مسارٌ آخرُ». كان يخفي وراء الندم شعورًا بالمرارة للقدر الذي ربطهم بمصير واحد كسلسلة سوداء ملعونة. يقول نصرالدين: «تلك الأشياء التي تتراءى لك بلا أهمية، أحيانًا يكون لها نتائج قاتلة». من يصدّق أنّ في الليلة التي أعطى الصورة لفريدون، وقال له بابتسامة خجولة: «دون قصد منّي ودون رغبة منك ظهرتَ في هذه الصورة». جميع الأحداث المثيرة التي حدثت فيما بعد جعلتني أفكّر فيها سنوات طويلة لعلي أجد رابطًا فيما بينها. يا إلهي... كلّ شيء بدأ من أمام المكتبة، والتي عرفت الآن لماذا كان عليهم حرقها. في تلك الفترة من الزمن، كان الشباب من شعراء وفنّاني المدينة يجتمعون أمام تلك المكتبة. كانوا يضحكون بصوت مرتفع وهم يسخرون من هذا العالم، يهزؤون بزملائهم الكتّاب والفنّانين. أحيانًا، كان نصرالدين يقف وسط الجميع ويتحدّث إليهم عن آخر قصيدة نُشرت، أو آخر قصة أو مسرحية. في تلك الأمسيات، كان فريدون الشابّ الممشوق القامة بعينيه الثملتين الحزينتين يكتفي بالجلوس على القضبان وهو يراقب المارّة. كانت ثيابه القديمة والمعفّرة بالطحين ونظراته الحائرة، سببين مهمّين من الأسباب التي دفعت الشباب الواقف أمام المكتبة لكي ينظروا إليه نظرة مختلفة.

لكنّ نصرالدين الذي يملك عينين محدّقتين، تأخّر في ملاحظة ذلك. كان نصرالدين يلتقط صور الشباب ضاحكًا وهو يقول: «في يوم من الأيام، سيكون لهذه الصور قيمة كبيرة». في إحدى المرّات، جاء ثلاثة شباب موسيقيّين، شعورهم نازلة فوق وجوههم في تقليد لمشاهير العازفين، طلبوا من نصرالدين أن يلتقط لهم صورة، ومن باب المصادفة ظهر فريدون في الصورة بثياب سوداء ووجه عابس مثل شبح. الصورة راقت للعازفين، لولا ظهور فريدون ووقوفه في المكان غير المناسب. قالوا: «إنّها صورة جميلة لو أنّ هذا الخنزير الأسود لم يظهر فيها. يا إلهي ما هذا، إنه متسمّر هنا مثل كلب؟».

في اللحظة التي رأى فيها الصورة، قام بإخراجها من بين الصور، وبدأ يتأمّل ذاك الشابّ الشارد الذهن والذي التقت نظراته البائسة فجأة بعدسة الكاميرا. عمَلُ نصرالدين سنوات طويلة في التصوير جعل منه رجلًا خبيرًا في قراءة الأشخاص انطلاقًا من صورهم. أحيانًا، وبضحكته الشبيهة بضحكة فتاة كان يقول: «وصل بي الحال إلى درجة يصعب فيها عليّ فهم الآخرين إن لم أرَ صورهم. فقط أمام عدسة الكاميرا أستطيع أن أميّز بين الصدق والكذب على وجوه الناس». وبفضل هذه الخبرة التي يمتلكها صار لديه فضول غريب لمعرفة فريدون.

في اليوم الذي حصل فيه فريدون على صورته، بعد أن شكره ببرود، غادر المكان كمن يحاول أن يهرب من قدر أسود، ولم يظهر بعدها أيامًا عدّة، إلى أن التقاه نصرالدين ظهيرة أحد الأيام في المسبح. كان يقف في حوض السباحة حيث المياه الضحلة، متكئًا على جدار

الحوض يراقب تيارات الماء والجلبة التي يحدثها السباحون وسط المياه. بعدها بعدة أيام رآه نصرالدين مرة أخرى في المكتبة، يقف صامتًا أمام رفوف الكتب يبحث بينها بعينيه. ثم يختار كتابًا ليتصفّح المقدّمة والفهرس. يومها اقترب منه نصرالدين بهدوء وسأله: «عن أيّ كتاب تبحث؟»، أجابه فريدون: «أبحث عن كتاب يبدو أنه غير متوفّر هنا». في الأيام التالية، صار يقلّب دواوين الشعر واحدًا واحدًا ويقول: «أبحث عن قصيدة بين دواوين الشعر هذه لكنّها غير موجودة...». مرّة حمل مجموعة قصصية وقال: «أبحث عن قصّة، لكن ممّا يؤسف عليه، لا أجدها بين هذه الكتب...». بعد ذلك صار فريدون يتردّد إلى المكتبة ويقضي فيها أوقاتًا طويلة. في كلّ مرّة تجده منهمكًا في البحث عن كتاب غير موجود في المكتبة. إثر عمليات البحث الغريبة تلك عن الكتب، ولدت صداقة بين فريدون وصاحب المكتبة. بعكس ما كان يفعله الروّاد من الفنّانين والشعراء الآخرين الذين كانوا يستهزؤون بفريدون، كان صاحب المكتبة يهتمّ به ويستمع إليه بتروٍّ، ويحاول مساعدته، لكنه لم يكن ليفهمَ منه مبتغاه بين الكتب.

غيّرت مرافقة فريدون لكوفاند الكثير في نمط حياته. نادرًا ما وجِد في الأماكن التي كان يرتادها في العادة. بدأ يقضي معظم أوقاته برفقته. ينصت، أثناء عمله، إلى حكاياته الطويلة عن هجرة حداد إلى عالم فناني العاصمة. كان يستغرق في الحديث عن عذاباته مع حبيبته دل آرام. ومن حين لآخر، يرفع شعره عن وجهه ويقول بصوت مرتفع: «فريدون، حدّثني عن حياتك يا فريدون». يجيب فريدون: «لا يوجد في حياتي ما يستحقّ الذكر... سوى بعض المشاجرات

بالسكاكين، بعض اللهو، وجمع الفراشات... إلخ». لكن بعد إصرار من قبل كوفاند، كان فريدون يسترسل مطولًا في الحديث عن حُلمِه، حُلم السفر: «أرغب في الذهاب إلى بلد آخر، أيّ بلد كان، فهذا ليسَ مهمًّا، المهمّ هو ألّا أبقى في هذه البلاد...". حتّى أثناء زياراته للمكتبة، ودون أيّ مناسبة تذكر، كان يقول بوجه مفاجئ: «أرغب في الرحيل...»، فيتبادل روّاد المكتبة من فنّانين وكُتّاب وصحافيين النظرات بعضهم إلى بعض مستغربين دون أن ينطق أحدهم بكلمة. فقط كان هناك شخص واحد اهتمّ بالأمر وهو شقيق صاحب المكتبة، شابٌّ بعمر فريدون لكنّه يبدو أصغر منه. في إحدى المرات، اقترب الشابّ شقيق صاحب المكتبة ويدعى رضا دلخوش، اقترب من فريدون في إحدى زوايا المكتبة وقال له بصوت منخفض: «أنا أيضًا أريد الهجرة، لدي هذه الرغبة منذ زمن، لكن لا أعرف كيف؟ هل تستطيع مساعدتي؟» أجاب فريدون: «حين أعزم وأستعدّ للهجرة سوف أعلمك بالتفاصيل. اطمئن سوف أطلعك على كلّ شيء، حتّى إن لم أكن موجودًا هنا، فسوف أكتب إليك». بعد ذلك أصبح فريدون ورضا صديقين مقرّبَين يترافقان في ارتياد المقاهي، وفي الجلوس على الأرصفة. صار محور حديثهم الدائم هو فكرة السفر والبحث عن بلاد خيالية وأوطان جديدة. حتى جاء وقت كبر هاجس الرحيل لدى رضا وأثر فيه كثيرًا، صار أشبه بشبح مخيف، استدعى الأمر تدخل والده وأخوته لعرضه على الطبيب، ومعالجته بالأعشاب البرية الخاصّة لكي يتعافى ويعود إنسانًا طبيعيًّا.

منذ اليوم الذي عرّف فيه فريدون ملك نصرالدين المعطّر إلى

صديقه كوفاند، اكتشف نصرالدين الحياة الغريبة والمتعدّدة الوجوه التي يعيشها فريدون. لكن في الواقع، لم يعرف كيف يتعامل معه، ولا وَفق أيّ جانبٍ من شخصيته. ففي ملعب كرة القدم، يُعرف فريدون على أنه لاعبٌ متميّز، له مكانة واحترام بين أعضاء فريق الكرة. في المسبح، كان يُنظر إليه بمثابة سبّاح محترف ومرموق. بالإضافة لذلك، حسب الأوقات التي يمضيها في المكتبة، فهو قارئ يبدي اهتمامًا غريبًا بالكتب. لكن في الحقيقة، فريدون ليس أيٍّ من تلك الشخصيات، فلا هو لاعبٌ تمامًا ولا هو سبّاحٌ تمامًا ولا حتى بقارئ تمامًا. كان يبحث في ممارسته لكل تلك النشاطات عن شيء ما، شيء حتى هو لم يكن يعرف ما هو. يمرّ في كلّ محطّة دون أن يعرف ما الذي يريده من هذه الحياة.

بعد أسبوع من التعارف بين نصرالدين وكوفاند، دعا نصرالدين فريدون وصديقه النّحات إلى بستانٍ في ضواحي المدينة. استغرب نصرالدين الذي يعرف جميع شعراء المدينة وفنّانيها وممثّليها وموسيقيّيها، لم يكن يصدّق أنّ هناك فنانًا لا يعرفه. بالإضافة إلى أنّ هيئة كوفاند، بشعره الطويل وشاربه الكثّ، أثار لدى نصرالدين رغبة جامحة في التصوير.

عند منتصف الظهيرة، كان نصرالدين جالسًا على حافّة حوض السباحة، غامرًا قدميه في المياه. قال بلهجة فيها استغراب: «إنّه لأمرٌ عجيبٌ أن يكون هناك نحّات في هذه المدينة دون أن أعرفه أو اسمع باسمه». بينما كان فريدون يسبح بهدوء، ويراقب يديّ كوفاند علّق قائلًا: «لا أحبّذ الجلوس مع الفنّانين». كان يميل إلى مُجالسة شاربي

الخمور واللاعبين الكبار بالسنّ. بعد السهرة الأولى، ومع أول كأس خمر، رفعا بعضهما نخب بعض. ولدت صداقة غريبة بين نصرالدين وكوفاند. لدرجة أنّ فريدون كان يتتابه شعور بالغربة حين يكون برفقتهما.

يقول نصرالدين أنّ كلَّ شيء بدأ من تلك الليلة. حين قام بتنظيم تلك الدّعوة. فريدون، كما لو كان حشرة سامّة، يحوم حول نفسه، ويراقب الفراشات. أمّا كوفاند، فكان يرتدي قميصًا بنيّ اللون طويلًا، يبحث بين الأشجار عن الفراخ الصغيرة. بينما انشغل هو بترتيب المائدة والتقاط الصور. لم يصادف في حياته أنّ التقط هذا العدد الكبير من الصور. الآن توجد في ألبومه عشرات الصور المختلفة لسهرة تلك الليلة. يظهر كوفاند في جميع تلك الصور، بهيئته الشبيهة بالمسيح وهو يرمق عدسة التصوير مبتسمًا. بينما تبدو على فريدون، عمومًا، مظاهر الحيرة والقلق. في تلك الليلة، كانت السماء شديدة الزّرقة، بدأ كوفاند، مع كأس النبيذ، يفضفض عن معانات حبّه. ضحك نصرالدين قائلًا: «تكلّم، تكلّم فأنا بحر لأسرار العشّاق». تابع كوفاند الحديث مكررًا شكواه المستمرة من مشكلة عدم وجود مكان آمن للقاءات العشّاق، وعن إجهاض قصص الحبّ وعدم جدواها في هذه البلاد. كان فريدون يُدهش من قدرة كوفاند على تكرار ذلك الحديث، دون أن يعتريَه اليأس أو الملل. كلامه، في تلك الظهيرة، بدا إلى نصرالدين جديدًا وساحرًا. وقف وسط الأشجار، بنظرته الأنثوية وابتسامته الخجولة، رفع كأس الشراب قائلًا: «الأمر سهل، هيّن... غدًّا من الآن بإمكانك أن تلتقيَ دل آرام في أستوديو التصوير خاصّتي».

بعد هذا الوعد، بدأت العلاقة بين المعطّر وكوفاند تتوطّد أكثر فأكثر. صار يلتقي مع حبيبته في الأستوديو. وبعد اللقاء يبقى هناك ساعات طويلة يتبادل هو ونصرالدين أحاديث شتى. يتحدّثان عن السياسة والحب، وعن الرياضة والفنّ وعن التصوير والنحت. اليوم، يقول نصرالدين: «كانت تنبعث من أحاديثنا رائحة الدوران حول العدمية». دومًا كنّا نتناقش دون رغبة للوصول إلى فكرة معيّنة. كثيرًا ما كنّا نستمرّ ساعات طويلة، ثم نتوقّف دون أن نعرف عن ماذا نتكلّم بالضبط. كان فريدون، غالبًا، يعتنق الصمت، ولو صادف أن تكلّم، كان يحكي عن البلاد المدهشة التي يحلم بها. تحوّل محلّ التصوير، سنوات، إلى مكان لاجتماعات ولقاءات أولئك الثلاثة، حيث اعتادوا ارتياده يوميًّا في نهاية جولاتهم النهارية.

وتابع فريدون اصطياد الفراشات. فراشات ملوّنة، فراشات الشتاء البيضاء، الخضراء الربيعية، وفراشات كالجمر تحترق في الصيف في قيظ الظهيرة بين القشّ والأعشاب الجافّة في المراعي، وفراشات الخريف الصفراء التي تتساقط مع أورق الشجر وتموت. لم يكن يخبر أحدًا أين وكيف يصطادها. منذ طفولته وهو مهووس بالتيه في البراري. هوس بالابتعاد عن المدينة، بالاقتراب من سفوح الجبال والوصول إلى مراعي القرى المجاورة وبساتينها.

فيما بعد، عثرنا على بعض الفراشات، التي كان قد صنّفها في ألبومات خاصّة، مدوّنًا تحت كل منها تاريخ وساعة ومكان اصطيادها. لم تكن رؤية تلك الفراشات، فيما يتعلّق بي، تجربة سهلة، طلبنا أنا ونصرالدين الألبومات من عمّة فريدون، التي احتفظت سنوات طويلة

بذكرياته، بالإضافة إلى تلك الألبومات. كانت الألبومات منسّقة في تسلسل مدهش، مكتوب على غلاف كل منها عبارة بخطّ يدويّ أسودَ عريض، انحلّ سواد حبرها تدريجيًا تحت وطأة السنين، وصار لونها باهتًا: «رجاءً، إن كنتِ تحبينني لا تشاهدي هذه الألبومات». بدافع فضول شيطاني لدى كلينا، أنا ونصرالدين، أردنا مشاهدة الألبومات. لكن وأثناء تصفّح الصفحات الأولى، لاحظنا أنّ الفراشات تتحوّل إلى رماد. مع تقليب صفحات الألبوم مرّة ثانية، استحالت الفراشات إلى غبار تناثرت في هواء الغرفة. تحوّلت الفراشات تحت تأثير حرارة وبرودة النظر، إلى رماد.

كان علينا، بعد مشاهدة عدّة صفحات، أن نغلق الألبوم بسرعة قبل أن نعيده إلى عمّته التي أكّدت لنا بدورها: «أعزائي، لقد قلت لكم إنّ هذه الألبومات ليست للمشاهدة».

رضا دلخوش، الذي تخلّص من داء هوس السفر، منذ عدّة أعوام، فتح محلًّا كبيرًا لبيع العصائر مكان المكتبة التي حُرقت. ويتباهى بأنّه ملك بيع الشراب في المدينة. يقول، إنّ فريدون لم يكتف بحفظ الفراشات في تلك الألبومات المخبأة لدى عمّته، بل احتفظ بعدد كبير منها بين دفات بعض الكتب على الرفوف العالية في المكتبة. ذات مرة، قال لي رضا بصوت حزين ممزوج برائحة البرتقال والزبيب، أنّ فريدون كان يأتي في المساء بعد جولته في السهول، ويقوم بعرض مجموعة من الفراشات قائلًا: «ينبغي أن نحفظهم بين دفّات ديوان شعر». حين سمعت تلك العبارة، تألّمت لإثارة كلّ تلك الذكريات. تذكّرتُ تلك الأصباح ساعة بساعة ومشهد الفراشات منتشية ومحترقة.

هجمت كالمجنونة على رضا، قلت مشككة بالأمر: «أصحيحٌ ما تقول؟ أصحيحٌ أنّ فريدون خبّأ فراشات بين الكتب؟»، ودون أن يفهم مقصدي، تأمّل قليلًا ثم أجاب: «لا شكّ... لا شكّ، الأمر كما أرويه لك بالضبط، أنا لا أكذب عليك بحرف». صرختُ بملءِ صوتي وقلتُ: «يا إلهي، يعني أنّ الفراشاتِ التي وجدتها صباح يوم إحراق المكتبة، ليست من وحي خيالي، إنّها فراشاتٌ حقيقيةٌ من ذلك الزمن، حين كان فريدون يعود من السهول إلى المدينة، وبمساعدتك، يضعها واحدة واحدة في قلب الكتب». نظر إليّ مستغربًا، قال: «لا شكّ... لا شكّ أنّ الأمر كذلك». نهضت وقلتُ فرحة: «لقد شاهدت فراشات فريدون التي كانت قد اختلطت بالمطر والضباب والنار. لقد رأيتها، يا الله كم أنت عظيم، لقد رأيت فراشات فريدون ملك!».

حتّى الآن، لم يستوعب نصرالدين عَلاقة فريدون الغريبة مع الفراشات. كثيرًا ما كان يقول له: «دعك من ملاحقة الفراشات، ابحث عن فتاةٍ حقيقيةٍ، فتاةٍ تخلّصُكَ من الغراميّات عديمة الجدوى التي تتسلّى بها في الطرقات والأزقّة الطينية». فيتلقّى الرّد الحزين نفسه: «حتّى الآنَ لم أعثر على تلك الفراشة التي أبحث عنها». أحيانًا، كان كوفاند يهزّ الأستوديو بصوته الغاضب ويقول محتجًّا: «ممّا تشكو! ما هذا الداء الذي ابتليت به! ما هذا المرض الغريب الذي جثم على صدرك ولا يفارقك؟»، فيجيبه بكلّ هدوء: «لا بدّ أن أجدَ الفراشةَ التي أبحث عنها».

لم يكن فريدون قد تعرّف إلى بروانةَ بعدُ. حين دخلت إلى حياته تغيّرَ كلُّ شيء... كان فريدون في أوجّ وَحدتِه حينَ اقتحمت قلبَه.

جاءته وهو حُطامُ رجل. لكنَّ موسمَ الأحلام الشاسع زرع في روحه بذور الأمل من جديدٍ. احتاج الأمر وقتًا طوَيلًا حتّىَ شعر بصحراءِ روحِه وقفرها، وأدرك مدى الفراغ والدمار اللّذين عانى منهما. في تلك الفترة من حياته، لم يكن له سوى الجلوس مع رضا على الأسوار الحديدية، ومشاهدة الخرائط، والحديث عن بلاد خياليّة.

تغيّر كلُّ شيء. لا أحدَ يعرف كيف تمّ ذلك. تقدّم كوفاند مرّات عدّة لطلب الزواج من دل آرام. لكنّ سوءَ الحظّ لازمه، ففي كلّ مرّة يرسل جاهةً مهيبةً ليخطبوا له فتاتَه، كان والدُها يردُّهم رافضًا بالسبب نفسه: «أنا لا أبالي بالأمور التافهة، الآن وبعد آلاف السنين من قيام حضرة النبي ابراهيم بتحطيم التماثيل، أقوم أنا بتزويج ابنتي لصانع تماثيل ذي شعر طويل!». حينها كان الثلاثة يجتمعون في الأستوديو أو في الورشة أو في غرفة فريدون. يسهرون ويشربون حتى الفجر. يضعون الخطط ويرسمون خرائط جديدة، يفكّرون في إيجاد أشخاص أكثر مهابةً وسلطةً لإرسالهم إلى والد دل آرام. لكنّ كلَّ ذلك كان بلا جدوى.

في حمأة فصل اليأس ذاك، حصل شيءٌ عجيبٌ ومخيفٌ. شيء أثّر تأثيرًا كبيرًا على مصيرنا جميعًا. في أحد الأيام صباحًا، قام فريدون وكوفاند بمساعدة أهل المدينة في حملة بحث عن نصرالدين المعطّر... فقد اختفى بصورة مفاجئة. كما لو أنّ الأرض قد انشقّت وابتلعته! اختفاؤه كان بداية أحداث السقوط، وجميع المصائب التي حلّت بنا واحدة إثر الأخرى، وفرّقت بعضنا عن بعض.

9

بدأ كلُّ شيء بطريقة سوداوية ويائسة تمامًا. بعد اختفاء نصرالدين، اعتزل كوفاند الحياة وقتًا طويلًا. ترك جميع مشاريعه وغرق في شرب الخمور. كان فريدون يراقب بصمت سقوط كوفاند في دوّامة عذاب العشق والندم، ويلاحظ موته البطيء. لكنّه لم يستطع فعلَ شيء حيال ذلك. تحوّل كوفاند إلى رجلٍ صامتٍ اعتزلَ الكلامَ تمامًا. يقضي معظمَ أوقاته، وبيده سيجارة، متجوّلًا في شوارع المدينة بقامته الفارعة وجسده الهزيل، بنظرة فنّانٍ هزمته الكآبةُ. لم يكن يردُّ تحيّة أولئك الذين يحاولون إخراجه من حالته تلك، والتي وضع نفسه فيها. الأمر الأكثر غرابةً، هو أنّ كوفاند لم يعد يفتح أبوابَ حياته أمام فريدون، نادرًا ما كان يستقبلُه في ورشة عمله. فراق فريدون عن نصرالدين وكوفاند ترك فيه أثرًا بليغًا، فتحوّلت حياته إلى صحراء.

في أحد الأيام، وبعد أن قضى وقتًا في التسكّع والبؤس، عثر فريدون ملك على كوفاند في بستانٍ على أطراف المدينة بوضع مزرٍ، بين ثلّة من المخمورين. كان منهكًا، قال فريدون في قرارة نفسه، وبحسرة شديدة: «انظر إليه، كاد أن يستحيل فرخًا، حطامًا أو كومة عظام». كل المؤشرات كانت تدلّ على أنّ كوفاند ينحدرُ رويدا رويدًا نحوَ الهاوية، ويدخلُ في دركِ أسوأ مدمني المدينة مستوًى. ليلتها، وفي طريق العودة حين اصطحبه صديقه عبر طرقات المدينة الآمنة والغافية قال كوفاند: «أنا رجلٌ بلا هدفٍ، رجلٌ بلا مستقبل، دعني، لا ترافقني في الطريق التي أسلكها. أعلَم أنّ جميع الطرقَ خاطئة،

أينما اتجهتُ فسيكون خاطئًا، إن توجّهت إلى الشرق أو الشمال، نحو الغرب أو الجنوب... فكلّها طرق خاطئة. المهمّ ألّا تتبعَني... اذهب وعش حياتك بوجهٍ آخرَ». بألم شديد أجابه فريدون: «حتّى إن حاولت أن تتحوّل إلى حصًى أو رمل... المهمّ، في النهاية، سيأتي يوم لن تستطيع أن تتماسك وتقاوم». كانت خطوات كوفاند تتسارع وهو ثمل. كان يسابق فريدون ويقول دون أن يلتفت إليه: «ماذا تنتظر منّي؟ ماذا تريدني أن أكون... ما الذي تتوقّعه منّي في هذه المدينة العفنة؟ أن أصبح بلبلًا فضيًّا أم عصفورًا زمرديًّا... ماذا تريد؟ أتريد منّي أن آتيك بعنب من مرجان أم خيار من ذهب. في بلد الفضائح هذا، بلد المنابر والأوحال، العواصف والكذب، لا تتوقّع منّي أن أكون أكثر من سكّير نتنٍ». من سمع كلام كوفاند في تلك الليلة، فلن يتوقّع أبدًا أنّه الشخصَ ذاته الذي كان في بداية فصل الأحلام. لقد تغيّر تغيُّرًا كبيرًا، بعد أن كان مفعمًا بالأمل تجاه جميع الأمور.

كان ذلك المشهد فصلًا من فصول حياة كوفاند القاتمة. كان يرتاد، كلَّ ليلة، إمّا منتزهًا من المنتزهات على أطراف المدينة، أو حانة مظلمة، برفقة مجموعة من المغنّين وشاربي الخمر ويظلّ يرفع الأقداح ثملًا.

أمّا فريدون، فكلّما حاول أن يتمعّن في حلقات حياته الفارغة، فلا يجد أحدًا يستحقُّ أن يُطلق عليه صفة «صديقي» سوى رضا. إنّه يشعر بالغيرة من كوفاند، ينعته، بينه وبين نفسه، باسم رجل «لحظات الوَحدة الجميلة». كان فريدون يعودُ مجبرًا، في المساء، للجلوس على السور الحديدي أمام المكتبة برفقة رضا دلخوش، مرتديًا قميصًا وسروالًا

أزرقين. كطائرين عليلين، كانا يتعلّقان بالقضبان ويثرثران عن بلاد أسطورية. في تلك الفترة، في زمن الوَحدة والبُعد، حين ابتلعت الأرض نصرالدين، كان كوفاند غارقًا في عالم الشراب ومقامات المغنّين الثّملين تحت ظلال الأشجار. أمّا فريدون، فلم يشغله سوى هاجس السفر. ظلّ يحلمُ بأرض يِكون فيها الرجل الأجمل. أحلام السفر الملحميّ أسقمت رضا، كانت تنتابه حُمّى ليلية شديدة، يرتجف كلّ جسده من أثرها. كان يأتي في المساء إلى مكتبة أخيه، يجلس على القضبان، ينتظر بلهفة فريدون ملك الذي تحوّل بدوره إلى كتلة من التفكير والشغف بأرض جديدة. اختلاط أوهام فريدون بالأحلام فتحت أمامه الأبواب على مصراعيها، أبواب العديد من الأقاليم الجديدة، بحار مجهولة وأراض أسطورية... من هناك من فوق تلك القضبان، كانا يركبان البحار، تحملُهما، من بين الأمواج، حوريّات ساحرات، إلى جزر خضراء كالجنّة. طيور تلك الأرض العجيبة تتحدّث بجميع لغات العالم، والناس هناك يرتدون ألوان الطيف بدل الملابس. في الحدائق وتحت أشجارها توجد مختلف صور البنات، تعاشرهم دون توقّف... أسوار المدينة تتكوّن من حبّات الزيتون. رأيا هناك عروشًا، رؤوس ملوكها من كرز. كانا في كلّ مرة، يفتحان عينيهما ويصحوان من تلك الأحلام، يجدان كليهما من جديد في الشارع على تلك القضبان القاسية والباردة. لازمت الحمّى رضا دلخوش، لم يعلم أحد بحالته، كان يدخل إلى غرفته ويغلق الباب على نفسه وهو يفكّر بطريقة توصّله إلى بلاد العجائب البعيدة. كان يمكن أن ينتهيَ كلُّ شيء بسلام. كان يمكن لأحلام الهجرة تلك أن تنتهيَ بسفرٍ حقيقيّ، لاسيّما أنّ فريدون وأثناء جولاته الدائمة في

الأسواق والمقاهي، تعرّف إلى بعض المهرّبين الذين يعدّون زبائنَهم بمقولتهم: «سأضمنُ إيصالَك إلى وسط الجنّة». لكن حدث ما لم يتوقّعه فريدون ملك.

بعد ظهيرة أحد أيام الخريف، ظهر رجلٌ غريبٌ أمام المكتبة. قال: «أريدُ رؤيةَ فريدون ملك...». ظهور هذا الرجل الأشبه بطائر، بهذه الطريقة الغريبة والمفاجئة، في المكتبة وسط الشعراء والصحافيّين، كان أمرًا لافتًا للانتباهَ، كان يشبه طائرًا حزينًا صامتًا، ولكن اتّضح أنّ لديه خبرًا مهمًّا. حين دخل أول مرّة إلى المكتبة، بدا كما لو أنّه لم يرَ مكتبة في حياته. ثم اتّضح أنّه رجلٌ أميٌّ، ولكن كان لنظراتِه الغريبةِ تأثيرًا أشدَّ وأكثر هيبةً من جميع أولئك المثقّفين بمعاطفهم الطويلة وهم يرمقونه في دهشة.

عندما تقدّم فريدون ملك نحو ذاك الشابّ، شمَّ رائحةً مثيرةً، رائحةَ أوراق الشجر بعد أوّل زخّة مطر خريفيّ، له عينان يفوق البؤبؤُ فيهما مساحةَ البياض بكثير، كانتا تتركان خلفهما شعورًا من الخوف والرهبة. لاحظ فريدون أصابعَه الرفيعةَ والطويلة والتي تنتهي بأظافر معقوفة. أمسك بيد فريدون وسحبه إلى شارع هادئ جدًّا بالقرب من المكتبة. من النظرة الأولى، أحسَّ فريدون أنّ هذا الرجل قادم من أرض بعيدة... نظراته... أنفاسه... دقّته... هندامه، كلُّها كانت تشي بأنّه غريب. في الجانب الآخر من الشارع وقفا حين قال: «اسمي سيامند بالند. أرسلني إليك نصرالدين المعطّر». حينذاك، لم يكن فريدون يظن أنّ نصرالدين مازال على قيد الحياة. كان يميلُ إلى فكرة أن يكون وراءَ اختفائه قصةُ موتٍ بشعٍ، مثل قتله في الخفاء ودفنه حيًّا

لسبب سياسي. استند إلى حائط وتنفّس عميقًا بنوع من الارتياح ثم قال: «هل تقصد أنّ نصرالدين لم يمت... نصرالدين حيّ؟». يبدو أنّ سيامند مثل طائر بريٍّ لا يشعر بالأمان، فيلتفت يمينًا ويسارًا بصورة مستمرة: «نصرالدّين موجود هناك، في الجبال والغابات البعيدة، إنّه في مكان محصَّنٌ جدًّا، مكان نعيش فيه مع الطيور...». تأمل فريدون، ابن مخابز المدينة وطرقاتها، باستغراب ذلك الشخص الشبيه بطير: «تفوح منك أيضًا رائحة الشجر». كان لسيامند بالند أنف صغير وشعر أشعث تاركًا فسحة صغيرة بين عينيه الصغيرتين الضيقتين، وله ذقنٌ طويلٌ. نظر إلى فريدون وقال: «هذه أوّل مرّة أرى فيها مدينةً. لم يسبق لي قطّ أن شاهدت مدينة من الداخل، أنا رأيتها فقط من بعيد». أثناء ذلك، كان بصر فريدون منكبًّا على أظافر سيامند المعقوفة حين قال: «حاول ألا تتعودَ على هواء المدينة ومناظرها، حاول ألا تشربَ من مائها، لا تنظر كثيرًا إلى نسائها... المدن كالحشيش، إذا أدمنتها سيكون من الصعب عليك نسيانها». هزَّ سيامند رأسه كطائر باز حزين وقال: «لن أسمح للمدينة أن تخدعَني. حتّى هذه اللحظة لمَ أعطها الفرصة، لكنّ نصرالدين طلب منّي المجيء لكي أشاهدَ هذا العالم لبعض الوقت؛ لأتنفّس هواءَ المدينة، أعرف أنّني سأصاب بالتحسّس منها... أعي ذلك تمامًا. لماذا أرسلني نصرالدين إلى هذه المدينة؟» أمسك فريدون يد سيامند: «لماذا أرسلك؟ لماذا؟» أجاب الرجل: «حتمًا أرسلني كي أقابلك أنت وأقابل شخصًا آخرَ باسم كوفاند النّحات أو كوفاند السبّاح... ولأجل أن آخذَ نقاهة وأرتاح قليلًا. الجميع يقول لا بدّ أن أُروِّضَ بعض الشيء، فأنا بريّء بصورة كبيرة».

تأمّله فريدون مليًا وقال: «تفوح منك رائحة الشجر». ردّ سيامند: «حتمًا ستفوح منّي رائحة الشجر، حتمًا... قضيت طوال ليلة أمس بين أوراق الشجر». كان فريدون مسرورًا جدًّا، لكنّه لم يُظهر ذلك، كان يضحك ملء قلبه، فسماعه أخبارًا عن نصرالدين هي من أجمل الأنباء التي سمعها في حياته. لكنّ هيئة هذا الشابّ ونظراته أصابته بدهشة. بعد لحظات من الصمت، وإلقاء نظرة على الناس، وتأمّل ذلك الشارع الجميل الذي قضى نصف أيامه وهو يتسكّع على أرصفته، نظر مبتسمًا إلى ثياب سيامند الطويلة: «هذا يعني أنّ نصرالدين المعطّر حيٌّ... يعني أنّه الآن حيٌّ يرزق». دون أن ينتظر ردًّا من سيامند، تأبّط ذراعه وسحبه في ذاك الزقاق الطويل والضيّق، تابع: «يا الله، أين يمكن أن يكون كوفاند السبّاح؟ أين يمكن أن يكون متواريًا هذا اللعين؟ لا أظن أنّه قد ذهب في هذا المساء الغائم مع رفاقه السكّيرين إلى أطراف المدينة... آه... تعال يا سيامند... لنفتّش عنه في الحانات». توقّف قليلًا ثم تابع: «اعذرني، عن قول كلمة حانة، فهي كلمة قديمة، لكنّني... لكنّني مؤخّرًا عرفت ذلك». من الواضح أنّ سيامند لم يكن يفهمُ عمّا يتحدّث، فقط كان يتبعه بصمت. بحثًا في جميع الحانات، حانة حانة، شارعًا شارع. في كلّ مكان، سألوا السكارى: «هل رأيتم كوفاند النحات؟» فيجيبه أصحاب الحانات وروّادها بأسلوب ساخر وضاحك. انطلاقًا من أسلوب ردّهم، أدرك أنّ كوفاند قد فقد الكثير من احترامه وهيبته. فقد كان دومًا في حالة سُكر، لكن، هؤلاء العجائز النَوَر والمقامرين، أصحاب الأسنانِ المستعارة، هؤلاء المدمنين، وبائعي الحشيش ذوي الأسنان الذهبية، هؤلاء جميعًا لم يكونوا ليفهموا شيئًا من دموع ذلك الإنسان. أخيرًا وجدوه في حانة مظلمة،

وهو في حالة يرثى لها، يغنّي بين الطاولات: «ليتني لم أرها... وإن رأيتها يا ليتني لم أعرفها، عرفتها بقلبي... يا ليتَ... يا ليتَ...». كان ثملًا درجة يصعبُ عليه التعرّف على أحد. عندما سحبوه إلى الخارج، كانت تمطرُ بشدّة. تحت المطر، أمسكه فريدون من ياقته وقال له: «انظر يا كوفاند...انظر هذا الرجل قادم من عند صديقنا نصرالدين، من عند نصرالدين المعطّر. «فتح عينيه بصعوبة بالغة، ضحك ضحكة ثمل وقال: «من هو نصرالدين المعطّر هذا؟ أهو رجلٌ؟ ورد؟فيلم؟ أنّا فقط سمعت عن نصرالدين النتن... نصرالدين العَفِن... كلّهم كانوا أخوتي، الله... كلّهم كانوا أصحابي المقرّبين. لكنّني لم أسمع باسم نصرالدين المعطّر». حملاه إلى البيت، ارتمى بثيابه المبلّلة وشعره الطويل على فراشه بين بقايا تماثيل عدّة محطّمة ونام. ظلّ فريدون يكرّرُ بوجه متواصل للشابّ المدهوش: «عبث، التحدث إليه اليوم، عبث، ينبغي الانتظار إلى الغد، حتّى يستيقظ من النوم صاحيًا، عبث، نم أنت أيضًا». لم يسبق أن رأى سيامند في حياته مكانًا مثل هذه الورشة. طال الليلُ وامتدّ. فريدون أيضًا اتخذ زاوية من الورشة وحاول أن ينامَ، بينما ظلّ سيامند جالسًا على مقعد خشبي مرتفع حتّى الصباح وهو يتمعّن الأشياء من حوله. يلتفت إلى الغزلان المحطّمة والأرانب المرمرية واللقالق الرمادية وأطفال من المومياء وطيور الزرزور المصنوعة من الخشب، وطيور الفينيق المصنوعة من الزجاج.

كان كوفاند نائمًا إلى جانب قالب حصان مكسور. عندما استيقظ في الصباح الباكر وجد سيامند بعينين محدّقتين مشبعّتين، توهم أنّها

نظرة إحدى البومات الزجاجية التي يصنعها أحيانًا بطلب من أحد أقاربه البعيدين، لكن حين حدّق بوجهٍ جيد، قال متلعثمًا: «أيّ مخلوق أنت! أأنت إنسان أم طائر، هل أنت مثل البشر مخلوق من لحم ودم، أم أنك كالتماثيل مخلوق من الشمع، من الزجاج أم من معدِن؟» لم يجب سيامند على تساؤلات كوفاند، نهض وقال: «نصرالدين المعطّر يرسل إليك بتحيّاته ويقول إنّه يريد مقابلتك». وقف لحظةً مصدومًا، ثم بدأ يضرب رأسه بيديه ويقول: «بحقّ الإله، بحقّ الشيطان، بحقّ الأنبياء! نصرالدين مازال حيًّا؟ نصرالدين لم يمت؟». قال سيامند بالند: «أقول لك إنّ نصرالدين المعطّر يريد أن يجتمع بكما، يريد أن يراكما مساء الغد في مكان طرف المدينة». استيقظ فريدون على صيحات كوفاند الفرحة، والذي كاد أن يطيرَ من السعادة. بدأ يرقص ويضمُّ تماثيلَه المكسورة إلى صدره، يقف على قدم واحدة ويدور حول نفسه. كان يرقص مثل كورد الشمال، يحمل بيده سكينًا مؤدّيًا رقصة الحرب، حركات لم يكن فيها أيّةُ هيبةٍ ولا جمالية، لكنّها كانت تنفض كلّ ما بداخل الرجل ذي الشعر الطويل. صار يعانق ويحضن فريدون قائلًا: «عدًّا من الآن سأغيّر نمطَ حياتي، تعال إلى هنا متى شئت».

في ذلك الصباح وقبل أن يلتقوا بنصرالدين المعطّر، دبّ تفاءل شديد في حياة كلّ من كوفاند السبّاح وفريدون ملك. في اليوم التالي، ومن أمام المكتبة، انطلقوا جميعًا، يتقدّمهم سيامند، إلى بستان صغير على أطراف المدينة، حيث يوجد كوخ مهجور وسط أرض قاحلة تفرشها قشور عبّاد الشمس. في ذلك الكوخ الصغير اجتمع الأصدقاء

الثلاثة من جديد، تعانقوا وبكوا. أمّا سيامند بالند، فكان ينظر إلى الخارج عبر نافذة صغيرة بعينيه الغريبتين، وبأنفه القصير والمرفوع، يتنفّس هواء الكوخ الممزوج بالدموع. كانت الشمس قد لفحت بشرة نصرالدين، بدا أضعف وأكثر حزنًا من قبل، على كتفه وشاح أحمر، وفي نطاقه مسدس صغير، شعره أطول قليلًا، وابتساماته بدت أكثر قسوةً من قبل، لكن فيما عدا ذلك، لم يكن ثمة تغيير طرأ عليه. من الواضح أنه جلب معه أفكارًا عن حياة غريبة. طوال تلك الليلة تحدّث عن العشق: «امتلأ العالم بقصص الحبّ غير المكتملة. تلك الجبال البعيدة، مكتظّة بحبٍّ غيرِ مكتمل. تلك القرى المنسيّة الصغيرة كلّها تفيض بحبّ غيرِ مكتمل. كلّ البلدات والمدن التي مررت بها لا شيء فيها سوى عشقٍ مخادع وبلا أفق». استطرد: «أنا الآن مناضلٌ معروفٌ لأجل وطني، لكنّ هذا الوطن مبنيٌّ على حبّ يائس ومغتال. يراودني حُلم، هو أن أخصّص مكانًا يلتقي فيه العشّاق بحرية، لدي فكرة أن أنشئ ملجأً محصّنًا وآمنًا لكي يكون مركزًا للعشّاق الذين لا يجدون مكانًا يلتقون فيه...».

من الواضح أن أولئك العشّاق لم يغيبوا عن تفكير نصرالدين ولو ساعة واحدة أثناء الأيام الصعبة التي عاشها. العشّاق البائسون المنتشرون في كلّ مكان. حتّى أثناء وجوده في الجبال كان متعاونًا ومتعاطفًا مع العشّاق الهاربين، الذين يعانون مشقّة العيش فوق المرتفعات بين الثلوج. أحيانًا كان يعطي دروسًا للرجال الوحيدين الذين لم يختبروا من الحياة سوى الرعي والقتال. أحيانًا أخرى، كان يعلّم الشباب كيف يتقرّبون من حبيباتهم برقّة، وحين ينتهي الحُبّ

بالتقاء العاشقين، كانت تنتابه سعادة غامرة. فيما عدا ذلك، كانت حياته مثل حياة بيشمركة شجاع، ومقاتل ذكي، أضفت عليه مهابة، بحيث زالت عن محياه تلك الابتسامة الخجولة الشبيهة بابتسامة الإناث.

يتذكّر نصرالدين تلك الليلة قائلًا: «ذلك اللقاء الرائع الذي جرى في كوخ صغير، في حقل منسيّ لعبّاد الشمس، لم يكن مهمًّا؛ لكنّ الأهمَّ هو ذلك الفصل الذّي بدأ فيما بعد». شَعر كوفاند براحة كبيرة بعد ذلك الاجتماع وبهدوء واستقرار نفسي عميق، وعاد لكتابة الرسائل الطويلة النابضة بمشاعر الحبّ والوفاء إلى حبيبته دل آرام. حبٌّ مجهول النتائج قاده إلى سوء حظّ كبير. في رسائله الجديدة، وبإيمان كبير بحبّ دل آرام، كتب كوفاند: «علينا أن نهرب معًا، علينا أن نرحل من بلاد الخوف والتردّد هذه». كانت دل آرام قد تركت فرقة الباليه منذ فترة، تركت الرقص لفتياتٍ أصغرَ منها سنًّا يلهون بأشرطة بيضاء منسدلة على عيونهم. مرّت فترة من الزمن، قلّ فيها تواصلها مع كوفاند، كانت تتابع أخباره من حين لآخر، لكنّ حبّها له لا ينتهي ولم تنساه ولو لحظة واحدة. في الأشهر القليلة والطويلة جدًّا التي اختفى أثناءها نصرالدين، نادرًا ما سأل عن دل آرام، بل اكتفى بأن يعلن نفسه شهيدًا للحبّ في كلّ مكان يرتاده. حكاية تصوّف كوفاند واستسلامه للشراب مثل كلّ دراويش الغزل، هذا الأمر بحدّ ذاته أجّج حبّه في قلب دل آرام أكثر. كانتَ صديقاتها يروين لها على الدوام حكاية الرجل ذي القامة الفارعة والشعر الطويل والحزن العميق، والذي يجوب الأزقّة والشوارع. حكاية رجل يحمل في عينيه بقايا عشق.

يرفض الوقوف مع المارّة ولا يردّ تحيةَ أحدٍ. لم تكن دل آرام تصدّق إلى أن صادف ورأته، ذات مرّة، بأمّ عينيها وهو واقف أمام محل لبيع المشروبات الكحولية، في يده زجاجة شراب مغلّفة ينتظر صديقه الذي في داخل المحلّ وهو يجرّب طعم شراب جديد. الشيء المثير في ذلك المساء، هو الأسمالِ البالية التي كان يرتديها، المنسجمة تمامًا مع وجهه التعب والنابضِ بالانكسارات. حينها لم تتمالك دل آرام نفسها، بكت بحرقة وهي في الحافلة. حتمًا، كان البكاء قد صار عادة يومية في حياتها. ولكن عندما استلمت رسالة كوفاند الأخيرة، بكت أيّامًا عدّة في حسرة وحيرة، ثم ودون تفكير، وجدت نفسها تكتب إليه: «سأذهب معك إلى أيّ مكان، سأذهب حتّى إلى الجحيم، إلى الموت، إلى الآخرة».

في ذلك الموسم فاز كوفاند في لعبة الشطرنج أمام الأستاذ إسماعيل. المسألة لم تكن تتعلّق بسهولة اللعبة بالنسبة إلى رجلٍ ثمل، لكنّه الآن، أينما حلّ يترك خلفه أناة ورصانة كبيرتين، هدوءًا يدلُّ عليّ بداية موسم الأحلام والخيال. الآن يشبه الأنبياء، ليس بهيئته فقط إنّما بحركاته وأحاديثه أيضًا. كان يحكي بصوت مرتفع في كلّ مكان، يحكي عن إمبراطورية العشق وعن تأسيس دولة الحُبّ. أحيانًا كان، وبلغة غير مفهومة، في هزل أو جدّ، يقول: «نزلت عليّ آية الحبّ. على الآخرين أن يُقيموا صلاة العشق، عليهم أداء فروض الحب». كان الرجال الثملون في الحانة يضحكون من كلامه. ادّعى أنّه عبارة عن مزيج عجيب بين نبيّ وشارب خمر... لكنّ الناس لم تكن تتقبّله ولا يرغبون في رؤيته.

تبلور موسم الخيال والأحلام إلى طرق عدّة مختلفة. في هذا الموسم عثر نصرالدين المعطّر على بقعة أرض خيالية بين المرتفعات والوديان والغابات الكثيفة. في هذا الموسم، ولد حبّ فريدون ملك وبروانة. في هذا الموسم أيضًا أخذت أحلام السفر مئات الرجال والشباب إلى جنان أسطورية. انتزع الحب مئات النساء والرجال عن حياتهم المحدودة والمستقرة. الأعمى تمنّى الرؤية، والأصم بدأ يرقص في الشوارع على صوت أنغام خيالية. حملت بطون النساء العاقرات أجنّة خيالية، ظهر للرجال المصابين بالشلل أطرافًا خيالية، نطق الأطفال الصغار بقصائد خيالية. موسم الخيال هذا خيّم على الحياة في كلّ مكان، كان يحوّل العالم إلى أرض أحلام خضراء. في أرض الأحلام هذه، يستلقي المسنون الضعفاء على مقاعد وسط الأسواق، يتشمسون ويثرثرون عن أمنيّاتهم وآمالهم. النساء التي يعانين الوَحدة، العليلات الجالسات إلى طِساس الغسيل الصدئة كنّا يلتقين أمام الأبواب ويتهامسن: «المهمّ هو أن يكون غدنا بإذن الله تعالى مشرقًا وجميلًا وسعيدًا». كان المتسوّلون يقعون على قارعة الطريق وتشعّ الأحلام من عيونهم مثل رذاذ ماء. أبدع الشعراء في وصف جمال المستقبل. رأى كتّاب القصة أنه لا بدّ أن تنتهيَ كلّ الحكايات نهايات مضيئة مثل غدهم. اكتظّت المعارض بلوحات مدهشة، تفيض بروعة الألوان والمعاني بجميع صورها. في ذلك الموسم، الجميع كان يحلم بحياة أفضل.

كان نصرالدين يقول عن أرض الحالمين التي اكتشفها: «كل العشّاق الذين لا مكان يؤويهم، والذين فرّقهم ظلم العائلة أو العشيرة

أو الشيطان... لا بدّ أن يكون لهم روضة حرّة... لا بدّ أن يكون للعشق أيضًا أرض». أتذكّر جيدًا حين كانت بروانة تقول لي: «أحلم بشخص قلبُه أطيبُ من الورد، أحاسيسُه أرقُّ من أوراق عبّاد الشمس، خيالُه كزهرة النسرين، موَشّى بالطيف والياسمين». عندما كنت أسمع هذه العبارات، كنت أضحك؛ لأنني سبق وسمعتها قبل ذلك عبر الإذاعات الكردية التي كانت بروانة تستمع إليها أحيانًا. نعم سبق أن سمعت تلك العبارات المهترئة والسيّئة. لكنّني كنتُ متأكّدة أنّ بروانة تردّدها بصدق، عبارات تخرج من قلبها وهي مختلفة عن كلمات العرافات اللائي يردّدنها عبر الإذاعات.

يقول نصرالدين، إن مواسم الخيال صديقة دائمة للإنسان، إنها فصول لا تغيب أبدًا ولا تنتهي، لكنّ أحيانًا توجد عَلاقة بينها وبين الفصول الطبيعية بحيث لا تتميّز بعضها عن بعض. لكنّها في أحيان أخرى تأخذ، بطريقة غريبة، فاصلًا عن الأمور العادية. ثمّ يتابع بالقول إنّ هناك أشخاصًا ما إن تطأ أقدامُهم هذه المواسم، فهم لا يغادرونها أبدًا، وهناك آخرون، يدخلونها مرّة واحدة ولا يقربونها ثانية.

كانت تلك بداية لهذا الموسم، حين طرقنا أنا وبروانة باب منزل فريدون، في إحدى الأمسيات المدمّاة لعيد الأضحى. لم يظهر على بروانة أنّها تعلم بحبّ صيّاد الفراشات لها، إنّه يحبّها منذ مدّة، لكن عندما استعدنا أوعية اللحم الفارغة وعدنا، انتابها فرح غيرُ معتاد. تغيّر حالُها عمّا كانت فيه من كسل وغضب. صارت تمشي وتبتسم، تسرح وتضحك، بطريقة أثارت فيّ الشكّ. أثناء أعوام تالية، ظننت أنّ ذلك المساء كان اللقاء الأول بين العاشقين. لكن تبيّن لي متأخّرًا جدًّا

أنّ ذلك اليوم الدامي، كان فقط فيما يتعلّق بي هو البداية، وأنّ أبطال القصّة الآخرون عاشوا البداية قبل ذلك بوقت طويل، الأبطال الذين يحقّ لهم اليوم، وبثقة، أن يُعدّوا أبطال قصّة ليست لها بداية.

الآن، حينما قمت بلصق أجزاء الصور الممزقة لأحداث تلك المرحلة بعضها إلى بعض، اكتشفت أنّ فريدون ملك رأى بروانة أول مرّة أمام المكتبة، حين كنّا أنا وبروانة نذهب لشراء بعض الأقلام والدفاتر، بينما كان هو متسكّعًا هناك. في كلّ مرّة، أثناء مغادرتنا للمكتبة، كانت بروانة تقول: «لا أعرف لماذا لا أرتاح لوجوه الرجال في هذه المكتبة». لا أذكر أنّي رأيت فريدون ملك هناك، لكن رضا دلخوش قال: «كان دائم الوجود هناك. طوال الوقت كان يتّكأ على تلك القضبان، لا بدَّ أنّ نظراتِه هي التي جذبت بروانة إلى المكتبة».

في ليلة من ليالي الحُبّ، قال فريدون لبروانة: «كنت أراك كلّ مساء، لكنكِ لم تثيري اهتمامي، إلى أن شعرت مرّة أنّ الهواءَ امتلأ برماد الفراشات، شعرت بذلك الغبار الرقيق يغطّي ملابسي، ويدي، ووجهي وحاجبي. غبار ناعم لا أحد يراه سواي. لم أكن أظن بوجود إنسان ينثر، مثل الفراشات، غبارًا ساحرًا. كنت في ريبة من أن يكون هذا الغبار قد أثير من جسد بشري. وعندما تتبعتك... في الحقيقة كنت أتبع ذلك الغبار الناعم كالحرير الذي تثيرينه خلفك». من الواضح أن فريدون وبروانة كانا منذ البداية ضحايا ذلك الخيال العجيب، الذي قد خُلق بصورة من الصور في ذلك الفصل بالتزامن مع بقيّة الأحلام. حين اعترض فريدون درب بروانة أول مرّة أمام المكتبة، بدل أن يعطيَها رسالة، أعطاها كتابًا لخرائط، وقد وضع بين صفحاته عددًا

من الفراشات الجميلة. أتذكّر الآن ذلك اليوم حين عادت بروانة من المدرسة بسرعة وقبل أن تبدّل ثيابها، ارتمت على السرير، أخرجت الكتاب من حقيبتها وبدأت تبحث فيه عن رسالة أو كلمة أو حرف أو أية إشارة عن الحُبّ، لكنّها لم تجد شيئًا. بطريقة ما أقنعت نفسَها بأنّ الشابَّ ربّما كان أميًا، أرعبتها رؤية كل تلك الفراشات، فراشات ميتة في الكتاب، مشهد ذلك الجمال الصامت أرعبها. ثم تبيّن لها أنّ تلك الخرائط ليست سوى خرائط لبلدان خيالية. فسّرت بروانة الأمر على أنّه عبارة عن رسالة مليئة بالرموز الضعيفة. فراشات، وبساتين، وتماثيل، كانت ترى فيهم صدًى خفيًا لأحلامها المعرّضة للضياع في ممالك مجهولة وغير معروفة.

في اليوم التالي، وفي المكان ذاته أمام القضبان نفسها، مثل عاشقة، قالت لفريدون: «لا تقتل الفراشات بعد الآن». حينها لم يعلّق فريدون على كلامها. ولكن لما خطا نحو أيام العشق الأولى قال: «الفراشات هي جسري الوحيد للعبور نحو الأمنيات، إنّها جسري إلى الخيال...». يا ترى هل كانت تلك العبارتان مجرّد تعبير في كتاب ينطقها فريدون دون إدراك لما يقول، أم كانتا كلاما صادرًا عن أعماق رجل وحيد؟ لم تكن بروانة تعرف الجواب.

بعد ذلك اللقاء مع بروانة، لم يصطد فريدون أيّ فراشة... ترك عادة صيد الفراشات منذ تلك اللحظة حتّى مماتِه.

منذ الأسبوع الأول من الحب، خيم شعور غريب على بروانة، شعور جعلها ترى فريدون رجل مؤقت. رجل يمكن أن يظهر في

العالم في أيّ وقت، ويختفي فجأة. الأمرُ الوحيد الجدّي والمهم في حياة فريدون كان الصمت العميق وأحلام الرحيل. ماعدا ذلك، كل الأمور الأخرى مثل اللعب، التسكع في المقاهي، مجالس الخمر، الجلوس أمام المكتبة، كلّها كانت أقنعة تعكس ضجيجًا لرجل صامت. أكثر ما كان يجذب بروانة إليه هو ذلك الصمت في عينيه، صمتٌ يثير الرعب، أكثر من صمت أعماق الكون المظلمة. نادرًا ما ألتقيت به. لم تلفت عيناه انتباهي، لكن بروانة كانت تقول: «أنتِ عمياء، أنت طفلة لا ترين هذه الأمور. الحياة برفقة درويش متجوّل أجمل منها مع رجل يألف مكانًا ولا يغيّره أبدًا». حين كنّا نتجاذب أطراف الحديث على السرير قبل النوم، كنتُ أشعر بأنّها تكره جميع الرجال الذين لا تجذبهم فكرة السفر. قالت: «ماذا يوجد في هذه المدينة سوى الجدران والمزاريب؟» منذ الأسبوع الأول، بدأت تكرّر كلّ الكلام والأمنيّات التي سبق وتحدّثت بها مع عشّاقها الآخرين، حول السفر والرحيل عن هذه المدينة التي تراها مدينة «العشّاق غير الأوفياء» و«الرجال الخونة»، إنّها مدينة جميع الانكسارات والهزائم المتعاقبة والتي وضعت حياتها في دوامة مجنونة.

من المثير أنّ فريدون أيضًا ومنذ الأسبوع الأول، بدأ يحكي عن أماكن خيالية، جزر بعيدة، ومدن ساحرة مبنيّة من زجاج على شواطئ البحر. وبدل أن يتحدّث عن الحُبّ والجمال، استغرق في الحديث عن تلك العوالم البعيدة. الليالي الطويلة التي كان فريدون يقضيها في الجلوس والتفكير أمام المكتبة وسعت آفاق خياله. صارت لديه القدرةُ على التحدّث طويلًا، ودون توقّفٍ، عن الأراضي الأسطورية

في بلاد عجيبة. قدرة كانت تجذب بروانة، مباشرة، إلى قلب عالم ساحر. يومًا بعد يوم وجدت نفسها أكثر قربًا من ذلك الشابّ الذي يعكس حال جميع العشّاق الآخرين، مع أنّ هيئته الخارجية، بلباسه الكردي التقليدي والمعفّر بالطحين، لم تكن تعكس أيّ رومانسية. كان منظره يذكّر بروانة بأولئك الشباب الأشقياء الذين كانوا يتحرّشون بها وبعشّاقها في الشوارع.

أنا متأكّدة الآن أن ما جعل قلب بروانة يرقّ لفريدون ويميل إليه في المرّة الأولى، هو كتاب الفراشات والصور. لا أحد يعلم أيّ شيطان أوحى بتلك الفكرة لفريدون لكي يتقرّب بها من بروانة. ثم إنّ الأمر الذي أعطى الاستمرارية لعلاقتهما هو التقاء أفكارهما حول عالم، كلاهما على يقين بعدم وجوده على هذه الأرض، كما كانا مؤمنين بأنّه من دون هذه الأحلام لا معنى للحياة.

في ذلك الموسم، موسم الخيال الواسع، غرقت بروانة أيضًا، كما الجميع، في بحر الأحلامَ والأمنيّات. لكن لا بدّ من القول إنّها في قرارة نفسها وجدت تقاربًا بين تصوّراتها وبين أقاليم الألم المثيرة تلك.

في البيت، كانت في حالة توتّر دائم. تتنقّل بين الغرف وفي الممرات جيئة وذهابًا. وفي المدرسة، كانت تظلّ برفقة ثلّة الفتيات الجميلات، تجري بثياب الرياضة في الساحة مع بنات رشيقات. وفي جميع حالاتها كان الحزن ملازمًا لعينيها على الدوام.

استغرب من جهلي في ذلك الوقت، لم يلفت انتباهي شيء غير

عادي أمام المكتبة. لا أعرف مَن الذي استدرج فريدون وبروانة صباح إحراق المكتبة إلى داخلها؟ يا الله، مررت لآلاف المرات أمام تلك المكتبة ولم ألحظ شيئًا. لكن لا بدّ من القول، إنّ بروانة كانت في تلك الفترة تتهرّب منّي وتخرج وحدها. أحيانًا، كنت أنتظرها أمام المدرسة، ثم يتبيّن لي أنّها غادرت من دوني، فأغضب بشدّة، كنت أكاد أبكي في الطريق المارّ من أمام المدرسة بين بائع بذور عباد الشمس وعربات بائع الفول والأولاد هناك... كنت أشعر بالظلم، مع ذلك لم تتنازل ولو مرّة واحدة لتعتذر منّي. اليوم، حين أعيد تلك الذكريات، أشعر بقسوة معاملتها لي. لم تخبرني أنّها تعرّفت إلى فريدون ملك... بعد سنوات طويلة، وحين كنت أمرّ مساءً من أمام محلّ رضا دلخوش، وقفت لشرب كوب من العصير. روى لي الكثير من الأحداث عن تلك الأيام. قال بأنّ بروانة زارت فريدون في غرفته الصغيرة مرّات عدة، وكانت تتمدّد على أريكته وتحلم بتلك الأرض الخيالية. كنتُ أظنّ أن علاقتها مع فريدون تقتصر على لقاءات في الشارع، أو باتصالات عبر هاتف إحدى صديقاتها. لكنّ رضا دلخوش أكّد لي، اليوم، بأنه التقى ببروانة في غرفة فريدون. وأنهم مرات ومرات وضعوا خرائط ثلاثية الأبعاد، وفكّروا معًا باختيار طرق للسفر والهجرة إلى جنّة البلاد الأجنبية. لكنّ أحلامهم كانت تسقط دائمًا أمام عدم توفّر المال. وكثيرًا ما خدعوا بأكاذيب المهرّبين. كرّر رضا دلخوش بخجل وأسف، بأنّ لولا تلك المصيبة التي حصلت في منتصف موسم الخيال، ربّما كانا قد وجدا حلًّا معًا. لأنّه حينها لم تكن الحدود كلّها قد أُغلقت بعدُ، لم يكن الحرّاس المتوحّشون في الحرس الجمهوري قد وصلوا إلى جميع نقاط الحدود ليمنعوا سيل

الرجال المغادرين، الذين لعنوا الوطن وتوجّهوا نحو جنّات الخيال البعيدة... في ذلك الموسم، وفي تلك الفترة من الأحلام، حدث شيء آخر أحبط فريدون وبروانة.

حين ترك فريدون ملك صيد الفراشات، كان مؤمنًا بأنّ بروانة بحدّ ذاتها تمثّل الرابط بين البشر والفراشات. تلك العَلاقة التي ظلّ يبحث عنها منذ صغره. في إحدى الليالي، وفي طريق عودتهما إلى البيت، قال فريدون لرضا: «منذ طفولتي، منذ أن انتقلت للعيش في بيت عمّي وبدأت أتعرّض لوابل شتائم زوجة عمّي، من حينها وأنا أحلم بإنسان يشبه الفراشات... منذ ذلك الزمن وأنا أبحث عن كائن نصفه بشر والنصف الآخر فراشة». كرّر العبارة نفسها، في الورشة، في حديثه مع كوفاند.

كان كوفاند سعيدًا للغاية، كتب أوّل مرّة إلى نصرالدين، استهلّ الرسالة: «الأخ نصرالدين، بعد التحية والسلام، الخبر الأكثر غرابةً هو أنّ صديقَنا فريدون قد وقع في حبّ حقيقيّ هذه المرّة». رفع كأسه بين تماثيله: «حسنًا فعل. تخلّص من قصص الغرام الرمادية في شوارع المدينة، وها هو في عَلاقة حبّ مع فتاة جميلة وجذّابة». لكن، على سعادته بالخبر، إلا أنّه لم يكن مقتنعًا بطباع بروانة الشبيهة بالفراشات. ورأى في هذه المسألة أيضًا بأنّها حالةٌ من حالات الخيال، تحت تأثير كتب الشعر التي اعتاد فريدون قراءتها في المكتبة. ولكن كان لرضا رأيٌ آخر: «فريدون... فريدون ملك يا صديقي العزيز، ما الفراشة؟ قل لي بربّك ما الفراشة؟ خذ أيّ شخص منّا، فستجد نصفنا بشرًا ونصفنا فراشة». رضا الذي يؤمن تمامًا بجانب بروانة الشبيه

بالفراشة، يذهب أحيانًا أبعد من ذلك. كان الخيالُ يأخذه إلى آفاق أبعد. كان، كلَّ ليلة، يقف أمام المرآة عاريًا، يتأمّل جسمه، إلى أن آمن مرّة وبصورة مطلقة بأنّ بين خلايا جسمه ترقد فراشة! لم يصدق في البداية. كان متخوّفًا، لكنّه شعر بطيران تلك الفراشة بصورة واضحة، شعر بحركاتها. غالبًا ما كان يتقلّب في الفراش ويفكّر، يشعر بنموها بين جنباته. لكنّه خاف أن يكشف الأمر لبروانة وفريدون. كان من الممكن أن يظلّ الأمر سرّيًا، ويبقى مجرّد شعور داخليّ، لو لا أنّه في يوم من الأيام، بينما كان أخوه يرتّب مجموعة كتب جديدة على رفوف المكتبة، عثر على كتاب عن تاريخ الطيران. رضا دلخوش الذي لا يتقن سوى اللغة الكردية، عندما فتح الكتاب ووجد فيه صورًا مثيرة للانتباه لإكاروس وعبّاس بن فرناس، ساءت حاله تمامًا. هو الذي يعتقد بوجود فراشة في روحه، جاءت صور رجال مثيرين هزّت كيانَه بصورة غريبة وبلا رحمة. في إحدى الليالي وقبل أن يتجرّأ ويفشي سرّه لأحد، قرّر الطيران.

ها هو رضا اليوم، وفي استراحته أثناء العمل يؤكّد لي قائلًا: «لازال حُلم الطيران يراودني، بقدر تعلّقي بصور إكاروس وبقية الرجال غريبي الأطوار، بقدر ما كان هاجس رؤية طبيعتي الشبيهة بالفراشات، يكبر في مخيّلتي». حين يذكر تلك الأيام، يضحك بشدّة، حتّى إنّه يفقد القدرة على الكلام من فرط الضحك، يبقى لبعض الوقت في تلك الحالة واضعًا يده على صدره حتى يهدأ قليلًا. لا أحد يمكنه أن يتصوّر كيف لرجل بهذه الهيئة، رجل متعَب ومسنٍّ إلى حدّ ما، أو ظِل رجل، كيف فكّر في يوم من الأيام بالطيرانَ؟ لكنّني حينما تمعّنتُ فيه جيدًا،

وتخيّلته خارج أجواء محلّ بيع العصير، حين تصوّرته شابًا أمام تلك القضبان، استطعت أن أرى حقيقة تلك الفراشة الصغيرة في أعماقه، والتي لازال لها ظلّ صغير على حركاته. كان رضا دلخوش يعتقد أنّ الخطأ الكبير الذي ارتكبه إكاروس وعبّاس بن فرناس هو أنّهما صنعا أجنحة كأجنحة الطيور، في الوقت الذي ينبغي للإنسان لكي يتمكّن من الطيران، أن يحمل أجنحة كأجنحة الفراشات. وبناءً على ذلك، جلب قماشًا شديد الرقّة والنعومة، بعيدًا عن أعين أخوته. بالخفاء في ضوء شمعة خافتة، بدأ يزيّنها بالرسوم والزخارف والأشكال الجميلة، لتبدوَ مثل أجنحة الفراشات. قرّر أن يتخلّص من ابتزاز المهربين وكذبهم، كما قرّر ألا ينتظر إلى حين امتلاك المال الكافي الذي لن يحصل عليه أبدًا. لذلك كان الطيران هو الحلّ الأفضل.

لم تكن الأجنحة كبيرة. ربّما اعتمد النسبة والتناسب بين أجنحة الفراشة وحجمها مقاسًا للتناسب بين أجنحته وحجمه. صمّمها بطريقة هندسية بحيث يمكنه تجربتها في فضاء غرفته. رضا الذي لا يؤمن بالمعجزات كثيرًا، لاحظ في الاختبار الأول أنّ الجناحين بإمكانهما رفعه عن الأرض فقط عدة خطوات ثم يقوم بحمل عموده ويطير. جرب مرَّات عدّة متتالية، كانت كلّ محاولاته ناجحة. فرح رضا لذلك كثيرًا، ظانًا أنّه عثر على السبيل إلى الحرية.

في الليلة التي حمل أجنحته في صندوق كبير وصعد إلى أعلى بناء في المدينة، لم يخطر له أن يلاقي ذلك المصير. يصف رضا تلك الساعات فيقول: «الزمن الذي قطعت فيه مسافة عدّة مئات من الأمتار بين حافّة المبنى ونهاية الحديقة العامّة، هي من أجمل ساعات

حياتي. حلّقت أوّل مئتي متر بصورة طبيعية تمامًا، لدرجة خُيّل إليّ أنّني سأجتاز العالم إلى الجهة الأخرى. لكن عندما وصلتُ إلى فوق الأشجار، غيرتُ المرساة لأميل قليلًا كي أتمكّن من الطيران بوجه أفقي، ومن ثَم أتمكّن من رؤية الأشجار في الأسفل. مع تغيير المرساة، فقدتُ التوازن، ولم أتمكّن من الصمود. حتّى اللحظة التي انحرفت فيها من طرف الحديقة وسقطت وسط الأشجار، كانت متعة الطيران لدي تتفوّق على الخوف من الموت. حين علقت بين الأغصان مثل رجل مصلوب بقدمين مكسورتين، شعرتُ أنّ تلك الفراشة التي في أعماقي ما زالت تطير».

ربّما كان سقوط رضا وسط أشجار الحديقة العامّة بداية النهاية لموسِم الخيال والأحلام. لكن الحادث تزامن مع وصول رسالة نصرالدين إلى كوفاند، رسالة أحيت من جديد وبصورة خطيرة جميع الحالمين. قام العاملون في الحديقة العامّة بإنزال رضا بوساطة حبل عن الشجرة التي علّق عليها، نقلوه إلى المشفى بسيارة صغيرة لأحد العمال. كان وقعُ الخبر مؤلمًا على فريدون، تملّكه حزن ويأس من جديد انعكسا في نظراته وكلماته. لم تكن المشكلة فقط في فراق مفاجئ لصديق قديم كان يلازمه دومًا، وإنّما كونه سيظلّ طوال حياته يستخدم العكّازة أثناء المشي، كما قال الأطباء. ربّماكان ضغط الدّين والعائلة والأطباء له الأثر الكبير في التغيير الذي طرأ على رضا. الأطباء والمعارف القريبون والبعيدون كلّهم مقتنعون أنّ أوهام السفر التي تنتاب رضا هو داء غير عادي، ولا بدّ من معالجته. كان عليه أن يتردّد لأشهر عدّة إلى عيادات الأطباء وعند العرّافين ويُربط بالسلاسل

لكي يعود إلى طبيعته. كان عليه أن يتناول، لأشهر طويلة، الأدوية ويعالج بالأشعة. اهتمّ به الاختصاصيّون النفسيون ومجبّرو الكسور والصيادلة إلى أن تخلّص من أحلام السفر. أخيرًا، بعد أن تخلّص من معاناة التردّد على العيادات، كان قد تحوّل إلى رجل خجول بلا خيال، وجبان. كان على فريدون أن يقضيَ معه الكثير من الوقت ليعلّمه أمورًا سهلة. بذلك أستطيع القول إنّ رضا قد احتفظ في طيّات روحه بحبّ كبير لفريدون وبروانة. لولا تلك المحبّة الكبيرة لما فعل ما فعل يوم «القيامة»، يوم خرج الجميع للبحث عن فريدون وبروانة، خرج هو بعكّازته وتقدّم الحشدَ وأنقذَ العاشقين من الموت المحتوم مرّتين.

بعد انتهاء أعوام الحزن والشقاء تلك، والآن، حين نعيد التفكير في كلّ ما جرى من أحداث، نتوصّل إلى حقيقة أنّ مساء الفراشة أو مساء بروانة، جاء ليضع لها حدًّا.

ابتعاد رضا، قلب حياة فريدون رأسًا على عقب، كان قدره أن يهجره الأصدقاء ويتركوه وحيدًا. قدره أن يبقى منزويًا مع ذلك الرأس الغارق بالقلق. فقد كان كوفاند أيضًا، وفي صباح بارد من أيام الخريف، قد هرب مع دل آرام من المدينة بمساعدة سائق عجوز. التجأ إلى الجبال المرتفعة. هناك، كان نصر الدين في انتظارهما، حاملًا مسدسًا صغيرًا ومنظارًا أخضر اللون، واقفًا على صخرة مترقّبًا وصولهما بين عشرات الطرق. في الليلة التي سبقت رحيله، قام كوفاند بزيارة جميع الأماكن التي كان يرتادها. زار الفريق، زار الحانات، زار بعض أصدقائه القدامى، وفي كلّ مكان، جلس لبعض الوقت وتأمّل الأشياء بحزن، ومن ثم غادر بهدوء. في النهاية، حين التقى فريدون في السوق

قال له: «علينا أن نبدأ من البداية، من الأول... علينا أن ندرك حقيقة أن جميع السنوات التي مضت، مئات السنين الغابرة، كلّ تلك المدن الكبيرة والحضارات التي غرقت، كلّها ليست بشيء... كلّها كانت خاوية». بعد رحيل كوفاند ودل آرام، حزن فريدون حزنًا كبيرًا، كأنّ جميع فصول الخيال والأمل في حياته قد انتهت. في ذلك الأسبوع، وأول مرّة في حياته، اعتكف في البيت. لم يفتح الباب لبروانة، ولا حتّى لعمّاته. بعدها، وفي ليلة من ليالي الخريف، كان المطر والرعد يعبثان بميراث جميع الفصول الميتة، ارتمى إلى داخل حانة المدينة. هناك، جلس إلى جانب عدد من المغنّين المهمومين، كما لو كان يرغب أن يتبع خطا كوفاند. في ساعات الوَحدة واليأس والمعاناة من عشق بروانة والذي كان يراه كحبّ ملحمي، كان يشتدّ به الحزن أكثر فأكثر. تقرّب فريدون من مجلس أولئك المغنّين، حتّى إنّهم أصبحوا أصدقاء مقرّبين له. ثم فيما بعد، هم الذين وجدوا له عملًا في المخبز. في تلك الأيام، كان فريدون يزداد قناعة بشيئين اثنين، إيمانه بحبّه اللانهائي لبروانة، وإيمانه بالعزلة... بدأ يعاني من صراع داخلي، صراع تمكّن منه حتّى أعماق روحه، صراع بدأ يدمّر حياته.

10

مع نهاية موسم الأحلام، بدأ فصل دموي مخيف: فصل الجزّارين المظلم. لم يكن قد مضى وقت طويل على هروب كوفاند ودل آرام، حين بدأت ظلال الخوف الثقيلة والقاتلة تخيّم على حياتنا. في ذلك الفصل، بدأ هروب جماعي للعشّاق، وهجرة فردية للرجال. أثارت هذه الهجرة غضب المتديّنين والمؤمنين، ومن شدّة غضبهم صاروا يتشاجرون حتى مع الأشجار والسماء. في ذلك الموسم، نهض الرجال الذين كانوا حتّى الأمس يؤدّون صلاتهم بوقار، وفجأة وجدوا أشخاصًا آخرين غيرهم يصنع عالمهم. كانت الأمور مستتبّة إلى حين. توهّمت بعض الوقت أنّه لن يحدث شيء سيّء.

أولئك الأشخاص الذين رأوا في فصول خيالهم أحلامًا مجنّحة، رأوا أياديَ وأرجلًا إضافية، رأوا بلادًا أخرى وسماء أخرى... كانوا يذهبون إلى أعمالهم بهدوء، وبدا كلّ شيء طبيعيًا. وآخرون كانوا، ومن داخل أكواخهم المعتمة، يراقبون انتفاضة شهواتهم الجديدة، ينظرون بصمت إلى تغييرات العالم الباهرة. لم يكن في الحسبان أنّ عهدًا داميًا إلى هذا الحدّ في انتظارنا. إلى أن جاء يوم استيقظنا في الصباح وشاهدنا، أول مرّة، رأسَي عاشقين ملطّخين بالدماء قد عُلّقا كجرسَين على طرفي ساحة وسط المدينة. كانت تلك بداية موسم الدماء، والذي لم نكن ندرك حقيقة ما يجري فيه. ترافق الأمر حينها مع اشتعال الحرب على جميع جبهات حدود البلاد. بالإضافة إلى الحرب التي كانت تشنّها الدولة في الداخل على الشعب، وقد دمّرت

البلاد. أحيانًا، لم نكن نستطيع النوم من هول أصوات الرصاص والصواريخ، ومن شدّة خوفنا كنّا نلجأ بعجالة إلى السرداب ونبقى هناك حتّى الصباح. أخطر من ذلك، كان الحديث عن المجازر اليومية. كانت بروانة في تلك الأيام مرهقة جدًّا، فبدل أن تخرج برفقة عشّاقها، كانت تذهب، كلَّ ليلة، لتقصّي أخبار حوادث القتل المرعبة التي تحدث في أنحاء المدينة، كلَّ ليلة تعود وتروي لي قصصًا مرعبةً. عن مجموعات العشّاق الذين يتمّ حرقهم أحياء، وعن الفتيات اللائي يُذبحن على منبع النهر، وعن المشانق المنصوبة للناس حول المدينة وفي البلدات والقرى البعيدة. كانت تروي قصص الفجائع التي تنهال على النساء، وعن تقطيع أوصالهنّ بالفأس بتهم مختلفة. كانت تتجوّل في الليل كثيرًا. حار أمري فيها، كيف لها القدرة على سماع هذه المآسي ونقلها. كانت تتساءل: «لماذا العالم دموي إلى هذا الحد؟ ولماذا الحياة بشعة بهذه الصورة؟». كنت أسمعها بخوف وأقول: «كفى يا بروانة... كفى، لا أستطيع أن أسمع المزيد». ذات مرّة، قتلوا فتاة أمام مدرستنا. وأخرى، قاموا بتعليق جارنا بالقرب من ساحة صناعة الجلود. حدث ذلك في ليلة حالكة. حينها، شعرنا بالخطر يقترب منّا اقترابًا كبيرًا.

جاءت عمّتي وأخذت بروانة، بكيت بصوت منخفض وهي تحضر ثيابها للرحيل، أردت أن أفهم ما يجري، لكنّها لم تقل شيئًا، فقط كانت تردّد: «لا شيء، لا شيء أبدًا، نامي». ثم وقبل أن تذهب، عادت إلى الغرفة بحجّة غرض نسيته، همست لي: «إذا رأيتِ فريدون ملك قولي له سأعود، فليطمئن. إنّني عائدة». لكنّني لم ألتقِ فريدون.

ظهرت النساء، أول مرّة، قارعات الدفوف في الأزقّة والحارات. ظهر رجال غريبو الأطوار حول مدارس البنات، حاملين زجاجات من الأسيد. وفي ذلك الموسم أيضًا، اتخذت عمّتي موقعَها بين جيش من السيدات المؤمنات الورعات بمثابة صاحبة سلطة ونفوذ كبيرَين. ترك عدد كبير من الفتيات مقاعد الدراسة ولم يعدن إلى المدارس، حيث وصفوها بمدارس الكفر والجهل. كنّ يعقدن حجابهنّ ويقلن: «علينا أن نجاهد ضدَّ قلّة الحياء والفاحشة وقبح البشر». في أحد الأيام، جاءت تلك النسوة، بأوشحتهنّ البيضاء، إلى المدرسة، أخذن فتاة من صفها وسحبنها من شعرها في الطريق. أحرقوا دكان لحلاقة الشعر على مقربة منّا. قتلوا خياطًا شابًّا قام بخداع فتاة محجّبة. في ذلك الفصل الدموي، لم أكن أفهم قوانين الحياة والعبرة من كلّ تلك الدماء. الأمر الأكثر سوءًا، فيما يتعلّق بي، كان موت أسراب الطيور. كانت الطيور تتسلّل عبر النوافذ المكسورة إلى غرف المدرسة ثم تموت بين المقاعد. في الفصل ذاته، يبست أشجار الحدائق والبساتين. ظهر في الطرق رجالٌ بشعور طويلة حاملين سيوفًا. احتشد آلاف الرجال أمام المساجد، أعداد لم تُشاهد حتّى في أيام الخلفاء السالفة. انتشرت حوادث بشعة للغاية. كانت تسقط الفتيات في المدارس الواحدة تلو الأخرى فاقدات الوعي. نساءٌ يفقدن الوعي أثناء الصلاة. امتلأت شوارع المدينة وأزقّتها بالعرّافين والمنجّمين. ظهر رجل في أطراف المدينة كان يدَّعي: «أنا المهدي المرسل». ظهر نبيّ آخر كانت تنزل عليه الآيات بلغة عربية ولغة كردية سيئتين للغاية. كذلك قامت الدولة بشقّ طريق حول مدينتنا وزرعت الأراضي الزراعية من حولها بالألغام. حينها أيقنت أنّ بروانة لن تتمكّن من التخلّص من النسوة

المؤمنات. لكن، وفي منتصف إحدى الليالي، جاءت عمّتي ببروانة يائسة منها وقالت لوالدي: «لا توجد ذرّة من الإيمان في قلب ابنتك هذه. أدعُو اللهَ أن يشملك برحمته».

بعد عودتها، صارت بروانة أكثر عنادًا وأكثر قسوةً. صارت ترتدي أثوابًا أقصر ممّا كانت ترتديه من قبل، تمشي في الشارع بغرور وتحدٍّ أكبر، التزمتُ الصمت أثناء تلك الفترة، لذلك لم أعرف شيئًا عن تفاصيل حياتها. لا أعرف كيف كانا، هي وفريدون، يلتقيان في زمن الموت والدماء ذاك. كان فريدون يقضي الليل كلّه برفقة المغنّين. المغنّون الذين يغنّون وحسب! كان العالم ينهار من حولهم وهم مستمرّون في الغناء، يغنّون في الأسواق وفي أقبية البيوت. أحيانًا، ونتيجة إدمانهم الغناء، يغنّون في الطرقات. غالبًا كان يحضر مجالس غنائهم رجال غرباء، وهم يتنقّلون في ألحانهم بين مقامات العشق والأناشيد الثورية. حتمًا، وفي النهاية، أودى الحماس بهم جميعًا إلى دهاليز الموت القاتمة.

في ليالي السّكر، كان يعلو صوتهم بأغنية (يرنّ صوت خلخالك) الغزلية ثم ينتقلون إلى أغنية (يا ربّ تعمّر وطننا)، ومن أغنية (عند زاوية بالقرب من القبور) ينتقلون فجأة إلى النشيد الوطني الكردي (أي رقيب). وفي النهاية، تقوم قوّات الحكومة بملاحقة المغّنين السكارى واعتقالهم بتهمة ترديد أناشيد ممنوعة. أوّل ضحايا تلك الاعتقالات كانا صديقا فريدون المقرّبان. في الليلة التي أعدموا فيها الشابَين المغنّيَين وسط كرنفال جماهيري، اقتنع فريدون تمامًا أنّه لم يعد بإمكانه العيش في هذه البلاد. خلال الأسبوع نفسه، رأيت بروانة

مع فريدون ملك في المخبز، وفي الأسبوع ذاته، حدث ما حدث وتغيّرت حياتنا مع هروب بروانة... رحلت إلى عالم آخر، حيث أخذ نصرالدين المعطّر مجموعة أخرى من العشّاق إلى وادٍ سحيق. هناك نزلوا على سلّم مؤلف من ألف درجة. أنا متأكّدة أنّهم لن يشتاقوا إلى هذه المدينة أبدًا. لن يشتاقوا إلى هذه الحياة. حياة ملؤها الخوف والوحدة والهموم، تركوها خلفهم، تركوها لنا نحن أخواتهم الصغيرات الخائفات. حين خرجوا من ذلك الوادي، كانت أحلامهم تقودهم إلى رحيل آخر نحو أرض أفضل وحياة مختلفة. على العموم، كانت تلك رحلة بروانة الأخيرة. ذلك قبل أن تقوم بجمعنا من جديد في مساء بارد ومثلج. جمعتنا لشكر أبدي... شكر ملأ العالم بهباب الفراشات.

11

أثناء نزول فريدون ملك السُلّمَ ذا الألف درجة، بدأ يتذكّر صور البلاد والأقاليم العجيبة التي حلم بها يومًا ما. تأمّل بحرية تلك الغابة الكثيفة. قال: «في الأسفل، هنا في هذه الغابة، لا شكّ أنّنا سنعيش حياة مختلفة عن تلك التي عشناها في المدن والقرى. أنا متأكّد من أنّ رياحَ الشتاء الباردة جدًّا تأتي من سهول الشمال ووديانها الضيّقة، تحمل صقيع تلك البحيرات والأنهار وتلقي بها على هذه الغابة». علّق نصرالدين وهو ينزل بسلاحه، متوسطًا فريدون وبروانة: «عادة تكون الرياح شرقية، لكن لمّا كان هذا المكان منخفضًا، فمن ثَمّ تهبّ عليه الرياح من كافّة الاتجاهات وكافة المستويات، المرتفعة منها والمنخفضة، لتلتقي في الوسط». كانت بروانة متأخّرة عنهم بدرجتين، كان عليها في كلّ خطوة أن تتأكّد من ثبات قدمِها على الدرج الخشبي، ثم تتهيّأ للخطوة التالية. كانت تقول دون أن تنظر إلى السُلّم ذي الألف درجة: «التزموا الصمت، إذا انزلقت قدمي فسوف أصير ألف قطعة». أمّا صديق نصرالدين، ذو العينين الزرقاوين، البائع المتجوّل المبتسم والذي أطلق على نفسه لقب دليل العشّاق، فقد كان يقول لها: «لا تخافي يا خانم، حتّى الآن لم يسقط أحد، انظري إلى الغيوم والسهول والغابات بثقة دون خوف، توجد سيّدات عدّة أخريات، كلُّهنّ جئنَ مثلك إلى هذه الغابة». كان فريدون ينظر أحيانًا إلى أسراب الطيور المثيرة، المارّة بالقرب منهم، إلى آلاف الفراشات الخريفية التي تمرُّ بهدوء ورقّة، يتأمّل الورود الصامدة أمام الريح وبقايا العروش المحطّمة وهي تسبح في فراغ مجهول. كان يصرخ أحيانًا بين هبّتين

للريح، قائلًا: «انظري إلى الفراشات يا بروانة!»، يحرّر إحدى يديه ويمدّها إلى الفراشات التي تحطّ على كتفه. قال له المعطّر: «لا تشغل نفسَك كثيرًا بالفراشات». ثم قال الشابُّ ذي العينين الزرقاوين: «لا، رؤية الفراشات في هذا الوقت بهجة وفرح. هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها فراشات على هذا العُلُو. ما أعرفه أنّ الفراشات تخاف من الأماكن المرتفعة». قالت بروانة وهي مغمضةٌ عينَيها ومتشبّثة بأطراف السُّلّم: «أنا لا أرى الفراشات، عن أيّ فراشات تتحدّثون».

نزول فريدون على السُّلّم كان قد زوّد روحه بجَرعات منعشة من الهواء، منحته سعادة وحيوية جديدة. قبل الوصول بلحظات، ارتفع صوت زقزقة الطيور ارتفاعًا ملحوظًا، إلى درجة لم يكن بإمكان بعضهم سماع أصوات بعض. آلاف العصافير تغرّد، مئات الطيور تصفّق بجناحيها معًا والحركة نفسها. مع أنّ نصرالدين نزل السُّلّم مرَّات عدّة فقط، لكنّه لم ينسَ مشهد الطيور في ذلك الصباح وهي تطيرُ فوق الغابة في إيقاع أضفى سحرًا إضافيًا على المكان. مئات الطيور تبدو كأنّها تولدَ من رحم الكون، وتحمل معها مخاوف المخاض، متوجّهة نحو وادٍ سحيق. قام فريدون بمساعدة بروانة في النزول عن الدرجة الأخيرة: «عزيزتي... أغمضي عينيك واستنشقي رائحة الشمس، انظري، الأشياء هنا لها لون آخر». بروانة التي ظلّت أثناء رحلة النزول الطويلة مغمضة العينين تقريبًا، حين فتحتهما وهي في أحضان فريدون، رأت تلك الأشجار الضخمة ولون الشمس الذهبي وذاك الاخضرار الكثيف، كأنّما يتدفّق من الأشجار وينزل قطرات قطرات على الحجر، حينها صاحت: «آه، يا الله... ما المغزى

من كلّ هذا؟» لم يدرك الرجال الثلاثة إن كانت بروانة، بتلك العبارة، تعبّر عن السعادة أم عن اليأس... لكن مشاهد ثمار الكمثرى الكبيرة الجافّة المتساقطة تحت الأشجار، ومشاهد الأراجيح الغريبة المتدلّية من الأشجار، والطرقات الضيّقة المسيجة بالعشب، كلّ هذه الصور مثّلت لها إشارات ذات مغزى، لم تدركها حينها.

سار الأربعة في تلك الغابة، قال دليلهم أزرق العينين بابتسامته العفوية: «الشخص الأول الذي سار بين هذه الأشجار، في هذه البساتين والغابات، كان عاشقًا. ربّما كانت علاقة هذه الغابة مع العشّاق تعود إلى ما قبل قرن من الآن، حين قام عاشق مجهول، سرًّا، ووحده من دون علم أحد، بوضع هذا السُّلّم الأسطوري، والذي صنعه في ذلك الزمان من حبال إيرانية المنشأ، إنها من نفس نوع الحبال البحرية التي كان الفرس يستخدمونها في موانئ الجنوب لربط أشرعة سفنهم. لا شكّ أنّهم قد علّقوا السُّلّم هنا لكي ينزلوا مع حبيباتهم السيّئات الحظّ إلى قلب هذا الوادي، حتّى يتجنّبوا مصير العشّاق الذين قبلهم، بعد أن سمعوا عمّا جرى لهم من الرواة والمغنّين المتجوّلين».

منح الشاب فرصة صغيرة للطيور القريبة لتزقزق، وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا، تابع: «بعد العاشق الأوّل، بدأ العشّاق الذين ليس لهم أحد أو ملجأ يحميهم، بدؤوا يتوافدون إلى هنا، وتحوّلت الغابة إلى مخبأ لهم عبر السنين. بعضهم لم ينجح في إنشاء حياة جديدة، لكن بعضهم الآخر وبعد إنجاب أطفال عدّة، وبعد أن نَسِيَهم المجتمع، وصارت ذكراهم غابرة، عادوا إلى العالم مرّة أخرى. وبقي هذا المكان أرضًا خالية ومنسية». قال نصرالدين وهو يمشي بين العشب

بصوت مرتفع أرعب الزهور الصغيرة القريبة منه: «لم تعد اليوم أرضًا خالية ومنسية، انظر إلى العساكر الفارين الموجودين على سفوح هذه الجبال وأطرافها، لقد جعلوها ملجأ لهم. الفارّون من الحكومة نصبوا لأنفسهم خيامًا. كذلك الدراويش والمتدينون وجدوا لأنفسهم متسعًا هنا، وبنوا منازل ومسجدًا. حتّى القتلة يلجؤون إلى هذه السهول والوديان... على هذه الحال، لماذا يحرّم على العشّاق أن تكون لهم بقعة أرض تحميهم؟»، قال الدليل ذو العينين الزرقاوين: «باختصار، لأن الحبّ أخطر من كلّ شيء آخر. الحبُّ يجعل المرء، بدل أن يبحث عن الرب، يبحث عن وجه القمر والنجوم والجمال. مشكلة الحبّ هي أنّه كلما ازداد حلمًا، نسي نفسه ونسي العالم. ودائمًا ما ينتهي بفاجعة وحزن. أعرف أنه لا يوجد حبّ سعيد. الحبُّ السعيدُ هو دومًا الحبُّ الذي ينتهي بالموت». مسح نصرالدين عينيه بمنديل: «كيف لا يوجد حبّ سعيد؟ الحب في حد ذاته سعادة». البائع الشاب الذي كان قد حفظ عدّة قصائد كلاسيكية، انعكس تأثيرها على لغته، أجاب قائلًا: «لا، يا نصرالدين، الحبّ هو خيالٌ، الحبُّ وَهمٌ عجيبٌ عن المحبوب...». تابع الجميع السير بصمت، وهم يتبادلون النظرات دون أن يضيف أحدهم كلمة أخرى. كانت الشلالات والأنهار تستقبلهم بدهشة. عبروا فوق جسر خشبي صغير وسط الغابة، فوصلوا إلى أوّل استراحة. هناك، كان يوجد العشرات من العشّاق الهاربين، يعيشون تحت مظلات من القشّ وفي بيوت صغيرة في مجمع سكني مبعثر ومتباعد. من الواضح أنه مجمع جديد. اكتشف الإنسانُ هذا المكان منذ وقت ليس بالبعيد. قبل ذلك، كان العشّاق يهربون مع القوافل المسافرة إلى إيران وتوران وإلى الصين. كانوا

يهاجرون من إمبراطورية إلى إمبراطورية أخرى. من إمارة إلى أخرى، لكن اليوم وفي هذا العصر لا يوجد شبر آمن على هذه الأرض. على طول الحدود تقف الجيوش بعضها في مواجهة بعض. الأرض موزّعة بصورة مدروسة بين آلاف الزعماء والجماعات ومدجّجة بالحرّاس. كان نصرالدين حينها قد جال في المناطق كلّها، منطقةً منطقةً، قصد رؤساء العشائر والسياسيين الماكرين للاستعانة بهم في إيجاد مخبأ. قطع القرى والوديان والمنحدرات. جال كثيرًا. هناك أيضًا، تحسّر بعمق، مثل حسراته حين كان يجول شوارع المدينة. ومن هناك، من فوق تلك الأرض الصُّلبة كالحديد، قال: «يا لَها من إهانة للحبّ، في مملكة كانت وطنًا لآلاف العشائر المختلفة، آلاف الأجيال، وآلاف الأنبياء، من صادقين وكاذبين. ألا يوجد فيها مكان للعشّاق؟ ماذا يمكن أن نسمّي أرضًا لا يوجد فيها مكان للحبّ؟ يا لَلهول، ما هذا التحقير! يا لَلخجل، أرض بهذه المساحة الكبيرة، وطنٌ يحوي في أحد أطرافه قبر فرهاد وفي الطرف الآخر مزار مَمُوزينْ، ولا يحوي ملجأ للعشّاق، يا لَهذا العار!».

في النهاية، وبعد جُهدٍ جهيد، التقى نصرالدين رجلًا عجوزًا. هو عاشق قديم، قضى كلّ حياته في الاختباء مع حبيبته بين هذه الجبال، دلّه على الطريق بعد سير يوم كامل وأوصله إلى ذلك السلّم ثمّ قال له: «قبل زمن بعيد، عشتُ هاربًا مختبئًا في هذه الغابة». دُهِش نصرالدين لرؤية هذه البقعة من الأرض وقال: «هذا المكان خارج الزمان، خارج الكون، أبدعه خيالُ إلهٍ هارب من السماء... يا لَهذه القلعة! يا لَلمكان الغريب الذي لا قاع له! المكان الذي لن يعثر عليه حتى الشيطان، دون

دليل يقوده إليه!». قال العجوز: «لا تذهب بعيدًا بخيالك يا نصر الدين، فتظنّ أن لا أحد يمكن أن يستدلّ على هذه الأرض، لا تفقد عقلك وتظن أنّك عثرت على قلعة محصّنة وحصينة. اعلم أن هذا المكان مثله مثل أيّ أرض أخرى، واعلم أنّه لا توجد بقعة على هذه الأرض يصعب على الإنسان الوصول إليها. أنا أحذّرك، أحذّرك».

تأمّل نصرالدين الرجل العجوز الذي أمضى عمره في مخابئ العشق، والتي يسمّيها «أوكار العاشقين»، لكنّه لم يقل شيئًا. فقط كان يئنُّ من أعماقه: «نعم، إلى أين سيذهب كل هذا الحب غير المكتمل؟ كلّ قصص الحبّ المغتالة هذه، إلى أين يمكنها أن تمضي؟».

في طريق العودة، حين سمع من نصرالدين قصّة ذلك الوادي البعيد، كان سيامند بالند ينتظر على أرض صخرية خضراء، مثل طائر باز منهك، قال: «دلّني على ذلك المكان، سأكون أول من يذهب إلى هناك، سأذهب هذه الليلة، في هذه الليلة بالذات سأجلب معصومة».

سيامند بالند، هو أول الأشخاص الذين وصلوا إلى الغابة، ومن ثم توجّه عشّاق آخرون إليها. كان نصرالدين يعرف بعضهم. إنّهم من العشّاق الذين لم يصلوا لمرادهم. معظمهم من الشباب والبنات الهاربين إلى الكهوف.

حين وصل فريدون ملك وبروانة، سُحرا بفنون أوراق الأشجار ونشوة المياه. استقبلهما كوفاند النحات ذو الشعر الأسود الطويل، والذي صار أطول من قبل، تحت أول عرزال. أحسّ فريدون ومنذ اللحظات الأولى بتغيّر كبير في كوفاند. بدا أكثر جدّيةً ونشاطًا من

قبل، من الواضح أنّه جعل بينه وبين العالم فسحة أوسع. كان يرتدي سترة طويلة بلا أكمام فوق سروال طويل. سُرّ برؤية فريدون، لكن لسبب ما غير معروف، لم يظهر شعوره، وبدأ يشغل نفسه بأحجار ملساء كان يلوّنها وقت فراغه، الحجارة التي يصنع منها بيوتًا صغيرة جدًّا وأراجيح ملوّنة وقلاعًا مستديرة، كان يصنعها بطريقة هندسية جميلة ومتقنة، يوزّعها على ضفاف النهر. كلّما توغّل فريدون ملك ورفاقه إلى أعماق الغابة أكثر، وجدوا تلك الأشكال العجيبة التي وضعها كوفاند في جهات الغابة الأربع، عشرات من الحيوانات الغريبة، بنات آوى بنية اللون، خنازير ملوّنة، دببة بلون برتقالي وأحمر، ماعز بريّ أبيض اللون، عجائز بوم سوداء، حمامات أرجوانية وديكة حمر. كان كوفاند يتقدّم ضيوفه ويقول: «أهلًا بكم، أهلًا بكم في هذه البلاد». ظلّ نصر الدين ينظر إلى مظلّات القشّ والبيوت التي بناها العشّاق بثقة، وهو يتحسّر على نفسه لأنه لم يكن عاشقًا. كان الدليل ذي العينين الزرقاوين ينظر بفرح إلى تلك اللقالق زيتونية اللون الواقفة بين الأشجار، حين قال لكوفاند: «في كلّ مرّة أجيء إلى هنا، أجد شيئًا جديدًا قد أضيف إلى المكان. لم تكن هذه اللقالق وتلك الجمال موجودة. حين أشاهد هذه الحيوانات الملونة التي تصنعها من الحجارة والخشب ومن أوراق الأشجار، أشعر أن الإنسان لا يدرك معنى إلهام النبوءة. في النتيجة، ليس شرطًا أن ينزل الوحي عن طريق الكتب، يعني أن ينزل على الأنبياء بالكلمات، بل يمكن أن ينزل الوحي بأسلوب آخر، أليس كذلك؟».

كانوا ينظرون بصمت إلى كوفاند الذي يتقدّمهم، وهو يقول

بصوت فيه ورع إلهي: «لا تكثروا النظر إلى هذه التماثيل، إن التمعن فيها مليًا سوف يلهب خيالكم بصورة مرعبة، ستواجهون في مخيّلتكم بلاءً بحيث يصعب عليكم التمييز بين الحقيقة والكذب. هذه التماثيل لي، لا علاقة لها بأحد سواي».

لم تفهم بروانة حينها القصد من كلام كوفاند، لكن مع مرور الوقت واختبار الحياة في هذه الغابة، اتّضح لها كل شيء.

تقدمهم كوفاند، يومها، بعكّازته الطويلة، إلى داخل المكان. في طريقهم، رأوا العشّاق من الرجال والنساء واقفين أمام بيوتهم الصغيرة وتحت مظلّات القش، أو يمدّون رؤوسهم من تحت بطانيات وهم يرمقون إلى الضيوف الجدد بنظراتهم. كان نصرالدين يردّ عليهم بابتسامته الخجولة الشبيهة بابتسامة أنثى. عالمٌ جعل بروانة تشعر فيه، من الساعة الأولى، بالخوف والكراهية. لا أحد يعلم لماذا، ومنذ اللحظة الأولى، لم ترتح بروانة لذلك الشخص الذي يتقمص دور نبيّ. لم ينظر كوفاند إلى عيني الفتاة التي سمع الكثير عن سحرها وجمالها. من الواضح أن الجميع سيبقى هنا، وقفوا عند تنور، حيث نساء يصنعن الخبز من القمح الشامي، ومن الشعير والبلوطً. وأمام نار التنور، روى لهم كوفاند حكايات عن أيامه الأولى، قصَّ قصة مجيئه ونزوله مع دل آرام إلى هذا الوادي المنسيّ. حين كان يتكلّم، لم يتلمس فيه فريدون صوت صديقه القديم، صديقه في المقاهي وفي نزهاتهم حول المدينة، حين كان يسكر ويشتم، ويرمي بزجاجات الخمر الفارغة ويرقص. الآن هو شخص آخر، شخص بهيئة نورانية، يراه بهيئة شيخ. قال كوفاند: «حين جئنا، كانت جميع

درجات السُّلّم اللعين تهتزّ من تحت أقدامنا. كنّا نخشى أن ينقطع ونسقط إلى الأسفل. رافقتنا غيمة إلى أن نزلنا إلى الأسفل. لم نستطع أن نرى شيئًا سوى تلك الغيمة، فقط رأيت ظلّ عدّة ورود مرسومة على الغيمة كأنّها محفورة على حجر. عندما وصلنا أنا ودل آرام، كان العشّاق الآخرون قد اتخذوا أماكنهم. كلّهم كانوا جددًا في المكان، كأنما لم تطأ قدما أحدٍ المكان منذ عشرات السنين، وجدنا في بعض الزوايا عظامًا قديمة جدًّا لعشّاق، يبدو أنّهم ماتوا ولم يكن من بعدهم أحد ليدفنهم. كان علينا في الأسبوع الأوّل أن نجمع العظام وندفنها، لكي نستطيع العيش بصورة طبيعية».

ظلّ يعبث بالحجارة الصغيرة وأوراق الشجر المتساقطة أمامه بوساطة عكّازته وهو يقول: «عندما جئت أول مرّة إلى هذه الغابة، كنت مقتنعًا أنّني سوف ألاقي مصيري المحتوم لا محالة. في الليالي الطويلة، كانت السماء على شكل حصارٍ من الخوف والإثم والوَحدة. كنّا، أنا ودل آرام، نصرخ معًا. لكنّ صوت المياه يقتل الصدى. كان عليّ أن أصنع هذا العالم خطوة بخطوة، أن أفكّر بالنّار والصيد والزراعة والمستقبل. أن أفكّر بإقامة عَلاقة جديدة مع هذه الطبيعة التي لا أفهمها ولا هي تفهمني. كان عليّ أن أقضي وقتًا طويلًا في محادثة الحجارة والأشجار والطيور، وأن أتحدّث إلى ضفاف الأنهار وأستنطقها. إلى أن شعرت في يوم من الأيام بأنّني لست وحيدًا. شعرت أنّ العشّاق بدؤوا يومًا بعد يوم يودّعون تلك المخاوف الكبيرة الخارجية، ذلك العالم المرعب، عالم القرى والمدن، عالم الدين والسياسة. الآن، أشعر في أعماق قلبي بأنه بالإمكان أن يتحوّل هذا

المكان إلى مدينة مستقلّة ومختلفة، تكون أجمل وأوسع وأكثر حرية من العالم الذي أتينا منه. هذا المكان وطنٌ محصّن، يمكن لكلّ ملّة وكلّ عشيرة أن تؤسّس قوانينها بطريقتها الخاصّة وحسب شريعتها. نحن أيضًا يمكن أن تكون لنا شريعة وقوانين».

تحدث كوفاند بصوت خفيض متواصل، بصوت إنسان، تحت سماء هذه الغابة، يفكّر بقيود الحياة. أشار بيده إلى الجهات المرتفعة والمحيطة بالوادي التي لا يمكن لأحد أن ينزل عبرها، أشار إلى الشمال، إلى المرتفعات الخطرة التي يفضي كلّ منحدر منها إلى بحيرة صغيرة. في بعض الأماكن تحوّلت المياه إلى شلال متدفّق، بحيث لا يمكن أن يخرج منها كائن من كان. وفي الأسفل، كان النهر والشلال يشكّلان بحيرة. من الواضح أنه أثناء أشهر عدّة، جال في كلّ شبر من هذه الغابة. كان يعلم أنّ على مَن يحاول الدخول إلى الغابة ليس له سبيل سوى جهة واحدة تمكّنه من ذلك.

في ذلك اليوم، وإلى حين ساعة الغروب، ظلّ كوفاند يشير إلى الأشجار والأنهار والطيور والأحجار. كان يشرح لهم عن الطرق المتداخلة للغابة وعن مياهها التي تكوّن أسوار تحصن الوادي. كان يحمل في عينيه طمأنينة وتفاؤل غريبين، مختلفين عن الغمّ الدائم الذي تحمله بروانة في روحها.

كانت الليلة الأولى في الغابة ليلة مثيرة. أمّا فيما يتعلّق بفريدون ملك، فكانت عبارة عن خدعةِ رؤية عالم آخر، وأمّا بروانة، فقد كانت عبارة عن خوف وأشباح ودهشة. منذ لحظة جلوس العشّاق

في حلقة سحرية واسعة حول النار، أحسّت بروانة بقلق تجاه هذا العالم. تأمّلت تلك الأجساد المنهكة المتجمّعة حول صوت كوفاند المشبع بالحُلم والنصح، وتساءلت في نفسها: «هل هذا المكان جنّة أم جحيم؟». كان لكوفاند، بصورته الغريبة والماكرة، القدرة على أن يسحر العشّاق. فيجلس كلّ ليلةٍ أمام تلك النار، ويسرد أحلامه بصوت منتشٍ، يتحدّث عن العالم الذي يمكن خلقه، يضع خرائطَ لمدن خياليةٍ يمكنها أن تتحوّل إلى جنان، وعن قدرتهم على العثور على أرض الحرية. لكنّ بروانة لم تَكن ترى سوى أرضٍ نائيةٍ عن العالم، مظلمة ومختلطة. بروانة لم تر من حولها سوى وجوهٍ غريبةٍ، تنظر إليهم بغرابة وتبادلها النظرات بغرابة أيضًا. لا شيء من حولها في تلك الغابة يبشّر بشيءٍ سوى الغربة. أكثر ما كان يثير انتباه بروانة هو مشهد أولئك الأطفال غير الشرعيين من أبناء العشّاق، العشّاق الذين كانوا قبلًا يعيشون في الكهوف والجبال، وبنوا لأنفسهم بيوتًا هناك. أولئك الأطفال الذين تربّوا وكبروا وسط الخوف والعواصف. أطفال عَلاقتهم بالريح والليل والعشب والأشجار أقوى من عَلاقتهم بالبشر. أرواحهم معجونة من أطيان الأنهار. يقضون اليوم كلّه في اللعب بين أوراق الأشجار. قالت: «إنهم يكبرون بعيدًا عن العالم، بعيدًا عن المدن، سيعيشون مثل أطفال أرض ملعونة». حينما كانت ترفع رأسها إلى الأعلى، لم تكن ترى سوى الأوراق، فروع وأغصان الأشجار الجهنمية. في تلك الليلة، ناما تحت عرزال صغير. سرعان ما استغرق فريدون في النوم، لكنّ بروانة لم تستطع النوم من شدّة الأصوات المختلفة، من خرير الأنهار والضجيج. كانت تراقب النمل الفضّي الذي يشعّ كالأضواء، وأسراب الجراد كبيرة الحجم وهي تحلّق وسط

الغابة، فيشعّ من أجنحتها نورٌ أحمرُ ناريّ. رأت مخلوقات غريبة. كان الماء يشعّ كالجمر وينطفئ. رأت أولئك الصغار وهم يتجمّعون كما لو أنّ ساحرًا يجمعهم، يصنعون هيئاتٍ وصورًا عجيبة للغاية، وفي لحظة، عندما تفتح عينيها تجدهم قد تفرّقوا وابتعد بعضهم عن بعض.

في الأيام التالية، اكتشفت بروانة، عن قرب، حقيقة تلك الحياة، اقتربت من النساء الواهنات اللائي كنّ يصنعن السلال الصغيرة. كانت ترافق كوفاند وفريدون إلى الورشة الكبيرة التي بنوها في زاوية كثيفة من الغابة، حيث هناك رجال يصنعون تماثيلَ صغيرة تمثّل عاشقين متعانقين وسط صمت لافت. يقوم فريدون بتنفيذ كلّ التعليمات التي تعلّمها من كوفاند في ورشة المدينة سابقًا. بذلك صار صانع تماثيل يردّد الأغاني بنشوة ويعمل. عاد والتقى مع سيامند بالند في اليوم الأول، سيامند لم يكن يحضر الاجتماعات الليلية التي يعقدها كوفاند. كان يتّخذ له، بصورة دائمة، شجرة يصعد إليها ومن هناك يتأمّل الليل، ويراقب كوفاند وبقية العشّاق بعينين لامعتين. سيامند الذي يُشبّهونه بطائر الباز أو بعقاب شرير، كان عمله هو القيام بقطع الأشجار وتحضيرها للنحّاتين. عندما رآه فريدون في المرة الأولى وبيده الفأس، أراد أن يسلّم عليه ويذكره باليومين الذين قضاهما معه في ورشة كوفاند وبسهرتهم في أرض عباد الشمس، لكنّه لم يكن يبدِ أيّ اهتمام بفريدون، أدار وجهه عنه وصعد إلى أعالي شجرة واختبأ بين أوراقها. في اعتقاد الجميع هنا، أن سيامند هو أخطر شخص موجود في هذا الوادي وأكثرهم صمتًا. كان كوفاند يقول في نفسه: «يعتقد سيامند أنّ هذه الغابة هي وطنه وأنّنا قمنا بالاستيلاء عليها».

تعرف فريدون، في الورشة، على كلٍّ من عزيز تيرانداز (الرامي البارع) وهو الشخص الوحيد الذي يملك بندقية في الغابة، ويعدّ نفسه القناص الأفضل في العالم. ومهدي كولباخ (البستان) الذي يقوم كلّ ليلة وبعد الانتهاء من العمل، بجمع الورود البرية ويضعها في زجاجة ويصنع منها شراب الورد. وكذلك تعرّف إلى غمكين سعيد، الحزين الفَرِح، والذي تتوزّع حياته بصورة غريبة بين لحظاتٍ من البكاء العميق والضحك الصاخب. وإلى كالبا، الذي يتقن تقليد عزف جميع الأغاني المشهورة والسيمفونيات المهمّة عن طريق التصفير بصوته. وأيضًا تعرف إلى أسعد نامو، الغريب الأطوار، الذي يعيش على تناول النباتات. كما تعرّف إلى طاهر التوتي، الذي عاش معظم حياته منعزلًا في الجبال بحيث بات بالكاد يتذكّر الكلام مع الآخرين، وليس لديه أيّ هواية سوى ترديد بعض الأصوات كالببغاء... بالإضافة إلى التعرّف إلى أشخاص عدة آخرين قدموا من مناطق مختلفة، جميعهم كانوا مشغولين بنحت تماثيل صغيرة لعاشقين، بينما كان الدليل ذو العينين الزرقاوين يحمل تلك التماثيل في السلال التي صنعتها النساء، ويأخذها معه إلى مدن بعيدة. يتجوّل بها طويلًا إلى أن يبيعها، ثم يشتري بثمنها ما يطلبه العشّاق من لوازم ثم يعود من جديد إلى الغابة.

قال كوفاند: «انظر يا فريدون، كيف يمكن للحبّ أن يغيّر أشخاصًا عاديين ويحوّلهم إلى فنّانين. انظر كيف تُباع هذه التماثيل في جميع المناطق من حولنا وتُوزّع في كلّ مكان، تدخل البيوت، تدخل حياة رجال في مقتبل العمر». كان فريدون يمعن النظر إلى التماثيل وإلى الورشة، وإلى المنخفضات المحيطة، ومنذ اللحظة الأولى، شعر

أن هذا المكان هو مسكنه الأخير. كان يدخل، متردّدًا وحائرًا، في مقارنة بين أحلامه القديمة وبين هذا العالم الأخضر الصغير، الذي يخيم عليه المخاطر والبؤس. كان يتأمّل الأشياء، يتأمل تلك الطرق العجيبة الملتوية والمظلمة التي قادته إلى هذه الحياة. قال لكوفاند: «من هنا يمكننا أن نهاجر إلى أيّ مكان في العالم، من هنا يمكننا أن نطير بصمت». لكن كوفاند، ودون أن يعيره انتباهًا، رفع يده في إشارة لجميع عماله من العشّاق وقال: «دعونا نبدأ، دعونا نبدأ». وقف وسط الجميع، وضع عكّازته جانبًا، وهو يزيح شعره عن وجهه وخلع سترته، وبهيبة نبيّ رفع يده قائلًا: «تعالوا نبثّ الروح في هذه الأخشاب». أثناء لحظات قليلة كان الجميع جاهزين للعمل. كلٌّ أخذ حصَّته من قطع الخشب وبدأ النحت. كان كوفاند يتفقّدهم واحدًا واحدًا، يعلّمهم ما ينبغي أن يفعلوه، ودائمًا يكرّر أمره الطلسمي: «أعطِ الحجر روحًا، حطِّم الخجل، دلّل الحجر». وفي النهاية كلما أنهى العمال تمثالًا، يسخِّر هو كل جهده ليجعل منه قطعة فنية جميلة. كان، دومًا، يقوم بنفسه بإنهاء المرحلة الأخيرة من صنع التماثيل التي يعمل عليها المساعدون. وحين ينتهي منه، يتأمّل في جسديّ العاشقين المتداخلين، يرفع التمثال ويقول: «انظروا، يا لها من معجزة رائعة، يا له من تمثال صغير». استمرت بروانة وهي تمشي بين تلك المظلّات، في الطرق وعلى ضفاف الأنهار، تكتشف العالم من حولها، تنضمّ إلى مجموعة النساء اللائي كنّ وبعد انتهائهنّ من صنع السلال، يرتمين على حصى الضفاف. وفي المساء، كانت تراقب وترى أن الرجال يصعدون على الأشجار ويردّدون الأغاني، أو يسبحون في برك المياه. كان عزيز القنّاص يذهب وحده ببندقيته إلى صيد العصافير والحمام.

أمّا طاهر الببغاء، فيجلس على صخرة ويُشبع رغبته المميتة في تقليد البلابل ونقّار الخشب والبوم. تاهت مجموعة منهم وسط أجزاء قاتمة وكثيفة من ذلك الوادي بينما كانوا يجمعون التوت البري. ترمق نساء يرضعن صغارهن وسط جيوش البعوض ونمل البستان. تعرفت بروانة إلى معصومة تحت إحدى المظلات، حين قالت بعيون مليئة بالشّك والخوف: «هذا الوادي هو كذبة كبيرة، الحبّ ليس أزليًا، في النهاية عندما ينتهي الحب، يصبح هذا المكان سجنًا آخر». هي تعرف دل آرام المغرمة بصوت كوفاند الساحر، حسب رأيها لن تستطيع العيش من جديد في مكان آخر خارج هذه الغابة. أمّا شهلاء التقية التي تجول الغابة حاملة بيدها مصحفًا، فقد جنّت بعد تشتّت فكرها بين أطفالها اللقطاء وإيمانها الكبير بالله. في أوّل لقاء لها مع بروانة قالت: «قريبًا ستتحوّل هذه الغابة إلى جحيم». وكذلك تعرفت إلى مروارا التي تهتمّ فقط بتجفيف الفاكهة لأنها تخاف كثيرًا من الثلج والعواصف في الشتاء.

في فصل هبوب الرياح في الغابة، كانت ترتفع الزوابع، وتفيض المياه بجنون، تزعق الطيور ويراود بروانة شعور غريب بالعزلة. كانت هذه الأصوات تحفر في روحها إحساسًا فظيعًا بالوحدة. أحسّت أنّ الظلَّ العميقَ والواسعَ لهذه الغابة الموحشة، قد حوّل الفتيات العاشقات إلى أشباح شاحبة مريضة. شعرت أنهنّ يزددن سوادًا يومًا بعد آخر، إنهنّ يكتسِبن لون الشجر، لون حجارة سمراء، حجارة تدحرجت من سفوح بعيدة إلى هذه الغابة. في أحد الأيام، شاهدت سيدات عاريات يغتسلن في النهر. لاحظت كيف تحوّلن جميعًا إلى ما يشبه أشباح

سوداء قاتمة. لاحظت كيف بدأن يفقدن ملامح وجوههن. لوهلة، اختلط عليها الأمر ولم تعد تعرف تعرف إن كان ما تراه من مشاهد مفزعة، هي من وحي خيالها أم أنها حقيقية. لكن، عندما اتضحت لها الصورة، عندما تحررت من الأوهام والخيال، وجدتهنّ يخرجن من طين النهر. مع ذلك، اطمأنت لوجود هالة بيضاء تحيط بمخلوقات هذه الغابة، هالة أشبه بقوس قزح فوق رؤوس النساء والرجال. تعرفّت بروانة في تلك الأيام على ميديا غمكين، الفتاة الحزينة. ميديا فتاة لم تنطق منذ الطفولة، تجلس بشكل دائم على صخرة وتحمل بيدها دفترا وقلما، تُشغل نفسها بالتدوين عن الأشياء الغريبة التي تشاهدها. برأيها: «هذه الغابة هي غابة العزلة. الحب يموت هنا».

استسلمت بروانة للهواء البارد والمنعش الذي هبّ فجأة من بين الأشجار. كتبت على حجر بقطعة فحم من بقايا نار موقد مطفأ: «أرغب في الذهاب إلى مكان آخر، من المهم ألا أقف في مكان معين». حدّقت ميديا في عبارة بروانة. أدركت ما بين السطور من حُلم قديم، وهو رؤية عالم حقيقي آخر، أدركت أنّ بروانة تكره الغابة. ثمّ، وفي الأيام التالية، استمرّت بروانة في كتابة عباراتها الغريبة في كلّ مكان وأصبحت الكتابة عالمها الخاصّ. تبعتها ميديا في كلّ مكان من الغابة وصارت تقرأ كتاباتها التي سرعان ما تكنسها الريح. في مكان ما من عمق الغابة، تلتقيان وجهًا لوجه، تدركان أن تلك الكتابات الغريبة والمكرّرة على الكراسات والدواوين الحجرية، ليست أكثر من حقيقة سجن مخيف لمكان وزمان لا وجود لهما.

12

أثناء المدة التي قضيتها في البيت، كانت الحياة في البلدة تصبح أكثر رعبًا يومًا بعد آخر. وكانت أفواج هجرة الرجال والنساء من الوطن تتعاظم. قام الكثيرون ببيع بيوتهم في مزادات علنية على قارعة الطريق. كان الألوف يقفون أمام محلّات الصاغة في طوابير طويلة لبيع ثرواتهم من الذهب. كانت الأرامل يبعن أطواقهنّ، والفتيات يسلّمنَ عذريتهنّ للمهرّبين مقابل أن يعبروا بهنّ الحدود. تحوّل البلد إلى سوق كبيرة للصرافة. قبل وقت قصير من خروجي، حوّلوا ساحة الجلود إلى مزاد كبير. كنت أجلس في الشرفة وأشاهد الأسرّة الكبيرة والغالية الثمن، والتي نام عليها نساء ورجال في ليالي معاشرتهم، وقد عُرِضَت للبيع في المزاد. رجال يبيعون مراوح منازلهم السقفية، وزجاجَ نوافذهم وساعات أيديهم وحتّى الألبسة الداخلية لبناتهم. فتيات يبعن مرايا ومساحيق تجميلهن في المزاد. رأيت أطفالًا يبيعون قفّازاتهم وقبّعاتهم المصنوعة من الفرو والتي كانوا يرتدونها في طريقهم إلى المدرسة. الكلّ يسعى للالتحاق بالقافلة التي تقطع السهول والجبال والبحار مشيًا على الأقدام. أما أنا، فقد اتخذت قرارًا بعدم مغادرة هذه البلاد مطلقًا، وأن أبقى فيها إلى الأبد.

كان ذلك في أحد الأيام غير العادية، حين ظهرت عمّتي من جديد وهي تطلق اللعنات، بصوت مرتفع، على جميع أولئك الذين يبيعون دينهم ويتّجهون إلى ديار الكفر. كان لظهورها علاقة بمشروع كبير لرجال دين يقومون بنشر الأخلاق، وتقويم سلوك الناس، وتمكين

أواصر الترابطبين الروح والجسد. كلّ صباح، وأثناء قيامي بأعمال التنظيف وجمع الديدان المتساقطة حول أمي، كنت أستمع إلى نشرات الأخبار التي تبثّها إحدى الإذاعات المحلية الكردية الجوفاء، أسمع أخبارًا عن اجتماع لعلماء الدين مع رجال ذوي شأن ومراتب عالية من الجيش، وكيف يسلّم القادة كل يوم مهامًا إضافية إلى رجال الدين في مسائل الأخلاق، وتقويم المجتمع، وتصحيح مسار الدين والحياة لدى الناس. رجال الدّين الذين حوّلوا مساجدهم إلى مدارس جديدة.

حين خرجت عمّتي، كان بيتنا يشبه إلى حدّ كبير العالم خارج البيت، حيث انقسم على نفسه بهدوء. كما مئات الآلاف من الناس، سيطر حُلمالسفر على تفكير أخوتي أيضًا. بعضهم قرّر ذلك إثر فضيحة هروب بروانة، إذ لم يعد بإمكانهم رفع رؤوسهم بين الناس، وبعضهم الآخر رغب في الرحيل ليعيش بحرية. أمّا أبي، فعلى النقيض منهم، كان كلَّ يوم يزحف إلى زوايا المساجد المعتمة ويغرق في بحر الذّكر والتلاوة والصلوات. من حين لآخر، كان يناديني وهو مشغول البال بأمر ما ويقول: «قبل أن يحدث ما لا يُحمَد عقباه، يجب أن نجد لك حلًّا». كنت أعلم أنّ هذه ليست كلماته، إنما هذا من أفكار أخته، عمّتي التي كانت تلقاه يوميًا في سوق الصاغة وتحشو رأسه بالمخاوف: «فكّر في مصير ابنتك، ها هي قد تجاوزت الرابعة عشرة، إذا هربت هي الأخرى مع رجل، ماذا عساك أن تفعل حينها، كيف سترفع رأسك بين الناس، إلى أيّ جحيم سوف تؤول، كيف ستواجه وجه ربّك في الآخرة؟». لم يقل أحد من أخوتي شيئًا بهذا

الخصوص، لم يكن هناك أيُّ تواصل بيني وبينهم. أنا لم أكن سوى شغّالة صغيرة، مساعدة مطيعة، لا شيء أكثر من ذلك. غالبًا ما كنت أشكّ إن كانوا يعرفون اسمي! عمومًا كانوا ينادونني بـ «يا أنتِ»، وأنا أيضًا كنت أتعمّد تناسي أسمائهم أو أنادي أحدهم باسم الآخر، لكن لم أتحداهم ولو مرّة واحدة، لم أكن بجسارة بروانة. كانت هي تسعى إلى إغضابهم عن عمد، تزعجهم وتحرّضهم على الشجار بعضهم مع بعض، تخبئ جواربهم، تحرق ملابسهم بسجائر بعضهم، تضيّع مفاتيحهم. تفعل كل ذلك دون أن تدعهم يشكّون بأمرها. كنتُ على العكس من بروانة، أتّقي غضبهم المخيف، أحمي نفسي من عيونهم. كانوا ينظرون إليّ طويلًا كما لو أنّهم يطمعون في شيء.

أنا خندان الصغيرة، بعد ظهيرة يوم لطيف، انقلبت حياتي رأسًا على عقب. بعد ظهيرة يوم لطيف، وعلى خلاف كلّ توقّعاتي، عاد والدي مبكّرًا من سوق الصّاغة وقال لي في هدوء: «بدّلي ثيابك، البسي ثوبًا أسود طويلا، غطّي شعرك بوشاح وتعالِ لنذهب». كانت تلك هي المرّة الأولى والأخيرة التي أخرج فيها برفقة والدي وحدنا. حينئذٍ، سلّمني إلى أولئك التقيّات اللاتي لن يتركنني إلى الأبد. عرفت، انطلاقًا من الطرق التي نسلكها ومن الزوايا والتعرجات، عرفت أنّه يقودني إلى ذلك المسجد الذي عانيت تحت أعمدته من البرد والخوف في ليلة البحث عن بروانة. ولكن حين عبرت المسجد إلى الطرف الآخر، شعرتُ بضخامته، كما لو أنّني لم أشاهد من قبل قبّة ومنارة بهذه الصورة. الآن تبدو باحته أوسع، إنّها أوسع من جميع الباحات الأخرى التي رأيتها في حياتي.

كانت شمس ما بعد الظهيرة تحرقني، الأوشحة والثياب السميكة التي أرتديها تجعلني أتصبّب عرقًا. كنت أتعرّق بصورة مخيفة. لم أنتبه إلى الورود المتدلّية من شجرة وحيدة وحزينة في الباحة. منذ لحظة دخولي من باب المسجد الرئيس، تراءت لي أشباح النسوة قارعات الدفوف اللاتي كنّ يُرهبن العصافير الصغيرة في باحة المسجد. خيّم ظلّ القباب فوق مربّعين كبيرين، فوق المربّعين اللذين كانا يفصلان بين عالَمين كبيرين... عالَمنا وعالَم الرجال. العالَمان اللذان لا يجوز بحال من الأحوال أن يختلط بعضهما ببعض. هناك، وسط الباحة بالقرب من الأعمدة الحديدية المرتفعة وقريبًا من قبور آلاف الصالحين، بجانب قبورٍ لجثث رجال... تقود البلاد يومًا بعد يوم، سنة بعد سنة، ودهرًا بعدَ دهر، إلى الليلة المرعبة. هناك، كانت عمّتي تتكئ على عمود ضخم وتنتظرني محاطة بعدد من نساء الدفوف. كنت أعرفهنّ جميعًا، سبق لي رؤيتهنّ في المآتم وحلقات الذّكر وفي الليالي المظلمة التي قضيتها في بيت عمّتي. كان جليًا في نظراتهنّ أنهنّ قد علمن بالعاصفة التي ضربت متحف عمّتي المقدّس وأطاحت به. لاحظت في عيونهنّ شيئًا أبعد من الغضب والحقد، رأيت شيئًا يمكن أن أسمّيه الكراهية أو اللّعنة. بالإضافة إلى قارعات الدفوف، رأيت عشرات الفتيات وعشرات البنات الصغيرات، معظمهن كنّ أصغر منّي سنًّا، لكن يبدون أضخم شكلًا، لازلن يحتفظن على وجوههنّ بظلّ بيوتهن الثقيل ولون الباحات المعتمة والباردة. لا أحد منّا يعلم لماذا جمعونا في هذا المكان. الجميع كن واقفات بصورة متباعدة بعضهن عن بعض، يتبادلنّ نظرات ملؤها الشكّ والحزن. حينها لم يترك أبي ساعدي إلى أن سلمني إلى عمّتي. كانت تلك المرأة تتأمّل في وجهي

المصفرّ والمذعور، كما لو كانت تتأمّل في لوحة معلّقة على جدار. سحنة صفراء وخائفة لكن مشرقة بابتسامة لا تراها الفتيات الصغيرات الخائفات، ولا حتّى أولئك الآباء الخجلون المسنّون، وحدها عمّتي كان يمكنها أن تقرأ تلك الابتسامة في أعماق عيني بوضوح.

ذهب أبي أيضًا إلى تلك الجهة. دخل إلى مربّع الآباء الذين لحقهم العار. تتبعتُه بنظرة حزينة، بنظرة سريعة إلى أن أختفىَ بين مجموعة من الآباء المسنّين الآخرين. كانت تلك هي المرة الأخيرة التي أرى فيها والدي، إلى يوم مماته حيث رأيته مرة أخرى في مساء بروانة. عندما لاحظت عمّتي نظرتي الحزينة إلى والدي، قالت: «اذهبي ولا تطيلي النظر». جرّتني من ساعدي ووضعتني فوق درج انتقل بي إلى عالم جديد. عالم بقيت فيه سجينةً، وأحيانًا برغبة منّي. أمسكت ساعدي وسحبتني إلى عالم غريب. إنّه عالم الأخوات الصالحات، عالم الفتيات الصغيرات الجميلات اللائي قُدّر لهنّ أن يتحملن جريرة ذنوب أخواتهنّ. عالَم فتيات كان عليهنّ أن يقرأن ويصلّينَ، أن يتطهّرن من عار لا يمكن أن ينفصل عن أجسادهنّ. اختفى والدي بين حشد من الرجال، وأنا ضعت بين حشد الفتيات الخائفات اللائي تفوح منهنّ رائحة كريهة. هم كانوا في مربّع، ونحن في مربّع آخر، تفوح رائحة البيوت من الفتيات من حولي. رائحة الصحون والأطباق التي قضين حياتهنّ بينها.

كما لو أنّ شيطانًا وسوس في قلبي وقال: «انظري إليها... انظري إليها». نظرتُ إلى عمّتي. كانت تجوب المكان مع نساء الدفوف ذهابًا وإيابًا، كخليّة نحل أبيض. لاحظت الضحك والهمس الخفي لبعض

الفتيات. عرفت أنّ بعضهنّ ينظرن إلى الأمر كما لو كان لعبة. أغلبهنّ لم يشاهدن من قبل مملكة النساء الخطيرة. كنت خائفة، رفعت رأسي وبحثت عن عينيها، تلك العينان اللتان عرفتهما وسط الحشود وعرفت أنهما تحدّقان فيّ. كلّما أطالت النظر إليَ، زاد شعور الخوف والعزلة وتعمّق في روحي، وزاد وطء تلك الليلة على أنفاسي ثقلًا. لم يستمر الأمر طويلًا، فقد صار الجميع جاهزًا. تهيّأ الجميع لشيء ما في هذا الميدان المخيف. حين بدأ قرع الدفوف، طارت أسراب الطيور عن القباب. أخفضنا جميعًا رؤوسنا، أنصتنا راكعين لتلك الصلوات الطويلة التي كانت النسوة يتلونها خلفنا في الفناء، حيث تعالت أصوات الذكر بجنون. جاء الأئمة ودخلوا. كنّا نجلس على بسط ضيقة وصغيرة. رأيت الرجل في صفّ رجال الدين، الرجل الذي أمسك يدي ليلة هروب بروانة وانتشلني من دوامة حشد كبير. شعرتُ بقدوم شيء ما يشبه فانتازيا مرعبة. بدأت الدفوف تصمت عن القرع بينما بدأ الرجال بالكلام. من مكاني، شممت رائحة عرق الجباب وأغطية الرأس ورائحة الدموع. من مكاني، وحيث أجلس، رأيت الضحك والبكاء المغتال في قلوبهم. كذلك انتبهت إلى الفتيات الصغيرات وهنّ يتبادلن النظرات بالخفاء ويرغبن في الضحك. كانت هناك فتيات يبدون أكبر سنًّا، طأطأن رؤوسهنّ بحياء وخوف. لم يتجرأن حتّى على رفع أعينهنّ. ذلك المساء، كنت أقارن بخبث بين نظراتهنّ. انتابني خوف كبير. جميع الفتيات الكبيرات بَدَوْن أكثر خوفًا واصفرارًا. يكبر الخوف في تناسب مع الأعمار. عمومًا، كانت الصغيرات أكثر اندفاعًا وجرأة، وأكثر انفتاحًا ونشاطًا. كنت أتلفّت حولي ولا أعلم إلى أيّ مجموعة من هؤلاء أنتمي. قلت في نفسي:

"يا الله، كلّما كبرتُ أكثر، تغدو المصيبة أكبر». استمرّ التسبيح مدة طويلة. كانوا يصرخون ويستنجدون: «مدد يا حبيب العالم»، «مدد يا ملك البرّ والبحر»، «مدد يا وليّ الأولياء». شعرتُ بأنّ أرواح بعض البنات بدأت تسترخي وتتخدّر. كنّ يدخلن بين الحشود كأنّ شيئًا خفيًّا لفّهنّ. استمرّ الأئمة والشيوخ في التسبيح. كنت أتمعّن في تلك الأيدي الجافّة اليابسة، إلى المسابح العتيقة. كانت ابتسامتي الشريرة تلك تكبر وتتّسع على محياي. لم يكن بمقدوري السيطرة عليها، فهذه الابتسامة ليست رهن إرادتي، بل تظهر وحدها من جرّاء مشاهدتي لما حولي من صور عجيبة، تُخلق من ذلك الظلّ الغريب الذي أراه يتغيّر ويغيّر لونَ كلّ الأشياء. معظمُهم كان مطأطأ الرأس، لكنّني كنت أرى كلّ شيء بدقّة، لاحظتُ نسوة الدفوف وهنّ يرمينني بنظرات خاطفة، وكذلك لاحظت أنّ ابتسامتي تثير انتباه الأئمة. كانت نظراتهم تلفّ المكان لفًّا دائريًّا وتعود لتستقرّ عليّ. كان الجميع يلقون، من حين لآخر، بنظرة إلى السماء، إلى قباب المآذن، إلى النمل تحت أقدامهم. وفي النهاية، كانوا يعودون ليمرّوا بنظراتهم على تلك الوجوه الهادئة، الآمنة. لكن فجأةً كما لو أنّهم يتعثّرون بحجر، كانوا يقفون عند ابتسامتي. بدأ الظلام يخيّم شيئًا فشيئًا. ظلّت عمّتي تراقبني، تخاف أن تتحوّل ابتسامتي، في غفلة، إلى ضحكة فاضحة، لكنّني أعلم أكثر من أيّ شخص آخر أن هذه الابتسامة هي أقرب إلى البكاء منها إلى الضحك.

كان قرع الدفوف يخفت، وصوت الصلوات يختفي، وتصمت المنارات مع طيورها الحزينة، ويعود الحمام من بعيد ليحطّ على

القباب، وينهض الرجال المسنّون من أماكنهم، وتهدأ أصوات التسبيح، وتتجمّد في مآقيهم قطرات الماء التي في عيونهم، والتي لم تكن دموع غمّ وحزن بل دموع بسبب التقدّم في السنّ. نهض الملّا كوثر باخوان من مكانه وتوجّه نحو دكّة عالية. لفّ الصّمت المكان. صار مثل بحر هادئ. وسط هذ السكون الرهيب، رفعت امرأة من نساء الدفوف يدها وشدّت وشاحها إلى رأسها وربطته. هبّت ريح باردة. تطايرت ورقة واحدة فوق حلقة الآباء ثم حطّت أمامي. وصل الملّا كوثر إلى منبر صغير، بدّل نظارته، وقبل أن يخرج أيّ ورقة من جيب جلبابه الأزرق، بدأ بالكلام. وقفت النساء المؤمنات ذوات الثياب البيضاء كالتماثيل. أمّا عمّتي، فظلّت قلقة بشأن ابتسامتي وبشأن تلك الورقة الصغيرة التي أمسكتُ بها وصرت ألعب بها بين يديّ. يبدو أنّها تخشى من النسمات التي تمرّ بين الأشجار. من الواضح أنّها مقتنعة بقدراتي الشيطانية لإثارة العواصف. ولكن من المؤكّد أنّ إيمانها بالله وبالآيات التي تردّدها بشفتيها كانت أقوى. كنت ألتقط تلك الأوراق الصغيرة من وقت لآخر وأبرمها وأريها للنسوة الخائفات اللاتي كنّ يجفلن مع كلّ نسمة تهبّ. يبدو أنهنّ كنّ يرين في كلّ تحرّك للهواء شكلًا من أشكال لعبتي الشيطانية. ولا واحدة منهنّ تعلم حقيقة أنني لم أكن على وفاق مع العواصف والرياح، وأنني ابنة الصمت والسكون.

قال الملّا كوثر للرجال: «إنّ المعاصي والآثام زادت بصورة كبيرة، إنّها لا تهدأ في المدن، في السهول الشاسعة، وفي الصحارى أيضًا. انظروا، لقد صارت الآثام تهطل فوق رؤوسنا كالمطر. إنها تعصف بنا كالريح. هي كالثلج الراقد على الأرواح». تفحّص الوجوه

الصامتة والمدهوشة من حوله ومن ثم استرسل في الكلام: «بين كلّ آثم وآثم يجلس ثالث. بين كل خطّاء وخطّاء يختبئ ثالث. الحياة بحدّ ذاتها أصبحت خطيئة. الهواء مشبع بالشياطين. المياه امتلأت بالكفر. الثروات صارت فاسدة. الأجساد أيضًا ينتظرها التدنيس والتقطيع. أمّا الروح... الروح ليست أكثر من رغبات ونهم. صار الجسد قطعة لحم مليئة بالمحرّمات. لذلك من واجبكم تطهير السماء وتغيير الأرض وعدم الشرب من مياه هذا النبع الحرام. طهّروا الروح. روّضوا الجسد. اذكروا الله بالقلب وباللسان».

الآن عرفت انطلاقا من كلام الرجل، أنّ أولئك الرجال جميعًا هم أزواج أو آباء لنساء ارتكبن الخطيئة، هربن أو فقدن عذريتهنّ. نساء يتجوَّلن في المدن مدينة مدينة، جعلنّ السوء صنعة لهنّ. اكتشفت أن الفتياتِ الصغيراتِ الخائفاتِ من حولي، أولئك المراهقات الخجولات، هنّ أخواتَ لنسوة يمتهنّ الفاحشة، أو بناتٌ لأمهاتٍ عاهرات تبعن شياطين رغباتهن، وقد زاد عددهن في الآونة الأخيرة وتناسين الحلال والحرام. الآن عرفت أنّنا جميعًا مرتبطون بنمط العائلة نفسه. كلّنا أقرباء لبنات أو نساء أقمن علاقة مع الشيطان. تقبع في داخلي صرخة: «هكذا إذن، إنهم قاموا بانتقائنا، فصلونا عن العالم». أردت أن أغادر مكاني، أن أغادر هذا المسجد، هذا المساء، أغادر هذه الأقاليم الباردة. لكن صوتًا نابعًا من أعماقي كان يهتف لي: «إلى أين ستغادرين، أصبحتِ جزءًا من هذا العالم، لا مفرّ لكِ من هذا الحصار الكبير».

هبط الليل رويدًا رويدًا، أضيئت الأنوار. شعرتُ بعدم جدوى

دقّ نواقيس قلبي. ارتفع صوت ملّا كوثر باخوان تحت الأنوار: «أنتم جميعًا آباءٌ لفتيات آثمات، أخوات لفتيات غرقن في الرذيلة، حتى طبقت السماء على الأرض من هول أفعالهنّ. إنّه لأمرٌ جللٌ، أكبرُ من أن يستطيع عبدٌ صغير مثلي أن يتحدّث عن عاركم. حينما تذهبون، فإنكم تذهبون بإثم على الأرض، وحين تنجبون أطفالًا، فأنهم يأتون إلى العالم بإثم أكبر، حين تخرجون، تنشرون السوء بين القلوب الصافية والطاهرة. عندما تخفون أنفسكم وتتوارون، كلّ روح نقيّة تشكّ في اختفائكم وعدم ظهوركم. عندما تقفون في المحراب، غشاوة سوداء تحجب عيونكم. عندما تديرون ظهوركم للمحراب فإنّ نيّاتكم لا تكون سليمة وواضحة. لا أحد يعلم ماذا يجري في فناء وغرف بيوتكم وخلف جدرانكم. سترتعد فرائص الملائكة والشياطين، مادامت بناتكم يمارسن الرذيلة. تهتزُّ أمام أفعالهنّ النجوم والبحار والرياح».

كنت خائفةً جدًّا. الفتيات من حولي ينصتن مطأطئات الرؤوس مثل عصافير مكسورة الجناح. كانت تلك المخلوقات تنكمش وتصغّر أمام كلّ كلمة أكثر فأكثر، تزداد مع كلّ كلمة شكًّا بنفسها. تابع الملّا: «ما حدث هو شيء خطير. كلّ منكم أنجب بنتًا ورباها إلى أن كبرت، وبإمكانها أن تدمّر الكون ببعض الأفعال المشينة كهذه. يمكن أن تتحوّل مدينة كاملة إلى ركام وتغرق في رماد السوء. انظروا، كيف سلك الكفار طريقهم نحو سيول الآثام والخطيئة. كيف يتوجهون إلى بلاد الرذيلة والفاحشة في قوافل. انظروا، كيف يعود الجهّل ومن جديد. يا لَلهول، انظروا كيف تعود الوحشية وتغلق علينا

الأبواب... الإنسان يعود إلى عصور الجاهلية حين كان لا يعرف اسم الله. إلى عصر لم يكن اسم الله يُنطق على شفاهه، لم يكن نور الله قد دخل قلبه. يعود إلى زمن لم يكن عطر الرسل المبارك قد ملأ غابات البشر. يا لَلمصيبة! أنتم أول المتّهمين. نعم أنتم أول الخطّائين! أنتم أولو القرابين. هذه الوحشية جاءت من أفنية وصالات بيوتكم». أثناء خطبته، بينما كان الآباء يبكون من شدة التأثّر، لمحت الفتيات الصغيرات البريئات من كل ذنب يبكين أيضًا، يرتجفن تأثرًا، بعض الآباء بالكاد كانوا يسيطرون على اصطكاك أسنانهم. تمنع الفتيات بصعوبة فيض الحسرات في حناجرهن. ارتسم مزيج من الخوف والابتسامة والخجل على وجهي، لكنني لم أبكِ. همست فتاة صغيرة تقف إلى جانبي: «خندان، يا خندان الصغيرة، ابكي، من الأفضل أن تبكي». أجبتها بهدوء: «لا أريد أن أبكي». قالت: «لا تعاندي من الآن، لا أحد يعرف ما سيحدث وما سيكون، صدقيني أنه أمر سيّئ إن بدأتِ تعاندين منذ الآن».

تلك الفتاة هي فتّانة غمكين. إنّها الفتاة الراوية التي تنازعتُ معها سنوات طويلة حول حقّها في تدوين هذه القصة. إذا جاء يوم وروت قصتها، اعلموا أنّها القصة نفسها، قصة فتاة مثلي قضت زمنًا في دوائر الخوف التي لولا أنّها عاشت في هذه البلاد المظلمة، لكان بإمكانها أن تحلق في بحر خيالها، وأن تعيش بحرية دون أن يعاقبها أحد. في تلك الليلة، لم تقل لي شيئًا آخر، شعرت بها تبكي بحرقة، كان صوت بكائها يعلو على أصوات بكاء الأخريات. لكن مع ذلك، عرفت أنّه بكاء غير صادق، وأنها تتصنّع ذلك، ومن باب التهكّم والسخرية تتأوّه

وتصرخ. ثم كانت تهمس لي ضاحكة وتقول أنها لم ترغب في البكاء، فلا قوة على الأرض يمكن أن تجعلها تبكي.

خيّر الملّا كوثر باخوان الآباء بين سبيلين رهيبين، فإمّا أن يبقوا أشخاصًا آثمين وملعونين، وإمّا أن يخدموا الله بما يعادل حجم الآثام التي يحملونها: «ضحّوا بيناتكم فداء لله، نعم، اجعلوهن قرابين، قرابين، قرابين!». يا إلهي! كان يصرخ بطريقة جعلت الأشجار والقباب والمياه ترتعش من هول كلماته. تنتفض الأسماك في الحوض الكبير الذي خلفنا، لدرجة أن زعانفها كانت تتساقط. الحمام يطير فيتساقط ريشها فوق رؤوسنا. كان الملا يشدّد على الكلمات بين أسنانه بطريقة غريبة، ويكرّرها إلى أن يتعب، فتخف شدّة صوته. يميل وينحني على المنبر وينظر إلينا بعينين تشعّ شررًا وغضبًا، ومن ثمّ يعود ليستقيم، يمسح رقبته ويقول بهدوء: «نعم، اجعلوهن قرابين، اجعلوهن فداء لله، إذا ما كنتم ترغبون أن تحرّروا رقابكم من طوق الإثم والخطيئة، خلصوا هؤلاء الضعيفات، هذه المخلوقات العاجزة التي تسري في عروقهنّ نفس دماء أمهاتهن وأخواتهن الآثمات، أخرجوهن من مستنقع الحياة. أخرجوهن من المستنقع الذي هو مصدر لكلّ الشهوات... خلصوهنَّ... حرّروهن... النجدة... النجدة... حرّروهن». كان الملّا كوثر يصرخ ويستنجد من مكانه: «الدنيا تعني الشهوة. مدارس هذه الأيام القذرة تعني الشهوة. هناك سبيل وحيد للخلاص، وهو قطع الصلة مع درب الخطايا المظلم، فقط بهذه الطريقة يتطهّر الآثمون البائسون. يبتعدون عن ضوء قناديل الرذيلة والشهوات».

الملّا كوثر في خطبته الطويلة، أخذه الحماس ثم هدأ فجأة. في النهاية قال وهو يمرّر يديه على كتفيه وعلى عينيه: «لا، لم آت لألقي عليكم المواعظ، إنّما أتيت لأخلّص هذه الأرواح الآثمة. اليوم هو يوم الخلاص، لذلك نحن هنا، نجلس تحت قباب الله الطاهرة. نقف تحت ظلّ بيته الواسع، لنعمل من أجل هذه الأرواح، لنطهّرها من السوء والخطيئة. لنخلق منهنّ مجموعة من العفيفات اللائي يبتعدن عن الأفعال المشينة... لكي لا يتبعن طريق أخواتهن، طريق الفحشاء والفجور. لكي لا نعطي الشيطان فرصة للتغلّب على أجسادهنّ الغضّة، وعلى عوراتهنّ المحصّنة. أتيت لأعلن في ظلّ هذه المنارة ولادة مدرسة لبناتكم، هؤلاء البنات اللاتي تربيّن وكبرن في بيوت فاسدة سيئة، في أحضان أمهات سيئات، وإلى جانب أخوات فاجرات. جئت لأكشف عن تأسيس جمعية، وهي جمعية (الأخوات التائبات)، وهي جمعية لنساء عشن مع الشيطان ووجدن أنفسهنّ إلى جانب الشيطان».

أثناء حديثه، كان الآباء يبكون. ينهضون الواحد تلو الآخر ويرتمون فوق يده. الفتيات ينهضن ويرتمين في أحضانه، أمّا هو، فكان يصرخ: «خلاصكم ليس بيدي، ليس بيدي؛ عبد مثلي لن يشفع لذنوبكم. لن يشفع لكم عبدٌ مثلي. فقط أستطيع أن أدلّكم على الطريق، فقط أستطيع أن أهيئ تلك الخلوة التي تجعل الروح تختلي بربّها وتقرّر. إن خلاصكم بأيديكم».

كانت تلك الليلة هي آخر أيام حياتي المتواضعة والهادئة. عدًّا من تلك الليلة، تحوّلت إلى إحدى «الأخوات التائبات» اللاتي وصل

صدى تقواهنّ، سنوات طويلة، إلى البلاد كلها. صرت واحدة من تلك الجمعية التي تعمل لإصلاحالفتيات السيئات عديمات الأخلاق وتزرع فيهن الإيمان. كانوا يجمعون فتيات مثلنا ليس لهم مرشد أو عائلة تحسن تربيتهن، فتيات يخترن طريق التوبة بعد الخطيئة. منهن من أتين بملء إرادتهن، وأخريات جئن تحت ضغط أخوتهن وآبائهن.

أنا خندان الصغيرة، التي عاشت سنوات طويلة ضمن تلك الجمعية. عشت في عزلة مدارسها المظلمة. فبعد موت والديّ وهجرة أخوتي إلى خارج البلاد، لم يعد لي مكان آخر أعيش فيه، ولم يكن فهمي وإدراكي لهذا العالم فهمًا طبيعيًا.

هناك، في تلك المدرسة الشرعية، عرفت نفسي وعرفت حقيقة من أكون. كبرت بين تلك الجدران، في غرف مغلقة، أمضيت هناك أيام شبابي، تعلمت كيف أقضي على كل شهواتي. تعلمت كيف أعيش في عزلة، في صمت وبلا وعي. هناك، أدركت أن ليس لي عالم، وأنني لم أعش، ولن أعيش. في مملكة الأخوات تلك، أدركت أن مصيري هو أن أصبح راوية حكاية من زمن كنت فيه مجرد ظلٍّ صغير ضمن مصائبه وويلاته. كنت مهملة على كلّ هوامشه. الويل لي، أنا خندان الصغيرة، التي لم تعش يومًا في قلب الحياة ووسط أحداثها. في عالم الأخوات الصالحات، فهمت ذلك فيما بعد، حين خرجنا أنا ومعصومة وفتّانة من مدرسة الأخوات. كان جسدي جسد امرأة كاملة، وأحمل قناعات عن الإيمان بالله والحياة والحرية والجمال، لكن خيالي مازال خيال طفلة. اليوم، وأنا أدوّن هذه القصة، ليس لديّ أي طموح سوى أن أجمع أحداث زمن مضى، وأحاول أن أجد رابطًا بينها. زمن عشت فيه

ولم أره. زمن عشت فيه ولم أدرك أسراره. أنا خنذان الصغيرة، لازلت حتى اليوم أبحث عن ظلال بروانة على حياتي، أريد أن أذهب حتى النهاية في مصيبتي ومصيبة أختٍ فرّقنا سيف العشق والدين والخيال.
أنا خنذان الصغيرة، التي لم تتوقع يومًا أن تصبح كاتبة رواية وحيدة، في بيت خالٍ، بيت فارغ من كل شيء سوى ظلال لأيام باردة نثرتها الريح. رحل الذين بنوا هذا البيت في زمن غابر، لن يعودوا من جديد ولن يروا ما آل إليه.

13

كان الزمان زمن الذي بنى فيه العشّاق عالمهم المنعزل على ضفاف الأنهار وفي أماكن أخرى. صنعوا مظلات من القشّ وأغصان الأشجار، وأسرّة من العشب. كان زمان الهروب. تفتت الوطن تفتتًا مخيفًا، كانت الدولة في حالة حرب مع جيرانها. آلاف الجنود يفرّون من جبهات القتال ويلجؤون إلى الجبال. دمّرت الحرب آلاف القرى، وهرب القرويون من بطش الجيش إلى المناطق الخارجة عن سيطرة الدولة. أقام البيشمركة قاعدتهم في الجبال المحصّنة. انسحبت بعض قبائل بدو الجنوب نحو المرتفعات، كذلك فعل بعض الشيوخ والأعيان حيث تركوا الدولة وتوجهوا إلى الجبال. في ذلك الزمان، كان كلّ هارب يتوجّه إلى الجبال ليختبئ فيها. كانت هذه الأرض دائمًا أرض القادة وهكذا سوف تبقى. على أنّها أرض مرتفعة ومليئة بالمنحدرات، كان يمكن للشيطان مع جنوده أن يختبئ في خفاياها وبين تعرّجاتها وخنادقها.

بعد فرار نصرالدين المعطّر من المدينة، عندما فتح عينيه أول مرّة في تلك المرتفعات الشاهقة والغابات الكثيفة والوديان العميقة، أصيب بدهشة كبيرة. ذلك المصوّر الصغير في المدينة، الصديق الوفي للعشّاق ذو الصيت والشهرة بينهم، كان ملاحقًا من أجهزة الدولة بتهمةِ نقل الرسائل بين مقاتلي الجبل ونساء المدينة. بموازاة هذه الطبيعة الطلسمية، اصطدم بيأس كبير. عندما بدأت مجازر العشق، كان نصرالدين ينطلق من مخيمات المقاتلين البيشمركة في الجبال

إلى القرى والمدن واضعًا روحه على كفّه، ويقطع الطريق مشيًا بين المقابر. كانت البلاد كلها عبارة عن مقبرة كبيرة، مقبرة مختلطة لأولئك الجنود والبيشمركة الذين تركت الحرب جثثهم مرمية خلفها بين البساتين وفي الشوارع والحارات، أو ربّما مقبرة لأولئك العاشقات اللاتي وُضِعَت رقابهن تحت نصال السكاكين الظالمة للآباء والأخوة والدين والمذهب. كان يعترض طريق نصرالدين، بين كل قطعتين من الأرض، مقبرة كبيرة. أحيانًا كان لا يشاهد طوال رحلة يوم كامل سوى الذئاب. اليوم، حين يجلس نصرالدين في أستوديو التصوير، ينحني فوق تلك الصور والأفلام المرتّبة فوق طاولته، يقول بألم: «تأخّرت كثيرًا في التفكير بتحرير أولئك العشّاق، حاولت ذلك بعد فوات الأوان».

أعرف أن نصرالدين، قبل موسم قتل العشّاق الأسود، حتى قبل بدء موسم الخيال أيضًا، حاول إيجاد طريقة لإنقاذهم. بحث في جميع المناطق، ذهب إلى مضافات الأغوات، حاول أن يطلب مساعدة القادة السياسيين والمثقفين في الأحزاب، لكن لم يحصل على أيّة مساعدة. تكلم بهذا الشأن مع أصدقائه المقاتلين، لكن الجميع أكّد أن شرف القتال لا يستوي مع الحبّ. الآن، يقول بغضب شديد، وبندم يكاد ينهشه: «تحريرهم لم يكن مسؤوليتي وحدي، كان مسؤولية الإنسانية جمعاء». وفي النهاية، يضحك مقهقهًا: «كانت كذبة غير مقنعة بتاتًا، عمومًا ليس شرطًا أن يكون المسوّغ في كل مرة مقنعًا». نصرالدين الآن يختلف عن نصرالدين في ذلك الزمان. اليوم، تشغله إقامة علاقات محرّمة مع نسوة قليلات حياء، أكثر ممّا يشغله الحبّ. لم يعد

يهتمّ بالعشق. قال لي مرّة بغضب: «أنتِ دائمًا تتحدثين عن بروانة... بروانة... بروانة. لا يخطر لك أنّ بروانةَ بحدّ ذاتها كانت كذبة جميلة ورقيقة. أتعلمين في أيّ زمن عاشت؟ أتعلمين؟ لا طبعًا لا تدركين. لا يجوز في هذا البحر اللانهائي من الحقد، أن يكون المرء ضعيفًا، لا يجوز. ليس الذنب ذنبي».

كان نصرالدين يظن بأنني أدوّن حكاية مسؤوليته عن الذي حدث. قضى ساعات طويلة في الأستوديو، روى لي خلالها عن كمّ الأحقاد المتراكمة في ذلك الزمان. خلال جولاته الكثيرة مثل متسوّل نشيط بين المدن والقرى، رأى جميع أشكال الحقد والكراهية، قال: «في ذلك الوقت، لم تكن الأديان على وفاق، كانت الشعوب تحقد على بعضها، تُباد الأقليات، تتصارع الأحزاب فيما بينها وتخوض حروب دائمة، تعيش القبائل معارك الانتقام فيما بينها، يعادي الجار جاره. في البيت الواحد، كان الأخ يطلق الرصاص على أخيه. آه... لقد كان زمنًا عجيبًا». كان نصرالدين يحرّك يديه ويتحدث بيأس شديد، من الواضح أن ذكريات تلك المرحلة تنهك روحه. كثيرًا ما كان يتكلم بسرعة، كما لو أنّه يريد اختزال الحكاية بعدة سطور، دون أن يستطيع ذلك: «أولئك الذين يقفون ضدّ فكرة أن تتعايش الأديان بعضها مع بعض، ضدّ فكرة أن يعيش الشعب معًا بحرية، وأن تمنح بعض الحرية للشباب والشابات، هؤلاء جميعًا من طينة واحدة، إنهم نفس الغائط، هذا الغائط هو من يقود البلاد دائمًا، يخرجون من المراحيض ليحكموا البلاد! المهم أنهم يحكمون. هذا هو الأهمّ! يرتمون على كرسي الحكم ويلتصقون به أبدًا، يلبسون الجلباب فيصبحون أئمة،

يضعون النياشين والنجوم على أكتافهم فيصبحون قادة عسكريين، يضعون النظارات على عيونهم فيصبحون بروفسورات، يتحجّبن فيصبحن مؤمنات، يرتدون الأطقم والسراويل فيصبحون رجال سياسة، يتعرّين فيصبحن عاهرات، لكن في النهاية هم جميعًا نفس الغائط، نفس القذارة».

ظهرت على شفتي ابتسامة حزينة: «اليوم يا نصرالدين، نحن نجلس على أنقاض حياتنا، ما الذي خسرناه، دقق أكثر في هذا الخراب!». كان يضع رأسه على طاولة الأستوديو ويقول بحسرة: «الخسارة والضرر هو أنني لم أعد أنام الليل بأمان، نعم، هذه هي الخسارة «. أعرف أنّه يرغب أن ينسى ويهمل تلك الذكريات، ويعيش مع صور فتيات يلتقيهن يوميًا في الأعراس والحفلات. أحيانًا كان ينهي بعض الأجزاء القاتمة من حكاية هذه الكارثة بشكل مثير، ويجد بعض الأسرار محرّمة، وبعض الأماكن مدهشة. إذا ما صدف ورأيته مجردًا من تلك الابتسامة الخجولة، أدركت أن لا رغبة لديه في استعادة ذكريات أليمة. وحين كنت أشاهد ابتسامته الشبيهة بابتسامة فتاة، كنت أطمع بالمزيد، فيكشف لي المزيد من الأسرار. كنا نجلس معًا ونهتم بكافة جزئيات وتفاصيل الماضي. نكتب أسماءنا واحدًا واحدًا على لوح صغير، كنّا نستعرض مصائرنا. يقول نصرالدين: «منذ البداية، لاحظت العلاقات الغريبة بين العشّاق، علاقات لا تعكس أي تكافؤ أو انسجام. كان بينهم شبّان متأنقون وفتيات رقيقات من المدن الكبرى، وآخرون من نساء ورجال المنطقة الجبلية. لكلّ سببه في الفرار. كان الخوف من القتل على يد المتدينين المتطرفين هو من جاء

ببعض العشّاق من المدينة إلى هذه الجبال، عبروا من تحت نصال سكاكين القتلة. بعضهم هرب من جمر أقربائهم، وبعضهم حُرق بويلات أحقاد الأهل. لكن عشّاق القرى هربوا من غضب الانتقام والحقد واللعنة من طرف قبائلهم. أحقاد ألف عام من العداوة بين عائلاتهم الريفية، وبعضهم كانت تلاحقهم خناجر أولاد العمومة والأخوال». حينها لم يكن نصرالدين يعلم بأحوال عشّاق الغابة، أسرّ لنفسه: «إنّ الذي تمكن من الوصول إلى قعر ذلك الوادي العميق لم يكن إلا عاشقًا ثملًا أو روحانيًا سكيّرًا». كان يبحث بسلاحه في القرى عن عشّاق منكوبين، يجمع قصص الحب، يزور مراقد العشّاق، يشاهد مواقع مجازر الحب، يكتب قصص العشّاق المقتولين وما جرى لهم. في ذلك الحين، لم يكن يشغله مصير أولئك الأشخاص الساكنين في الغابة قط، كان يقول إنهم، وبمساعدة ذلك الدليل الطيب ذي العينين الزرقاوين، سوف يقومون بتنظيم حياتهم. بينما كان يحترق ألمًا على العشّاق الآخرين. كان مشغولًا بتجميع كافة مآسي الحبّ وتراجيدياته في كتاب كبير أسماه «كشكول العشّاق»، وهو كتابٌ ضمّ بين دفتيه معظم المآسي التي حدثت في ذلك العصر، مأساة آلاف العشّاق الذين حُرقوا أو قُتلوا أو هربوا. بعد ذلك، جاء السياسيون والأغوات وزعماء العشائر وعلماء الدين وقلبوا الأرض على هذا الكتاب، الذي عدّوه مثل قاموس للشرف المهدور وللحياء المفقود. لكن العشّاق في البلاد سمّوه «عشقنامه» (رسالة العشق). كتابٌ فصله الأخير ينتهي بمساء بروانة، مساء الفراشة، آخر حكاية فيه هي حكاية بروانة. بعد ذلك اليوم، رحل نصرالدين عن الجبال وعاد ليسلّم نفسه وكشكوله إلى مخفر صغير للشرطة في بلدة نائية، وذلك بعد أن فقد الأمل في كلّ

شيء. أُخذ إلى الخدمة العسكرية، قضى سنوات طويلة في الصحارى ومستنقعات حرب الخليج، مقاتل في الصفوف الأولى بين المقاتلين الأشاوس في محاولة للبحث عن الموت. هناك، انضمّ إلى مجموعة المحاربين الفدائيين.

ظلّ الكثير من كبار رجال العشائر والكثير من الآباء في العائلات المعروفة الكبيرة وحتى يومنا هذا، يبحثون عن كتاب «عشقنامه». يقول نصرالدين: «ذلك الكشكول الكبير المؤلّف من آلاف الصفحات، ضمّ أسماء العشّاق وتجاربهم ومصير مرحلة من تجارب العشق. حفظ الكتاب بين دفتيه كل قصص الحبّ في كردستان منذ عهد إمارة بابان، وجمع صورًا لقبور مئات العشّاق ومزارات الحب. بدءًا بحكاية شيرين وفرهاد مرورًا بولي ديوانة وشم، وانتهاءً بقصة بروانة وفريدون. فيه وصف وتفسير. لكن قامت المدفعية الإيرانية في جبهة صغيرة بالقرب من منطقة دزفول بحرقه ضمن حقيبتي».

اليوم، لا أحد يثق بنصرالدين المعطّر، وكذلك أنا فقدت الثقة به بسبب صدمة لا أعرفها تمامًا. بعد أن سمعنا قصّة الكتاب، كنّا نظن أن نصرالدين قد خبأه في مكان آمن، بعيدًا عن كل يد وعين. ظننّا أنّه أخفاه تحت التراب في مكان ما خوفًا من الآغا ومن السلطات، ولا بدّ أنّه سوف يخرجه يومًا ما. لكنّه يقول: «لم يعد لي أيّ علاقة مع الحبّ. مثل أيّ شيء آخر، للحبّ أيضًا مراحل يمرّ بها وتاريخ يدوّنه. أمّا الآن، فقد ولّى عهد الكلام عن الحب». نصرالدين الذي كان في شبابه صديقًا لكل الفنانين والشعراء والمصورين والموسيقيين، اليوم لا شيء يثير اهتمامه سوى لعبة كرة القدم والمراهنة على فوز بعض

الفرق والمشاجرات، ومتابعة أخبار جميع الفرق وكل ما يتعلّق بها. اليوم، له رأيّ مختلفبالحبّ والشرف والمرأة. لكنّه، برأيي، يخفي وراء هذه التغيرات شيئًا من أفكاره القديمة. كان يقول عن نفسه: «كانت تلك الفترة العهد الحقيقي، فيما يتعلق بنصرالدين المعطّر، كانت أيامه الذهبية، بالمجمل، لكلّ رجل جانب أصيل وجانب مزيف. حينها عاش نصرالدين جانبه الأصلي».

إن نصرالدين ينظر إلى الحقيقة بنظرة سطحية ومن جانب واحد. هو الذي بنى جلّ فلسفته حول العشق والإنسان على مبدأ الوصال بين العشّاق. كان يرى العالم من منظور العشّاق فقط. رأى العشّاق فقط في مرحلة القطيعة والفراق بينهم. كانت قضيته الكبرى هي عدم تقبّله فكرة موت الحبّ داخل الإنسان، فكيف للعشق أن يعاني صراعا بينه وبين نفسه. حين استعرضنا معًا مجمل الحكايات، كان يشكّك بصحّة تحليلاتي. حسب اعتقاده، يوجد سرّ عميق مازال يتوارى تحت أوراق وأعوام تلك الغابة، ولن يتمَّ العثور عليه أبدًا. قال: «هذه القصة لا تكشف عن مغزى هذا الخراب». قلت: «آهاا... أخي نصرالدين، أنا لست شغوفة بمعرفة المغزى من الخراب الذي حصل، عليّ أن أجمع جزئيات الحقيقة والصور المتعلّقة بها، وأحاول الربط بينها، لكي أتوصّل إلى الحقيقة التي تخصّني وتخصّ موت بروانة، لكي أستطيع خلق صورة واضحة كما الصور المعلقة على جدران هذا الأستوديو!».

قال بحنكة مصّور محترف: «أيّة صورة نحاول تكوينها هي صورة من خيالنا، صورة لها علاقة بخيالنا أنا وأنت. أمّا ذلك العالم، فهو الآن

أشبه بسراب. افهميني... فالحقيقة حسّاسة، عندما يحجبها الضباب، حينها يصعب الوصول إليها وجمعها». لكنّه كان يعرف تمامًا بأنه لن يستطيع أن يثنيني عمّا أقدمت عليه. كنت مثل المجانين، أتابع دون توقف تفاصيل ما جرى لبروانة.

***

كانت شهلاء التقية هي أوّل شخص تعرّفت على بروانة. كان عرزال شهلاء وغرفتها يبعدان فقط عدّة أمتار عن عرزال بروانة. مع نسمات الصباح الباردة في الغابة، كانت تفتح بروانة عينيها على صوت شهلاء، التي تجلس، مع طلوع الفجر، على صخرة قرب النهر تدعو وتبتهل إلى الله، وفي المساء تجلس بين الأشجار البرية وتقرأ القرآن على ضوء فانوس صغير بصوت مرتفع. في بعض الأحيان، كانت تُلقي بنفسها إلى المياه، ربّما بحثًا عن طهارة مفقودة. بثيابها الكردية الطويلة ونطاقها المحرّر، كانت تتجوّل بين الأشجار ذهابًا وإيابًا حاملة بيدها مصحفًا. تشدّ الأطفال من أيديهم وتجرهم فوق الحصى والحجارة. أحيانًا تبدو كثيرة الغضب وأحيانًا أخرى تكون في هدوء تامّ، لكنها كانت تعذّب طفليها الشقيّين بلا شفقة. شهلاء التي هربت مع عزيز القنّاص، هي ابنة شيخ بلدة نائية، شيخ ثريّ يملك مساحات شاسعة من الأراضي والبساتين، يعيد بهيبته إلى الأذهان صورة الأمراء الكرد القدماء. عزيز الذي كان يُطلق على نفسه لقب «الصياد الضائع» قدم من مناطق بعيدة من كردستان. هو من قرية صغيرة على الحدود الشرقية، وبفضل هواية صيد الطيور، دار البلاد طولًا وعرضًا إلى أن وصل إلى أرض الشيخ الكبير. هناك، إلى جانب صيد الطيور، أحبّ

شهلاء، التي كانت حينذاك تجلس كلَّ مساء أمام ليوان بناية والدها وتقرأ القرآن. وبين تلاوة كلّ آية وأخرى، كانت تسمع بحزن إحدى الأغاني التي تبثّها الإذاعات الكردية المختلفة في إيران. من النظرة الأولى، وبرغبة قاتلة للحبّ وكذلك بخوف شديد من الله، وقعت في حبّ ذلك الصياد الذي لم يسبق له أن اصطاد حبًّا في حياته. قال عزيز تيرانداز (الصياد) في لقاء له مع شهلاء، في منتصف الليل تحت شجرة رمان، أقسم بهذا الرمان إن الرب ليس ضدّ الحبّ والهروب مع الحبيب».

سلكت شهلاء درب الهروب مع عزيز تيرانداز مشيًا عبر سفوح الجبال، مرتدية ثوبًا مزينًا بالبَرَق ذي أكمام طويلة وبيدها مصحف. كانت متردّدة بخصوص موقف الرب من العمل الذي أقدمت عليه. عاشت مدّة طويلة بين المرتفعات الباردة والوعرة، في الكهوف وخلف الصخور ومخابئ في الجبال. هناك قسّمت حياتها بين قراءة القرآن وبين الخوف. لكن بمرور سنوات طويلة وإنجابها لطفلين مشوّهين، أحدهما أحول، والآخر أحدب، وكذلك غياب عزيز فترات طويلة في صيد الطيور، كل ذلك فسّرته شهلاء على أنّه بمنزلة عقوبة ربانية على إثم كبير. ممّا جعلها تزداد قناعة بأنّها آثمة. كانت تذهب بعيدًا بين الجبال، تقرأ القرآن قراءة دائمة راجية العفو. عزيز الذي تفوّق شهوته للصيد على شهوته للمرأة، زاد بعدا عن شهلاء التي وصل بها الأمر للحديث عن خنق أطفالها، وعن قتل عزيز، ومن ثم العودة إلى بلدتها.

كانت بروانة، من تحت ظلّ شجرة، تراقب شهلاء وهي تضع

طفليها على صخرة وتبدأ بالابتهال إلى الله: «يا الله، فلتبعد السكينة عن العشّاق إلى يوم مماتهم، يا الله... أعرف أنّ الحبّ من صنع الشيطان، لكن أرجوك قل لي إلى أين أذهب بهذا الأعمى وهذا الأحدب، أين أخفيهم، في أيّ تراب أدفنهم؟».

كان عزيز يعود مساءً، ببشرته الحنطية وخدّيه المشعرين وكوفيته الصغيرة، أقرب إلى هيئة رحّال نشيط وسريع منه إلى هيئة عاشق. كان يعلّق حزام الرصاص إلى سقف العرزال ويضع حمامة أو دجاجة مقتولة على صندوق، ثم يتّجه نحو ضفّة النهر والابتسامة تعلو شفتيه. حين كان يسمع شكاوي شهلاء، كان يضحك ويقول: «كلي من هذه الطيور، سوف تخلّصك من الوساوس التي تدور في رأسك. لحم الطيور هو أفضل دواء للخبل والهوس والدوخة، نعم إنه أفضل دواء، اسأليني أنا! فقد كانت جدتي في زمانها أشهر مداوية في المنطقة». أجابت شهلاء والمصحف بيدها: «لحم الطيور أيضًا حرام، حينما تُصطاد بيد صياد لا يعرف الله، بلا رحمة، كذّاب ومخادع». كانت بروانة تنصت لحديثها دون أن تفهم منه شيئًا، حاولت التقرّب منها، لكن شهلاء ترفضها قائلة: «اذهبي... اذهبي... طّهري نفسك، اذهبي قبل أن تنجبي ابن حرام، فتصبحين رهينة لوجوده. اذهبي واطلبي التوبة».

ألقت بروانة بنظرة طويلة حولها، تأمّلت ذلك العالم الغريب، هي لم تأتِ بهدف إقامة طويلة في هذه الغابة. في المدينة قالت لفريدون: «علينا أن نستمرّ بالسفر والترحال. البقاء في مكان معين يقضي على الحياة، يقتل الرّوح والحبّ!». لكن فريدون، وبعد سقوط رضا

دلخوش، قلّ حديثه عن البلاد الخيالية، بعد مقتل صديقيه المغنيين، قال بهدوء يخفي خلفه سرًّا عميقًا: «يا رب، لماذا توجد كل هذه الطرق المتعدّدة والعجيبة للرحيل؟». فتح موت المغنين عين فريدون على أساليب جديدة للسفر نحو عالم جديد. أخذ حُلم الرحيل فريدون أخذًا كبيرًا ومبالغًا فيه، فكرة رحيلٍ لا تعترضه أيّة حدود أو حواجز الطبيعة، ولا توقفه صعوبات العصرِ. لكن بروانة، منذ الليلة الأولى، كما لو كانت تروي لنفسها الحكاية، كانت تستلقي تحت العرزال وتحدق بعينيها في الظلمة العميقة: «سوف نهاجر، سوف نذهب إلى أماكن أخرى، سنستمرّ في الدروب، سوف نرحل، سوف نرحل، سوف نرحل». فيجيبها فريدون المستلقي إلى جانبها بابتسامة خفيفة: «أستطيع الرحيل من هنا، ودون أن أتحرّك من مكاني! يمكنني عبور الكثير من البلدان الجميلة، يمكنني أن أذهب إلى أرض لم تطأها قدم رحّالة قبلي، ليس شرطًا أن ترتبط الرحلات الجميلة بالتنقل بين الأماكن، ليس ضروريًّا أن نعبر البلدان، أو أن نبحث في السهول أو أن نصعد الجبال». حاولت بروانة أن تقول: «انظر يا فريدون إلى هذه المخلوقات المنهكة من حولنا، شاهد هؤلاء الرجال والنساء المرضى». لكنّها التزمت الصّمت.

أنا متأكّدة أنَّ قنوطَ بروانة لم يكن سببه فقط طبيعتها الرقيقة والحساسة، لكنّ يأسَها جاء من ذلك الخداع المنساب مع تلك الأماكن. طالما وجدت الأماكن متّهمة. كثيرًا ما كانت تصرّ في المدرسة على طلب نقلها من صفّ لآخر، ومن مقعد إلى آخر، ولمّا كانت طالبةً مجتهدة، فما من طلب يُردّ لها. أحيانًا أخرى، كانت

ترتمي في البيت مكتئبةً وتَعِبَة، وتلقي باللّوم على الشوارع وعلى هذه المدينة. لكن في النهاية، كان لديها ثقة بوجود أرض خيالية، وبقدرتها على الخروج من هذه البلاد والوصول إلى تلك الأرض. حتى إنّ فكرة الرحيل من جديد إلى مكان آخر، في تلك الغابة أيضًا بالقرب من ظلال الجبال والمرتفعات، بالقرب من الشلالات، لم تغادرها. مكانٍ لا تعرفه، لكنّها تعلّمَت أن تتحدّث عنه وتفكّر به. شعرت بروانة ومنذَ البداية بتوقُّف كلّ شيء فيالغابة بصورة غريبة. لكنّ الشيء الأكثر غرابةً ومفاجأةً لها، هو حالة الصمت التي أصابت فريدون. هذا الإحساس ولّد لديها خشية من اقتراب النهاية.

في إحدى الليالي، حين كانت قبيلة العشّاق مجتمعة حول نار كبيرة، سألتهم: «هل يا ترى يمكننا مغادرة هذه الغابة؟ ألا يمكننا أن نسكن مكانًا أكثر عمرانًا وأكثر نورًا؟ ألا يفضل أن نتوزّع في الأرض؟» لكنّ العشّاق الفارّين من الموت والذين تلاحقهم بنادق المنتقمين، لم يرغبوا بمغادرة هذا المخبأ من جديد. قال كوفاند وهو يحمل عكّازته الطويلة: «الأماكن هي فقط أماكن، ما ينبغي تغييره هم البشر، وأعلم أنّه لا يوجد على هذه الأرض بلد جاهز نذهب إليه. المدينة الوحيدة التي يمكننا أن نذهب إليها ونعيش فيها هي المدينة التي نقوم نحن ببنائها».

لم تُدرك بروانة، مثل فراشة عمياء، كيف يمكن ألا يكون على هذه الأرض عالم جميل؟ كيف لا توجد مدينة أنشئت منذ الأزل برقّة وحنان؟ كيف لا يوجد بشرٌ أحرارٌ؟

في الصباح، كانت بروانة تسأل الفتيات: «إلى متى ستمكثن هنا؟». كانت شهلاء التقيّة تجيبها: «لا أبحث عن شيء آخر غير الله». تهمس لها دل آرام: «هذا المكان هو وطني الأخير». وميديا غمكين تكتب لها على صفحات بيضاء من دفترها: «أنا هربت من المجازر، لا يمكنني العودة». أمّا مروارا الصغيرة، دون أن تجيب عن سؤال بروانة، كانت تقول: «آه يا بروانة خانم، آه... في الصيف، تكون الفاكهة كثيرة، تمتلئ الشوارع بالبطيخ الأحمر والأصفر وبسلال التين...". كلا، لم يكن أحد آخر يتحدّث عن بلاد أخرى، سواهما هي وكوفاند، لكن كوفاند كان يطمح أن يشيّد بلد الأحلام بنفسه، بينما بروانة ترغب في أن تنساب بنفسها في قلب الطبيعة والحياة وتجد تلك البلاد جاهزة، كاملة مثل أي بستان أو جبل آخر على الأرض.

في الأيام الأولى، قلّت ساعات نوم بروانة. تملّكتها رغبةُ الرحيل بدل الأمان والاستقرار، وألحّت عليها، يومًا بعد يوم، الفكرة أكثر. تحوّلت تلك الرّغبة إلى شرارة بعيدة المنال، تأخذها وتجيء بها بين الأشجار والبيوت والخيام. صارت كلُّ حركة تقلقها وترمي بروحها وسط حيرة مرعبة. وصل بها الحالُ من التوتُّر والقلق درجةً لم تعد تستطيع معها حتّى الاستلقاء استعدادًا للنوم. بقيت تنتقل باستمرار من مكانٍ لآخرَ، من شجرة إلى أخرى. غيّرت مكان عرزالها مرّات عدّة أثناء مدّة قصيرة. غيّرت مكان سريرها المصنوع من القشّ. حتّى حين كانت تتّكئ جالسةً، تجدها تتقلّب من اليمن إلى اليسار وبالمقابل في حركة دائمة. في منتصف الليل، كان فريدون يعيدُها مرّات عدّة من وسط الغابة على ضفّة النهر. لكنَّ أحيانًا تكون مسرعةً لا يدركُها

فريدون ولا يستطيع أن يراها في الظلام.

في ليالي الضياع المظلمة تلك، وقف سيامند بالند بين الأشجار يراقب بعينيه التائهتين كعيني طائر آكل للحوم. كان أحيانًا يجبر معصومةَ على تسلّق الأشجار. يأخذها عَنوة ويجلسها فوق أغصان عالية. كان يعلم أنّه يسلك الطريق الأصعب، يجرّها بأظافره المعقوفة بين الأغصان. أحيانًا كان يسمع صوت بكاء معصومة، بكاءٌ خافت يختلط بصوت الريح وحفيف الأوراق وخرير المياه، لكنّه لم يكن يعلّق بكلمة واحدة.

كان كوفاند منهمكًا بصنع تماثيله على ضوء الشموع والفوانيس الصغيرة، والغروب ينعكس من بين المياه والصخور ألوانًا تسقط على حجارته. لاحظت بروانة أنّه كلّما صنع تماثيلَ أكبرَ من سابقاتها وزاد ألونها لمعانًا، كان يتحدّث عن الحبّ والحياة بتفاؤل أكبر. بهدوءٍ وبأسلوبٍ غريب، استطاعت بروانة أن تربط بين تفاؤل كوفاند وبين طيفِ جنونٍ كبير، جنونٍ يرخي برأسه في الليل أثناء عمله على تلك الكائنات الخيالية الأسطورية، على وجهه، على شعره وعلى حركاته وكذلك على صوته. في إحدى أمسيَّات النشاط والعمل تلك، حين كانت بروانة تشعر أنّ قوةً كبيرةً تدفعها نحو نور مجهولٍ، ودونَ أيّ سبب واضحٍ، توجّهت إلى الورشة، حيث كان الرجال في النهار يصنعون تماثيلَ كبيرةً ويبيعونها في أسواق التّحف في المدن. حين فتحت الباب ودخلت، وجدت نفسها بين بحر من التماثيل. تفحّصت، على ضوء فانوس، كلّ تمثال على حِدَة. دقّقت النظر فيها، كانا عبارة عن كائنين متشابكين. لم تعرف إن كانا يتعانقان أم يهاجم

بعضهما بعضًا؟ يا ترى هل هما في لقاء حميمي، أم في صراع؟ هل هما منسجمان متّحدان؟ أم أنّهما ماتا في أحضان بعضهما؟ لاحظت بروانة أنّ المنحوتاتِ تعطي انطباعًا عن حرفية ومزاج الصانعين، أكثر ممّا تعبّر عن الأسلوب الرقيق والأسطوري للحبّ، والذي وصفه كوفاند في الورشة سابقًا. فقد حفر النحاتون أحقادَهم ويأسَهم وفشلَهم على قطع الخشب تلك. أصيبت بالذعر وهي تتفحّص التحف. بعض الصنّاع كانوا قد نحتوا صورة العاشقين بطريقة مشوّهة، حتّى إنّ كوفاند عجز عن تجميلها. لم تكن تعلم لماذا تتراءى لها تلك القطع محطّمة. كانت تفرك عينيها فيتراءى لها أولئك العشّاق المتعانقين كعمالقة مرعبة، أو مثل كومة جثث ملتحمة بعضها فوق بعض. حملت تمثالًا صغيرًا واتّجهت نحو باب الورشة الكبير، إلى نفق العتمة في ظلام الليل الدامس مثل شبح من ريح. اختفَت في قلب الغابة بين الأشجار. هذا التمثال هو التمثال ذاتُه الذي حفرت عليه اسمها وأرسلته إليّ بعد أسبوع مع الشابّ ذي العينين الزرقاوين. هو التمثال ذاته الذي جاء عبر الجبال وبقي سنواتٍ طويلة مرميًا في زاوية من البيت، وصمد أمام جميع العواصف التي ضربت منزلنا. حتّى الآن لا أعرف ما الذي قصدته بروانة من إرسال هذا التمثال. هل كانت رسالة عن خلود الحبّ، أم أرادت أن تخبرني عن موت الحبّ؟

فريدون، الرجل الذي كان يردّدُ دومًا: «قدري هو أن أفقدَ كلَّ شيء». كان يخشى أن يفقدَ بروانة في ليلةٍ ما مثلما فَقَدَ كلَّ شيء. عندما كانت بروانة تحلّق نحو أعماق الغابة، كما لو كانت تمتلكها شهوة في الطيران، أو مثل فراشة تائهة في الظلام، كان فريدون يتعقّبها ويبحثُ

عنها بين الأشجار مناديًا: «بروانة... حبيبتي بروانة... عودي...»، أمّا هي، فتضع رأسَها على كتفه وتقول: «تعال نجوب الغابة معًا، تعال نمشي معًا بين هذه الأشجار حتّى الصباح». فيرافقها فريدون أحيانًا. كان يشعر بحالة عدم الاطمئنان والقلق الدائم لديها، يلاحظ وقوفها الغريب وسط الظلام والصمت والفراغ... كانت هالات الحرير المحاطة بها تثير انتباهه. أحيانًا أخرى، كان يتركها وسط العتمة ويعود. لكن لم يكن بوسع أيّ قوّة أن تثنِيَ بروانة عن جولاتها الليلية، لم تكن أيّ قوة لتعيدها. لا أصوات الحيوانات ولا أشواك الطريق، ولا حتّى العقارب المخيفة ولا دروب الثعابين الضيقة. كانت بروانة تشعر أنّها ليست على الأرض، وأنّ روحًا متّقدة قد أعارتها جناحين مشتعلين، فتطير بهما. لكن على الدوام كان يتملّكها شعور أنّ أحدًا ما يراقبها، أنّ مخلوقًا يلاحقُها بين الأشجار ويتعقّبُها من بعيد، شعرت بنظراته مرّات عدّة دون أن تقول شيئًا. إلى أن، حدث في منتصف ليلة حالكة العتمة، صرخت: «هيه يا أنت... فلتكن من تكون، اخرج من بين الأشجار، أرني وجهك». فجأة خرجت ميديا غمكين من خلف شجرة! في البداية، لاح طيفها وسط الظلام، ثم عندما اقتربت من شعاع الضوء، ظهرت بثوب تزينه صور لمئات الأقمار ممسكة بيدها دفترًا. حينها، كتبت ميديا: «أنت تتحوّلين إلى غبار ورماديا بروانة، امسكي يد حبيبك وارحلي. أنا أراقبك، أرى كيف أنّ الريح والشمس تحملانك ذرّة ذرّة وتذهبان بك».

جاء يومٌ صار فيه جميعُ رجال تلك الأرض ونسائها، والذين يطلقون على أنفسهم لقب «غجر العشق»، يرون ويشعرون بالهباب

الناعم الحريري المتناثر من بروانة! في بعض الأمسيّات، كان الرماد يتساقط كالشلال. اعتقد الجميع أنّ آلافًا مؤلّفة من الفراشات تصفّق بجناحيها من حولهم. كتبت ميديا في إحدى المرّات: «الرّياح تحمل بروانة، ها هو رماد جسدها الناعم والمشعّ يتساقط على دفتري. ينبغي لي أن أنفّض الدفتر مرّات ومرّات، يا إلهي، إن هذه الفتاة تصير رمادًا!». في الليالي التي كان فريدون ملك ينام فيها مع بروانة، كان ينهض في الصباح وقد غطّى الغبار الرقيق الناعم شعره وحاجبيه وعنقه وشاربه. وكلّما زاد تساقط الغبار من بروانة، كان فريدون يضاجعها بعنف ووحشية أكثر. ثم يتوجّه إلى ضفّة النهر ليغتسل من آثار الغبار الجميل، فتثور فيه رعشة غريبة، رعشةٌ مثيرةٌ، رعشةٌ تعبّرُ عن تحقيق أمنية قديمة، إنّه حُلم النوم مع فراشة! لكنّه كان يشعر أنّ تحقيقَ أيّ حُلم لا ينهي بحثه الخفيّ عن شيء مجهول، شيءٍ رافقه منذ الطفولة ونّما وكبر داخله. كان ضياعُه وفشلُه الدائم في الحياة عاملًا إضافيًا لتعميق تلك الرغبة فيه.

مهما زاد تساقط بروانة، فهذا لا يغيّر شيئًا في العالم. كما لو أنّها عمودٌ من نور، كانت تقف كلّ صباح مع صانعات السلال، تحمل تلك الأكياس الرقيقة بأصابعها وترفعها لتضع بعضها فوق بعض. تتكلّم مع النساء بصوت حزين. تذهب مع ميديا إلى أعماق الغابة. تكتبُ على الحجارة وعلى جدران الوادي عباراتها المعبّرة. كتبت لها ميديا منذ البداية: «لا تتعلّقي بأيّ أمل، لا يوجد في العالم حُبٌّ دونَ أن يحمل فناءه في أعماقه». ردّت عليها بروانة وكتبت على صخرة: «صديقتي ميديا، الذنب ليس ذنب الحبّ وحدَه، انظري إلى العالم من

حولنا، كلّه منهك، الأشجار متعبة، الطيور متعبة وكذلك نحن وصلنا إلى هنا بعد أن أُنهكنا وتحطّمنا». أثناء كتابة بروانة، كانت الريح تحمل حروفها، بينما كانت تخطّ كلماتها كانت تتحوّل حروفها إلى غبار. أحيانًا كانت تطارد الريح لتمسك بحروفها، لكن دون جدوى. كانت ميديا تحومُ معها في السماء وبين الطيف، لكنَّ الأشياء التي تأخذها الريح لا تستعاد أبدًا. ميديا التي كلّما ازدادت تأمُّلًا وتفكيرًا، تمسكّت بدفترها وضمّته إلى صدرها أكثر قائلة: «الحبُّ ينتهي، ما سيبقى هو هذا اَلدفتر». قالت بروانة لتلك المرأة الضعيفة: «لسوء حظّي اللعين أنّ كلماتي تموت. أنسي كلَّ شيء. ذكرياتي تُهمل. عمري يصير ريحًا. أنا شخص أملك روحًا سوداءَ ومنهكة، أنا ضعيفةٌ وهشّةٌ للغاية، ملتصقةٌ بالذكريات بشدّة، أنا، كما كلُّ البشر المنسيين، أقربُ إلى الموت. أموتُ دون أن يشعر أحد أنّني عشتُ يومًا، لا أحدَ يعلمُ أنّني مررتُ بحياة عشرات الرجال والشباب. آه يا ميديا، آه... أنا أدخل طيّ النسيان، يا لَبؤسي وشقائي، يا لَبؤسي وشقائي. أختلط بالعدم، كذلك هي حروفي، مثلي تمامًا، تغادر إلى العدم». الخوف الكبير الذي كانت تواجهه في حياتها هو خوفها من أن تُنسى، وحصل ذلك فعلًا. نادرًا ما يتذكّر أحد صورة بروانة، لا أحد من بين جميع أقربائنا وبنات الحيّ يتذكّرها، حتّى عشّاقها الكُثُر الذين كانوا مجموعة من الشباب المتحمّسين، لايتذكّرونها. الشخص الوحيد الذي مازال يتذكّر بروانة ولم ينسها هو رضا دلخوش. كان يقول: «كانت امرأة مختلفة، كان ينبغي ألّا تُولد في زمن الحرب، كانت أرقَّ من أن تصمدَ أمام النار والنور والأعاصير. كانت كائنًا مرهفًا. إنّها مثلُ شرابِ سُكب قبل اختماره».

كان نصرالدين يذرع الأستوديو ذهابًا وإيابًا، يلكمُ الأزهارَ البلاستيكية ويقول: «ولِد الألوف من الأجيال المتعاقبة في تلك الجبال وماتوا هنالك ثم دخلوا طيَّ النسيان؛ كردستان موطن آلاف القرى الضائعة بين دروب تلك الطبيعة القاسية، عاش فيها آلاف البشر، ولم يتركوا وراءهم أيّ ذكريات؛ في تلك السنوات، كنت أقولُ بأنّ بحرًا شاسعًا من الأرواح والنفوس الحيّة، بحرًا شاسعًا من الحيوية والبشر قد عاشوا وماتوا جميعًا على هذه المرتفعات، ابتلعتهم الأرض، وكنتُ أتساءل: تُرى أيّ شيء في تاريخ هذه البلاد يستحقّ أن يُدوّن؟ كنتُ، مثل ساعي بريدٍ أعبرُ أرض كردستان من أقصاها إلى أقصاها، جوبهتُ بالحرب مع العدو والقبائل المأجورة والمرتزقة الأجانب. في تلك الجبال، تعرّفت إلى جميع الزعماء السياسيين. في السهول وفي المصايف، تعرفت على الأغوات والكادحين الكرد، إلى أن توصّلت إلى قناعة بأنّ هذه البلاد خالية من إنسان يستطيع أن يحبّك، خالية من أيّ إنسان يمكنه أن يصمدَ أمام البقاء تحت أقدام الوحش الذي اسمه الزمان. جلست تحت خيام وعرازيل مئات العشائر، رأيت النخبة من رجال العشائر. كان الوحيدون في هذه البلاد والوحيدون في هذا الخلاء الذين استحقّوا الذكرى هم العشّاق. ولذلك توجّهتُ إلى كتابة تاريخ العشّاق. لكنّني الآن، أقولُ إنّ هذه البلاد، كونها بلاد منسيّة، هذه الأرض، ومنذ آلاف السنين، لم تحمل ذكرى بضعة رجال عظماء، لم تحفظ فكر عالمين اثنين، فلماذا من الصعب أن يطويَ النسيان أولئك العشّاق مثل ملايين البشر الآخرين؟ لم كان نسيانُ الناس بروانةَ وفريدون ملك أمرًا مثيرًا للاستغراب؟ كلّ شيء في هذه البلادَ يلفّه الضباب. تاريخها ليس سوى سحابة غبار بعيدة. قبائلها

ليست سوى سراب. حدودُها ليست واضحةً بسبب ملاحمها وملاحم أعدائها، ثوراتها تستحيل غبارًا. انتفاضاتها تتحوّل طحينًا منثورًا. إذن، لماذا نستغرب إذا تساقطت مخلوقاته الصغيرة بتلك الهيئة؟».

في الليالي الطويلة التي قضيتها في بيتنا الفارغ، كنت أنهض وأدور حول نفسي مثل المجنونة. أستمع لصوت الريح والمطر في الخارج. أرفع الستارة وأتأمّل العتمة. أفكّر في كلمات نصرالدين المعطّر وأقول: «يا الله ساعدني، أخرجْ بروانة من بحور النسيان المخيفة، يا ربّ ساعدني لكي أقطعَ ظَلماتِ هذا النسيان وأحرّر إنسانًا من هذه المصيبة»، «يا إلهي، مهما تكرّرت مصائر البشر، مرّتين أو مئات المرّات أو حتّى آلاف المرّات أيضًا، في النهاية، يبقى مصيرُ كلّ إنسانٍ أمرًا خاصًّا ومهمًّا، متعة، قطعة أثرية له. لذلك ينبغي ألّا تموتَ ذكراه. يا الله ساعدني. إنّي أدوّن الحياة الحقيقية لعبد من عبادك. بالنهاية أنا أدرك أنّه لا شيءَ أكثرُ غرابةً وخداعًا من قدر الإنسان». عدّت إلى أستوديو نصرالدين المعطّر، رميت بحقيبة يدي على كرسيّ: «نصرالدين، فليكن تاريخ هذه البلاد على مدى مئة عام كلّه دمار وانتكاسات، لتكن ثوراته رمادًا وهباءً، ليصيرَ البشرُ رياحًا، لكنّ كلَّ هذا لا يعني أنّه لا محاولات، لا يعني أنه لا خروج وسط هذا الظلام بقصّة، أو أن يحفظوا ذكرى إنسانة تخشى النسيان وهذا ما كان يعلمه عنها الجميع».

لكنّ نصرالدين المعطّر كان يحرك عينيه الشبيهتين بعيني النساء بخشية، يراقِب يأسي بحذر: «خندان... خندان الصغيرة، غالبًا ما يراودني شكٌّ في حقيقة كوني عشتُ في ذلك الوادي مع أناسٍ

حقيقيين. أتساءل الآن، ألا يمكن أن يكون كلّ ذلك في الأصل مجموعة أوهام... مجموعة أشباح؟ هل أنتِ متأكّدة من أنّ فريدون وبروانة لم يُقتلا في تلك الليلة؟ هل أنتِ متأكّدة من أنّهما، في ليلة الحشر التي تتحدّثين عنها، لم يُحرقا داخل المكتبة... أأنتِ متأكّدة من ذلك؟!».

عبرتُ الطرق والشوارع مثل مجنونة، خرجت من بين عربات الباعة وتجاوزت منطقة بائعي السمنة وتجاوزت سوق الحلّاجين، تركت خلفي سوق اللبن، وعلى طول تلك الطريق، كنتُ أفكّر بهذه القصّة. وصلت إلى البيت ودخلت بسرعة، التقطت التمثال الصغير، صرت أتلمّسه وأتفحّص اسم بروانة المحفور في أسفله، ثم اندفعت إلى دفاتر ميديا غمكين، صرت أفكّر بكلام معصومة، بحكاياتها الطويلة في ليالي مدرسة الأخوات التائبات، أفكّر بمساء بروانة. كلّ شيء كان حقيقية. لا يمكن أن تكون كلُّ هذه الأحداث مجرّدَ خيال راوٍ، لا يمكن أن تكون كلّها من محض خيالي أو من إبداعات كذب الحياة. نصرالدين الذي هو في ريبة وشكّ من مجمل القصة، يعتقد، الآن، بأنّ الغموضَ يلفُّ ذلك الزمن. صار يستخدم جميع الخدع كونه مصّورًا محترفًا لكي يجرّني أكثر إلى دهاليز الشكّ. كان يقول: «يا خندان، الأمرُ كلُّه... في المجمل هو سلسلةُ قصةٍ، أنتِ بنفسكِ قمت بربط حلقاتها بعضها مع بعض. سلسلة من الحكايات المختلفة بعضها عن بعض. أنا اليوم أشاهد أيامي تلك بخدعة شخص ضائع بين الضباب، أين... أين هي... أين تكون تلك الغابة؟! تعالي نبحث عنها! سنجد أنّ سنواتِ الحرب والدمار لم تترك لنا ورقة خضراء،

نعم... أين هي إذن قبيلة العشق تلك؟ إلى أين ذهبوا في الليلة التي تركتهم فيها عند ذلك السُّلّم؟ إلى أين توجّهوا وتبعثروا، أيّ إعصار أطاح بهم؟!».

قلت له: «أنت كنت هناك. كنت في قلب تلك الغابة ورأيتها بعينيك. أنت من نظّمت حياة العشّاق بنفسك، أنت من كنت توصل إليهم الغذاء والبضائع والأدوات اللازمة لهم، تربطها بإحكام بحبال طويلة وقوية ثم تنزلها إليهم. أنت من جمعتهم من الجبال والسهول والحدود. أنت من قمت بحمايتهم في موسم المجازر المرتكبة بحقّ العشّاق وأنت من أوقدت لهم النار وقدّمت لهم الأمل، أنت من جعلت كوفاند يعمل صناعيًّا لكي يعيشوا من فنّه». رمقني طويلًا وقال: «ولكن من أنا، من أكون. أنا إنسان مثل جميع الكائنات في هذه البلاد، نصفي امتداد للخيال والضباب والغبار، ونصفي الآخر حقيقة».

كان يعتقد أنّه لم يحن الوقت المناسب لكتابة هذه القصة، وأنه حين يأتي زمن يزال فيه الغبار عن الأحداث وتنزاح عنها أجنحة الظلام، حينها يمكنك أن ترويَ الحكاية. كنت أعلمُ أنّه يحاولُ أن يؤثّر فيّ. كان يقودني إلى أماكنَ ضيّقةٍ وأزقّةٍ مغلقةٍ ومعتمةٍ بتفكيره. كنت أعلم أنّ الحقيقةَ هي سفرٌ عبر تلك المنعطفات الترابية والخيالية، حيث يحاول التهرّب منها الآن: «أنا شخصٌ مصوّرٌ، ما الذي كان يربطني مع كلّ تلك الخرائط والمخاوف الروحية! ماذا أفعل بمشهد لا يمكن تصويره؟ عشت منذ البداية رجلًا متناقضًا، أنا الذي امتهن تصوير الأجسام، ما الذي يمكنه أن يأخذَني إلى ذاك الخيالِ لكي أشغّلَ نفسي بعذابات الروح؟».

أثناء أيام طويلة من النقاش معه، كنتُ أزداد قربًا من الصراع الروحي الذي يعانيه. تارةً يعذّبه ضميره فيقول: «كلّ شيء كان رياءً ووهمًا، كلُّ شيء كان حكايةً خياليةً...». أحيانًا كان يصدمني بدوّامات ومتاهات، يضعني بين مرايا تيهٍ رهيب. يفعل معي ما يدفعني للقول: "يا الله أيّ ضياع هذا الذي سقطت فيه». كنت أمدّ يدي وأتناولُ دفاتر ميديا غمكين لأقرأها، صفحة إثر صفحة فيزداد يقيني: «لا يمكن أن يكون كذبًا، لا يمكن!».

عمومًا، كلّ ما تضمّنته دفاتر ميديا من حقائق وبالإضافة إلى حكايات معصومة، جميعها كانت متشابهة. تعرّفت ميديا ومعصومة على بروانة في الوادي، ونشأت بين الثلاثة علاقة صداقة. هما من روتا لي عمّا جرى في تلك الأيام، بشكل منفردٍ وفي وقتين منفصلين دون أن تعلمَ إحداهما بالأخرى. حينما كنّا معًا في مدرسة الأخوات التائبات، لم يخطر لمعصومةَ أنّه سيأتي يوم أطّلع فيه على دفاتر مذكّرات ميديا، حتى إنّها كانت تشكُّ بأمر بقاء تلك الدفاتر. حتمًا لم تكن ميديا قد سمعت عنّي. من الواضح أنّ بروانة لم تأتِ على ذكر أختِها الوحيدة، التي قضت حياتها بسببها في زاوية مظلمة من بيت للتوبة، لكنّ القصّة كانت هي ذاتها والكارثة هي ذاتها. اليوم وبعد كلّ تلك الأعوام، أستطيع أن أرى بوضوح ذلك المسار المستقيم، أرى كيف صنعناه أنا وبروانة عن بُعد، هي بجولاتها الطويلة والبعيدة في الغابة، وأنا بتخبّطي وتحرّكي الدائم في ظلام بيت التوبة الكبير. هي بموتها، وأنا بيأسي وقنوطي، هي بنسيانها -أنا وهي- وأنا بتذكّرها، هي برحيلها وأنا ببقائي.

14

يومَ إقامةِ مراسم جمعيةِ الأخواتِ التائبات، لم أرَ والدي. قامت ثلاث نسوة بمحاصَرتي بطريقة ما، كما لو أنّهنّ يحاصرن حيوانًا مفترسًا. الثلاثة وضعنني فيما بينهنّ وعدن متّجهات نحو البيت. لم يتفوّهنّ بكلمة واحدة طوال الطريق. حين وصلنا إلى البيت وقبل أن يمنحنني فرصة للتنفّس أو أخذ بعض الراحة، باشرن بفتح باب غرفتي ودخلن إليها، انتبهت إلى إحداهنّ وهي تقول لشقيقي الأكبر: «الأمر الأكثر خطورة على فتاة بهذا العمر هو استقلالها بغرفة خاصّة بها ضمن البيت». انزويت في مكان معتم، بينما قمن بفتح أبواب خزانتي واحدًا تلو الآخر، أخرجن الثياب من الخزانة قطعة قطعة، تنانير وفساتين المدرسة، جواربي الطويلة، أثوابي الداخلية الملوّنة والتي لم أرتدِ بعدُ بعضًا منها، عدّة مناديل معطّرة، زجاجة عطر صغيرة فارغة -أو اثنتان منها- ثيابي الصيفية، ثيابي الكردية، قمصاني... وضعنها جميعًا في صرّة كبيرة. ثم وضعن جميع كتبي في حقيبة. طلبن منّي حمل صرّة الثياب ومرافقتهنّ. حملت الصرّة وهنّ حملن حقيبة الكتب وغادرنا. أنا وثلاث نسوة بثياب سوداءَ نعبر الدروب وسط ليل قاتم. مشيت صامتة، كذلك هنّ، لميصدر عنهنّ صوتٌ سوى أصواتِ أقدامهنّ، وخشخشة أثوابهنّ الطويلة المرتطمة مع جدران الليلِ والأحجار والأتربة. لم ينظرن إليّ، وأنا بدوري لم أكن أرى منهنّ سوى أحذية بلاستيكية سوداء. لم يسبق أن شاهدت ليلًا وأزقّة صامتة إلى هذا الحدّ. كنت أنظر إلى السماء، لم تكن السماء يومًا متموّجة بهذا الشكل ولا الأرض لبست يومًا هذا الجمود وهذه القسوة. كان

بعوض الصيف يحوم حول أضواء الشارع الخريفي. تعبت من المشي في منتصف المسافة، أمسكت بعباءة إحداهنّ وسألتها: «إلى أين نحن ذاهبات يا عمّة؟»، ردّت أخرى: «سنأخذك إلى الجنّة». أمسكت الثالثة بساعدي وأشارت بيدها إلى الجدران والمباني من حولنا وقالت: «سنأخذك إلى خارج مكان الكفر هذا». لم أقل شيئًا، قادنا الليل ونحن نواصل السيّر، صعدنا إلى سيّارة، وبعد مسافةٍ لا بأس بها ارتجلنا. طوال الطريق، ولكي لا يقضي عليّ الخوف، كنت أفكّر ببروانة، كنت أسألهنّ فيما لو قضيتُ ما تبقّى من حياتي وحتّى مماتي في العبادة، هل سيغفر الله لبروانة؟ لكن، برأيهنّ، لا أحد يمكنه أن يشفع لبروانة. ضاع من خلفنا كلّ أثر للمدينة، صعدنا من جديد سيارةً مسافة معينة، ثمّ نزلنا على طريق ضيّقة. خضنا تلك الأزقّة الترابية الشائكة. هبّت نسمة محمّلة بتراب ناعم. مشينا بين عشرات البيادر، مرّت قطعان خراف الليل بالقرب منّا. كانت تفوح من الأرض رائحة الفصل المخنوق. علَقَت الأعشاب بقدمي، لكن بقيت النسوة مثابراتٍ على المشي. شعرت أنّ العشبَ يمسكُ بي. شعرت بشجيرات عدّة ذات أشواك تلتفّ حولي وتسحبني، لكنّي كنت أحرّرُ نفسي من ذراع الليل والطريق والعشب وأمضي. أحسست أنّ مخلوقاتٍ بيضاء مجروحة طلسميه ترافقنا إلى مكان مجهول في قلب صناديق الليل الغامضة. كلّما مضينا، زدنا اقترابًا من الفجر. الكائنات القلقة والتعيسة عادة ما تبتعدُ أكثر. في الفجر، ومن بعيد، لاح لنا طيف بناء، ظهرت لنا شمس الفجر الحمراء من خلف البناء. في الساعة الرمادية من الفجر، وقبل شروق الصباح، وصلنا إلى بلدة هادئة صغيرة، وقفنا أمام جدارٍ أبيضَ. كان الحمامُ أولَ المستقبلين لنا. فتحت لنا الباب الحديديَ

الكبير، امرأة بثياب بيضاء. دخلنا إلى فناء كبير، كان قنديل خافت يحترق في صالة نظيفة. تبادل الجميع النظرات، نساءٌ تمرّغت أطراف عباءاتهنَّ بالتراب، نفضنَ التراب عنها فامتلأ الجوّ من حولنا غبارًا، سحابة الغبار والأتربة أفزعت الحمام، فطار بعيدًا، كاد صوت خفق أجنحتها أن يوقظ بنات آوى العجائز من حولنا. المرأة التي فتحت لنا الباب أعطتنا بعض الماء وقالت: «أنتن أوّل القادمات، حتّى اللحظة لم يصل أحد غيركنّ». لكن بعد ذلك بقليل، بدأت نساءٌ أخرياتٌ بعباءاتٍ سوداءَ، يفدن من الطريق نفسها ومعهنّ فتيات مثلي يحملن صرر ثيابهنّ. كان على جميعهنّ أن يوجدن قبل انقضاء اليوم.

جلستُ وسط ذلك الفناءِ فوقَ صرّةِ الملابس. عمّ الازدحامُ والفوضى المكان. كلّما تقدّم الصبح بخطاه، زَاد عدد الفتيات الخائفات المنهكات والمتّشحات بالغبار، العابرات للباب الحديدي نحونا. جميعهنَّ دخلنَ برفقة عددٍ من النسوة، كنّ ذات نسوة الدفوف في ليلة المسجد، بالإضافة لنساء أخريات. خرجت امرأة من داخل المبنى الأبيض الكبير وبيدها قائمة طويلة، كتبت أسماءنا واحدة واحدة وقارنتها مع اللائحة التي بحوزتها. مع بزوغ الشمس، وصلت آخر فتاة. بدأت النساء ذوات العباءات يرجعن في مجموعات من حيث أتين، ومن ثمّ أُغلق الباب. آخر فتاة كانت فتّانة، والتي توجّهت مباشرة نحوي. وضعت صرّة ملابسها وجلست فوقها. كان لا يزال ظلّاً باردًا ولطيفًا يخيّمُ على فناء الدار، قالت بصوت خفيض ودون أن تنظر إليّ: «اسمي فتّانة غمكين، لا تنسي اسمي، ربّما يقومون بتغيير أسمائنا هنا. إنّنا كنّا معًا في المدرسة نفسها، لكنّي كنتُ في صفٍّ آخرَ». نظرتُ إليها

عن قُرب، رأيتُ فتاةً سمراءَ نحيلةً بعينين سوداوين، على كتفِها خرزةٌ زرقاءُ. ألقيت نظرةً إلى بقيّة الفتيات من حولي، تفقّدت بعينيّ الباب، خرجت منه سيداتٌ عدّةٌ محجّباتٌ واتجهنَ إلى الداخل. كان منزلًا كبيرًا، لا يشبه المساجد إلّا بالرسوم المنقوشة على النوافذ. تبيّن فيما بعد أنّ ذلك المكان كان في الأصل مدرسة شرعيّة، قامت الحكومة بإنشائها بناءً على طلب سكّان تلك القرى، ثم وبعد تدهور الأوضاع في المنطقة، سُلّمت إلى المسؤولين في دائرة الأوقاف لكي يديروها بمعرفتهم. هم بدورهم، حوّلوها، في ذلك المكان النائي، إلى مركز لإعادة تأهيل أطفال الأسر المفكّكة، لكنّ هذا الاسمَ هو فقط واجهةٌ رسميةٌ لها، وإلّا، فلماذا عُرفن باسم الأخوات التائبات.

كانت أمتعتي أكثر من أمتعة الجميع، صرّة كبيرة من الثياب وحقيبة مليئة بالكتب. نظرت فتّانة إلى حقيبتي: «جلبت معك كتبًا أيضًا؟ أنا، قبل مجيئي، خبّأت جميع كتبي، توقّعت أنّ أمرًا كهذا ينتظرنا»، سألتها: «أتعرفين أين نحن؟ إلى متى سنبقى هنا؟». أجابت بصوتها الرقيق: «لا أدري، لكن يبدو أنّنا سنبقى هنا فترة طويلة». كانت تضع على رأسِها وشاحًا أبيضَ، لكنّه متّسخٌ قليلًا. نظرت إلى وشاحي وقالت: «منذ متى تضعين الحجاب؟». قلت: «منذ أن غادرَتْ أختي بروانة». رمقتني بنظرة: «إذن، كانت أختك -أيضًا- ساقطة؟». قلت: «لا أعرف، أنا لا أصدّق. لقد أحبّتْ رجالًا كُثُر لكن لا أظنّ أنّها ضاجعت الجميع». قالت: «أختي لم تكن عاهرة، فقط أحبّت شابًّا اسمُه كالبا، أختي كانت بكماءَ، لا تستطيع الكلام أبدًا، كانت مثل سمكةٍ، لكنّها تكتبُ بصورة مستمرة. تعلّمت الكتابة منذ سنّ الرابعة.

كان الشابّ يأتي كلّ ليلةٍ يقفُ عند باب بيتنا ويعزف لها مقطوعات موسيقية. طبعًا كان يعزفُ فقط بفمه، وكانت ميديا بدورها تكتبُ له رسائل طويلة، تخفيها في علب الكبريت ثم تقذفها إليه. لَم يكن كالبا يعلمُ أنّ أختي ميديا خرساءُ، حتّى ليلة هروبهما، لم يكن يدري أنّ ميديا ليس بإمكانها التعبيرُ إلّا بالكتابة». قلت: «كذلك فعلت أختي، هربت مع شابّ اسمه فريدون ملك»، سألتني همسًا: «أتعرفين أين هما الآن؟» أجبت: «لا، لا أعلم، لا أحد يعلم».

في تلك اللحظة، خرجَت امرأةٌ تلفُّ رأسَها بوشاح، أمرت أن نحملَ أمتعتَنا ونتبعَها إلى باحة خلفية ترابية كبيرة، محَاطة بجدار سميك ومرتفع. تبدو على أرض الباحة آثار محاولة زراعة ورود. بعد لحظات، عادت المرأة ذات الثياب السوداء عينها، وكذلك سيدات عدّة أخريات، طلبن أن نفرغ حقائبَنا. أفرغنا كلّ ما في الحقائب والصرر قطعة قطعة، عندما حان دوري أفرغت كومة كبيرة جدًّا من الكتب والألبسة. نفضنا جميعًا حقائبنا، أخرجنا آخر قطعة من ثيابنا ورمينا بها فوق كومة من الأمتعة والأغراض. ثم جلسنا جميعًا مُتحلِّقِين حولها. جلست فتّانة بجانبي. تقدّمت امرأة طويلة القامة ترتدي معطفًا أزرقَ ووشاحًا أبيض، ألقت نظرة على الكتب والثياب، نظرت إلى جميع الفتيات، أمسكت بقائمة الأسماء وقالت: «اليوم، ستبدأنَ حياةً جديدةً. انسَيْنَ كلَّ ما فعلتنّ في السابق. لا تستخدمْنَ أيّ شيء يذكركنّ بالأيام والمشاعر والذكريات الفائتة. أنتنَّ اليوم تنتمينَ إلى عالم آخرَ... عالم طاهر». كان علينا أن نتعلّمَ منذ اليوم الأوّل أنّ الكلمة الرّئيسة في حياتنا وديننا، في حاضرنا ومستقبلِنا، هي الطّهارة.

ينبغي أن يكون كلّ شيء طاهرًا. أيادينا وأجسادنا ونظراتنا وابتساماتنا ونيّاتنا. ينبغي أن نتعلّم أنّ هذه المدرسة تقدّم لنا الطهارة؛ لأنّنا بنات مجموعة من العائلات التي غرقت في السوء والضلال، نحمل آثامَ شهواتِ أخواتِنا، ينبغي أن نتطهّر من نار هذه الشهوات. المرأة التي تحدّثت إلينا ذلك الصباح هي زينب كويستاني التي عاشت سنوات في تكيّة شيخ كبير على قممِ جبال تغطّيها الثلوج. يُروى عنها حكايات غريبة كالتي تقول أنّ النصفَ السفليَّ من جسدِها هو قطعة جليد! كلّ من يقترب منها يشعرُ بالبرود الذي تتركُه حولَها. لكنّ فتّانة كانت تقول: «كلّ هذا الكلام كَذِبٌ وهُراء، البرود الذي يتحدّثون عنه مرتبط بعينيها ونظراتها، لكنّ حياكة خرافات حول برودها هو نتيجة موت الأنوثة فيها، ويقال أيضًا إنّ كلَّ الطيور التي تقترب منها تتحوّل إلى جماد!».

نظرت زينب إلينا بكامل هيبتها، قدّمت نفسَها على أنّها مسؤولة المدرسة. أثناء القيام بإفراغ حقائبِنا، كانت أحيانًا تمدُّ يدَها إلى إحدى السُّبَح المعلّقة على صدرها وتصيح: «انفضن جيدًا، أفرغنَ حقائبكنّ تمامًا». وأحيانًا كانت تدير لنا ظهرها وتكتب شيئًا ما على دفتر صغير، أو تعطي إشارات معيّنة باليد أو بالعين للنسوة اللائي يساعدنها. لم يسبق أن رأيت هذه المرأة، كذلك مساعداتها كنّ غريبات لي، ماعدا امرأةً بيضاءَ، على ذقنها شامةٌ كبيرةٌ، سَبَقَ لي أن شاهدتها في بعض الأمسيّات في بيت عمّتي. كانت هي من تجلب عبوات صغيرة من البترول وتناولها لزينب كويستاني، لست متأكّدة إن كانت قد عرفتني أم لا، قالت لها زينب: «أحضري المزيد من البترول، الثياب كثيرة».

عادت هي وصارت زينب تصبّ البترول بنفسها على كومة الثياب والكتب، طلبت منّا أن نبتعدَ قليلًا. قالت وهي تُخرج من حقيبتها الصغيرة كبريتًا: «حانَ الوقتُ لنخطوَ الخطوةَ الأولى نحو الطهارة». مع تصاعد النار والدخان، لاحظت مرة أخرى أنّ الحمام الأبيض يطير. شبّت النارُ بهدوء. وقعت عيناي، بين كومة المحروقات، على دفتر مذكّراتي الذي تلتهمه النيرانُ. قلت لفتّانة بصوت منخفض: «انظري، إنّه دفتر مذكّراتي. إنّه يحترق». همست: «منذ صغري، تعلّمت من أختي ميديا كيفَ أخفي دفاتري، لقد خبّأتها في مكان لا يمكن لأحدٍ أن يعثرَ عليها. خبّأتها تحت شجرة التين في بيت إحدى صديقاتي». كانت فتّانة كثيرة الكلام، تتحدّث باستمرار، لم أكن أستطيع الاستماع إليها، كانت تدفعني رغبة أن أنهض وأمدّ يدي إلى النار، أن أنتشل منها ثيابي ودفتري المحترق، والثياب التي كنت أرتديها أثناء خروجي مع بروانة والثياب التي كنت أتسوّق بها، إنّ حياتي وذكرياتي كلّها مرتبطة بهذه الثياب. لكن صوت الاحتراق ازداد، وألسنة اللهب ارتفعت، وتصاعد دخان أسودُ كثيفٌ مثل عمود ضخم نحو عباب السماء، حملته نسماتُ الصباح وألقت به فوق تلك البلدة الصغيرة. وبدل الغضب والبكاء ومحاولة الارتماء إلى النار، ظهرت ابتسامة خفيفة مريرة على شفتيّ. كانت فتّانة هي الأخرى تراقب النار وتهمس في أذني: «أتحسّر على ذلك الفستان الأزرق، كنت أحبّه كثيرًا».

راقبت النار دون توقّف، بدأت الفتيات يسعلن وتدمع عيونهنّ من شدّة الدخان. ابتعدت زينب عن النار، رأيتها من مكاني، من خلف ألسنة النار، وهي تراقب ما يحدث بنشوة، ارتفع صوتها بين

همهمة النار قائلة: «ما يحترق الآن ليس مجموعة كتب وثياب قديمة! ما يحترق في الحقيقة هو عالم ربّاكم على الخطأ». بدأت الفتيات بالابتعاد عن النار بالتدريج. على خلاف من الجميع، لاحظت أنّني لم أسعل ولم تدمع عيناي من الدخان. شاهدت احتراق ثيابي قطعة قطعة، وكتبي صفحة صفحة، تحسّرت بحزن شديد، إنّها المرة الأولى التي ينتابني فيها شعورٌ عميقٌ بالأسى إلى هذه الدرجة. شعرت أنّني دخلت تمامًا إلى عالم غريب. رأيتُ في احتراق أغراضي وأغراض بروانة، احتراق الدفءَ والألفة التي تربطني بالحياة. في لحظةٍ، التفتُّ من حولي فتبيّنَ أنّني أقفُ وحدي قرب النار، وحدي أتمعّن بعمق في ألسنة اللهب، كان حزني أكبر من خوفي. رفعت رأسي، فرأيت تلك السيّدة تقترب منّي وسط الدخان ووهج النار وأصوات الاحتراق قالت: «أتتحسّرين على أغراضك؟». نظرتُ إليها ولم أقل شيئًا، لكنّها استغربت منّي: «ابتسامتُك هذه ليست بريئة!». في الوقت نفسِه، كانت نساء مساعدات عدّة يسعّرن النار بعِصِيّ طويلة، حرصًا منهنّ على وصول اللهب إلى جميع الكتب والثياب التي لم تحترق بعدُ. تقدّمت إحداهنَّ نحوي وبيدها عصا مشتعلةٌ وقالت: «تراجعي إلى الخلف». سحبتني فتّانة وهمست: «خندان، ليس من المستحسن أن تعانديِ، ليس من المحبّذ أن يسجلنَ عليك منذ اليوم الأول ملاحظة سلبية». رجعت مع فتّانة وسط الفتيات اللاتي وقفنَ في صفّ بجانب جدار المدرسة بعيدًا عن الأدخنة، وقد غطّين أنوفهنّ وعيونهنّ بأوشحتهنّ. مع اتّقاد النار، كانت تتّقد روح تلك المرأة فتقول: «النار تغسل الذنوب، تطهّر النفس من أعمال السوء. لكي تتطهّرن عليكنّ أن تلقين اللعنة على الأيام التي كنتن تمشين فيها في الطرق والمدن

وأنتن نصف عاريات. نصيحة الحياة الجديدة تبدأ بأمر صغير جدًّا وهو لباسكنّ. الفتاة التي تريد التّوبة والطّهارة عليها أن تبدأ بملابسها. اعلمن أنّ الحياة التي عِشْتُنَّها بهذا النمط من الثياب، لم تكن حياة طبيعية، الشيء الطبيعي هو أن تنسين كلّ ذلك».

نهضت زينب كويستاني واقفة. كانت الرياح تبعثرُ رماد الكتب والملابس المحترقة في كلّ الاتجاهات. ابتعدت قليلًا عن الدخان الذي تعبث به الريح كما تشاء. صارت تنظر إلينا بجدّية فائقة وباشرت الحديث: «ديننا ليس بالدين الذي يقول للناس والمؤمنين اذهبوا وافعلوا ما تحبّون وما تشاؤون... ليس مهمًّا ما ترتدون، ليس مهمًّا ما تشربون، كلّا... إنّ دينَنا ينظّم حياة الإنسان من كلّ جوانبها، يهيّئ الإنسان لعبادة الله في جميع المجالات. الركن الأساسي والأول لهذا التنظيم فيما يتعلّق بالمرأة فإنّه يبدأ من ملابسها ومظهرها الخارجي؛ لأنّ جسد المرأة يثير الشهوات، لباس المرأة المحتشم هو نصف الإيمان. اللباس لا يميّز بين الأخلاق الرفيعة والمنحطّة لصاحبه فحسب، بل يكشف النيّات عن صورة الحياة التي يفضّل الإنسان أن يعيشها. الثياب هي لغة، لغة الجسد، لغة الروح، لغة الرغبات، رغبات الجسد ورغبات الفكر. حين تعرّين جسدك تزيلين بذلك عقبة كبيرة من طريق الشيطان ليأتي ويثير شهواتك بسهولة أكبر. هناك عَلاقَة مهمّة بين الشيطان ونوعية الملابس. قبل كل شيء، الشيطان هو مصمّم ثياب وخياط، عليكنّ أن تعلمنَ جميعًا أنّ الشيطان يكشف عن نفسه للمرأة في المرّة الأولى على هيئة ملابس، هو يكشف عن نفسه في صورة ثوب قصير أو برّاق، على صورة سروال أو حمّالة

صدر مفتوحة مثيرة للشهوات. الدين يعلّمنا منذُ الصغر حينما يقول لنا «غطين أجسادَكنّ» أمّا الشيطان، فيقول لنا منذ صغرنا «اكشفن عن أجسادِكن، أظهِرْنَ مفاتِنكُن، لا تخشين التعريّ»، لذلك ينبغي لنا أن نعلم أن تغييرَ هذا العالم يبدأ بتغيير نمطِ اللّباس. لكي نتمكّنَ من إصلاح العالم، ينبغي أن نصلح الإنسَان أوَلًا، ولكي نتمكّن من إصلاح الإنسان لا بدَّ أن يرتديَ الملابسَ اللائقة. انظرن يا بناتي، انظرن، بقدر ما كان الثوب جزءًا من سنّة الشيطان فهو ليس ثوبًا. هو ليس لباسًا، بقدر ما هو أساس للأيام السوداء التي مرّت عليكن. إنّ ما تجدونه يحترقُ أمامَكم الآن، ليست ثيابًا بل هو الشيطان، شيطانٌ احتفظتُنّ به وقتًا طويلًا معكن. حكّ جلودكن، حرّك أجسامكن. لا تهتَمِمْنَ لأمر ذاك الشيطان، فاليوم سوف تحصلن على ثياب جديدة أكثر نظافة وطهارة من تلك. ثياب تحميكن من كل سوء وخطيئة، ثياب تزيدكن إيمانًا بالله...».

كانت زينب تجمع بين حرص امرأة ريفية، ورصانة أستاذة مدنيّة معًا. من الواضح أنّ لديها خبرةً كبيرةً بخصوص حياة التكايا، كذلك لديها نصيبٌ من تجربة مجالس النساء المدنيّات.

قبل تأسيس اتحاد النساء المسلمات، انضمّت إلى العديد من الاتحادات النسائية، حاولت، كما كانت تقول هي، أن تنشر القيَم السامية والمباركة للدِّين. ثم أصبحت مراقبة تدير الحجرات الدينية الصغيرة التابعة لوزارة الأوقاف في التكايا المختلفة للقرى والبلدات. وبسبب ذكائها وإيمانها الكبير بمستقبل الدين. نالت ترقية مرتبتها من مراقبة صغيرة إلى مراقبة عامّة. اختارتها جمعية علماء الدين لأجل

إدارة هذه المدرسة التأهيليّة. على كونها مسؤولية كبيرة، إلا أنّ تعيينها في هذا الموقع يدلُّ على احترام وتقدير كبيرين لهذه المرأة التي أكملت الأربعين من عمرها.

حين كانت تتحدّث في ذلك الصباح، كنت أشكّ في فهم الفتيات لكلامها. بعضهنّ لم يدرسن سوى سنوات قليلة في المرحلة الابتدائية، وبعضهم الآخر لم يرتدن المدارس مطلقًا. إحدى مهام هذه المدرّسة تعليم الفتيات القراءة والكتابة، لكي يتمكّن من قراءة القرآن والتمييز بين الرذيلة والفضيلة. يومها، استرسلت زينب في الكلام كثيرًا. أثناء حديثها انتهى احتراق كلّ شيء. لم يبق من ماضينا سوى بقايا من رماد ونايلون منصهر. بعد أن خمدت النار، جعلونا في رتل وقادونا إلى باب مخزن كبير. المخزن يقع شمال المبنى. هناك، بالإضافة إلى جلبابَين أزرقَين وأوشحة عدّة للرأس، أعطونا أيضًا بعض اللُّحُف والفرش والوسائد الجديدة. ثم اتجهنا عبر ممرٍّ طويلٍ ومظلم نحو الطابق الثاني للمبنى. كانت فتّانة غمكين تمشي خلفي بصورة دائمة. كانت تفضّل أن نكون معًا في الغرفة نفسها؛ لأننا سنحتاج بعضنا، وتمّ ذلك فعلًا، في النهاية سكنّا معًا، أنا وفتّانة مع فتاتين أخريين، في غرفة تستوعب أربعة أشخاص.

بالإضافة إلى غرف النوم، كانت في المدرسة صالات عدّة للقراءة، وقبو واسع، وغرف عدّة خاصّة للطعام والمحروقات ومطعم كبير، وصف طويل من الحمامات المغلقة ومغاسل خاصة للوضوء.

كانت الغرف مثل أيّ غرف للمدارس الداخلية الأخرى، تضمّ

سريرين ذي طابقين وطاولة طعام وخزانتين للملابس. كانت توجد عدّة نوافذ صغيرة في غرفتنا أنا وفتّانة، مع ذلك كانت معتمة دومًا. قالت فتّانة: «يقول أخي إنّ كردستان سوف تمتلئ، أثناء سنوات عدّة قادمة، بالمدارس الدينية؛ لأنّه كلّما زادت حاجتنا إلى الأخلاق، زادت أهمّية وجود هذه المدارس. كان يقول بأنّه كلّما زاد استغلال الأماكن البعيدة عن المدينة وعن الأعين لبناء المدارس، سيكون ذلك أفضل، لأنّه كلما زادت العزلة، زاد تواصل الإنسان مع ربّه. بالإضافة إلى ضمان الابتعاد عن الغرباء وكذلك عن الآثام».

الفتاتان اللتان شاركتانا الغرفة، هما أختان جاءتا من حيّ فقير جدًا من أحياء المدينة، كانت الكبرى تعاني اضطراباتٍ نفسيةً كبيرة. عندما دخلتا الغرفة وقبل أن تقولا أو تفعلا أيّ شيء، باشرتا بالبكاء. رجّحت فتّانة أن يكون سبب بكائهما العتمة المنتشرة في الممرّات والغرف، لكن الأختين أفصحتا أنّ أمّهما هربت مع صائغ... وأنّ والدهما غادر، لا أحد يعلم أين اختفى، وأنّهما تبكيان الوحدة. قالت لهما فتّانة: «اغسلا وجهيكما، سيكون كلّ شيء على ما يرام، نحن نعيش هنا معًا، ربّما نصبح في المستقبل مدرّسات دين». في الليلة الأولى لنا، ولكي نواسي الفتاتين، قمنا نحن الأربعة بإجراء جولة جماعية في المدرسة. رأينا فتياتِ المدرسة اللاتي بدأن باختبار المكان الجديد لإقامتهنّ. كنَّ يعلقنَ الستائر على النوافذ ويقسن الأغطية على الفراش وينظفنَ الخِزانات. قمنا بجولة على جميع الغرف واحدة واحدة، بعضهم سخر منّا وأخريات نظرن إلينا بصمت. حين نزلنا إلى الباحة، تملكنا شعور كشعور الأطفال، اعتُصرت قلوبنا ألمًا، كنّا متأكّداتٍ من أنّ آخر مكان

يمكننا رؤية السماء فيه هو هذه الباحة التي شكّلت جدرانها العالية حاجزًا بيننا وبين العالم. بعد قليل، بدأت الابتسامة تظهر على وجهي الفتاتين. من حين إلى آخرَ، كانت بعض المدرسات يخرجن وينظرن إلينا ونحن جالسات نتحدّث في ظلّ جدار الباحة. الأخت الصغرى اسمها مهتاب. كانت تحكّ ذقنها وتقول: «أمّي لم تكن مذنبة، المرأة التي يتحدّثون عنها هي ليست أمّي». ردّت عليها أختها الكبرى ليلى بغضب: «أمّي كانت مذنبة، نحن أيضًا مذنبات، جميعنا مذنبات ولن يطهّرنا شيء...». تلمّست من اليوم الأوّل قلق ليلى. في تلك الليلة، حين كنّا جالساتٍ قرب الجدار، حرّكت يديها بصورة جعلتني أشعر بخوف شديد. هي فتاة ذات عينين صغيرتين، قامتها أطول منّا جميعًا، ولها صدر أكبر من صدورنا نحن الثلاثة، تعيش مع أختها حالة عدم ثقة وترقّب دائمين. كنّا نسمع شجارَهما. قالت ليلى: «كان بيتنا مليئًا بالشياطين، شياطين مختلفة الهيئات، هم من ضلّلوا أمّي وأوصلوها لهذا المصير»..أمّا مهتاب التي سمّيت فيما بعد «كوبه» فقالت: «بيتنا كان فارغًا من كلّ شيء، من الفراش والطعام والثياب، من الملائكة وكذلك من الشياطين... لذلك هربت أمّي». كانت مهتاب، على خلافٍ من أختها، فتاة ممتلئة، قصيرة القامة، مكوّرة الجسم، لها وجه يشبه وجه هدهد كئيب كانت تقول: «أمّي ليست مذنبة، لو عاشت أيّ امرأة أخرى ما عاشته أمّي لفعلت مثلها». كان واضحًا أنّ الأختين على خلاف دائم. مع ذلك، بدا أنّهما لا تستغني بعضهما عن بعض، تجدهما دومًا معًا وبعضهما يشاكس بعضًا بصورة مستمرة. أرتني مهتاب، بالخفاء، زوجًا من الجوارب الجميلة، قالت، بأنّه الشيءُ الوحيد الذي استطاعت أن تخرجَه من بيتها وتخفيه بين ثيابها. قالت

إنّه الذكرى الوحيدة من أمّها، وأنّها لن تتخلّى عنه أبدًا. في ذلك اليوم، لفت انتباهَنا أنّ العتمةَ أرخت بظلالها على المدرسة في وقتٍ مبكّر مع بداية العصر، وأضفت هدوءًا غريبًا على جميع الغرف. تجوّلنا يومها، أنا وفتّانة، في المدرسة. ذهبنا مرّات عدّة إلى الصالة. تفحّصنا انطلاقًا من نافذة كبيرة الجوار، وهناك رأينا سيارة كبيرة فيها سجّاد ومقاعد وأسرّة وأمتعة أخرى، يتمّ نقلها إلى قاعات الدراسة وغرف المدرّسات. قالت فتّانة هامسة: «خندان الصغيرة، عدًّا من الغد سوف نبدأ مرحلة سيّئة جدًّا». فوق المغسلة، في المكان الذي من المفترض أن يتمَّ تعليق مرآة، كُتب وبأحرف كبيرة عبارة: «المرآة الوحيدة هي مرآة الروح». قالت فتّانة: «هذا يعني أنّنا لن نرى مرآة بعد الآن». لم أكن من النوع المُغرَم بالوقوف أمام المرآة، لذلك استغربت من فتّانة حين أخرجت من جيب جلبابها قطعة مرآة صغيرة وقالت: «انظري يا خندان، علينا أن نحافظَ على قطعة المرآة هذه، إنّها الشيء الوحيد الذي يُمكّننا من رؤية أنفسنا». كنتُ أستغرب حينها من فتّانة ومهتاب لحرصهما على الاحتفاظ بها. أعادت فتّانة المرآة إلى جيبها قائلة: «أقسمُ لو لم يبقَ لدي سرٌّ، لَمِتُّ». فيما بعدُ، أدركتُ جيدًا أنّ صناعة الأسرار والعيش في عوالمَ خفية يشبعان رغبة فتّانة ورغبات الكثير من فتيات المدرسة. رغبات، لا بّد منها ضدّ شريعة التّوبة وقوانينها. كانت الليلة الأولى هادئة وصامتة إلى حدٍّ غريب. أوينا إلى الفراش باكرًا. كانت نوافذ المدرسة قد أُغلقت بإحكام شديد. قمت بإزاحة ستارة نافذة غرفتي بهدوء، نظرت إلى السماء الممتلئة بآلاف النجوم المشعّة. فجأة، بدأت فتّانة بسرد حكاياتها. كنّا جميعًا مستلقيات على أسرتنا بصمت، إنّها نبرة صوت راوية محترفة: «كانت ميديا غمكين

تحبُّ القمر، تحبُّ القمر حتّى إنّه ليصعب التصديق بأنّه يمكنها العيش من دون قمر. في الليلة التي لا ترى فيها القمر، ينتابها حزنٌ شديد. ذات مرة، حين كانت صغيرة، لم تجد القمر، فخرجت من البيت للبحث عنه. لكنّها عادت ومعها كتاب قديم بدل القمر، كتاب وجدتْه أمام باب قصر قديم ومهجور. كان الكتاب عن موت شاعر. قبل أن تنتهيَ ميديا من قراءة الكتاب، أصيبت بمرض عضال». قبل أن تنهيَ فتّانة الحكاية، وبينما كنت أراقب النجومِ، غفت عينايّ واستغرقت في النوم. بعد ذلك، استمرَّ بي الحال كلَّ ليلة، سنة بعد أخرى وفي أقسى الظروف وتحت جميع الضغوط، في الليالي الباردة والمظلمة، أصبحت أنام على حكايات فتّانة. كان لحكاياتها تداخل كبيرٍ بين الصدق والكذب، أثرت فيَّ كثيرًا. إلى يومنا هذا، مازلت أشكُّ في مصائر الجميع.

تلك كانت الليلة الأولى لبداية عالم الحكايات والتّوبة، والخوف، والترويض، والوَحدة. ليلة سوف تلاحقني حتّى الموت، ليس لي مفرٌّ من ظلالها الحالكة، لا اليوم ولا لزمن قادم، حيث تلاحقني لعنتُها بلا شفقة ولا تمنحني فرصة للنجاح في حياتي.

15

بينما كانت بروانة مستمرة في رحلتها الخيالية، جاءت ميديا إلى الغابة بعد أن عثرت على القمر، بعد رحلة بحث عن خيوطه. تقرّبت معصومة منهما وصارتا بمنزلة أخوات، لكن الأمور لم تجر بتلك السهولة. في البداية، كان عالم الصديقتين المشترك يثير فضول معصومة، وكيف لهما أن تقضيا الوقت معًا بين الأشجار وعلى ضفاف الأنهار، وتتحدّثان أثناء نزهاتهما المختلفة عن الحبّ والحياة وعن ذكرياتهما. لكنّها حين لمست لديهما حبًّا عظيمًا وشعرت بكمّ الأحاسيس والوفاء لدى الفتاتين، اطمأنّت وسُرّت لذلك. كانت معصومة، في الليل، تتهرّب من سيامند بالند. لاحظتْ بروانة أثناء جولاتها الليلية، كيف يقوم سيامند بتعنيف معصومة بوحشية، ويزداد ظلمُه لها كلّ يوم عن سابقه. لاحظت أنّه يجبرها، كلّ ليلة، على تسلّق الأشجار. كان يجبرها على أن تجثمَ مثلَ الطيور على الأغصان وتتنقّل من غصن إلى آخرَ. أحيانًا تقف وتنصت لصراخ واستغاثات معصومة. في البداية، كانت تتألّم وتتأوّه بصمت، مع مرور الوقت، بدأ صوتها يرتفع وصراخها يزداد. كان يقول لها: «عليكِ إذن أن تعيشي حياةً مثل حياة الطيور، ما دمت قد أحببت طيرًا». أحيانًا أخرى كانت تهرب منه وتختبئ بين الأشجار في الظلام. كان عليها أن تتحمّل وتقاوم وألّا تخرج حتّى الصباح. مع شروق الشمس، كان كلُّ شيء يعود طبيعيًّا؛ لأنّ سيامند يذهب مع بقيّة الرجال إلى العمل، كذلك هي تذهب إلى عملها في صنع السلال. لم يكن سيامند دومًا بذاك الجنون. أحيانًا، كان يتحوّل إلى رجل عادي هادئ، ينزل عن الشجرة

ويذهب إلى خيمته، ينظر إلى معصومة بحبّ، كما في السابق. حتى أن معصومة كانت تشعر به وهو يبكي، ترى الدموع متجمّدة في عينيه. لكن عمومًا، كان يعيش وحيدًا، حتى إنّ نصرالدين المعطّر لاحظ، في إحدى زياراته، العزلة والحزن اللذين يعانيهما صديقه سيامند، وكيف بنى حاجزًا بينه وبين بقيّة العشّاق. لم يخطر في بال نصرالديّن أن يقع سيامند من جديد في فراغ العزلة. سبق وأن بذل جهودًا شتّى لإخراجه من تلك الحالة، حتّى ظنّ أنّه أصبح إنسانًا عاديًّا. لكن حين سمع من العشّاق أن سيامند يقضي معظم وقته وحيدًا، تألّم كثيرًا، لذلك صعد إلى شجرة أمام شجرته وقال له: «كنت أظنّ أنّك لن تعود مرة أخرى إلى تسلّق الأشجار. اعتقدت أنّ الحبّ سيغيّرك ويجعل منك إنسانًا طبيعيًّا...». يومئذٍ، ظلّ سيامند ونصرالدين فوق شجرتين متقابلتين يتحدّثان إلى وقتٍ متأخّر من الليل. لكن في النهاية، نزل نصرالدين يائسًا فاقدًا الأمل من أن ينقذ سيامند من عالم عزلته. ها هو نصرالدين اليوم يصف حالته: «تسلّلت روح الطيور البرّية وحبّ الاعتزال إلى روحه منذ الصغر، ولم يكن من السهل انتزاعها من جذورها».

لم يستطع أحدٌ ثني سيامند عن الانزواء. لا أحد استطاع إخراج سيامند من عالمه ذاك. تعود جذور حالة العزلة تلك إلى طفولته. حين عرفه نصرالدين، كان كائنًا برّيًّا غير مروّض، كائنًا جبليًّا. كانت علاقته مع الطبيعة والطيور والغابات أقوى من علاقته مع البشر. حين كان طفلًا رضيعًا، وجده حطّاب في سلّة قشّ على فرع شجرة، وسط الطريق المؤدّي إلى قمّة الجبل. اعتنى به الحطّاب العجوز وربّاه مع أولاده إلى أن صار عمره عامين. بعد موت الحطّاب، أخذته امرأة

متوسطةٌ في العمر... لكنّ البيئة الدينية المتزمّتة التي تربّى فيها لدى تلك المرأة، جعلته يتحمّل مبكّرًا التعذيب والعقوبات والضرب. بالإضافة إلى أنّ عضلاتِ ساعدَيه الضخمة وحدقتي عينيه الواسعتين والمخيفتين، منحته صورة طائر بريّ. كلّما تقدّم به العمر، كان يلاحظ تجنّب أطفال ونساء القرية لنظراته التي كانوا يجدونها نظرات مؤذية وشيطانية. كلّما كبر أكثر، تكرّست فيه الطباع البرية بصورة أكبر. كان الناس يعدّونه مثل وباءٍ أو آفة قاتلة أو مصيبة. هذا الرفض وهذه اللعنة من الناس دفعته للابتعاد عنهم أكثر فأكثر. لم يجد مكانًا أبعدَ يلجأُ إليه، لذلك توجّه مجبرًا إلى الجبال، إلى الغابات والمرتفعات الشاهقة، وإلى الكهوف البعيدة. كان يقتات على أكل لحم الطيور والفواكه البرّية وأسماك الأحواض والبحيرات في المنطقة. لكن، من حين لآخر، كانت تسيطر عليه رغبة قوية للعيش مع البشر والتواصل مع الناس. ولذلك كنت تجده، فجأة، واقفًا أمام مسجد القرية، أو يمشي في أزقّتها الضيّقة أو يتوجّه إلى بيت البيك، إلى القصر والسراي الذي قضى فيه طفولة ناقصة مليئة بالانكسارات والذلّ. لم يلقَ هناك من أخوته غير الأشقاء، سوى نظرات الحقد، حيث كانوا يرونه مثل لطخة سوداء شائنة ومهينة. كلّما طال بقاؤه في الجبل، اكتسب سلوكًا متوحّشًا، وازداد خوف سكّان القرية والقرى المجاورة منه واختلقوا عنه القصص الخرافية. أحيانًا كان سيامند يختفي أشهرًا عدّة ثمّ يظهر في المناطق المحيطة بالقرية من جديد. مع ذلك، ودون أن يلتفت إلى المسبّات واللعنات وطرد القرويين له، بدأ في أصباح الصيف، ينزل إلى القرية بعد أن يترك صحبة الطيور والحيوانات. لقد وقع في حبّ فتاة من أكثر فتيات القرية رقّة وعذوبة.

لا أحدَ يعلم كيف تعرّف سيامند على معصومة، وكيف أحبّها. معصومة هي الفتاة الوحيدة من القرية التي كانت تكمل دراستها في المدينة، لذلك كانت تعود إلى القرية في الصيف وفي عطل نصف السنة. التقته أثناء نزهاتها بين البساتين والكروم في بحثها عن الأعشاب والزهور الجبلية. وجدت سيامند ذا الأجنحة المفتولة والأنف الشبيه بمنقار قصير وذا شعرٍ كثّ. بدا بنظراته أشبه بطائر بازٍ جائع. معصومة التي سبق لها أن سمِعت من نساء القرية القصص المرعبة عن هذا الطفل، والآن تغلق في وجهه باب الحبّ والكلام والوعود ولا تكتفي بذلك، بل تضطرّ إلى ترك القرية لتعود إلى المدينة هربًا من حبّه ومن نظراته المخيفة. لكنّ الفصول والأعوام لم تستطع أن تقلّل من حبّه الذي تحوّل إلى قوة ضاربة، حارقة وهدّامة. مع مرور السنين، كان سيامند يزداد قسوة، ويصير أكثر إجرامًا. هذا الحبّ غير المكتمل زاد من وحشيته، فكان يقوم بإشعال النار في الحقول والزرع، يخرّب الكروم ومن ثم يهرب إلى الجبل.

كان سيامند في أسوأ حالاته حين عثر عليه نصرالدين المعطّر في أحد الكهوف مريضًا ومغمى عليه. كان نصرالدين حينها يفتّش عن مخبأ محصّن له وللبيشمركة، فأوصلتهم المصادفة إلى ذلك الكهف. يبدو أن أحد البيشمركة كان يعرف قصة العاشق المتيّم، الذي يعيد في تلك المرتفعات حكاية مجنون محطّم ومنهار. مع أنّ نصرالدين قضى حياته مع قصص العشّاق إلا أنّه لم يصادف قصة غريبة وعاشقًا مثل سيامند. قال نصرالدين: «كان، فيما يتعلق بي، عاشقًا مختلفًا لي، عاشقًا حتّى لو كان قادمًا من بداية التاريخ، فإنّه ينبض بالحبّ

وبأولى مقوّمات الحبّ لدى الإنسان. كان عاشقًا متوحّشًا وعنيفًا، عاشقًا يعيش خارج أطر قوانيننا». ثم تابع نصرالدين قائلًا: «كان عليّ أن أفعل شيئًا، أن أعيدَ هذا الإنسان المريض المجنون إلى مجتمع البشر». لذلك قام بالاعتناء به ومداواته أثناء فصول عدّة، وصار يذهب معه إلى الغابة وإلى الأنهار. كان يقول له: «إنّ الجبال والحقول أودَت بحياتك. إلى متى ستعيش حياة طائر فوق الأشجار؟ إن لم تصبح إنسانًا طبيعيًا فلن تجد من تعشقك». اصطحبه نصرالدين معه إلى القرى. وهناك، كان يريه من بعيد المدن والطرق المعبّدة والبلدات الصغيرة. علّمه معاني الحياة. لقّنه دروسًا في الحُبّ. جعله يكفّ عن حرق المحاصيل والحقول. لكن، على كلّ هذه الجهود، ظلّ نصرالدين يشعر بوجود طائر منعزل غير مروّض في أعماق سيامند. أرسله إلى المدينة، إلى لقاء كوفاند وفريدون ملك، وإلى عشّاق آخرين في مدن وبلدات أخرى. أرسله إلى شاعر عجوز بارع في صناعة الجنون في الحبّ. سجّل اسمه في قائمة البيشمركة. جعل منه ساعيَ بريدٍ بين قرى وأماكن مختلفة. وأثناء ذلك، تغيّر سيامند بصورة لم يعد أحد يعرفه فيها. فبعد أن عاد بعد مدّة إلى القرية ورآه القرويّون مرتديًا ملابس جديدة ومعطفًا طويلًا، بشعره الأشعث وسلاح بلا أخمص، لم يصدّق معظمهم أنّ هذا الشابَّ المهيبَ الذي يجمع في نظرته هيبة إنسان وطائر، هو الطفل المجنون والمتوحّش نفسه الذي كان يحرق مزارعهم. في الوقت الذي عاد سيامند فيه إلى القرية في هيئة رجلٍ نبيل، كانت معصومة مريضة، وقد وضِعَت في سيارة بيك آب قديمة وجيء بها من المدينة. اعترفت معصومة، فيما بعد: «كانت تجارب الحبّ المريرة مع شباب غير أوفياء في المدينة

قد أنهكتني وأودت بصحّتي، حينما عدت كنت في حال سيّئة للغاية، كاد الحبُّ يقضي عليّ...». ظهر حينها سيامند في حياة معصومة بصورته الجديدة، شعره القصير غير المسرّح، سرواله الأسود وحذائه العسكري الطويل. معصومة التي أعيتها المدينة، وأرهقت في الثانوية الزراعية، لم تعد ترغب في رؤية أولئك الشباب الوقحين والفتيات المزاجيّات في المدرسة. قالت ذات مرة لسيامند بينما كانا قرب القرية: «فتّش عن مكان بعيد أذهب معك إليه، مكان لا يستطيع أحد العثور عليه، مكان بعيد عن هؤلاء القرويين الظالمين، وعن المدنيين الناعمين والرقيقين. أوجد مكانًا خفيًا عن الأنظار نسكن فيه، يكون منسيًّا لا يمرُّ به أحد ولا يصله طريق». حين أخبر سيامند نصرالدين بالأمر استغرب وقال: «إنّه أمرٌ غريبٌ، هذه الفتاة تفكّر مثلي تمامًا، وبكلّ جزئية تتطابق أفكارها مع أفكاري». منذ تلك اللحظة، أصبح أمرُ إيجاد مكانٍ آمنٍ ومحصّنٍ، وادٍ متطرّفٍ، منطقةٍ منسيّةٍ، هي أمنية سيامند ونصرالدين الأولى.

حين نزل سيامند ومعصومة على ذلك السُّلّم أول مرّة، تملّكهما خوف شديد وشعور بالوَحدة. معصومة بالكاد تعرفه، وهو كذلك، لا يعرف عنها شيئًا سوى تلك الصورة الخيالية التي رسمها لها في خياله. منذ الليلة الأولى، أدركت كم ستكون الحياة صعبة مع شخص مثير ومزاجي مثله. حين بدأ العشّاق يتوافدون إلى الوادي، غضبت معصومة كثيرًا وقالت: «أنا طلبت منك إيجاد مكان لا يوجد فيه أحد ولا يصله طريق، لقد خالفت شرط حبّنا الأساسي». وقف سيامند منذ البداية ضدَّ وجود جميع أولئك البشر الذين بدؤوا يحتلّون ضفاف

النهر وظلال الأشجار. قال لمعصومة: «سنعيش أنا وأنت مثل طائرين بعيدًا عنهم». صار سيامند يتحرّك بصورة أكثر وحشية، أكثر قسوة وصمتًا، وكذلك أكثر أذًى. جاء نصرالدين إلى الغابة وقال له: «عليك يا سيامند أن تعمل أنت أيضًا مثل جميع العشّاق الآخرين. عليك أن تساعد في عمل الورشة». ولمّا كان يخشى نصرالدين ويحبّه، كان ينفذ جميع أوامره، لكن لم ينتم قطّ إلى ذلك المجتمع. كان يرفض أن يسمع خطابات كوفاند الطَويلة عن الصدق والجمال، عن إمبراطوريات الحُبّ، وآيات العشق. إنه لا يجالس أيّ رجل. الشخص الوحيد الذي يتعامل معه هي معصومة، وهو في محاولة دائمة ليغيّرها فتصير طائرًا. بينما كانت معصومة في محاولة دائمة للتهرّب منه، قائلة: «أنا لست خطيبتك، أنا لست حبيبتك، لم تنفذ الشرط الأول لحبّنا، لم يعد يربطني بك شيء». هذا الكلام كان يثير جنون سيامند، فيعود إلى طباعه الخطرة والمؤذية. يشدّ معصومة بعنف ويأخذها إلى فوق الأشجار. فلا يبقى أمامها سوى الهرب، كانت تتشبّث للبقاء مع الفتاتين. حين يراها سيامند معهما كان يتراجع ويصعد إلى شجرة دون أن يتفوّه بكلمة. وضعت معصومة رأسها على صدر بروانة وقالت: «لم أحبّ سيامند يومًا». مسّدت بروانة شعرها، مسحت دموعها تحت ضوء القمر، تحت سقوط الضوء وفي صمت وسكون الغابة المقلق. وضعت يدها على شفتي معصومة وقالت: «اسمعي الآن يا معصومة، اسمعي حكايتي فهي تشبه حكايتك. بدأت من البحث عن أرض أخرى، عن عالم أخر».

كانت الفتيات الثلاث يجتمعن كلّ ليلة تحت شجرة في أعماق

الغابة، ويروين حكايات عن حياتهن. كانت ميديا تروي قصتها كتابةً، بينما الاثنتان الأخريان فترويان قصّتيهما شفاهًا. من عشرات الزوايا المتنوّعة، وحتّى الصباح، كنّ يناقشنَ ما جرى لهنّ في حياتهنّ. كتبت ميديا بألم: «لم يحبّني كالبا قطّ، إنّه لا يحبُّ ميديا الصامتة». قرأت بروانة عبارتها وقالت: «يا الله، ماذا يعني ذلك؟ هل يعني أنّ جميع العشّاق مخادعون، وأنّ الحُبّ هو فقط ساعات عدّة من الخيال والأوهام والسراب». كانت تركض مثل مجنونة بين العشب البريّ، تظهر مثل تائهة وسط الريح وأشعة الليل: «يعني أنّنا جميعًا نخدع أنفسنا، نكذب على أنفسنا، لا أحد هنا يعشق بصدق». ردّت ميديا وكتبت: «منذُ اللحظة التي علم فيها أنّني خرساءُ، منذ تلك اللحظة كرهني، ولم يعد يعزف لي الألحان التي أحبُّها».

لاحظت بروانة كيف يعيش كالبا وميديا مثل شخصين غريبين بعضهما عن بعض. كان ينام وحيدًا فوق سرير من قشّ، بينما تبدأ ميديا رحلة بحثها عن القمر. في المساء، يجلس هو فوق الصخور ويعزف الألحان، وفي الليل، ينضمُّ لتجمّع حول كوفاند، يتكئ على شجرة ويراقب بعينيه الناعستين النساء والرجال من حوله. ميديا وكالبا كلاهما كانا فارّين من مجازر العشّاق. قام أحد الشباب المتديّنين بالعثور على بعض أوراق ميديا المخبّأة في علب كبريت وأخرجها من حفر عدّة بالقرب من بيتها، ثم وضعها بين يد الشخص المراقب على العَلاقات المحرّمة. لم يكونا يعلمان أنّ اسميهما موجودان في قائمة العشّاق الذين يقع عليهم حدُّ القتل، حتّى تلك اللحظة لم يكونا قد تقابلا وجهًا لوجه. صحيح أنّ الحيّ كلَّه يعلم أنّ كالبا يعزف بفمه

الألحان الجميلة لميديا، ألحان أجمل من الموسيقى الصادرة عن الآلات الموسيقية، وأعذب من صوت الفيولا والتشيلو والفلوت، لكنّ الجميع كان يعلم أنّ ميديا لم تغادر بيتها منذ وقت طويل. الجميع يعلمُ منذ آخر مرّة ذهبت في إثر القمر ووجدت ذلك الكتاب الذي أعياها ولم تخرج بعدها، اكتفت بملاحقة القمر من فوق سطح بيتها. حين ذُبِحَت فتاتان في الحيّ، لم يصدّق أحد أنّ الفتاةَ الثالثةَ التي ينبغي أن تذبحَ هي ميديا البكماء. قبل ساعات عدّة من محاصرة القتلة للبيت بسكاكينهم وأسيدهم، قام صديق لكالبا بتحذيره وإخباره بكلّ شيء.

عندما طار كالبا تلك الليلة بميديا، لم يكن يعلم أنها خرساء. كان صريع تلك الرسائل الطويلة التي كتبت فيها بصورة رائعة عن الشعر والموسيقى والقمر، وعندما تبيّن له بُكمُ ميديا، ندم كثيرًا. كان يدقّ رأسه بحجارة الحقول من حوله ويقول: «هذا يعني أنّني من أجل فتاةٍ خرساءَ واجهت خطر الموت»، كان يقول متأثّرًا: «عليّ إذن، وحتّى الممات، التكلّم معك عبر قصاصات الورق! حتّى الممات، محكوم أنا بالصمت، أنا الذي كنتُ أحلمُ بصوتك، كنتُ أحلمُ بأن أسمع كلماتِ رسائلك تنطقينها بصوتك. كنت مجنون تلك الألحان الساحرة التي صوّرتها في مخيّلتي. ماذا عليّ أن أفعل الآن. أحببت سحر صوتك الضائع، أحببت سحر صوتك الضائع». لكن لم يعد لهما خطّ رجعة بعد الآن.

كانت ليالي الحكايات هذه تمرّ على بروانة ثقيلة مثل الكوابيس. طوال الليل ترى مشاهد موت الحبّ وصور انهيار وعود الحب، تتصوّر مصير الكائنات الأخرى فتتشاءم من كلّ شيء. حين تعودُ في الصباح

إلى فريدون، تكون روحُها باردةً، تشعر أنّ يديَها وقلبَها وأوردتَها خاليةٌ من أيّ إحساس. هي تعلم أنّ حياتَها وجسدَها ووعودَها قبل فريدون في عالم رجال آخرين، رجال هم الآن غرباء وبعيدون ولا ذكريات عنهم، قد طوتهم أجنحة النسيان. وتعلم أنّ ذلك الجسد المنهك التعب جسدُ فريدون الممدّد إلى جانبها يفكّر بأشياءَ غريبةٍ ومجهولة، إنّه قلب وجسد اختبرا الحبّ عشرات المرّات في طرقات المدينة. لكنّه يبدو اليوم منهكًا تعبًا وقد نسي كلّ ذكرياته. أحبّت فريدون لكي ينقلها إلى عالم آخر، إلى عالم الحضارة والحرية، بعيدًا عن عذابات البشر المؤلمة. كانت تعلم -أيضًا- أنّ فريدون أحبّها للسبب ذاته، أحبّها لأنّها تشبه فراشة؛ لأن جزءًا منها له عَلاقة بجنس الفراشات. كانت تستلقي بهدوء إلى جانبه، تراقب نظراته وهو يقول لها: «أين أنت يا بروانة، أين أنت؟ أنت بعيدة جدًّا... أنا لا أراك». كانت تعلم أنه لا يمكن بعضهما الاقتراب من بعض أكثر، وأنّ نور الليل المتسكّع الذي يشملُها ليس سوى نداء لرغبة شيطانية داخل روحها، رغبة في التغيير، رغبة تهزّ الحياة، رغبة في قلب النظام المكرر والمملّ، رغبة في الوقت والحياة، رغبة في رؤية عالم آخر خلف قناع هذا التعب. كان فريدون يرى بروانة تغادر، يرى كيف تتحوّل إلى غبار، تستحيل رمادًا ناعمًا يتناثرُ في الهواء. كلّما ابتعدت بروانة، صارت رمادًا. كان فريدون يرى الجانب الأسطوري غير المعقول لهذا الحبّ، الحبّ الذي تخيّله يومًا حلًّا لجميع أوجه الحياة الفارغة والهشّة.

أثناء تفكيره الطويل في ليالي الغابة، اقتنع فريدون أنّ عدم توصّله لأيّ هدفٍ في جميع عَلاقاته الإنسانية السابقة هي ما دفعته إلى

دائرة الخيال المفرغة هذه. أثار سقوط رضا دلخوش لدى فريدون السؤال التالي: «حتّى لو تمكّن الإنسان من الطيران، إلى أين يمكن أن يذهب؟». ليالي السُّكر وشرب الخمر والغناء مع عدد من مغنّي المقامات في النهاية أوصلت فريدون إلى تلك الغابة، علّمته تلك الحياة أنّ الإنسانَ يمكنه أنْ يكسبَ سعادةً كبيرةً من أمور متواضعة وصغيرة أيضًا، علمته أنّ السعادة يمكن أن تكون فقط أغنية، أن تكون الحياة بعيدة عن الخوف وبعيدة عن رهبة الموت المستمرة. يمكن أن تكون السعادة شيئًا عاديًّا أكثر سهولة من أيّ شيء آخر. حين جاء إلى الغابة، كان يبحث عن تلك السعادة. كانت لديه أحلام كبيرة، لكنّه بقي الآن بعيدًا عن أحلامه، خلف خياله اللا محدود والذي اقترب يومًا ما من حدوده المظلمة. يعود كلّ مرة إلى جوهر الحياة، مثل قربه الدائم من شيء يحبّه.

في البداية، ظن أنّ هذه الغابة ستوفّر لهما فرصةَ العيش معًا. ظن أنّها فرصة ليكون مع بروانة... أن يبقيا معًا. لكن هيهات. كانت بروانة تذهب. كان نور من أعماق الغابة يجذبها ويطير بها. هناك، كانت مع النساء الأخريات تتأمّل الحياة والقدر بحبّ. كانت بروانة يومًا بعد يوم تتحوّل إلى غبار، إلى سراب. عندما تعود في الصباح يظنّ فريدون أنّه لا يرى منها سوى طيف رقيق، سوى عمود رفيع من غبار مشعّ. كانت تعود بجسد منهك وروح باردة، بعينين ناعستين. كان فريدون يقول لها: «أين أنت يا بروانة؟» بروانة التي تأخذ معها إرهاق الليل وتعب النهار، وهواجس وأمنيّات فتيات الغابة. كانت تحضن فريدون بهدوء وتسأل: «هل تعتقد أنّ حياتَنا ستنتهي هنا؟». كان يمسك فريدون

يدَها، لكنّه يشعر كأنّما يمسك الهواء، أو كأنّه يمسك خيوط الفجر البيضاء، فيمدُّ يده إلى شعرها ويقول: «بروانة، إنّ العالم كلَّه يغرق، الحدود كلّها مشتعلة، علينا أن ننتظر». يومًا بعد آخر، ازداد شعور فريدون بالمسافات الصامتة بينه وبين بروانة أكثر. كلما تعمّق لديه هذا الشعور، صار يفكّر في جوهر عَلاقته بالمرأة والجمال. توصّل بعد تفكير طويل إلى أنّه ومنذ صغره يحاول أن يجمع بين جمال الإنسان، جمال المرأة وجمال الحياة، كانت جهوده كلّها تنصبُّ على تحقيق هذا الهدف. هو يعلم أنّ للإنسان جمالًا خاصًا، هذا الجمال يتفوّق على جميع جوانب الجمال الأخرى، وله قوةُ تأثير أكبر في صنع السعادة، وجمال المرأة أعمق وأكثر إثارة. جمال المرأة هو جمال التواصل مع الكون، هو حضور سحر الطبيعة كلّه في قلب الحياة. فريدون يعلم كم ساعدته قراءة الشعر في تلك المكتبة ليفهم هذه الأمور. كان يعتقد أنّ التغيير، نعم التغيير، هو أصل جميع أسرار الكون في المرأة. لكنّه يعلم تمامًا بأنّه إذا ما أردنا الوصول إلى هذه الأسرار، ليس بإمكان المرأة أن تساعدنا، فهي مخلوقٌ حيٌّ ليس لنا أن نتلاعبَ بها ولا أن نسقطَ عليها الخيال. مهما كانت المرأة كائنًا خياليًا، لا يمكننا أن نجعلها خيالًا؛ لأنّها تعيش حياتها خارج حدود خيالنا. من جانب آخر، مهما جعلنا المرأة مثلًا أعلى، لن يغيّر هذا من حقيقة أنّ للمرأة حياةً وأمنيّاتٍ وأحلامًا يمكن أن تكون خلاف كلّ التخيّلات. كان فريدون يشعر بأنّ سببَ ضعف عَلاقته مع بروانة هو التصوّر الذي صاغه عنها في خياله. جعل منها كائنًا خاصًا بالخيال. كان يقف هنا ويسأل أيّهما هي حقيقة الحياة؟ جمال المخلوقات الخيالية، أم جمال المخلوقات الحقيقية. الذين يعيشون ويموتون،

الذين يملون منّا ويهملوننا، أم أولئك السَّحَرة الثابتون؟ لم يكن لدى فريدون أيُّ جواب. لكنّه كان على يقين أنّ فشلَه ووَحدته هذه سوف تأخذه يومًا ما إلى مكان بعيد، مكان يبقى مع أحلامه وحيدًا. الآن يشعر أنّ النجاح الحقيقي في صعود سلّم الحياة، هو السفر بأمان والابتعاد عن البشر نحو الخيال. كان يستغرب من أنه مازال هو فريدون ملك نفسه، مازال اللاعب السبّاح وصيّاد الفراشات، صيّاد الفتيات من ضواحي المدينة. كان يشعر أنه متيّمٌ بعالم آخرَ. اختيارُه بروانةَ، قرّبه من كوفاند، كلّها كانت أسبابًا لكي يترك عالم البشر ويصعد نحو منطقة الخيال اللامحدودة. لذلك ازداد ارتباطه بهذه الغابة، لذلك فقد الأمل من مشكلات العالم والسياسة والصداقة والحُبّ. فكّر أن يضع خطًا عريضًا بين الحياة والخيال، بحيث لا يدع مجالًا لتداخلهما. كان يصعد بكلّ ما أوتي من قوّة نحو أعماق أرض الخيال الضبابية. يومًا بعد يوم، ازداد عزلة، عزلة شعر بها سلفًا في كلّ شيء.

روى كلّ شيء لنصرالدين، لكنّ نصرالدين لم يصدق أن يأتيَ يوم وينزلق فريدون إلى هذا العمق من الوَحدة. فيما بعد، أخبرتني معصومة في مدرسة الأخوات التائبات: «تلك السنة جلبت معها أيامًا صعبة جدًّا، كنّا جميعًا نشعرُ أنّ العالم ينهار، أنّ الأرض تصبح أجزاءً متناثرة، وأنّ كلَّ واحدٍ منّا يصير جزيرة معزولة. كنّا ندرك أن لا معنى لحياتنا. كلّما زادت المسافات بيننا، ازداد غرق الرجال في عالمهم وكذلك نحن غرقنا في عالمنا، تحوّلت أيام تلك الغابة تمامًا إلى كابوس...».

جاء وقت صار فيه الرجال يجلسون وَحدهم حول نارٍ كبيرة،

يتحدّثون ويلعبون ويمضون وقتًا طويلًا على رقعة الشطرنج والداما، يتشاجرون على الفوز والخسارة، يتنافسون على من يجيد اللعب ومن لا يجيد. أمّا النساء، وفي الجهة أخرى، فيمضين أيامَهنّ الطويلة معًا تحتَ الخيام وعلى ضفاف النهر. ميديا غمكين، تدوّن في دفاترها بصورة مستمرة قصة ابتعاد البشر ويوميّات النساء والأطفال وقصّة نموّ الأزهار وموتها، قصة الماء والطيور، تكتب في محلّ ما: «كلّ شيء يمرُّ بسرعة، الفصول تمضي قصيرة ومستعجلة، الصيف في أيامه الأخيرة، أشعر بصمت الكون، بالخوف، أشعر بموسم آخر قادم».

بعد توقّعات ميديا المتشائمة، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى أطلّ موسمٌ آخرُ برأسه، موسم لم يكن أحد بانَتظاره، كان موسم عبادة العزلة.

مع بداية الخريف، عاد الشابّ ذو العينين الزرقاوين من جولته المعتادة من مدن بعيدة، جاء إلى الغابة بنبأ سيّئ للغاية. جمع كل رجال الغابة وقال: «لم يعد صنع التماثيل يفيد، فقد اندلعت الحرب في العالم كلّه، شبّت النار بالكرة الأرضية كلّها. في زمن الحرب هذا لا أحد يشتري تماثيل العشّاق. صار لي أيام وأيام أتجوّل بهذه الأكياس، أتنقّلُ من مدينة لمدينة دون فائدة. لم يعد أحدٌ ينظرُ إلى هذه التماثيل...». بعد أن صمت للحظات، وضع أكياسه ثم تابع: «سأعود إليكم بعد خمسةَ عشرَ يومًا، أثناء هذه المدة ينبغي أن تكونوا قد فكرتم بشيء آخر، أيّ شيء كان، لا فرق لديّ، أمّا، الأمر عندي، فليس لي انتقادٌ على جمال هذه التماثيل، لكن يبدو أنّ المزاج العام لم يعد يتقبّل مشاهدة العشّاق».

رأى كوفاند، يومئذٍ، اليأس في عيون الرجال بعد أن خلق ذلك النبأ خوفًا كبيرًا في قلوب الجميع. إنهم مع قدوم الشتاء، حسب رأيهم، بحاجة إلى المزيد من المؤن وإلى ثياب سميكة ولوازم تقي برد الشتاء. وقف كوفاند أمام الجميع رافعًا رأسه ويديه نحو السماء وقال: «يجب أن يكون إيماننا بالحبّ قويًا». مضى بين الأشجار وقال: «علينا ألا نفقد الأمل، سيأتي يوم تتوحّد فيه كل الشعوب على مائدة الحبّ، سوف تجتمع الأديان على طاولة المحبّة، سوف يتعانق الأعداء في حدائق الحُبّ».

تابع وهو يمشي: «ذات يوم، سوف تتصدّع السماء وتفيض المحبّة من الأقاليم البعيدة، سوف تنتفض الأرض فتقطر سويقات العشب الأخضر ندى الحُبّ. العشق سوف يملأ العالم. لا شيء سوى الحب يقوم به الإنسان، كلّ شخص سيأتي يغدق الآخر بمشاعر الحبّ والوفاء، وَحدَه الحبُّ سيكون في نموّ. لن تبقى كلمة سوى الحُبّ، لن تكون هناك حاجة لأن يعرفَ الإنسان أيّ لغة، لأنّ لغة الحبّ ستكون اللغة الوحيدة. لن تكون هناك حاجة لامتلاك الإنسان موهبة؛ لأن العشق سيكون الموهبة الوحيدة لدى الجميع. لن يكون هناك داعٍ لأن يعملَ الناس، فالحُبُّ سيكون عملهم الوحيد».

في تلك الليلة، كان كوفاند يذهب بآماله بعيدًا، الجميع شعر بحرارة أنفاسه، شعروا بالعرق البارد في عينيه، بنظرته الذليلة وصوته المرتفع، وعينيه المحمرّتين، لكن مع ذلك لم يقل أحدٌ شيئًا. في تلك الليلة، تفرّق الجميع قبل الأوان. كما توجّه كوفاند نحو النهر والأشجار حيث الرياح أقوى.

لم يعرف كوفاند سبب تفاؤله يومئذٍ. منذ قرّر أن يصبح نحّاتًا، ربط مصيرَه إلى حدٍّ كبير مع الجمال، لكن بعد إنهائه الدراسة وعودته إلى المدينة، فإنّ البيئة المظلمة والضبابية التي عاش فيها في المدينة شوّهت كلَّ شيء. هناك، كان يرى الجمال على صورة سمّ يرتشفُه ضدَّ المَلَل. صرخ مرّة في إحدى حانات المدينة: «الجمال دون حبّ هو سمّ صامت ثقيل، يقتلنا بهدوء». بعد رحلة طويلة غير مكتملة وناقصة، كان فيها الفنُّ والشرابُ واليأسُ هم الأساس في حياته، جاء حبّ دل آرام لينتشلَه من جحيم السُكّر. بعد أن جاء إلى الغابة، استطاع من جديد أن يربطَ بين عَلاقات الحُبّ السرّية والجمال والثقة بطريقة ما. بعد ليالٍ طويلة من التفكير، توصّل إلى قناعة مفادها أنّه ينبغي أن يكون هناك جسرٌ يربطُ العشق بالإيمان، ويربط الإيمان بالإنسان وعظمته. قال يومئذٍ للرجال: «علينا أن ننظر إلى الحبّ على أنّه دينٌ جديد. الجمال ينبغي أن يكون لإضفاء الهيبة على الحبّ، وليس كمنطقة نائية ومختلفة للاختباء والهروب؛ لأنه إذا لم تكن للجمال عَلاقة وثيقة مع الحُبّ، يتحوّل حينها إلى لعبة خطرة، لعبة تكرّس العزلة والوَحدة لدى الإنسان».

لكن منذ اليوم الذي جاء فيه فريدون إلى الغابة، كان ينمو في قلبه خوفٌ كبيرٌ مقابل تفاؤل كوفاند. ذلك الفتى صاحب الأحلام الكبيرة والمعقّدة، الفتى الذي طالما كان يعدّ كوفاند أستاذًا له. في عمله معه في الورشة وجد نفسه ظلًّا لذاك الرجل، والآن هو مستغرب كيف لا يمكنه أن يرى العالم من حوله كما يجب؟ كوفاند الذي كان ينظر إلى كلّ شيء من حوله فتتملّكه بصورة مفاجئة النشوة والتفاؤل. كان

يمجّد اجتماع العشّاق في هذه البقعة من الأرض، ويعدّه بداية جديدة للعالم، بداية يصبح فيها الحبّ هو السلطة، يصير الحُبُّ موحّد البشرية وقائدها، يصير طاقة مبدعة للوجود والنضال. كان يقف في الورشة ويقول: «انظر كيف استطاع العشق أن يغيّرَنا جميعًا ويحوّلنا إلى ذات الإنسان، الإنسان الكبير والقوي، ومرّة أخرى، يتمكّن الحُبّ أن يبدّلَ الإنسان الكبير ليجعلَه فنّانًا مبدعًا ومجتهدًا». في تلك الساعات، حين كان يرى البشرِ والأشياء فقط من زاوية التشابه بينهم، كان فريدون ينظر بريبةٍ وشكٍّ كبيرين إلى الأشياء. كان تناقض فظيع يهزّ كيانه. ظن أنّ كوفاند يحاول تنظيم مجموعة البشر هذه بما تتناسبُ مع خياله. لكنّه كان، يومًا بعد آخر، يزداد إحساسًا بالغربة في ذلك العالم. يومًا بعد يوم، يتلمّس الخلافات والنزاعات بين الناس. ذات مرّة، قال لكوفاند: «بقدر ما أنا ابنٌ للحُبّ، أنا ابنُ للكراهية. بقدر ما أنا ابن للفوضى وازدحام الأسواق، أنا ابن للوحدة. وبقدر ما أنا عاشق عتيق تغطّيه الغبار، أنا مشاكسٌ متسكّعٌ عتيقٌ وعجوز. يمكنني أن ألاحظ الحقد في أكثر الأماكن عمقًا وظلامًا». كان يتجوّل في الغابة فلا يجد أحدًا يشبه الآخر. لكلّ رجلٍ منهم نظرةٌ إلى الحياة تختلف عن نظرة الآخر، لا أحد يرى السماء كما غيره، كلٌّ يرى الغابة من زاوية مختلفة، لا أحد يرى الماء مثل الآخر، لا أحد يفهم العشقَ مثل الآخر. كانا هو وكوفاند يتجادلان طويلًا في هذه الأمور. في بعض الليالي، حين كانت بروانة تضيع وسط الأشجار، كان يلجأ إلى كوفاند، فقط مع كوفاند يهدأ قلبه ويرتاح، كما في الماضي. لكنّه في كلّ مرّة يكتشف أنّ تفاؤله وانشراحه يستندان إلى حُلم أقربَ إلى الأساطير. كان فريدون يعتقدُ أنّ كلّ من يحاول أن يُسقطَ أحلامه على الآخرين

ويفرضها على التاريخ هو شخص خطير. لأن الحُلمَ هو نتاجُ حالة الوَحدة الخاصّة جدًّا التي يعيشها الإنسان. باعتقاده أنّ العزلة والحُلم، القنوط والحلم، هي مفاهيمُ لا يمكن فصلها عن بعضها. ربّما كان العشق والحُلم أيضًا لا ينفصل بعضهما عن بعض، فالإنسان العاشق لا يصحو من الحُلم أبدًا. العاشق هو شخصٌ يحصّن الحبّ بجدران الحُلم ويحميه من جور العالم. كان يقول فريدون: «يا كوفاند، جميعنا مثلك، عاش في يوم ما موسم الأحلام والخيال، أمضينا فصلًا طويلًا نحلّق في فضاء الخيال. أنا من أكثر الناس الذين راودهم حُلم السفر مع الحبيبة. سفر يطير بي إلى كلّ مكان، السفر إلى بلاد خيالية، رغبت في رؤية جميع الحدود، حدود المجتمع والدين والسياسة، حدود الحضارات. عشت سنوات طويلة مع رضا دلخوش حلم رؤية عالم آخر. لكن عندما انتهى موسم الأحلام والخيال ذاك، أيقنت أنّ قوّة الحقد والدّم والحرب تطغى على قوة الخيال الصغيرة. حينها فقط فكّرت بخلاصي أنا وبروانة. خلاص ربّما هو جزء من آثار عهد الخيال». كان فريدون يفهم أكثر أنّ كوفاند يقصد نفسه في جلّ حديثه، كان يقصد تلك الأحلام والآمال التي هو ذاته في حاجة إليها. بصوته الشبيه بصوت الأنبياء، يريد من الجميع ممّن حوله أن يرقص على إيقاع أحلامه وأمنياته، يريدهم أن يكونوا جزءًا من الأرض التي يحلُم بها. كلّما أمعن النظر في أستاذه، يعود بطريقة ما، ومن جانب آخر، إلى نفسه. إلى أنّ شعر في أحد الأيام بانفصاله تمامًا بمداره عن فكر أستاذه، لم تعد تجمعهما أيّة أفكار مشتركة. كان يشهد انهيار الحبّ، فيقول لكوفاند: «يا أستاذي، ذنبُنا هو أنّنا نطلب أشياء كثيرة من الحُبّ، نطلبُ أن يصبح الحبُّ جسرًا بيننا وبين الله، أن يكون جسرًا بيننا وبين

الوطن، وأن يكون الحب مخلِّصَنا من إرهاق المدن، من جمود الأديان، ومن تعبنا وسط الأرض والمعمل، من نزوحنا ولجوئنا، من غربتنا في بلاد شتّى، ومن إهانتنا في هذا العالم. لكنّ الحبّ في عالم مثل عالمنا وفي بلاد مثل التي كبرنا في أزقّتها وحواريها ليس أكثرَ من سجين جريح. هو لا شيءَ سوى جرح كبير مخفيّ، لا يجرؤ حتّى على إظهار دمه النازف. انظر كيف تمَّ في هذا العالم قطع أوصال المخلوقات والبشر والشعوب بحيث لا يستطيع الحُبّ أن يجمعَهم. انظر، انظر يا أستاذي... هناك من لم يعشق قطّ لكنّهم تصوّروا أنفسهم عشّاقًا، هذا في حدّ ذاته يغيّر الحياة، يجعلها جحيمًا. وبعضهم الآخر يعلّق آمالًا كبيرة جدًّا على الحبّ، فيدمّر نفسَه ويدمّر الحُبّ بها».

في اليوم الذي جاء الدليل ذو العينين الزرقاوين وقال إن تماثيلَ العشّاق لم تعد تُباع، اعترض فريدون طريق كوفاند وقال له: «أستاذي كوفاند، العشق يموت، العشق في عالمنا هذا يموت. بمرور الوقت يتحوّل إلى أثر قديم ليس له معنى. على ماذا تعوّل؟»، دهش كوفاند وأجابه: «أعوّل على العشق والحبّ في حدّ ذاته...». قال فريدون مثل مجنون يتقفّى إجابة لسؤال: «إذن، ما كلّ هذه العزلة وهذا الصمت؟ انظر يا كوفاند... انظر إلى هذه البلاد الواسعة، انظر إلى مساحة الأراضي الشاسعة، انظر إلى عظمة الكون، ماذا نفعل هنا بجانب هذا الوجود، ماذا نفعل هنا؟ انظر، لازلنا وحيدين، انظر إلى بروانة، إنها تنتهي كلّ ليلة. كل هذا الصمت، هذه الدوائر الكبيرة الفارغة من حولنا، لماذا يحاصرنا هذا الخلاء الأخضر في هذه الغابة؟ لماذا يفرّق بعضنا عن بعض؟ ها هو كلّ منّا يتحوّل إلى شخص منطوٍ على

ذاته، يعيش مع عزلته، شخص يعيش مع الخوف والتردّد، مع القلق والأمنيات، مع أوهامه وخياله... أستاذ، أنا أريد أن أحرّر نفسي، أريد أن أصنع «ذاتًا» جميلة من ذاتي... أريد أن أضمن سعادة للحظات وَحدتي». لم يسبق أن رأى كوفاند فريدون بهذه الصورة، شَعره أشعث تمامًا، عيناه ثملتان، حركاته تشي بالخوف والشكّ. طالما كان شابًّا هادئًا، لكنّه فجأة بدا وكأنّما يريد أن يحذّر العشّاق من المخاوف التي يراها، من الوَحدة والعزلة التي يشعر بهما. يمضي وسط الغابة خائفًا غريبًا...

بعد أن ترك كوفاند في تلك الليلة، ذهب فريدون إلى العشّاق الآخرين وقال لهم: «على كلّ واحد منكم أن يتهيّأ لعزلته». كان يجول بين الخيام والبيوت ويقول باكيًا: «هيّئوا أنفسكم للعزلة والموت». كان يوقظ النائمين ويخاطبهم: «الوَحدة في طريقها إليكم، وَحدةٌ خطيرة، وَحدةٌ جميلة علينا أن نليقَ بها، انهضوا واستقبلوها». ظلّ يمضي في الغابة وهو يقول: «مات العشق، أغلقوا الأبواب عليكم ولا تكذبوا على المحبّة».

استيقظ جميع سكّان الغابة على صراخ فريدون ملك الذي صار يضرب ويلطم صدره مثل مجنون. لم يصدّق أحد كيف فقد فريدون رزانته بوجه مفاجئ وغريب. خرج الجميع يشاهدون حالة الهستيريا التي أصابته. وصلت بروانة إليه، مدّت يدها إلى شَعره تمسّده محاولة أن تهدّئ من روعه. لكنّه دفع يدها وقال: «بروانة، أنت أيضًا خيالٌ من الأخيلة، وهمٌ من أوهامي، كنتِ خطأً من أخطائي. اذهبي، اذهبي وعيشي عزلة جميلة، اذهبي، استمري في رحلة لا تغيّر شيئًا من

غربتك، العالم كلّه قريةٌ ضبابيةٌ ومشينةٌ وأنتِ يا بروانة... أيا خيالي الجميل، اذهبي واستمري في أحلامك الرائعة... اذهبي». استمرّ فريدون ملك في الصراخ والعويل حتّى الفجر. في اليوم التالي، ظلّ ساعات طويلة على تلك الحالة إلى أن هدأ ونام. نامت بروانة إلى جانبه بعد أن تألّمت لحاله. مع أنّها كانت متأكّدة في أعماقها من أنها أحبّت فريدون، إلا أنّها اليوم تشعر به غريبًا عن روحها وسيظلّ كذلك. استغربت كيف خرج عن طبيعته فجأة. طالما كتم، على الدوام، جميع مشاكله النفسية الصعبة في صعودها ونزولها، طالما عكست عيناه هدوء وسكينة دائمين. حتّى أوجاعه كان يُعبّر عنها بصمت وصبر. كان نصرالدين يقول بهذا الصدد: «مشاجرات فريدون ونوبات غضبه أيضًا تمضي بهدوء وبلا أهمية». ذات مرّة، قال أحد رفاقه أيام مشاجرات السكاكين لنصرالدين، إنّ فريدون في أكثر المشاجرات دموية لم يفقد توازنه وهدوءه. تساءلت بروانة: «ما سرّ هذه الليلة؟ ما سرّ يأسِه وغضبه في هذه الليلة؟ هل التعب من هذه الغابة، أم أنه انقلاب شامل في حياة الرجل؟» لكنّها لم تكن تملك إجابة. في اليوم التالي، حين هدأ فريدون ملك، جاء كوفاند لرؤيته والاطمئنان عليه. في المساء، دعا جميع العشّاق للتشاور حول إيجاد حلّ لمشكلتهم.

كان كوفاند يعلم بأنّه لم يعد بإمكانهم العمل على فكرة التمثال القديم، تمثال العاشقين. عليهم الاتفاق على شيء جديد. شيء يكون فنًّا وله دلالات في آن واحد. قالت ميديا بأنّه لم يكن أحد يتوقّع أن يصبح هذا الاجتماع بداية فصل الانقسام والتشرذم، وأن يصبح ذلك المساء، مساء التشتت والانفصال. كان الأمر واضحًا منذ البداية. لن

يصل هؤلاء الرجال إلى اتفاق. مع بداية الحديث، ظهرت عدوانية الأشخاص الذين يرفضون الاستماع إلى أساطير كوفاند بعد الآن. استخدم كوفاند جلّ سحره وسلطته. تحدث بلغة رسول مرسل من السماء. قال كمحرّر للعشق: «طالما كان الناس في بلادنا عشّاقًا، وكانت الطيور والأشجار والورود محور غَزلهم، لذلك أقترح أن نصنع الأشجار والطيور والورود. أعلم أنه عمل شاقّ لكم، لكن سأقوم بتدريبكم من جديد، سأجهد في تعليمكم. هذا لا يهمّ. سنبدأ من جديد ونجعل مواضيع الغزل مواضيع عملنا...». قبل أن ينهيَ كوفاند كلامه، غضب الرجال ورفعوا أصواتهم. قال أحدهم: «لا أحد يشتري الورد والطيور، ستتعب ولن نستفيد شيئًا. نحن في زمن الحرب، زمن الصراع بين جماعات عدّة وعشائر ومنظّمات حزبية، الأفضل لنا أن نصنع شعارات أولئك المتقاتلين والقوّات المتحاربة، ونرسلها إليهم ونطلب لقاءها ثمنًا مرتفعًا». نهض كالبا من بين الصفوف وقال: «هذا كلام فارغ. أنا مع صناعة الشطرنج. إنّ صناعة الألعاب سوف تشغل الناس قليلًا وتنسيهم همومهم بعض الشيء». قاطع حطّاب كلام كالبا: «من يمكنه أن ينشغل في هذه الحرب بالشطرنج؟ من يخطر على باله الطيور والورود؟ ومن يحتاج إلى الشعارات والأعلام؟ علينا أن نفكّر بشيء يحتاجه الناس. أنا أقترح صناعة المناخل وأحواض لتبَوّل الأطفال وملاعق للّبن. إنّها حاجات دائمة للناس ومطلوبة في الأسواق دومًا». رفع عزيز تيرانداز رأسه وقال: «أفضل شيء هو صنع تمثال صياد مع بندقيته، فمنذ الأزل والكرد كانوا صيادين، وسيبقون كذلك...». وسط هذه الفوضى وبين أخذٍ وردٍ، نهض فريدون ملك من مكانه، ألقى نظرة إلى الجميع ثم قال: «أنا سأصنع الفراشات،

فكّرت بالأمر منذ زمن، لن أصنع شيئًا آخر سوى الفراشات».

كتبت ميديا في دفترها: «بدأ فصل العزلة من تلك الليلة. فصلٌ تجلّى في أرواح جميع سكّان الغابة من رجال ونساء وأطفال واحدًا تلو الآخر». تفرّق الرجال دون التوصل إلى أيّ اتفاق. كلّ واحد منهم اتّبع خياله، كلّ واحد اختار مكانًا وصورة له وانفصل عن الآخرين. منذ تلك الليلة، بدأ موسم انهيار الورشة وكذلك الغابة. تأمّل فريدون العالم من حوله بدهشة وفكّر بعمق. سار بين الخيام صامتًا وعاد من جديد. ظهر على ضفّة النهر ثم اختفى. اقترب من الجسر الخشبي مرّات عدّة ثم ابتعد. خيّم جمود عميق على ملامحه ولونه. خرج كوفاند من إحدى زوايا الغابة ووقف بوجه فريدون، قال له: «فريدون، يا فريدون ملك متى ستتخلّص من ملاحقة الفراشات؟ متى؟»، فأجاب بابتسامة خبيثة: «آه يا كوفاند، قل لي أنت أيّ شيئين في هذا العالم أكثر تشابهًا مثل العشق والفراشات، انظر إلى الفراشات وقارنها مع الحبّ، انظر إلى رقة الفراشة، عمرها القصير وإلى انتفاضة الفراشة واحتراقها. انظر كم تشبه الحبّ. الفراشة تمضي مثل الحبّ دون أن يرى أحد خطاها، هذا أمرٌ قديمٌ، انظر إلى القصائد القديمة». قال كوفاند: «آه يا فريدون، فريدون يا صديقي، هذا ابتلاء. أنت ترى الحُبّ فقطفي رقّته، لكنّ الحبّ حرب، الحب مثل أيّ حرب فيها منتصر ومهزوم، فيها ظالم ومظلوم، الحُبّ حرب في مواجهة كلّ العالم». قال فريدون: «كلا يا كوفاند، كلا، الحبّ لا يمكنه أن يكون قتالًا، الحبّ هو استراحة قصيرة، يأتي ثم يتساقط. الحبّ شيء مهما أمسكت به فهو ميت لا محالة، مهما عشت معه فأنّه يسمّمك، لكنّ

مصيبتي هي أنّي أرغب في الإمساك به، أرغب أن أمسكه بين أصابعي إلى الأبد وألهو به، مهما ابتعد عنّي عليّ إيجاد سبيل للامساك به».

كوفاند الذي كان يفكّر بالحبّ بطريقة أخرى، كان يضرب أرض الخيمة بعكّازه ويقول: «يجب ألّا يموت الحُبّ، يجب أن يصبح مقصد العالم، ينبغي أن يصبح هدف جميع المخلوقات والبشر والشعوب».

سئم فريدون من كلام كوفاند هذا، فقال بابتسامة خفيفة: «آه، لا تخلط الحبَّ مع أساطير البشر الأخرى، دعه، فليكن كما هو، كما يولد، إلى أن يموت. المصيبة أنكم دائمًا تطالون الحب فتخلطونه بأمور الدنيا الأخرى، تخلطونه بالديّنِ والثورة والحكم والعمل. الحُبّ، متى لمسته تلاشى. الحبّ مرتبطٌ بقوة مع عتمة أعماقنا، حين يخرج يموت».

قال كوفاند: «كنت أعلم، نعم كنت أعلم أنّ قراءة تلك الكتب التافهة في مكتبة المدينة المهترئة قادتك إلى أماكن خطرة، ما أسوأ أن يقرأ المرء كتبًا ويفهمها بصورة خاطئة».

نظر إليه فريدون بحزن وقال:» أوه... عن ماذا تتحدث يا كوفاند؟ لم أقرأ أيّ كتب. أنا الآن معكم في هذه الغابة، لكني أعلم أن الحب لن يصمد أمام رحلات الخلاص الطويلة والشّاقة. انظر، انظر إلى كل شيء من حولك. في عالم كهذا لا يمكن للإنسان أن يحرّر الجسد والروح معًا. لا يمكنه أن يحرّر نفسه ويحرر الحب... لا يمكن».

نظر إليه كوفاند بتمعن وسأل: «فريدون، يا فريدون ملك، قل لي، إذا مات الحب ماذا ستفعل أنت؟».

أجاب فريدون: «سأعيش مع طيفه، مع ظلّه، لا مفرّ لي سوى ذلك».

افترقا دون الوصول إلى أيّ نتيجة. عاد كوفاند إلى عالم التماثيل، بينما مضى هو في الغابة إلى عوالمه في اقتفاء أثر الفراشات. إنّها آخرُ ليالي الراحة في حياة فريدون. منذ تلك الليلة، بدأ يمضي وحيدًا يلاحق فراشات خياله ويتوه خلفها. هي بداية شكر فريدون وامتنانه لجميع الأمور الصغيرة، التي أبعدته بصورة من الصور عن أحلام الطفولة. منذ تلك الليلة، بدأ بصنع سور لإقليم الفراشات، المكان الذي لن يغادره بعدها أبدًا.

مع حلول الصباح ومع انحنائه لصنع أول فراشة، نادرًا ما رفع فريدون رأسه بعد ذلك. في الليلة التي عاد فيها الرجال إلى خيامهم، لم يرجع هو، لم يستطع أحد إقناعه بالعودة. بقي الليل كلّه ساهرًا على ضوء فانوس صغير وسطَ الورشةِ مع فراشاته الخشبية. توجّهت بروانة مع خيوطَ الظلامَ إليه، يلفّها خوف وقلق شديدَين. رأته عند الباب مشغولًا بتلوين فراشاته. أدركت حينها أنّه استغراق في عالم الفراشات، لكنّه ابتلاءٌ طارئٌ ومؤقّتٌ. صارت تترجّاه طوال الليل لكي يعودا معًا، لكن دون جدوى. قال لها: «سوف أنتهي من هذه الفراشات ثم آتي. إنّها فراشات الحبّ». لكن كلّما انتهى من فراشة باشر بأخرى، حتّى إنّ إجاباته لم تكن سوى ردّ على صوت خفيّ في أعماق روحه. في تلك الليلة، استلقت بروانة إلى جانب فريدون، غريبة وحيدة وباكية. في عتمة الورشة، اكتشفت كم أصبحا بعضهما بعيدًا عن بعض، أدركت كم عاشا مخلوقَين وحيدَين كلٌّ في عزلته،

فلا يستطيع الحُبّ الآن أن يقرّب بينهما. هي تعرف تمامًا أنّ الحبّ هو مجرد موسم قصير بين مواسم الخيال. الحُبّ هو بداية الانكسار نحو فصل الهموم والوَحدة الباردة. هذا الفصل الذي بدأ ينمو من كلّ الجوانب مع الورق والعشب والخضرة، بدأ يهطل مع الليل والندى ومع تألق برودة الماء.

استمرّت بروانة في الليالي التالية أيضًا على تلك الحال. كان فريدون يقوم، كلّ يوم، بتسمية الفراشات بأسماء جديدة. صار يعيش أفكاره مع عالم الفراشات. إنّه يحوّل كلّ تعابير الجمال والخوف والاغتراب التي كان من الصعب فهمها والإمساك بها، إلى فراشات غريبة. كانت فراشات تلك الليلة فراشات الحرية، وفي ليلة أخرى، ستكون فراشات الاغتراب، وفي أخرى ستكون فراشات الجحيم، ومرّة فراشات الجنّة وفراشات الشيطان وفراشات الرب وهكذا... حين رأى كوفاند عالمه هذا، قال: «لقد قرّر أن يعيش بعد الآن في ظلّ الجمال والحقيقة». كانت بروانة تقضي معظم لياليها إلى جانب فريدون، تغادره في بعض الأصباح لتنصت إلى نسيم بداية الخريف البارد. كانت العزلة في ازدياد والخوف كذلك. ثمّة توجّسٌ في عيون النساء اللاتي قلّت ثرثراتهنّ. الآن ترتجف أيديهنّ أكثر من قبل، الآن هنّ أكثر شبهًا بالأشباح. يترك الليل سواده على أجسادهنّ أكثر. حتّى ميديا وبروانة قلّت لقاءاتهما. كانت بروانة، في الليل، إمّا تتجوّل وحيدة في الغابة، أو تتّخذ زاوية في الورشة إلى جانب فريدون، بينما ميديا استمرّت في البحث عن القمر، تبحث بين الأشجار وأوراق الخريف المتساقطة، تبحث عن السماء وعن القمر. كتبت حينها

عشرات الصفحات في وصف الظلام، وفي وصف تلك المخلوقات التي تأخذها ريح مخيفة وتهرب بكلّ منها بعيدًا. في إحدى جولاتها، التقت ببروانة، تراءت لها تحت ضوء القمر مثل امرأة عجوز ضعيفة، أو كمخلوق قادم من عالم آخر ومن زمن آخر. ضمت ميديا تلك الأخت الوحيدة إلى صدرها وبكتها بحرقة. حسب أقوال ميديا، كانت بروانة في حالة سيّئة للغاية، فهي كانت عاجزة عن تحرير نفسها من سجنها الداخلي، وعاجزة عن انتزاع فريدون من ضياع روحه. ليلة بعد أخرى، ازداد انزواء فريدون وازداد وجومه. وصل في وحدته درجةً لم يعد يعرف معها بروانة، غرق في عالمه الداخلي، حتّى إنّه لم يعد يسمع صوتًا آخر. كانت بروانة تمسكه أحيانًا وتهزّه بقوة: «أنا بروانة!» لكن لا فائدة. تكتب على جدار الورشة: «أنا بروانة!» لكن فريدون كان غارقًا في عالم آخر، بحيث لم يمكن لأيّة قوة انتشاله منه. لقد أغلق أبواب روحه تمامًا، لن يخرج بعد الآن. كان يسافر إلى أرض الخيال، فلم تعد له حاجة بهذا العالم، وبأيّ مكان آخر.

قالت بروانة لميديا: «ينبغي... نعم ينبغي أن يكون هناك مكان أفضل من هذه الغابة». كتبت ميديا: «يوجد أمامنا حلّان، إمّا أن نعود إلى المدينة ونكون مستعدّين لكلّ شيء، وإمّا أن نفعل مثل فريدون، نذهب إلى النهاية، نغلق على أنفسنا أبواب أرواحنا». لكن الأمر لبروانة كان الخياران قاتلين. بعد عدّة أسابيع، هبّت في الغابة عاصفة همّ وحزن مفزعة. إنه فصل الشقاء والندم، فصل بكاء ودموع بروانة، حيث سيطرت عليها حالة انتحاب دائم، اجتاحتها حالة حزن مثل زوبعة تمرّ في قلب وجود كلّ حيٍّ وميّت. حين علمت

النساء بما أصابها، اجتمعن حولها كما لو كانت تعبّر عن آلامهنّ. كانت تبكي وهي على الأحجار وعلى ضفاف النهر، تبكي تحت الأشجار، تستمرّ في البكاء وتستمرّ النساء في التحلّق حولها والبكاء معها. كان كوفاند يراقب من بعيد جلسات المناحة تلك، ويتحسّر على مكان أراد يومًا أن يجعله فردوسًا. كان صوت بكاء بروانة يعلو على صوت الطيور وعلى صوت الماء والنهر، وعلى صمت الزهور العميق والمخيف. بين أمواج النشيج المتواصل، كان يزداد الشعور بالوَحدة لدى جميع الكائنات هناك. أمّا الرجال، فقد ازدادوا وحشيّة أمام جحيم هذه المناحة. عزيز تيرانداز صار يهاجم ببندقيته، وبطريقة مخيفة، يزهق أرواح الطيور. أمّا مهدي كولباخ، فصار يسرف في مضغ العشب والزهور. أقدم عاشقان على إيقاد النار في خيمتهما، وبصعوبة تمّ إطفاؤها. لكنّ الأكثر رعبًا كان سيامند بالند، الذي بدأ بتعذيب معصومة بطريقة بشعة، حتى ملأ صراخها الغابة، لكن لم يغثها أحد. كانت تختبئ في أماكن من الصعب الوصول إليها، لكن سيامند سرعان ما كان يعثر عليها، يجرّها ويحضرها. تستمرّ هي في الفرار منه وهو بدوره لا يعرف اليأس في جلبها من تحت الصخور ومن الخنادق، من الزوايا والمخابئ هنا وهناك. كان يجرّها على الرمال والحجارة والتراب على ضفاف النهر. كان يربطها إلى الشجر ويلقي بها إلى المياه ويخرجها. كان جميع سكان الغابة يشاهدون ما يفعله سيامند، لكنّهم لا يحركون ساكنًا. ميديا وبروانة، كانتا تراقبان من بعيد عذابات معصومة، لكنهما سرعان ما تعودان بصمت إلى عالميهما. كانت شهلاء التقيّة تقترب من سيامند حاملة مصحفها تحرضه: «اقتلها، اقتل هذه العاهرة... اقتل هذه الكافرة». شهلاء التي

تكنّ الحقد للجميع. أمّا كوفاند، فكان يراقب كل شيء ولا يتدخّل في شيء. كان يشاهد تعذيب معصومة، فيطأطئ برأسه ويغادر. من جهة أخرى، كانت أحزان بروانة تكفي لتصفرّ الأشجار من هولها، وليتغيّر لون الرمال والحصى على ضفاف الأنهار، لتجعل الطيور تحمل أعشاشها وترحل، ولتتحوّل الأوراق المتساقطة إلى غبار يُضفي مرارة على طعم الفاكهة. في بعض الأحيان، كانت ميديا تتابعها من بعيد وتحاول أن تحرسها. هي تعرف أن بروانة لا تغيب عن الدوائر البيضاء الصامتة لعالم فريدون، فهي تجيء وتغادر، تعرف أنها تصرخ باكية في الورشة، لكنّ فريدون لا يعيرها بالًا. كانت تحطّم الفراشات، وهو لا يراها. وصل الحال بفريدون إلى درجة أنه لم يعد يشعر بما يحدث بجواره. كل ليلة، كانت تغادر بروانة الورشة وهي أكثر يأسًا وقنوطًا، وأكثر تعبًا وإرهاقًا. كانت تشعر بالعمر الذي داهمها قبل أوانه. كتبت على صخرة: «الوقت يمضي سريعًا»، «الأسابيع تمرّ كأنّها دقائق». قالت لها ميديا: «نحن من نسرع في الذهاب»، كتبت بروانة دون أن تفهمها: «أسير نحو النهاية وأنا في غاية الدهشة من هذا العالم». أمسكتها ميديا من ساعدها مثل مجنونة وكتبت على دفترها: «ليس مهمًّا إن انتقل حزنك المخيف هذا إلى الأوراق وإلى بيوض الطيور، أو إلى روح الغراس، المهم هو إخراجك من حالة اليأس هذه». لكن هيهات، لن تخرج بروانة من دائرة الإحباط المحكمة. كلّ شيء يتراءى لها في دوامة تعيد لها القصّة وتكرّرها.

في يوم من تلك الأيام المؤلمة، حيث بلغت أوجّ خوفها من العشق والطيور، ولم تعد تستطيع تحمّل كلّ ذلك العذاب والألم والخوف،

نهضت معصومة في فجر قاتم، في ساعة كان سيامند فيها نائمًا، وهو الذي قلّما ينام، صعدت السُّلّم ذا الألف درجة، وتوجّهت بجسد منهكٍ مجروحٍ إلى سهول بعيدة، في رحلة شاقّة. قالت عنها فيما بعدُ: «لم تكن تلكَ رحلة، بقدر ما كانت بداية النهاية لي وللجميع».

16

كانت زينب كويستاني تقول: «لكي تتبنَ، عليكنّ إدراك معنى التّوبة، ولكي تفهن التّوبة عليكنّ أن تبدأنَ من أرواحكنّ وأجسادكنّ. بداية كلّ البدايات هي إماتة الجسد. من لا يمكنها تقييد جسدها لا يمكنها التّوبة. الجسد مثل حصان أسود، حصان يمكننا إمّا أن نربطه في إسطبل أكثر حلكةً منه، بحيث لا يراه أحد في تلك الظلمة، أو أن نتركَه حرًّا كالإعصار، مع تحريره تنتهي سبلُ التواصل مع الله، بل تنقطع عَلاقة الروح مع الجسد أيضًا. إنّ رحلة قتل هذا الإحساس بالجسد، هي رحلة طويلة وشاقّة. هي رحلة تبدأ باستئصال فتنِ الجمال. من اللحظة التي يفكّر فيها الإنسان بجماله، ينسى جمالَ الرب. الجمال هو أولى الطرق إلى الشهوة الجنسية. من يعد الجمال أهمّ من الطهارة، فهو شخص آثم. الجمال والطهّارة لا يجتمعان معًا. عندما يفكّر الإنسان بالجمال، إمّا أن يصبح عبدًا لنفسه، أو يصبح عبدًا للآخرين. حين يفكّر بالمتعة يعني أنّ رغباتِه السيّئةَ وحدَها من تحرّكه. أهمُّ شيء لامرأة مؤمنة هو ألّا تنظرَ إلى نفسها. عليها فقط النظر إلى السماء. لا شيء ينفعها بقدر تخلّيها عن المرآة. التواب حين ينظر، عليه بدل رؤية نفسه أن يرى الله. وبمقابل ذلك لا يصبح توّابًا».

في اليوم الأوّل من رحلة التوبة والطهارة، هكذا تكلّمت زينب. غلّف برود رهيب صوتها وجعل الغرفة زمهريرًا. لم تتحرّك أيّ واحدة منّا. لم نعد نشبه فتياتِ الأمس. الآن، نرتدي ثيابًا جديدة، ربطنا الأوشحة السوداء على رؤوسنا بإحكام. كانت تمرّ علينا واحدة

واحدة وتقول: «حتّى نسيطر على أجسادنا سنبدأ من النظرات. السؤال هو: كيف لامرأة أن تنظر إلى العالم من حولها دون أن تظهر في عينيها الفتنة. كيف تنظر من دون أن ترتكب الخطيئة بالنظر. غالبًا ما تعبّر المرأة بنظراتها عن الكثير من الأشياء. تقيم بعينيها عَلاقة عشق. بنظرة واحدة، تقدّم جسدها، بنظرة واحدة، تنقل نداء الجسد. ينظر الرجال الخطّاؤون، في البداية وقبل كلّ شيء، إلى عيني المرأة. الرسالة الأولى للخطيئة والأكثر خطورة تبدأ من العيون. هنا ينبغي أن نطهّر نظراتكنّ من كلّ شهوةٍ ودلع ودلال». وتستطرد: «الأكثر خطرًا هي رائحة أجسادكن. لقد منح الشّيطان لأجسامنا رائحة مثيرة في طبيعتها، رائحة تضعنا في دائرة الذنب، لا يجوز أن تفوح منكنّ روائح تثير الشهوة. ينبغي ألّا تتشبّهن بروائح الورد، والشجر وكائنات الطبيعة التي تثير الفتنة. ينبغي أن تكون روائحكنّ خاليةً من كلّ ما يبعدنا عن خالقنا ويقرّبنا من المخلوقات. اقتلن رائحة أجسامكنّ. قيدنها تحت لباسكنّ».

وتتابع موعظتها: «ولكنّ أخطر شيء من النظرات والرائحة هو اللسان... نعم لا شيء أخطر من اللسان. بكلمة واحدة، يمكن تمييز الأشخاص المؤمنين من اللامؤمنين. يمكن للكلمة أن تكون أسوأ من الشيطان، وأكثر عتمة من الظلام، وأكثر احمرارًا من الدم. يمكن للكلمة أن تملأ الرؤوس المتعبة والضعيفة بالفتنة والأوهام. وكذلك يمكن للكلمة أن تكون مقدّسةً، مهابةً ومحترمة. تدخل نور الإيمان إلى القلب والنفس. والكلمة هي التي تحمل إلينا رسالة الله. آه... يا بناتي، بناتي العزيزات، عليكنّ أن تحذرنَ الكلام، الكلمة هي

كرة من كريستال لها وجهان، إذا نظرتنّ إلى أحد وجوهها تذهبن إلى جهنّم، وإذا نظرتن إلى وجهها الآخر تذهبن إلى الجنّة. عليكن بالحذر الشديد. الكلمة تعلّم ما لا يجوز تعلّمه، والكلمة ترسم صورًا لا يجوز أن تُرسم، تصنع الخطيئة من العدم، تخلق المتعة من العدم، عليكن أن تكن يقظات حتى تميّزن قاموس الله من قاموس الشيطان. الويل لَكُنّ يومَ تساوين بين الكتابين، الويل لَكُنّ ساعة تساوين بين المعاني والحروف والأصوات».

توقّفت زينب في استراحة قصيرة، ثم تابعت بصوت فيه شجن: «يا بناتي، بالإضافة إلى الكلام، ينبغي أن تطهّرن ابتساماتكنّ من الخداع والعناد والقبح. يمكن أن تكون الابتسامة روعة الجنّة، كما يمكن أن تكون نداء الفتنة والمتعة. يمكن أن تكون اختبارًا للروح لتطهير نفسها، أو أن تكون اختبارًا للجسد لخداع نفسه. ينبغي أن تفرقن بين ابتسامة تلوح خلفها الرغبة وشهوة الجسد مثل ضوء مخادع، وبين ابتسامة يشعّ منها نور الإيمان. عليكُنّ أن تعرفن هل هذه ابتسامة الشهوة أم ابتسامة الإيمان. إنّي أرى في عيون بعضكنّ ضحكة، إنّما هي ليست سوى ضحكة انحراف وقذارة. اعلمن، يا تعيساتي العزيزات، اعلمن أن الله كما يقيّم الفعل والكلمة كذلك يقيّم الابتسامة. فبإمكان الابتسامة أحيانًا أن تهزّ عروشًا، كما يمكنها أحيانًا أن تهدّئ بحرًا هائجًا. أيّتها الفتيات التائبات، وأنتن اليوم تفتحن صدوركن للإيمان، اعلمن أن كلّ كيانكن يمكن أن يكون مصدرًا للخطيئة. نعم، كلّ كيانكن. حتّى حركات أجسامكن، الرجفة في أصواتكنّ. اعلمنَ أنّ الشيطان لم يعمل بمكان كما عمل في جسد المرأة. يجب أن تتعلمن في حركات أجسادكن،

في قيامكن وقعودكن ألا تصدر عنكنّ نيّة سيئة، أو أيّ ضالّة، أو إشارة سيئة. هزّة من الصدر يمكنها أحيانًا أن تهزّ جميع قوانين وأحكام السماء، تموّجٌ رقيق للحم شهواني يمكن أن يكون أخطر من إعصار أو دوامة ماء. يجب أن تنسيَن أن لكن أجسامًا، أن تنسين أن لكنّ صدورًا. التّوبة تعني تجفيف منابع الشهوة. وقتل الإحساس بجميع الملذّات، فاللذة هي الطريق التي تؤدي إلى أعماق جهنّم. إن لم تقضين على ملذاتكن، فلن تصبحن تائبات. وإذا لم تتبنَ، فلن تتطهرنَ أبدًا. الويل لمن كانت ملذّاتها حيّة، الويل لمن تذوق متاع الدنيا، وتهملَ الآخرة، الويل لمن تمدّ سفرة الدنيا وترفع سفرة الآخرة».

من حين لآخر، كانت إحدى النساء تدخل، تنظر إلينا ثم تخرج، يبدو أنّها أعطت أوامرها بألا يقطع أحدٌ حديثها. في النهاية، قالت: «اليوم هو يوم التعارف بيننا جميعًا، أنا لن أعاقب أحدًا هنا، فهذه ليست مدرسة للعقوبات، بل مكان لصحوة الضمير، أرواحكنّ هي من عليهاتذوق الألم. أنا متخوّفة من ضربكنّ، أخشى أن تتلذّذن بالضرب. نعم، لدي خشية. لكن بدءاً من اليوم، سأكون معكنّ، قريبة منكنّ دومًا. عليّ أن أتعرّف عليكنّ واحدة واحدة، عليّ أن أعرف كيف شوهت حياتكن الغريبة، وسط الخطايا، أرواحكن. لكن ليطمئن قلبُكنّ، فمهما كانت حبائل الشيطان معقّدة وشريرة، فأنا مصرّة أكثر أن أحلّها وأحطّمَها وأنهيها. الدين في جوهره هو إزالة لعيوب الإنسان، والتّوبة هي تصحيح لانحرافه وأخطائه. لكي ترجعن إلى الطريق القويم، ينبغي أن تكنّ مستعدات لذلك من أعماقكنّ. عليكنّ أن تمدَّن أيديكنّ للمساعدة».

بعد تلك المحاضرة، بدأت بمقابلتنا بنفسها واحدة تلو الأخرى. كان علينا أن نضع أمامها ملفّات حياتنا واحدة واحدة، حكايات أمهات مفضوحات وأخوات هاربات. نسرُّ لها بكلّ ما رأينا. كانت تسألنا: «ماذا عن الرجال، هل تذوقتنّ الرجال! هل ذقتنّ تلك المتعة الشيطانية؟». حينما حان دوري، أخبرتها بما جرى لي تلك الليلة في بيت عمّتي. لم أعرف أنني الوحيدة التي كشفت عن حقيقة ذنب لا يجوز أن يُكشف عنه. ظلّت تسألني بصورة متكررة: «هل كان رجلًا حقيقيًّا أم خيالًا، مجرد شهوة في خيالك أم طيفًا؟»، قلت: «لا أعرف يا سيدتي، كان كلّ ذلك. كان الثلاثة، كان طيفًا، وكان شهوة منّي، وكان جسدًا حقيقيًّا وضخمًا أيضًا يا سيدتي. كان كلّ شيء في آنٍ واحد». عندما كنت أتحدّث، كانت تشعر أنّ لهجتي لا تنمّ عن الإحساس بالذنب والندم، بل إنّ صوتي فيه نبرة فتاة متمرّدة. مع تلك الابتسامة الغريبة التي لا تفارق شفتيّ، الابتسامة التي لم تفارقني منذ اليوم الذي أُحرِقَت فيه المكتبة. قالت: «آه... خندان الصغيرة، إن الحياة شوهتك منذ الصغر، عيناك تشعّان، ممتلئتان بالشهوة، نعم، عيناك هادئتان، عادة تبدوان هادئتين أكثر ممّا ينبغي، لكن جلّ خوفي هو من العيون الهادئة. جميع العيون الراكدة، في الحقيقة هي مخيفة، لم أر نظرة جريئة إلا وكانت نظرة سوء وخطيئة. آه يا خندان، ابتسامتك أيضًا ليست أقلّ سوءًا من اللامبالاة التي في عينيك. ابتسامة تخفي خلفها استهزاءً كبيرًا. استهزاءً بالعالم، بالمخلوقات، بالقدر. ابتسامة تخرج من روح ترفض احترام هذا الكون وخالقه، ولا تحترم الدين والشرائع. اسمعي يا خندان، علينا أن نبدأ في ترويض ابتساماتك أولًا. أن نبدأ في قتلها، حتّى لا تجلبَ معها رائحة الرجال، صورهم

ووجودهم إلى عالم الفتيات التائبات».

قامت النساء، يومذاك، بجدولة أسمائنا على دفتر، حسب أنواع التّوبة. اللاتي كان ينبغي تطهير نظراتهنّ هنّ فتيات صغيرات، في عيونهنّ يوجد مكرٌ عجيب. بينما اللاتي ينبغي لهنّ تجاوز رائحة أجسادهنّ، فقد كنّ أكبر سنًّا. الوحيدة التي كانت لها ابتسامة سامّة هي أنا. جميع الفتيات أخفين ابتساماتهنّ المخادعة وأظهرن ابتسامة بريئة. ابتسامة مقتضبة وخجولة. مع ذلك ومن جانب آخر، كنت محظوظة من بين الجميع، كنت الفتاة الوحيدة التي لم يكن لي حاجة إلى تخليص جسدي من فتنه الزائدة بسبب صغرِيّ وضعف جسدي.

أوّل مرّة، حصلنا على لوح للدراسة. وكان الدرس الأوّل عن حياة موسى. قامت بإلقائه امرأة كبيرة بالسنّ ذات وجه طويل. استمرّت في تدرّيسنا سنوات عدّة عن سيرة الأنبياء والصحابة والخلفاء. أمّا الدروس الأخرى، فقد كانت مزيجًا غريبًا من تاريخ المذاهب والفتوحات. تضمّن أحد الدروس طرق ظهور الشيطان، وآخر عن النساء المضحّيات، وعن علم الكلام. تحدّثت لنا امرأة صغيرة السنّ أيامًا عدّة عن عالمالقبر ووصفت الجحيم. كما كانت هناك امرأة ذات أنف أعوج، درّستنا تفسير القرآن، تفسير الإدريسي. وامرأة كبيرة بالسنّ، علّمتنا فلسفة الزكاة وعادات الطعام وكيفية تطهير الأشياء بالبسملة. كانت جميع مُدرّساتنا نساءً هادئات وقديرات، يتعاملن معنا بلطف، لا يغضبن أبدًا، في صوتهن وعيونهن برود وجمود مدهش. كان كلامهنّ خاليًا من الإحساس. يُصورن كلّ شيء في صورة قانون أبديّ وغير قابل للتغيير على الإنسان معرفته والاقتداء به. بصمت

وبتفكير عميق ونظرات مثيرة، بعبارات ثقيلة جدًّا، كنّ يسحبننا نحو تلك العوالم، عوالم كان علينا أن نصلها بسرعة قصوى.

منذُ الأسبوع الأول، ظهرت المجموعة الأولى من التائبات في صالة وممرّات المدرسة. التكرار المستمر لكلمة «الطهارة... الطهارة... الطهارة» جعلنا نشعر بإحساس عجيب. كنّا جميعًا نشعر بالإثم، نشعر أنّنا فاجرات، حتّى إنّ علينا أن نجتازَ عشرات المراحل الصعبة حتّى نستعيدَ عفّتنا. في البداية، ظهر هذا الإحساس لدى شينو، الفتاة التي تسكن على بُعد غرف عدّة عن غرفتنا. كانت شقيقة مومس مشهورة في المدينة، وهي بدورها كانت تشعر بأنّها في رجْس لا شيء يستطيع أن يطهّرها منه. في الليالي الباردة، كانت فتيات المدرسة يجتمعن حولها، فتقول لهنّ بصوت خفيض: «لا شيء سيطهّرنا سوى النار، عليّ أن أستعير خيالًا آخرَ وروحًا أخرى، وأنتنّ أيضًا، ينبغي أن تصنعنَ لأنفسكنّ جسدًا آخر، جسدًا طاهرًا». كانت جميع الفتيات يتحلّقن حول شينو التي تحدّثهن عن عفّتهن بصوت رزين، شعرتُ بأنّه يشبه كثيرًا أصوات المعلمات.

منذ الأسبوع الأول، بدأت شينو تجلس في أحد الممرّات، على بطانية مطويّة وتقرأ القرآن بصوت خفيض. كان بعضهم يقول إنّها لا تنام الليل، وكانت فتّانة تهمس دومًا: «إنها تكذب، أعرف أنّها مومس، هي تحاول أن تخرج بسرعة من هذه المدرسة». لكن ما أثار دهشتي هو وجود ليلى أيضًا مع الحلقة الملتفّة حول شينو. ذات مرّة، كنّا، أنا وفتّانة، نعود من جولة قصيرة داخل المدرسة، سمعنا ليلى تقول: «لجسمي رائحة قاتلة، بسببها يلاحقني الرجال دومًا، يقتربون منّي،

رائحة لم أعد أحتملها». أمسكت فتّانة يدي وقالت: «إنّ القادم يشي بكلّ سوء، دعينا نرحل، نبتعد من هنا». في تلك الفترة ساد قلق وخوف غريبان، حتّى إنّ البنات صرن في حركة دائمة، لا تجلسن في غرفهنّ، تتهامسنَ في كلّ مكان بكلمات ترد إلى سمعي مثل «النار»، «الشيطان»، «التوبة» و»الشهوة». قالت فتّانة: «ينبغي ألّا تخيفَنا هذه الكلمات، إذا ما خفنا، حينها سنضطرّ أن نقبل بكلّ الأمور، يعيش الناس منذ ألف سنة بلا توبة. الآن نحن وقعنا في الفخّ، مع ذلك ليس أسهل من أن نبدوَ مثل التائبات، أن نتظاهرَ بالتّوبة». كنت في ريبة من أمري أن أتمكّن من التصرّف مثل فتّانة، خشيت أن أفقدَ زمام الأمور في لحظة. في الوقت الذي كان جلّ تفكير الفتيات منكبًّا على تطهير عظيم لأنفسهنّ، عاد طيف ذلك الرجل واقتحم حياتي. يا الله... في الليل مع نزول الظلام، حين كان الصّمت والذعر والدهشة والخمول يطغى على كلّ شيء...

حين خمد صوت شينو، ذعرت أثناء النوم، شعرت بوجود الرجل الذي طارحني في ليلة حالكة، في بيت عمّتي، شعرت أنّه ينتظرني وسط الظلام. كان إحساس غريب يحتلّ روحي، كأنّ جسدي كان يفكّر. استيقظت فوجدت جسدي منفصلًا عنّي، سارحًا في الخيال. في البداية كنت ألمحُ خيالًا صغيرًا في العتمة. نعم كنتُ أكشف اللحاف عن رأسي فأجد ذلك الشبح. جسده بدا كلّه قطعة سواد، على انتشار الظلام في كلّ مكان إلا أنّي رأيته وعرفته، كان هو ذاته، نعم الرجل نفسه الذي أعرفه. كان يأتي ويتفقّد الغرف، غرفة غرفة، ينظر إلى الفتيات النائمات واحدة، واحدة، يتلمّس ثيابنا، وكتبنا،

ثم يغادر. كان صامتًا لا تصدر عنه حتّى همسة، لكنّه ترك خلفه في الغرف والممرّات رائحة الريحان. أحيانًا كنت أنهض من السرير أتتبّع رائحة الريحان، في جوف الظلام، كنت أتبع خطاه، لكي أكشف من أين دخل، لكنّه كان يضيع في الظلام كما لو أنّه ذاب معالليل وانتثر في الهواء. لكنّني متأكّدة أنّي رأيته، متأكّدة تمامًا أنّي نزلت من السرير وتبعته، كنت أجتاز الممرّات بعيون ناعسة وكان جسمي يرتجف وأتصبّب عرقًا باردًا. كنت أتوقّف لحظات على الدرج ومن ثم أستعيد بعض الشجاعة وأتابع، كان يدخل إلى المغاسل والحمّامات، صفوف الدرس الفارغة، لكن لم أكن أحصل إلّا على رائحة الريحان، على نَفَسِ ذَكَرٍ سماوي، لا شيء عدا ذلك.

في أحد الأيام، رويتُ لزينب كويستاني عن كلّ ما يجري معي، قلت: «هناك رجلٌ يدخل المدرسة في الليل، أنا أراه، إنّه يدخل ويتفحّص الفتيات جميعًا، يشرب ماءً ويقف بجانب أبواب الغرف ويتلمّس الكتب». نظرت زينب إلى عينيّ وإلى يديّ الباردتين، وإلى صغري وضعفي: «خندان، يا خندان الصغيرة، لا بدّ أن تكون التّوبة صادرة من أعماق القلب. ما زال وسواس الإثم يتلاعب بك، ما زالت رغباتك تتحكّم بك».

لم يصدقني أحد، لم يشمّ أحد رائحة الرجل. مرة قلت لفتّانة: «إنّ ذلك الرجل هو حقيقة، أنا أشعر به، يأتي ويوقظني في بعض الليالي». ابتسمت فتّانة وقالت: «قبل أن تنامي لا تكثري التفكير بالرجال، فأنا لا أفكّر بشيء قبل النوم». كانت زينب تأمل أنّ وجودي في تلك المدرسة، والدراسة المستمرة والصلاة الدائمة سوف تخلّصني من

هذه الوساوس. لكن مع ذلك وفي كلّ صباح كنت أقول: «هذه الليلة أيضًا رأيت الرجل، ليلة أمس عاد الرجل، كان هنا». كلّما أخبرتها بذلك كانت تجعلني أزيد من صلاتي، قائلة: «محاربة الشيطان القابع في روحك ليس بالأمر السهل، لكن في النهاية إذا كنت مستعدّة وكانت روحك طاهرة، فسوف تنتصرين على ذلك الشيطان».

شعرت أنّها، مع مرور الوقت، تبعدني عن الأخريات. قبل أيام وبعد أن علمتُ أنّ خطي جميل قالت: «المطلوب منك يا خندان أن تقومي كلّ مساء بكتابة آيات قرآنية على قطع كرتونية كبيرة، وتعلقيها على جدران الممرّات والغرف والصفوف». كانت أحيانًا تُشرف عليّ بنفسها إلى وقت متأخّر من الليل، تختار الآيات وتوجّهني بكيفية كتابتها: «حاولي أن تكتبي بروحك أيضًا، ليس فقط بأصابعك، حاولي أن يكون للكلمات موقع القلب فيك، أنصتي إلى رنين الحروف. الطريق إلى الله هو طريق منير، طريقٌ، إذا ما فتّشنا في دواخلنا بهدوء، فسوف نجده».

كنت أتبعها بنظرات باردة وهي تقول: «خندان، إن ابتسامتك هذه تقيّدنا، ربّما بسبب هذه الابتسامة المثيرة المشبعة بالذنوب في عينيك، أطلقوا عليك هذا الاسم الذي يعني «ابتسامة»، مَن يعلم، ربّما لحظة ولادتك كنت تحملين هذه الابتسامة الشيطانية على وجهك! لكن لا عليك يا خندان الصغيرة، متى يزدد إيمانك بالله، فسوف يتغيّر كلّ شيء على نحو أفضلَ، حينها ستكتسي ابتسامتك البراءة والطّهارة، نعم سوف يكونُ لها صورة أخرى».

ظلّت برفقتي وهي تردّد: «اكتبي، اكتبي، اكتبي». كنت أرسم تلك الخرائط الدينية الواحدة تلو الأخرى. واظبت على تلك الحال فترة، فكلّ ليلة أخطّ كراتينَ كبيرةً، ثم تقوم اثنتان منّا برفعها وتعليقها. بعد الانتهاء من العمل، كان ينتابني شعورٌ بالإرهاق الشديد حتّى إنّه لم يكن بوسعي الوقوف على قدميّ، حتى إنّ البرود الخطير في جسد تلك المرأة وروحها كان ينتقل إليّ ويخدّرني. أنام، فيأتي طيف الرجل في منتصف الليل ليوقظني. أنهض وأتبعه في الممرّات والغرف من جديد... كنت ألمح ظلّه على الجدران وعلى الفراش وعلى الأسرّة، دون أن أتمكّن من الإمساك به. وفي الصباح، أنهض مرهقةً مكتئبةً، أحكي لزينب عمّا حدث، وكيف رأيته من جديد. أخبرها أنّ ذلك الشبح المظلم عاد وظهر لي مرة أخرى. شكّت زينب في أمري وظنّت بأنّني ربّما أقصد إغاظتها، أو أنّي أراوغها بمكرٍ حتّى أجعلها تتوه وراء سراب. كانت تقول بابتسامة خبيثة: «لا تخافيَ يا خندان، لا تخافي، فلديَّ عملٌ كثيرٌ لأقوم به من أجلك».

في أحد الأيام، شاهدنا حمولة كبيرة من الكتب أمام باب المدرسة. فتحت زينب باب صالة لم يسبق أن دخلتها إحدانا، صالة كبيرة مليئة بالرفوف وخزائن للكتب وطاولات ومقاعد خاصة للقراءة، لكن كلّ الرفوف والخزن كانت فارغة. جمعتنا كلّنا في صفّ وطلبت منّا أن ننقل الكتب في مجموعات من أمام الباب إلى الصالة الواقعة في قبو المدرسة، والتي لم يسبق أن علمت إحدانا بوجودها. بعد أن نقلنا الكتب وفي الليلة نفسها، اختارتنا أنا وفتّانة وفتاتين أخريين لنقوم بترتيب الكتب على الرفوف. في اليوم التالي، طلبت منّي ومن فتّانة

أن ننزل كلّ ليلة إلى القبو وننظم فهرسًا للمكتبة الضخمة. بقينا ليالي طويلة نعمل في المكتبة، تقرأ فتّانة أسماء الكتب وأنا أقوم بتدوينها. لم يكن في المدرسة من يعرف الكتابة والقراءة باللغة العربية كما نعرف أنا وفتّانة. حتمًا كانت فتّانة أمهرَ منّي بكثير في هذا المجال، وهي التي قضت عمرها في مشاهدة المسلسلات المصرية على التلفاز، لذلك كان بإمكانها أن تأتيَ معي إلى عالم الكتب المذهل. الشيء الأكثر إدهاشًا هو ذلك الكتاب الذي أعددناه مع تلك الكتب. الكتاب الذي ظلّ يربطنا في عَلاقة بالمكتبة إلى أن غادرنا مدرسة الأخوات التائبات. لم يسبق أن ربطتني عَلاقة وثيقة بعالم الكتب بهذه الصورة. كانت تجربتي الوحيدة مع الكتب تعود إلى ذكريات حين كانت بروانة تلجأ فيها إلى كتاب تخرجه من حقيبتها وتقرؤه بدل البكاء والحزن. منذ اللحظة الأولى، حين لمست تلك الكتب في المكتبة، شعرت بسعادة، سعادة كان عليّ إخفاؤها وعدم إظهارها، صور تلك الحروف العربية الجميلة وتلك العناوين اللافتة بثّت فيّ أملًا. بابًا مفتوحًا على الخيال ضمن عالم يفتقد التغيير والخيال والفرح.

في اليوم الأول، قالت فتّانة: «سمعتُ أنّ ملازمةَ المرء وحيدًا للكتب وقتًا طويلًا يؤدّي به إلى الجنون». قالت لها زينب كويستاني: «هناك كتب، كما هذه، تأتي من الجنّة، وهناك كتب يرقد إبليس بين حروفها... أحيانًا يكون الشيطان متواريًا في قلب الكتب، يدخل بين السطور، بين التفسير، حتى إنّه يمكن أن يوجد كتابٌ وقد كُتب بلغة الجنّة لكنّه يُفسّر بلغة الشيطان».

ذات مرة، وبعد تعبٍ وإرهاقٍ وسط عالم الكتب ذاك، حين كنّا

في المغاسل، استعرتُ من فتّانة مرآتها الصغيرة ونظرت فيها... آه يا إلهيّ ما زلت أشبه خنذان الصغيرة، ما زلت خنذان الصغيرة، حتى لو كنت أشعر أنّني أسير يومًا بعد يوم نحو عالم آخر، وتستحيل روحي إلى شيء آخر مختلف.

17

بعد أن خرجت معصومة من الغابة، وحتى بعد مضيّ سنوات عدة، كانت تعتقد أن سيامند بالند مازال يلاحقها. يمكنني القول بأنّه، على ما مرَّ في حياة معصومة من مشكلات ومصاعب، لكن لم يغادرها شبح ذلك الشخص الذي لا أحد يعرف شيئًا عن مصيره وعمّا حلّ به. في طريق هروبها إلى قدر مجهول، كانت تشعر بوجود مجموعات كبيرة ومخيفة تلاحقها. مثلما كانت تختبئ من البشر كانت تخفي نفسها عن الطيور أيضًا. التوجّس من الطيور الذي اكتسبته أثناء رحلتها، رافقها مدى الحياة. في النهاية وقبل موتها بيوم، قالت لي: «لم يقتلني شيءٌ كما فعلت الطيور».

هروبُها من كلّ أسراب الطيور الأسطورية، هروبها من الطيور الكبيرة والتي كانت تراقبها طوال اليوم على الأشجار، الاختباء من تلك الكائنات التي تطير فوقها كما لو كانت تحوم فوق طريدة، كل ذلك زادها ألمًا فوق ألم أثناء رحلة هروبها. لم تكن تعرف كم يومًا أمضت في متاهات الطبيعة في ذلك الخريف. كم يومًا حاولت الاختباء من الرعاة والمارّة. الأمر الوحيد الذي كان واضحًا لها هو أنّ عليها التوجهَ نحو المدينة، ومن هناك سوف تحاول الرحيل إلى بلاد أخرى إن أمكن ذلك. كانت شمس النهار تحرقها وبرد الليل الخريفي ينهكها. ارتعدت فرائصها وخارت قواها من شدّة خوفها من الطيور ومعاناتها من الجوع لأيام عدّة. كان عليها أن تتجنّب مخافر ومعسكرات الجيش الموجودة على طول الطريق، وكذلك فِرَق

البيشمركة المنتشرة بين القرى. أحيانًا كثيرة، كانت تحتار أيّ الطرق تسلك، وأي المناطق تعبر، وإلى أين تتّجه.

قالت معصومة: «لم أتوقّع أن تنتهيَ رحلتي في حقلٍ للبطيخ. بعد سفر طويل وشاقّ، عانيت أثناءها أيامًا وليالي من الخَوف، وجدت نفسي في حقل قرية تقع على أطراف المدينة».

في تلك الليلة، وبعد أن شبعتْ من أكل البطيخ غير الناضج، وبعد تَعَب وإنهاكٍ كبيرين، استسلمت برهةً إلى النوم بعد أن شعرت ببعض الأمان، ولاحظت بصورة أو بأخرى أنّ الطيور لم تعد تلاحقها. اختفاء الطيور والنمل والحيوانات كان لها فألُ خير. كانت تعلم أنّها مازالت بعيدة عن العمران وحدود المدن، مادامتِ الطيور تحوم فوقها. كانت ليلة هادئة جدًّا، ساد صمت وخمول أرجاء تلك الأرض الشاسعة. جعلها السكون تغطّ في نوم عميق، نوم لم تستطع شمس الصباح إيقاظها منه.

قالت معصومة: «في وقت متأخّر من الصباح، حين فتحت عينيّ، كان كلّ شيء قد انتهى، كان الأوان قد فات على فعل أيّ شيء أو الهروب في أيّ جهة». حين فتحت عينيها، رأت عشرات النساء والفتيات الفلاحات مجتمعات حولها، ينظرن إليها. عشرات من نساء القرية اللاتي تأمّلن بدهشة هيئتها البائسة وثيابها الممزقة ووجهها الشاحب والمغبّر. عندما نهضت معصومة واقفة وتفحّصت بعينيها السهول من حولها، وقعت عيناها على رجالٍ عدّة وهم يركضون باتجاه النسوة. كانت النساء يرمقنها بارتياب وحيرة. قالت إحداهنّ:

«يبدو أنّها هاربة من زوجها». قالت أخرى، تصغر الأولى سنًّا وتبدو أكثر قسوة منها: «قد لا تكون هاربة، ربّما هجرها عشيقها وتركها هنا وحيدة». قالت ثالثة، بدت سيّدة ناضجة: «كلّا، يُشاع أنّ عاهرات متجوّلات قد ظهرن في هذه الأنحاء، لا بدّ أنّ هذه إحداهنّ». قالت سيدة أكبر سنًّا منهنّ جميعًا وأكثر جمالًا: «لا تُسئن الظنّ. من يعلم، ربّما هي مسكينة اعتدى عليها رجل عديم الإيمان».

حين وصل الرجال، قام الجميع بمحاصرتها وأخذوها إلى وسط القرية. لم تكن معصومة تعرف أين هي ولا كيف تتصرّف. حاول بعضهم مهاجمتها، حاولوا رميها بالحجارة قائلين: «لقد وجدنا امرأة فاجرة في حقل البطيخ». كان يتقدّمهم الأطفال وهم يردّدون: «تمّ القبض على امرأة فاجرة في حقل البطيخ...». خرج القرويون جميعًا من بيوتهم، بعضهم كان يرميها بأحذيتهم البلاستيكية. كانت معصومة تسير أمامهم بهدوء وهي مطأطئة الرأس نحو الأسفل. في النهاية، خرجت من بين الجموع امرأة وقور، قصيرة القامة، لكن يبدو أنها صاحبة نفوذ وسلطة في القرية. تقدّمت وقالت: «لن أسمح لأحد أن يلمس هذه المرأة، أو أن يمدَّ بإصبعه نحوها. أي نوع من البشر أنتم! أأنتم كلاب أم بشر؟ هل يمكن أن تعاقبوا امرأة غريبة جارَ عليها الزمن بهذا الشكل؟».

بعضهم كان ينادي: «أيّتها الأم تالات، أنت لا تعرفين. إنّها عاهرة، عاهرة». ردّت عليهم وهي تدفع الأطفال والمراهقين: «مهما كانت سيّئة، فهي ليست أكثر سوءًا من أمهاتكم وأخواتكم وجداتكم. حتّى لو كانت عاهرة فهي مثل أمهاتكم!».

أمسكت تلك السيدة الضئيلة الحجم يد معصومة وأخذتها إلى البيت. تبيّن فيما بعد أنّه بيت إمام ذي رحمة وعلم. كان الإمام رجلًا هادئًا، مفعمًا بالحياة. فرّق الناس بدماثة وقال لهم: «حتى لو كانت هذه المرأة ملاكًا أو شيطانًا، حمامة أو ابن آوى، فراشة أم عقرب، فلها أهل وإله يحاسبونها، علينا التفكير بتروٍّ، ومن ثم اتخاذ قرار بشأنها، لكي نتجنّب ارتكاب أيّ ذنب». بعد أن همد الصخب والضجيج، وانفضّ الناس قال لزوجته: «خذيها إلى البيت وطمئنيها، أطعميها ودعيها تنام، أعطيها بعض الملابس النظيفة، ثم حاولي أن تفهمي منها ما حكايتها».

عند المساء، كانت معصومة قد ارتاحت بعض الشيء بعد أن أكلت وارتدت ثيابًا جديدة، وبدأت بسرد حكايتها كاملة للمرأة القصيرة القامة. كانت المرأة تصغي إليها وهي تخضّ قربة اللبن، وأثناء تحضير الطعام، ومع غزل الصوف. كانت تهزّ برأسها في إشارة على التواصل مع معصومة. أثناء كلّ فاصل، كانت تتدخّل وتعلّق قائلة: «ولماذا فعلت ذلك يا عزيزتي؟ فديتك، ولماذا ذهبت؟ فديتك، ولماذا قبلتِ بذلك؟». أثناء سرد معصومة لحكايتها قالت: «ليس لي أحد، لقد أتيت من منطقة بعيدة، لا أمّ لي ولا أب ولا أخ ولا أقرباء لي، لا أريد العودة إلى تلك البلدة من جديد».

عندما سمع الإمام قصة معصومة ورواية حياة العاشقين في الغابة، أصابته صدمة وذعر. كان لا ينام الليل حتّى الصباح، يفكّر وقد سيطر عليه شعور بالعجز. هو متأكّد لو علم أهل القرية بحكاية هذه الفتاة، من الممكن أن يحرقوها وهي حيّة. ومن جهة أخرى، يعلم أنّ الصّمت

أمام إثم كهذا هو ذنب كبير وكفر.

في اليوم التالي، ولكي يدفع عن كاهله عذاب الضمير من عواقب الأمور، قام الإمام باستدعاء جميع رجال القرية وقال لهم: «كلّكم يعلم أنّ امرأة غريبة حمقاء قد لجأت إلى هذه القرية، لا شكّ أنّها امرأة آثمة، لكن حسب رأيي ليس من حقّنا معاقبتها، كما ليس من الصحيح أن تتركوها بينكم، وكذلك لا يصحّ أن نتركها وشأنها فترتكب الخطيئة والرذيلة ونتحمّل نحن وزرها. لذلك أطلب منكم أن تفكّروا معي بحلّ آخر». بعد ساعات عدّة من الجدال، توصّلوا إلى حلّ وحيد يرضي الجميع. الاقتراح تقدّم به شابٌّ صغير، ورع، ذو لحية. كان شابًّا بريئًا بنظرات ثابتة، له عينان لا سحر فيهما، تربطه عَلاقات متينة مع جماعة من الرجال جلّهم صغار بالسنّ مؤمنون ولهم لحًى.

كانت فرصة الشباب جيدة لكي يتحدّث تلك الليلة، فرصة طالما انتظرها. بدأ الشاب بمقدّمة طويلة عن الإيمان والأخلاق وتسامح الدين والمتديّنين. ومن ثمّ انتقل إلى مشكلة تلك الفتاة قال: «لا يجوز ترك البنات الفاحشات كما في السابق. الآن لا يسمح لهنّ أن ينتقلن كما يشأن. الآن لا يسمح لهنّ لينتقلن بخفّة وسهولة من مدينة لأخرى ومن قرية لأخرى، إذا ما تُركت هذه الفتاة فلا شكّ... نعم لا شكّ وألف مرّة لا شكّ في أنها سوف تعود إلى صنعتها السابقة وتسلك من جديد طريق الفحشاء... نعم طريق الفحشاء. لذلك، فإنّ تركَها حرّةً هو ذنب نتحمّل نحن وزر عواقبه. اليوم، صار هناك جيش ضخم من الرجال والنساء الصالحين يحتضنون هؤلاء الآثمات، يسعون لإصلاحهن وجعلهنّ يتُبن. لذا أستطيع... نعم أستطيع عن طريق

هؤلاء المؤمنين أن أؤمّن لها مأوى وملاذًا يحميها، بشرط أن ترافقنا امرأتان حتّى إيصالها إلى المكان المنشود. أرسلوا معي سيّدتين، نعم اثنتين، فلا أريد أن أرافق امرأة وحيدة وشهوانية... نعم الشهوة... لا أريد أن أنفرد بها وقتًا طويلًا والشيطان يرقص بيننا!».

أثناء الأيام القليلة التي قضتها معصومة في تلك القرية، كانت دائمًا تراقب عبر نافذة غرفتها الطرق، تسترق النظر إلى أسراب العصافير الواقفة على الأسطح وعلى أسوار باحة الدار. حين وصلَت إلى المدينة في سيّارة قديمة برفقة الشابّ، قال لها: «ينبغي ألا تخافي بعد الآن، هنا أنت في حماية أناس مؤمنين ومؤتمنين».

أخذ الشاب معصومة إلى بيت إمام جزوع النفس، مضطرب، ذي وجه متعب. لم يكن الإمام مرتاحًا لاستقبالهم. كان يتفكّر بصورة دائمة، مردّدًا: «ماذا نفعل بهذه المرأة؟ ماذا نفعل؟ لا أعلم... أرى من الأفضل أن نسلّمها للجهات الرسمية». سئم الشابّ من كلام الإمام ولم يتردد في نقل معصومة إلى بيت آخر، بيت إمام آخر كان، بخلاف الأول، شخصًا هادئًا وقويًا، كان من حين لآخر ينفخ رماد سيجارته، يمرّر بيده على حاجبيه ويقول: «لا تهتمّ يا ولدي، لا تهتمّ، أنت قمت بعمل صالح ستنال عنه ثوابًا. سأقوم بنفسي فيما بعدُ بالتحدّث إلى الملّا كوثر باخوان، إنه من أكثر الأئمة في هذه المدينة انشغالا بأمور التّوبة، في هذا الشأن، لا أحد يضاهيه».

في المدرسة، وحين كانت معصومة تروي لي حكايتها، كانت دومًا في هذا الجزء من الحكاية تقف وتقول: «أختي خندان، خندان

الصغيرة، لم يمض وقت طويل حتى رأيت نفسي بين حشود نساء المدينة من ضاربات الدفوف. ذلك العالم الذي، إلى وقت قريب، كنت فيه ضيفة. ربّما لم يرغبوا بوجود مذنبة مثلي بين صفوفهنّ للقيام بالذكر والدعاء. ربّما كنت وبجهل منّي، أكشف لهنّ خفايا عالم كان عليهنّ خلقه إن لم يكن موجودًا بالأصل». معصومة التي لم يفارقها الخوف للحظة، ولكي تأمن من كلّ ذاك الرعب والهلع والرجفان في روحها، كانت كلّما وجدت سيدةً أو إمامًا تبدأ بسرد حكايتها لهم.

لمّا سمع الملّا كوثر قصة معصومة أوّل مرّة، خيمت عليه الحيرة والدهشة، وحالة من عدم الإدراك واضطراب مفاجئ. كيف يمكن أن يحدث هذا! نساء ورجال يتعاشرون معًا دون أيّ روابط شرعية بينهم في مكان لا أحد يعلم بأمرهم؟! جعل معصومة تعيد حكاية تلك الغابة مرات ومرات، إلى أن أُرهقت من الحديث وصارت تروي له عن الغابة بخوف وندم كبيرين.

كان الملّا كوثر مولعًا بمشاهدة قوى المؤمنين والصالحين، مولعًا بحضور الاحتفالات والتجمّعات الدينية الضخمة. رؤيته لأفواج الأتقياء وهي تهلّ وتجتمع، تبثّ لديه شعورًا بالسعادة لا يوصف، لا سيما حين ينطق الجميع باسم الله، يصل صوتهم إلى أعلى العروش، يبتهلون إلى الله بصوت واحد طالبين العون والمدد. في كلّ ليلة، كان يحلم بذلك البحر الهائج من البشر رافعين الأعلام الخضراء والسيوف. بدفوفهم المتواقتة في تناسق، تُصدر أمواجًا عالية تبثّها إلى العالم. عندما سمع حكاية معصومة والغابة، قال في نفسه: «إنّنا بحاجة إلى قوة ضخمة لتكنس هذه الآثام، قوة تعمل عمل اليد

الواحدة، الروح الواحدة والعين الواحدة». كان يتخيّل نفسه وهو يقف على المنابر يبثّ الحماسة والإثارة في تلك الروح العظيمة. يتخيّل نفسه وهو يحرّك تلك الحشود بخطابه ورثائه بصوت مؤثّر. قوة هائلة من البشر والأعلام والسيوف، صراخ وانتحاب ورهبة، مشهد تدمع لرؤيته العيون. في الآونة الأخيرة، صار الملا كوثر على عَلاقة مع الكثير من أفعال الانتقام والأخذ بالثأر التي يقوم بها بعض الجاحدين، وله عَلاقة مع الكثير من الشباب الذين يسعون لإصلاح أخلاق الناس بحدّ السيف. قام هو شخصيًّا بإدارة الكثير من اجتماعات ونشاطات المتديّنين. لكن حتى الآن لم ترعبه قصّة مثلما أرعبته هذه القصة.

في تلك الليلة، جاء الملا كوثر بمعصومة وجلس أمامها على مقعد. بدأ يسألها: «أتعرفين يا بنيتي كم أنتِ آثمة؟»، كانت معصومة تهز رأسها بخوف: «أعلم». قال: «أتعلمين كم هو طويل طريق العفة؟». ردّت معصومة بحشمة وحياء: «نعم، أعلم». قال: «أتعلمين أنّه ربّما استدعى الأمر سنوات طويلة لكي تصبحي إنسانة مؤمنة، ربّما احتاج الأمر لآلاف الليالي حتّى تصبحي طاهرة؟»، هزّت معصومة رأسها: «نعم، أعلم». قال: «أتعلمين أنّ عليكِ أن تدفعي بقرابين كبيرة؟»، قالت: «أعلم». قال: «أتعلمين أنّ قصّتك هذه يجب ألا تبقى مخفيّة؟ ينبغي أن تكشف هذه المصيبة للعالم أجمع؟»، قالت: «أعلم». قال: «أتعلمين أنّ عليك مرافقتي في رحلة طويلة تروين فيها للناس الحقائق، وتروين لهم حكاية تلك الغابة؟»، قالت: «أعلم». قال: «هل تخافين من شيء؟»، قالت: «لا، أيّها الأب كوثر، لا أخاف من شيء». قال: «هل ستَتُوبين من أعماق قلبك؟ وهل ستردّدين معي

ما أقوله لكِ من نصائح؟»، قالت: «أجل، بابا كوثر، سأفعل دومًا ما تأمرني به». قال: «إذن اذهبي الآن ونامي، اذهبي ونامي براحة وأمان، اطلبي من الله أن يمنحك الأمن والاستقرار، استعدي للأيام المقبلة».

لم تنم معصومة تلك الليلة. ولا ليالي عدّة تالية. لم تعرف أيّ خطأ أودى بها إلى هذا الطريق العجيب. أيّ قوة جرّتها إلى هذا الطريق.

عقد الملّا كوثر في الليلة التالية اجتماعه الأول الصغير. دعا فيه عددًا من أئمة وشيوخ المدينة. أتى بمعصومة ووضعها وسطهم. كعادته، قام بتبديل نظارته وقال بصوت جَهْوَري: «اسمعوا، أنصتوا إلى هذه الحادثة، واعلموا في أيّ زمن رديء ومخجل نعيش. اعلموا، بينما نحن هنا جالسون في راحة، تقوم بالقرب منا كارثة، اسمعوا هذه القصة التي ستجعل القُشَعْريرة والارتجاف يسريان في جسد كلّ مؤمن خاشع لله، خوفًا من هول ما يروى. يظهر هذا الكفر بيننا في الوقت الذي نحاول منذ سنوات عدّة أن نجعل من هذه المدينة حديقة للإيمان، نريد أن نجعلها بستانًا للطهارة والفضيلة. لقد استولى عديمو الإيمان على كلّ شبر من حولنا، كلّ منطقة بعيدة عنّا، وجعلوا كلّ مخبأ ملاذًا لهم. ويلٌ لناً من عذاب الله. ويلٌ لنا كم نحن عباد فاشلون، كم هي أرواحنا وعيوننا مخفقة وخائرة وعمياء عن رؤية الفحشاء والفجور. تعالوا واسمعوا بأنفسكم هذه المخلوقة الآثمة الحقيرة، لتحدّثكم عن خطاياها، لتحدّثكم عن تلك المعاصي والذنوب العظيمة».

وقفت معصومة مطأطئة الرأس، وسط حلقة بيضاء. بدأت تروي القصة كاملة بصوت خجول ومرتجف. حين تحدّثت عن هروب

الشباب والفتيات إلى تلك الغابة، وعن أطفالهم غير الشرعيين، مجهولي المصير، عن تلك العزلة، وعن اليأس والحزن السائدين بينهم. حين تحدّثت عن هذه الأمور، سرت قُشَعْريرةُ رعب وهلع في أجساد جميع الرجال والأتقياء. وقبل أن تنهي معصومة الرواية، أدمعت العيون وبدأ عض الشفاه، وجرت رعشة باردة في أجساد الحاضرين وظهر ارتجاف على ملامحهم. بدأ الأئمة يصرخون صرخات قنوط وخيبة: «مدد... أيّها الباري العظيم... مدد يا خالق الجمال والفحشاء، يا صانع الفضيلة والرذيلة مدد». لم يصدّق أحد ما سمع، كان الجميع يدعون الله ويقولون: «آه... الإنسان يا له من عبد متمرّد وحقير، آه... يا لَه من حيوان قذر».

مرة أخرى، وقف الملّا كوثر أمام مريديه وقال: «جميعكم يعلم أنّ أصعب شيء هو اصطياد الشيطان. نقاط ضعف صيادي الشيطان هي الخوف والندم والهشاشة. منذ زمن ونحن نصطاده، منذ زمن نقتفي أثر خطاه في جسد وروح ووجدان البشر، منذ زمن ونحن نحاول أن نملأ العالم بالفخاخ والمصائد لكي نحاصره لحظة خروجه فنحطّم جناحيه. لكن تعلمون أنّ الشيطان طريدة صعبة وقذرة تتوارى في كيان وشهوات الإنسان. يجعل خندقه في روح وفكر الإنسان. فها هو في الوقت الذي كنّا نظنّ بأنّنا كسرنا جناحيه، بينما هو يجرّ البشر بكلّ حرية إلى بناء مقرّ للفاحشة وزريبة للرذيلة على الجبال وفي الغابات. ينبغي أن يسمع جميع الآباء والأمهات في البلاد هذه القصّة. لا بدّ أن يسمعها جميع الرجال والعائلات التي تمّ اختطاف نسائها أو هربت بناتها، الذين أُبيح شرفهم وأُنتهك عرضهم. ينبغي أن تنطلق قافلة

الإيمان، يجب أن تمرّ على كلّ قرية من قرى البلاد، وتجمع أكبر عدد من المؤمنين ومن ثم تتوجّه نحو تلك الغابة. إنّ الإمساك بالشيطان يحتاج إلى اتحاد قوانا جميعًا، اتحاد قوى الروح وقوى النفس. عدًّا من اليوم، علينا أن نعلن الجهاد لاصطياد حيوان الظلمات ذاك. إنّه جهاد القبض على الشيطان. الشيطان الذي هو في الحقيقة قابع داخل الإنسان، ويدفعه نحو إنشاء مهود الرذيلة وزرائب الفحشاء».

قالت معصومة: «حين خرجت في تلك الليلة من الغابة، لم أكن أعلم أنّي سأدخل حربًا دامية مع الشيطان، لم أكن أعلم أنّي سأقود قافلة تجول على طول البلاد وعرضها، وفي كل مكان ينضمّ إليها عشرات الأشخاص الثائرين، الذين هبّوا لمقاتلة الشيطان». من اللحظة التي أعلن فيها الملّا كوثر الجهاد، قامت الأخوات قارعات الدفوف بأخذ معصومة وألبسوها ثيابًا بيضاء وقالوا لها: «هذه هي الخطوة الأولى لتطهيرك». منذ تلك الليلة وإلى أن انتهى كلّ شيء لم تستقرّ في مأوى ولا بيت. من حينها، تقوم الأخوات قارعات الدفوف باصطحابها معهنّ إلى الاحتفالات ومهرجانات الذّكر وصلاة الجُمع. منذ ذلك اليوم، وهي تنتقل من منبر إلى آخرَ، بثوبها الأبيض ووشاح طويل على رأسها. المطلوب منها أن ترويَ قصّتها في كلّ مناسبة بصوت خافت خجول، صوت امرأة مذنبة تسعى إلى التّوبة والمغفرة. لأجل أن تحكيَ لهم عن الغابة التي يعيش فيها الرجال والنساء معًا بحرية مطلقة. عن الوادي الذي يقصده المتمرّدون من العشّاق الشباب، الهاربين من المجتمع. لتحدّثهم عن أرض ربّما تتحوّل في المستقبل مدينة، وربّما تكبر المدينة فتصير إقليمًا، ربّما تسود قوانين وشرائع

هذا الإقليم في يوم من الأيام لتشمل البلاد كلّها!

بعد تلك التجمّعات والمهرجانات، كان الآباء والأمهات يزدادون خشية وقلقًا، وكان خوفالصالحين من المستقبل يغدو لا حدود له. توافد كلّ من ضاعت له ابنة أو أخت أو زوجة أو قريبة إلى المنبر ليسألوا معصومة بعض الأسئلة، أما الذين يرغبون في الالتحاق بقافلة الإيمان للبحث عن الشيطان ومقاتلته، فبدؤوا يكتبون أسماءهم في دفتر كبير. أثناء كل تلك النشاطات والمهرجانات تظلّ معصومة، بنقابها، جالسة على مقعد دون أيّ حركة كما لو أنّها تمثال. لكنّها ومن خلف النقاب، تراقب الطيور التي تخيفها أكثر من البشر. اليوم تكون في مسجد، وغدًا ستكون في مسجد آخر. لم يفارقها الملّا كوثر قطّ، هو من ينظّم لها الاجتماعات ويُحضّر خُطب الجُمَع بنفسه. كان يقول بأنهم مقبلون على رحلة سفر جديدة، رحلة هم أصحاب القرار فيها، رحلة فقط يحقّ للمؤمنين الصادقين المشاركة فيها، حيث يطاردون فريسة كبيرة، يأملون أن يتمكّنوا فيها من طرد إبليس من هذه الأرض، وأن يطهّروا المدن والقرى من رجسه، إنها رحلة «صيد الشيطان».

كانت عبارةً ذات سحر وتأثير عجيبين في المؤمنين الذين يتوافدون أفواجًا أفواجًا لتسجيل أسمائهم. قال الملّا كوثر: «تصوّروا لو أنّ الأمور تسير بهذا الوجه، فإلى أين نحن ذاهبون؟ تصوّروا لو أنّ تلك الجبال الشاهقة أصبحت مقرًّا للمخرّبين، فأي مستقبل بانتظارنا؟ فكّروا باليوم الذي تفرّ بناتكم وهنّ واثقات من وجود مخبأ آمن وشاسع يحميهنّ. فكّروا بذلك اليوم الذي تصير أجساد بناتكم وأخواتكم وزوجاتكم أو شهوات أبنائكم وآبائكم مثيرة ومتّقدة،

ولا توجد حدود ولا روادع لإيقافها. تصوّروا ماذا سيحصل لو أنّ كلَّ آثم كان آمنًا ومطمئنًا وهو يرتكب الإثم ويعيش براحة وسكينة. فكّروا لو أنّ الشرائع انقلبت رأسًا على عقب؟ لا، لا يمكن أن يكون للعاشقين الكفرة والحالمين مكان على هذه الأرض. إن وجود شرخ في جدار الإيمان في الوطن، هو صدع في إيمان كلّ واحدٍ منّا. أيّ سوء يمسّ كرامة هذه الأرض، يمسّ كرامتنا وشرفنا جميعًا. كل امرأة ترتكب الزنا فهي ترتكبه بحقّنا جميعًا. كلّ رجلٍ نذلٍ يمارس الجنس مع امرأة، فهو كما لو مارس الجنس مع جميعِ نساءِ البلاد. لا شيء يتّقد بسرعة مثل جمرة الإثم. لا شيء يضاهي مكر الشيطان. الشهوة والشيطان داهيتان، علينا كسر أجنحتهما والقضاء عليهما في قلوبنا وحياتنا ودنيانا. إلى الصيد، إلى الصيد يا أيّها المؤمنون، إلى الصيد!».

كانت تقوم قارعات الدفوف سلفًا قبل يوم من حديث معصومة الآثمة، بالإعلان عن ذلك بين أوساط النساء في المقابر وبين الرجال في المساجد أثناء صلاة الجمعة، في المدارس بين الشباب المؤمن. كان جميع أهل المدينة يعلم باسم المسجد والحيّ الذي ستوجد فيه كلّ مرة. كان القائمون على المساجد يصدرون بيانًا بذلك، وقبل صعود معصومة على المنبر، يحتشد الآلاف للاستماع إلى خطاب الملّا كوثر باهتمام بالغ، والذي صار بدوره بمنزلة قائد روحي عظيم. مع انتهائه من الكلام، كانت أبدان الجميع تقشعر من تأثير عباراته وتنتابهم حالة احتقان وغضب وشعور بالندم. الجميع يشعر بأنه لا بدّ من فعل شيء. فيتوافد المئات لتسجيل أسمائهم في قائمة جيش الإيمان. أمّا الأخوات قارعات الدفوف، فكنّ يخرجن بعد الخطبة

إلى الشوارع والأحياء في حالة ذكر ودعاء مهيبة، تجعل المدينة كلّها تنتفض حماسًا وهيجانًا. إلى أن قرّر الملا كوثر مع الأخوات أن يتمّ نقل هذه الكرنفالات الضخمة إلى خارج المدينة، حيث يمرون على القرى قرية، قرية، يقودون المؤمنين باتجاه تلك الغابة. وفي المقدّمة، كان بابا كوثر ومعصومة يتصدّران الحشد في سيّارة جديدة ويتبعهم شباب وبنات صغار، نساء ورجال كبار. كان صدى تلك الدعوات العجيبة دعوات القبض على الشيطان تدوّي في أرواح الجميع بحيث، ومن شدة تأثيرها، يتراءى أمامهم شبح شيطان بشعر طويل وهيئة شنيعة. كان شبح كائنٍ مشوّه قد حاصر أرواحهم، كائن يمكنه أن يظهر بجلد إنسان عادي، أو على صورته ولونه. قضوا أيامًا وليالي طويلة في العراء. نصبوا خيامهم على جوانب الطرق. قضوا أيامًا تحت النجوم في ليل الخريف البارد والرطب وهم يؤدّون الصلوات والدعاء. في تلك الليالي، كان الخوف من الطيور يسرق الهدوء والأمان من معصومة. كان يقول لها الملّا كوثر: «الكائن الذي تسمّينه طيرًا، في الحقيقة هو الشيطان ذاته، إنّه الشيطان يظهر على هيئة طائر، هو الشيطان وقد اكتسى صفات غير عادية، وإنّما خوفك هذا هو ما يعبر بك نحو الطهارة».

فيما بعد، قالت معصومة: «حين وصلنا إلى عالم القرى، حين وقعت عينيّ على الرجال وهم يحملون أسلحتهم ويتبعوننا، وحين سمعت النساء يردّدن عبارة: ينبغي حرق تلك الغابة، حينها فقط أدركت أنّي سأكون السبب في دمار ذلك العالم، وأنّني شرارة هذه الحرب».

حاولنا أنا وفتّانة، أثناء سنوات عديدة، أن نقنع معصومة بحقيقة أنّها كأيّ شخص آخر في هذه الكارثة كان المطلوب منها أن تؤدّي هذا الدور. كان على الأقدار بوجه أو بآخر أن تقحمها في هذا الدور. لكن عبثًا، لم تستطع أن تتخلّص من تعذيب الضمير الذي ظلّ يرافقها. كانت تعدّ نفسها المسؤولة عن موت بروانة، وهذا الأمر جعل زينب كويستاني لا تصدق توبتها وبقيت تنظر إليها بشك وريبة. ها أنا اليوم وبعد كل الأعوام التي مرّت، بعد موت معصومة وبعد رحيل الملّا كوثر إلى جوار ربّه، وفي الوقت الذي أدوّن فيه القصة كاملة، أستطيع أن أجزم وبصورة قاطعة أنّها كانت منذ ولادتها حتّى موتها فتاة بريئة.

18

بعد فرار معصومة، حمل سيامند بالند أمتعته وأدار ظهره إلى الوادي ورحل. رحل حتّى دون أن يودّع أحدًا. بعد ذلك، لم يسمع أحد أيّ خبر عنه ولا عن مصيره. بعد ذلك، بسنوات طويلة، حين رجع نصرالدّين المعطّر من الحرب حيًّا، رُويت ثلاث قصص مختلفة عن مصير ذلك الإنسان البريّ، لا أحد يعلم أيّ واحدة من هذه القصص هي قصّة مصرعه الحقيقية. الرواية الأولى تقول، بعد خروج سيامند من الوادي سقط في يد مجموعة دراويش متجوّلين أجروا عليه تجربة فظيعة، إذ قاموا بذبحه ومن ثم حاولوا عبثًا إحياءه! طبعًا لم تفلح تجربتهم المجنونة في إعادته إلى الحياة. تقول الرواية الثانية، إنّ سيامند سافر في رحلة بعيدة نحو قرى الجنوب، هناك وفي إحدى المناطق التي تعرّضت إلى هجوم قوات الحكومة الهالك، شُنت حملة تهجير قسري للقرويين من تلك المناطق نحو الصحراء الجنوبية، حيث قامت قوّات الحكومة بدفنهم أحياءً تحت الرمال. أمّا الرواية الثالثة، فتقول بأنّ سيامند، وفي محاولة منه لاجتياز الحدود، دخل إلى حقل ألغام فانفجر به لغمٌ ومزّق جسده إرْبًا إرْبًا، ولم يتمكّن أحد في تلك الأرض البعيدة من جمع أشلائه ودفنها.

بعد رحيل سيامند، كتبت ميديا غمكين في دفترها: «كان ضياع معصومة ورحيل سيامند بداية لظهور فتن كبيرة ومعقّدة». اليوم، يعيد نصرالدين قراءة هذه العبارة عدّة مرات ويقول: «فتن كبيرة... هممم. فتن كبيرة، صحيح، في هذه العبارة الكثير من الصحّة، لكن

إذا فكرنا بشكل أدقّ سنكتشف أنّ الفتنة كانت موجودة قبلهم أيضًا، المشكلات كانت موجودة أصلًا، موجودة في كلّ مكان. لكنّ الخوف وغياب الوعي وضعف إرادة الإنسان غالبًا ما تجعل تلك الفتن تبدو أكثر وضوحًا، حتّى يشعر الإنسان أنّه وسط بحر من المشكلات، في الوقت الذي لا تكون الحقيقة بهذه الصورة. انظُري الآن، ومع مرور كلّ هذه المدة، وبعد اختفاء تلك البقعة من الأرض، ما زال العالم كما هو. الاتفاق وعدم الاتفاق هو مجرّد أوهام من خيال الإنسان ذاته».

ومهما يكن من أمر، فقد كان لدى بروانة شعور بمعاكسة الدنيا لها. مع بداية فصل العزلة، وبعد رحيل معصومة، سيطر عليها شعور بالارتباك والاضطراب، شعور أكثر قسوة، يشي بانهيار العالم من حولها.

فقدت بروانة كلّ أمل. إنّ تلاشي المشاعر والوفاء والقدرة على الاستمرار والتداخل بين الحبّ والكره، كلّها كانت تشير إلى عودة الصعوبات والمشكلات إلى الحياة في الغابة. من جهة أخرى، كان كوفاند يتجوّل بجنون في عوالمه المتفائلة، ويتحدّث مثل الأنبياء: «يوجد في الفنّ قوّة ساحرة، إذا استطعنا العمل بها فسوف تضعنا على طريق العشق والمساواة». يبدو أنّه كان، آنذاك، متبصرًا في الغد، في الوقت الذي تملّك بروانة خوف كبير من كل مكان وكل زمان.

لقد شوّشت عُقَد وصعوبات المكان والزمان ذهن بروانة. كتبت لميديا على صخرة كبيرة وسط الغابة: «ميديا غمكين، يا صديقتي، لا أريد الرجوع إلى الوراء، لا أريد العودة إلى المدن التي ستظلّ كما هي

إلى الأبد. المدن التي لا أحد يمكنه تغيير خرائطها بعد الآن، حتى لو دمّرتها الزلازل، ستعود لتُبنى على هذا النمط نفسه. سيبني الناس بيوتهم فوق المكان نفسه، أصحاب الدكاكين والمحلّات -أيضًا- سيعيدون بناءها بمكانها القديم نفسه وفي الشوارع ذاتها، كذلك مراكز الشرطة وحتّى المقابر ستجدينها في مكانها نفسه. الفاجعة الكبرى يا ميديا هي أنّ العالم أخذ هيئته الدائمة والأبدية. الفاجعة هي أنّني لا أستطيع العيش في مدن جامدة آخذة صورتها النهائية، والفاجعة الأكبر هي هذه الغابة التي لا يمكنها أن تنظّم لها أسلوبًا وهيئةً معيّنة. المشاعر والأحلام والمشاريع هنا تفقد مضمونها. العاشقون هنا لا يعرفون ما يفعلون بالحبّ، المرء لا يعرف ماذا يفعل بخياله». بينما هي تكتب على الصخرة، كانت الريح تهبّ لتحمل كلماتها، فتسرع ميديا لنقل جمل بروانة وتكتبها على الدفتر، ثم تضمّ الدفتر بقوة إلى صدرها وتركض بسرعة في الغابة خوفًا من العاصفة الحزينة وغيوم الخريف القاتمة. صار الشغل الشاغل لميديا، في تلك الأيام، هو الاستماع إلى أصوات الطبيعة وأصوات الكائنات الصغيرة في ذلك المكان الصغير. امتلأ دفترها بآلاف الأحرف الصغيرة والمؤقّتة. تحدثت فيه عن كلّ شيء بالتفصيل، عن الاخضرار والأشواك، عن تقلّبات السماء ساعة إثر ساعة. كانت دومًا تضمّه إليها لتحميَه وتهرب به من المطر والأعاصير، كما لو أنّه المصدر الأخير للحقيقة. لكنّ غياب القمر والظهور المستمر للغيوم أضفيا حزنًا وغمًّا لافتين على كتاباتها أيضًا. كانت تكتب في لحظات الانهيار: «أين أنت أيّها القمر؟».

بدأت الغابة تموت بصورة مفاجئة. اصفرّت أوراق جميع

الأشجار. امتلأت الطرق والمياه، تحت الخيام وداخل البيوت بالأوراق المتساقطة. انعدمت الرؤية في الليل نتيجة تساقط ملايين الأوراق. لكن حتّى في تلك اللحظات الصعبة، كان الجميع يلتفت إلى حزن بروانة الشديد وبكائها المؤثر الذي زاد ليالي الغابة حلكةً وكآبة.

كانت ميديا وكالبا يتعاملان معًا مثل غريبين، يمر كالبا من أمامها لامباليًا وغير مهتمبها، يمرّ ويركل بقدمه كومة الأوراق المتساقطة ويعزف بفمه ألحانًا غير حزينة. أمّا ميديا، فكانت، كلّ يوم تصغي ساعات طويلة إلى ألحان كالبا وتزداد غمًّا وأسًى. إنها تفكّر في حبّها والوَحدة التي تعانيها بسببه، وكذلك تراقب عَلاقات حبّ الآخرين. كانت تشاهد مهدي كولباخ وهو يبحث ليلًا نهارًا دون هوادة عن الأزهار بين الأشجار، وهو في حالة مزرية من الاضطراب والمرض يسأل: «هل رأيت زهورًا؟». بينما كان طاهر التوتييجلس كلّ ليلة على صخرة على ضفّة النهر، لا ينصت كما السابق إلى أصوات الطيور والحيوانات، بل يكتفي بالجلوس صامتًا يتأمّل الغابة في ليالي الخريف الصفراء. أحيانًا، كان يُصدر صوتًا كصوت الغراب، أو صوت بوق، ثم يصمت وقتًا طويلًا ويغرق في بحر خياله. كانت الأكوام المتبقّية من تماثيل العشق المكسورة والمحطّمة مرميّة في كلّ زاوية وبقعة من الغابة. الأطفال يحملون تلك التماثيل العديمة القيمة ويرمونها في المياه. وعلى ضفّة النهر كانوا يربطونها إلى الأشجار بحبال رفيعة. كانت بروانة تسمع مع بكائها صوت ارتطام التماثيل المعلقة بعضها ببعض حين تلعب بها الرياح فتحدث، صخبًا وضجيجًا هائلَين.

واظبت بروانة الذهاب، كلّ ليلة، إلى خلوة فريدون ملك الذي بدأ يظهر عليه الضعف يومًا بعد آخر. كلّ ليلة كانت تحمل الخبز من التنّور وتحضر له بعض الطعام وتسير به مثل شبح بيدها إناء الطعام، نحو الورشة. هناك، وفي كلّ مرّة، بعد حصّة من البكاء، تقوم بمسح دموعها، تجلس إلى جانب فريدون وتتكلّم. في تلك الاستراحة الطويلة، لا بدّ أن تتحدّث إلى فريدون، بينما هو صامت مشغول بصنع الفراشات. بروانة تتحدّث وفريدون يتابع عمله دون أن يرفع رأسه. دهشت بروانة من جمال فراشاته في تلك الأيام. قالت: «هذه الفراشات هي نهاية الجمال، ربّما هي نهاية كلّ شيء جميل، أنا أفهم يا فريدون، أفهمك جيّدًا، أعرف أنّ كلّ شيء كان خاطئًا منذ البداية. هربنا أنا وأنت من عالم كان كلّ ما فيه جليًّا واضحًا، كان جحيمًا، كنت أشعر فيه بالاختناق، أنت أيضًا ضقت به ذرعًا، بالإضافة إلى أنّك خشيت أن يعتقلوك، ويتمّ رجمك بالحجارة بسبب أغانٍ عدّة. آه، إنّها مدينة عليك أن تكون فيها في حالة صراع وحرب دائمتين. تمنيت أن نجعل حياتنا جميلة ونضفي عليها السعادة بالحُبّ، أو بنوع من العَلاقات التي تعودنا أن نسمّيها بالحُبّ... نعم حُبّ، محبّة، غرام، لكن تتالت عَلاقات حُبّ فاشلة الواحدة تلو الأخرى. أردت أن أحارب تلك الصحارى الكبيرة عن طريق حبّ الرجال، انتقلت من رجل إلى آخر، ودائمًا كنت ألتقي برجال حمقى وجبناء لا يرغبون ترك البيت والحديقة والكرسي. ولكن قررتُ، ذات يوم، اختيار الحلم والرحيل إلى عالم آخر. انظر يا فريدون، إنّ أخطر ما في هذه الرحلة هو أنّ مشاعرنا اتخذت صورةً وأسلوبًا آخرَ. منذ اليوم الأول، حين نزلت إلى هذا الوادي، تاه عنّي معنى الليل والنهار، نسيت الحرية

والراحة، تلاعب الليل والظلام بأحلامي. كنتَ تريد أن نسعد هنا بحبّنا ونشكر الربّ أنّنا عاشقان، ونعيش في هذا المكان السحيق حياة عادية! أتذكّر يا فريدون كم كنتَ مرتاحًا في البداية. أتذكّر أنّك كنت تقول: "السعادة هي أن تنام براحة وهناء». لو أنّي فكّرت مثلك، لكنت سعيدة. لكن ها أنا أقول لك إنّ هذا الوادي ومجموعة العشّاق جرّوني إلى أحزانهم، فأنا بالأصل كائن مهموم وقلق. تعلم جيّدًا، ومنذ بداية المجزرة، كم كنت أحزن لأجل أولئك الضحايا، كم كنت أقلق بشأن العذاب والخوف اللذين على العشّاق مواجهتهما. لم أنم ليالي بطولها، كنت أبكي دومًا، نعم، يا فريدون، فالبكاء ليس عادة حديثة العهد لدي. الآن وأنا أرى تلك النساء في الحلقة المفرغة والسخيفة لحياة الغابة، وقد اسودّت جلودهنّ، لا أستطيع تحمّل كلّ هذا. كثيرًا ما أضيع في متاهات الغابة وأحدّق بعمق في ذلك الفراغ الواسع. أنظر إلى كلّ هذه الهشاشة وهذا الفراغ وهذا العدم من حولنا وأتساءل: ماذا لو عاد البشر كلّهم إلى حياة كهذه؟ ماذا لو عاش الناس في مكان كهذا! تُختَصر حياتهم كلّها في التأمّل تحت جنح ليل دامس، وبصناعة السلال والجلوس على رمال ضفاف النهر؟ شعرت منذ البداية بأنّ علينا أن نذهب أكثر، كنت أقول يجب أن نبعد أكثر، ولكن إلى أين؟ لا أعرف. آه يا فريدون، آه... لذلك أحببتني... لأنّني أشبه الفراشات، وطبعًا الفراشات تعني لك الجمال والموت عشقًا وأمور أخرى. الفراشات تعني جميع أساطيرنا أنا وأنت، أساطيرنا المتواضعة، لا، لا ضرورة أن أذكّرك ما هي تلك الخرافة، لكن حين لمست بيدك جدران اليأس لهذه الحياة، حين أدركت أنّ الإنسان لا يعيش بالحُبّ وحدَه، وأنّ الحُبّ أضعف من أن يجعل للكون نظامًا وصورةً، أدركت أنّك لا

تستطيع أن تبنيَ معي عالمًا، لا يمكنك أن تبنيَ حياة مستقرّة وهادئة مع فراشة حيّة، تشعر وتهرب وتبكي... فاخترت عالم فراشاتك الخيالية الملوّنة. يوجد في داخلك -أيضًا- جزء من خيال لا يموت. منذ أن عرفتك تتمتّع بخيال واسع، لكن إلى جانب ذلك الخيال، لديك حُلمٌ صغير جدًّا، نعملديك حُلمٌ صغير... أتعرف يا فريدون، أنّ الفاجعة هي أنّك في النهاية ترغب في أن تبنيَ لنفسك عالمًا وتعيش فيه. أمّا أنا... فحلمت دومًا بالسفر والعشق وأشياء أخرى، وتمنّيت أن أخلق عالمي الذي أحلم به. فكّرت ذات مرة «إذا كانت الأماكن جميعها في النهاية متشابهة، إذا كانت جميعها في النهاية وطن للموت والقمع، وأن الترحال هو تنقل وسط العذابات، فمن الأفضل ألا يستقر المرء في مكان محدّد إلى الأبد». لكن ما معنى ألّا يكون للمرء مأوى يا فريدون؟ انظر، أحيانًا أتمنّى أن أكون غبية بلا خيال، أحيانًا أقول لنفسي إنّني حرّة، حرّة في أن أقرّر حياتي والدروب التي أسلكها بنفسي. أدرك الآن أنّ العالم لا يدعنا دون انتماء، لا أحد حرّ في أن يكون بلا مكان. انظر، ها أنت ذا في النهاية قد اخترت لنفسك بيتًا، اخترت مكانًا بعيدًا عن الجميع، هل اختيارك هذا جنون أم جمال؟ لا أعرف، الحقيقة لا يمكنني قول شيء. فقط أعلم أنك لم تكن يومًا مجنونًا، أعرف أنّ في روحك وعينيك صمت عميق، لكن لم أشعر بأنه جنون. ولدتْ في داخلك كائنات مختلفة ومتناقضة، لكن لم يكن ذلك جنون. مهما كانت عزلتك هذه رائعة وبيتك ساحر أخاذ، يجعل المرء يهزّ برأسه ويقول بأنّه جميل جدًّا، بديع جدًّا، لكن لا يمكن للجمال أن يصبح بيتًا لنا جميعًا. من يمكنه القول «بإمكاني زيارة بيت فراشاتك وأكون سعيدًا بذلك؟»، في النهاية، لكلٍ بيته، بيت الجمال ليس كبيت العشق الذي

يحضن روحين. بالإضافة إلى أنّ هذه الحياة الخطرة تدمّر الجمال. الجمال هو الخندق الأول المعرّض للانهيار. إذا دخل المرء في حرب، عليه أن يترك خندق الجمال فارغًا، وحين نرغب أن نترك دائرة كل الحروب، حينها من الطبيعي أن نعود لنقول إنّنا نعيش مع الجمال فقط، أو حين نرغب في الموت، أو نتهيّأ للموت. منذ ذلك الوقت، كان بإمكاننا أن نبنيَ خلوة مجرّدة مع الجمال، مهما يكن، أعلم أن حياتنا محتقنة بالدماء، ليس هناك من يحفظ الجمال في ذاكرته. أكثر ما يخيفني بشأن الجمال والرقّة والضعف هو أنّها كلّها تُنسى. أنت محظوظ في أنّك بنيت لنفسك بيتًا، لم تعد تخشى عليه من النسيان. لكنّني أعرف لماذا عالمنا هذا يطويه النسيان، لماذا ذاكرته الحمقاء لا تُحفَظ. يبقى همّي الأعظم هو خوفي من أن يطويَني النسيان. ذات ليلة، توصلتُ إلى نتيجة خطيرة. بينما كنت أمشي في الغابة، توقّفت فجأة ونظرت إلى أزهار ذابلة ميتة، صرخت، يا الله أين أنا، هذه الغابة هي النسيان بحدّ ذاته. انزلاق الحبّ إلى هذه الأرض، هو نسيان العالم للحبّ، وما بكائي هذا إلّا بسبب نسيان الإنسان والكون والعالم كلّه لنا. إنّه بسبب سقوطِنا في العدم والفراغ. يا فريدون، إنّ هذه الغابة تموت، وجميع الموجودين هنا ذاهبون نحو النسيان، سيصبحون سرابًا، غبارًا، هبابًا عديم الفائدة، سوف يستحيلون رمادًا يبقى بعض الوقت على الحجارة وعلى الأشجار الطرق، ثم يندثر إلى الأبد! رمادٌ سوف يحتلّ، في مساءٍ ما، العالم، وفي الليل، سوف تكنسه الريح. رماد لا يترك خلفه أثرًا في وجدان هؤلاء البشر، والذين في دنياهم الصغيرة ينشغلون بمقاضاة جدران غرفهم، ينشغلون بتدفئة زواياهم، بترويض أرواحهم وأجسادهم ونفوسهم».

هكذا تحدّثت بروانة إلى فريدون ملك أحاديثَ لليالٍ طويلة. لكنّه لم يخرج عن صمته. مع ذلك، لم تهتم بروانة إن كان يسمعها أم لا، لم تعد تبالِ بذلك. فقط كانت تستمر في الكلام إلى أن يتسلّل النوم إلى عيونها، أو أن تأخذها موجة حسرة إلى وسط الغابة. لم تذق بروانة الراحة حتى في نومها. كانت الأصوات في الليل تتزاحم، والصوت الأكثر لطفًا كان صوت شهلاء التقية. بعد فرار معصومة، زادت مخاوف شهلاء من ذنوبها أكثر من السابق عشرات المرّات.

مع بداية الخريف وظهور الغيوم وأصوات الرعد، زاد الخوف لدى شهلاء، الخوف من اقتراب يوم الحساب. في الليل، مع صوت الرعد، كانت تركض مع مصحفها لتختبئ بين بقايا الأوراق المبللة، تفتح القرآن تحت المطر وتبدأ بتلاوة الآيات. من شدّة الخوف، كانت تهمل أطفالها، تتركهم وحدهم في البرد والمطر. أحيانًا، كان عزيز يحمل أطفاله ويعيدهم إلى البيت. لكن سنوات العزلة والغمّ قد فعلت فعلَها في هذا الصيّاد أيضًا، لقد غيّرته وحوّلته إلى إنسانٍ آخرَ.

الكآبة التي نشرتها بروانة في الغابة قتلت الطيور والأسماك. نادرًا ما كان يجد عزيز طيورًا حيّة. حين يتوه مساءً بين شجيرات العليق والأجمّة، لم يعثر إلّا على طيور ميتة. كان الأطفال العراة يجمعون تلك الطيور الصغيرة ويلعبون بها، يعلقونها إلى جانب حطام التماثيل على عصيّ ويرفعونها. كانوا يجمعون أعدادًا كبيرة منها ويوقدون بها النار، أو يرمونها في النهر. فناء الطيور الجماعي والأسماك أثّر بصورة كبيرة في عزيز وجعله في حيرة. هو الذي عاش حياته في أحضان الطبيعة. التقى ذات مرّة بروانة وقال لها بحسرة وألم: «إنّك

يا بروانة، ببكائك هذا، تقضين على مملكتي، تقتلين طيوري، تقتلين أشجاري». أجابته: «اسمع يا عزيز، اسمع جيدًا، أنا لم أقتل شيئًا. هذا العالم يسير نحو النسيان. هذه الغابة تتحوّل من تلقاء نفسها إلى غبار. الأماكن التي لا تصلح لأن تصبح مكانًا للعيش والاستقرار الحقيقي، لا بدّ أن تفنى ولا تترك خلفها أيّ أثر».

دون أن يفهم عزيز تيراندازِ شيئًا، ودون أن يفهم من لغة فتاة المدينة التي غيّرت نفسها إلى مثل سيّئ، حمل تنهيدة أُمنية ميتة وذهب نحو صوت شهلاء التي كانت تَغمغمُ: «يا الله، لا تعاتبني، يا الله، يا إلهي، أين الطهارة، أين العفّة؟ إلهي، لا تذلّني عند عبادك الآثمين. إلهي، لا تذقني جزاء البشر، إلهي، فليكن بيني وبينك ما يكون، فقط بيننا أنا وأنت، فقط نحن الاثنان».

عندما كانت بروانة تسمع استغاثات شهلاء، كانت تتكوّر على نفسها. غالبًا ما كانت ميديا تضطرّ للامساك بيدها وسحبها من بين أوراق الشجر. أحيانًا تجد نفسها بمواجهة جدران الليل الضخمة واللامحدودة، تقول: «علينا أن نذهب، ينبغي أن نغادر هذا العالم، يا لهذا الهروب الذي قمنا به، فمن عالم صغير بارد، جامد وخانق، هربنا نحو عالم التعقيدات والمشكلات الكبيرة».

كانت ميديا منهمكة بالكتابة، يبدو أنّها لم تعد تهتمّ بمصيرها بقدر اهتمامها بدفاترها. كتبت لبروانة: «كل شيء ينتهي. ينبغي أن يبقى شاهد واحد، شاهد يكون أطول بقاء وديمومة من جميع الناس وجميع الفصول. يوم القيامة، هو اليوم الذي لا نتمكّن فيه من الكتابة.

يوم الآخرة هو اليوم الذي تنتهي فيه الكتابة، حيث لا نستطيع تسمية الأشياء بأسمائها، ولا وصفها بميزاتها». قالت بروانة: «أختي ميديا، أنت محظوظة. عالمك مجموعةُ كلماتٍ، لكن أخبريني، في موسم المشكلات والتعقيدات، كيف للكلمات أن تبقى؟ اسمعي، ينبغي لك أن تنقذي هذه الدفاتر، ينبغي أن نخرج من هذه الغابة وننقذ هذه الدفاتر. يا ميديا... إنّ الأمل الوحيد أمام هذا النسيان والفناء والتشتت، هو هذه الدفاتر، يجب إيصالها إلى مكان آخر، إلى زمان آخر، وأرض أخرى». تمسّكت ميديا بالدفاتر وضمّتها إليها بشدّة وابتعدت. في تلك الساعة، لم ترغب ميديا أن تتخلّى عن دفاترها لأحد. لم تكن تثق بأحد على الأرض لكي تأتمنه على دفاترها... ولكن مع مرور الوقت، بدأت الفتاتان تقتنعان بأنّ عليهما المغادرة وترك هذا المكان. هاتان الفتاتان الوحيدتان في تلك الأدغال، الفتاتان اللتان مهما حاولتا أن تبتعد بعضهما عن بعض، كانت أسوار الغابة تعيدهما إلى الطريق نفسه من جديد. في الليل، حين تتحدّثان عن كيفية الخروج من الغابة، كانت تأتي شهلاء التقية وتقيم بالقرب منهما مثل شيطان رجيم وتردّد لآلاف المرّات اسم «الله». تلاحقهما أينما ذهبتا، وتنادي، الله... الله... الله. ظلّت شهلاء تمشي وتردّد اسم الله. قالت لها بروانة ذات مرّة: «اسمعي يا شهلاء، منذ زمان، أسمعك وأنا صامتة، سبق وأن هربتُ من عمّة لم تكن تعرف شيئًا سوى أن تردّد طوال الوقت كلمة الله، لكن عليكِ أن تفهمي أن الإنسان لا يعيش بالإيمان وحده، كما لا يستطيع العيش بالعشق وحده، كذلك لا يمكنه العيش بالخيال وحده، ولا حتى بالواقع والحقيقة وحدهما. إنّ عالمًا جميع حدوده معلومة هو مثل عالم عديم الملامح، هو عالم مخيف».

صرخت شهلاء: «أيتها المخرّبتان، اصمتا واسمعا جيدًا. أنتما تعلمان أيّ لعنة بانتظارنا، مع ذلك لستما نادمتين. أعرف أنكما غير نادمتين. يا الله... يا الله انظر... انظر؛ هاتان الآثمتان غير نادمتين، هاتان العاهرتان غير نادمتين، بينما أنا نادمة».

تابعت شهلاء طريقها حاملة المصحف، مذعورة بنظراتها المجنونة. عانقت بروانة ميديا وقالت: «ينبغي أن نذهب معًا، ينبغي أن نغادر هذه الغابة معًا، ينبغي أن يعلم الجميع أنّنا لم نعد نريد العيش هنا».

في اليوم التالي، نزل الدليل ذو العينين الزرقاوين من السُّلّم ذي الألف درجة. أصيبَ بدهشة وذهول جرّاء رؤية الخريف المفاجئ الذي أضفى بلونه الأصفر على الغابة. كان قد خيّم صمت وهدوء حَذِران على أرجاء الوادي. كان كلّ شيء قد تغيّر. لم يصدِّق، أولَ وهلةٍ، أنها الأرض ذاتها التي رآها في السابق مرارًا. الآن، يطوف في المكان وجومٌ قاتل. اجتاز الدليل بحرًا من الأوراق الصفراء، لم يسبق له أن رأى هذا الكمّ الهائل من الأوراق الميتة في أيّ مكان. قال: «أنا عادةً أهاجر أيامًا عديدة وسطَ الخريف، لكنّي لم أصادف خريفًا كئيبًا كهذا في أيّ بقعة أخرى، لم أرَ خريفًا حاقدًا كهذا». لاحظ أنّ البيوت مفروشة بالأوراق الصفراء وأنّ الخيام والعرازيل تنهار أمام رياح خفيفة. في البداية، سأل كوفاند: «صديقي، ما هذا الخريف السابق أوانه؟ ما هذه الكآبة والحزن المفاجئ؟ من أين قدِم كلّ هذا الاصفرار واليباس؟».

أجاب كوفاند: «لا شيء، لا شيء. كثيرًا ما يضيق الناس ذرعًا بحياتهم، لكنهم سرعان ما يعودون عن ذلك. غالبًا هم لا يعرفون ما يريدون، لكن سرعان ما يدركون مبتغاهم ويعرفون لماذا عليهم أن يحاولوا ويقاوموا. كثيرًا ما يهتزّ إيمانُهم بالحبّ والجمال، لكنّهم يعودون للإيمان بهما من جديد».

يبدو أنّ الدليل لم يقتنع بهذا الكلام، فقال: «إنّ البرود والموت اللذين يسريان في هذه الغابة أكبر من أن يوصفا ويفسّرا بهكذا كلمات». في ليلة اليوم ذاته، حينما كان هو الآخر يحوم في الغابة المدّمرة والمنهارة مثقل الرأس مثل روح تائهة، وقفت بروانة أمامه وقالت له: «لا تُطل البقاء بين هذه الأشجار، لا تقف هنا كثيرًا، لا تمش كثيرًا في الغابة، لئلا يتسلّل داء الكآبة إلى روحك فلا تنجو منه إلى الأبد. أنت شابّ محظوظ، ما زال أمامك المزيد من الفرح والسعادة، لا تدع هذا الحزن يقضي عليك. اذهب واجلب نصرالدين المعطّر، وقل له أن يأتيَ إلى هنا. أنت لا تعرف كم نحن بحاجة إليه، نحتاج إلى ذلك الرجل. قل له أن يسرع بالمجيء قبل أن يقضيَ علينا البرد والعزلة».

كلما طال بقاء الدليل، كانت تذبل الابتسامة على وجنتيه. عند المساء، عبر ذلك الجسر الصغير والأخير، نظر إلى البياض الشحيح الذي يعلو ليل الغابة المباغت. كان يردّد في أعماق خياله، خياله المفعم بالقصائد الكلاسيكية، أشعارًا أضفت المزيد من الحزن عليه: «إنّه أمرُ إنهاء هذا العالم». بدأ يصعد درجات السُّلّم نحو الأعلى، فلاحظ حينها غبارًا ناعمًا. إنّه غبار انتهاء عالم قال عنه نصرالدين يومًا

إنّه سيكون «جنّة الحبّ». كان يرى حزنًا أبكمَ على الأشجار الصفراء، ويرى الدخان المتصاعد من خمود نار في أحد أطراف الغابة. كلّما ارتفع أكثر، بدت غيوم الخريف المتناثرة تنخفض أكثر. كلّما صعد على السلّم نحو الأعلى، انخفض الهواء والسماء والنسمات الباردة أكثر. نظر من هناك، من الأعلى، كانت أشبه بأرض ينبغي نسيانها أكثر، من أن تكون أرضًا تعنيه في المستقبل ويحمل ذكريات عنها.

19

كان علينا، كلّ صباح، أن نرويَ أحلامنا لزينب كويستاني. كنت دائمًا أروي لها عن طيف ذلك الرجل، أخبرها عن الظلّ الذي يظهر أحيانًا في ممرّات وغرف المدرسة وكيف أتبعه.

لم يكن هناك فائدة تذكر من العمل الطويل في فهرس الكتب. لقد ملأنا معظم جدران المدرسة بكتابة الآيات القرآنية، بحيث لم تبقَ مساحة تكفي لتعليق أيّ شيء آخر. أمّا أنا، فكنتُ، من حين لآخر، أتمرّى بقطعة المرآة خاصّة فتّانة. كنتُ لا أزال أعتقد أنني أشبه خندان الصغيرة. كنّا اتفقنا، أنا وفتّانة، على أن نمعن النظر في ملامح بعضنا، أن نراقب صورتَينَا. كانت تطمئنني أحيانًا بأني ما زلت أشبه نفسي، ما زلت خندان الصغيرة، لكنّ الذي كان يخيفني هو الطمأنينة التي ظهرت على زينب مع شكوكها الدائمة تجاهي، يبدو أنّها ترى ما لا أستطيع أنا رؤيته في كواليس نفسي. كلّ صباح، تحدّق في عينيّ وتقول: «خندان الصغيرة، رغباتك كالعادة تلاحقك، يا بنيّتي، إن ذلك الرجل ليس سوى شبح رغباتك الشيطانية». أثناء حديثها، كانت تستمر بالتسبيح على صدرها بالسبّحة. واظبت النظر إلى عينيّ كلّ صباح. بينما كنت أشعر بتعب وإرهاق كبيرَين كانت تقول: «انظري إليّ، دعيني أرى نظراتك. إنّها ليست سيّئة كما في السابق، إنك بدأت تفقدين الدّلع والغنج في عينيك، لكن إلى هذه اللحظة، لست واثقة من ابتسامتك الغريبة التي لا أعرف إن كانت جزءًا من طبيعتك أم هي عادة سيّئة احتفظتِ بها منذ الصغر». نصحتني زينب أن أختليَ بنفسي

فتراتٍ طويلةً، وأردّد أثناءها: «أنا مذنبة، يا الله استجب لندائي، أنا وحيدة، يا حبيبي يا الله كن أهلي ومُعيلي... يا ربّ أنا ذليلة، كن لي المَدَد... ضعيفة أنا، أنقذني أيُّها الباري، إلهي، فاجرة أنا فطهّرني».

كان عليّ في كلّ ليلة أن أختليَ في غرفة العبادة، أشعل شمعة وأردّد تلك العبارات مئات المرات. أحيانًا، تقف خلفي في العتمة دون أن أراها وتقول: «كرّري جملة أنا فاجرة يا إلهي طهّرني بصوت أوضح وأعلى، يا إلهي... أنا فاجرة فطهّرني، فاجرة أنا فطهّرني». أحيانًا، كنتُ أردّد تلك العبارة بالإيقاع والسرعة كليهما مدة ساعة وبصورة مستمرة دون توقّف. حتى إنّني كنت أقف في الممرّات مرهقة ومتعبة، أبكي وأستمرّ في ترديد العبارة دون فاصل. أصعد الدرج وأنا أردّدها، «فاجرة أنا يا إلهي فطهّرني»، وحين تراني فتّانة تهزّني بعنف قائلة: «خندان، خندان، كفى، لم يعد يسمعك أحد، كفى».

لم أكن وحدي من تعيش هذه الحياة الغريبة. في بعض الأمسيات، حين كنت أتجوّل مع فتّانة في الممرّات، كنّا نرى تلك الفتيات الحمقاوات المصفرات يعبرن أمامنا مثل أشباح متعبة وبيضاء، كل منهنّ تتمتم بعبارة ما. بدأ ينتابنا شعور بأننا مجموعة من الكائنات المكروهة والدنيئة. بينما كانت فتّانة تروي لي، كلّ ليلة أو في أمسيات المكتبة، حكايات السندباد والمسلسلات التلفزيونية المثيرة التي لم أشاهدها، كانت تتحدّث عن ممثّلين مصريين وعن مغنّين إيرانيين وعن حياة عائلات تسكن حيّها. كانت تجبرني كلّ ليلة أن أنظر إلى نفسي في قطعة المرآة. فأقول: «فتّانة، يا فتّانة الغالية، انظري إليّ، لقد تغيّرتُ، انظري، أبدو أكثر إنهاكًا من قبل. لوني مصفرّ أكثر، ظهرت

حول عينيّ هالات سوداء». لكنّها كانت تطمئنني: «كلّا، هذا غير صحيح. ما زلت تشبهين خندان». في تلك الليالي، كثيرًا ما كانت تخطر لي بروانة. أفكّر بها، أفكّر بالأرض والسماء والأشجار التي تعيش بينها.

غالبًا ما كنت أستنجد بذكرى لبروانة، أطلب منها أن تأتي و تساعدني. كنتُ أعلم لو كانت معي لبدت الحياة أسهل ولفهمت العالم أكثر. أحيانًا كنت أشعر أن زينب كويستاني تريد أن تتأكد فيما إذا كنت أفكّر بأختي، فأضع رأسي بين يديّ بصمت وأقول: «يا أستاذة، لا أستطيع، لا أستطيع ألّا أفكّرَ بها». تجيبني متوعدة: «انسَيها، لن تصبحن طاهرات طالما تفكّرن بتلك الأخوات الزانيات». وأحيانًا أخرى، كانت تسمعني بهدوء وتقول: «إذا كنتِ لا تستطيعين نسيانها، فاطلبي من الله أن يخلّصك، ادع الله أن يهديَك». في تلك اللحظات، لمحت روح أخرى في زينب كويستاني، شعرت أنّها لا ترغب في معاقبتنا، شعرت أنّها تمتلك إلى جانب ذلك الجسد البارد والجامد، كيانًا آخر، دافئ وحيوي، لكنّها تحاول قتله وإخفاءه بشتّى الوسائل. شعرت في الكثير من الأحيان أنها تحبّنا، وكذلك نحن نحبّها، لكن كلّ منّا له أسباب مختلفة وطريقة مختلفة.

استمرّت ليلى في الوقوف بين الفتيات المجتمعات حول شينو، أحيانًا كنت أقف في الممرّ أسترق السمع إليهنّ. كانت أحاديث شينو بمعظمها تدور حول عذاب القبر والملائكة التي تقرأ رسائل البشرى والجزاء. كانت ليلى تتّكئ على حافة السرير وتقول: «ربّما سيطهّر الجحيمجسدي الآثم هذا». ثم تنهض وتدور في الغرفة قليلًا، ثم

تميل برأسها كما كلّ مرّة وتعيد عبارتها: «لا شيء يمكنه أن يطهّرني، لا شيء البتة». كان الخوف من عدم الطهّارة يزداد يومًا بعد آخر. كلّما سمعنا إحدى الفتيات تصرخ وتبكي وهي راكضة في الممرات، كنا نظن أن الشيطان قد حاصرنا. قالت شينو التي كانت أكثرنا ذعرًا: «لا تفكّرن، لأنكنّ حينما تفكرن، تحيين الذكريات فيكن». لكن لا أحد يمكنه التوقّف عن التفكير، لا أحد يمكنه التوقّف عن الحُلم، أو عدم التفكير بالماضي. وصل الأمر ببعض منهنّ درجة أن يسخطن على كلّ شيء ويكرهن كلّ شيء. حتى هواء الغرفة كان يخيفهنّ، وأخريات يتقززنَ من فراشهنّ ويعتقدنَ أنّ بها رائحة الشيطان وأنّها كانت، قبل ذلك، أفرشة عاهرات. بعضهنّ يقلن: «إنّ أحلامنا مليئة بالذنوب». وحين يفقن في الليل، يخفن من العودة إلى الفراش، فينمن على الأرض. أحيانًا، لم نكن نستطيع النوم من أصوات البكاء هنا وهناك. في الصباح وقبل بدء الدرس، كانت زينب تقول: «ابكين، كلّما بكيتن أكثر، كان ذلك إشارة على أنكنّ بدأتنّ تشعرن بذنوبكنّ أكثر. كلّما بكيتن بألم، دلّ ذلك على أنكنّ تواجهن آثامكن أكثر». في النهاية، قادت خطبها الطويلة عن الخطيئة ومحاضراتها المثيرة عن مكان الشيطان وتجاربها عن علامات السوء، قادت حياتنا إلى طريق مسدود، طريق لا خيال فيه، طريق مزدحم بظلال آلاف الأشباح والجان والعمالقة. نفعل ما تأمرنا به. كانت تبسمل على أجسادنا من الشيطان، وبدورنا نتلو الآيات التي تُخرج الشيطان من أجسادنا. كلنّا مرّ بتلك الحالة، بعادة بسملة أجسامنا وأشيائنا. بدأ وسواس الطهّارة ينتشر في المدرسة مثل مرض عضال. كنّا نستحمّ باستمرار وتحوّلت حياتنا اليومية كلّها إلى اغتسال. غسل دائم للثياب والوضوء المتتالي،

لأن الشيطان يزيل النظافة في الاستراحات. قلّما تحدثت ليلى إلينا نحن الثلاثة، في حين استقلت مهتاب عنّا تمامًا. كانت مهتاب، مثل الجميع، تحضر الدروس، لكن يبدو أنها لم تكن تفهم شيئًا من كل هذه اللعبة. لاحظت، منذ البداية، حالة الجوع المستمر التي تدفع الفتاة بصورة غريبة نحو الطعام، كانت تجمع بقايا طعامنا حتّى بقايا فتات الخبز، تبقى معظم الوقت وحيدة على سريرها ونادرًا ما تخرج. كانت تقول لزينب: «دعيني، لم يراودني أيّ حلم». ولأن زينب لاحظت عليها بعض اللامبالاة والحماقة، كانت تتركها وتخرج دون أن تقول شيئًا. جدير بالقول إن مهتاب استمرّت سنوات على تلك الحال، إلى أن حدث مع ليلى ما حدث. مرضت عدّة شهور ثم انزوت عنّا. لكن فيما بعد، حين عادت إلى مدرسة الأخوات، ظلّت وحيدة نافدة الصبر لجوجة، كثيرة الحديث، خاصّة عن أمّها. لم تتغيّر قط رغبتها نحو الطعام والنوم، فقد كانا هاجس حياتها.

في أحد الأيام، أرسلت زينب كويستاني في طلبي بصورة غير متوقعة. كلفتني بمسؤولية المكتبة الكبيرة. لا أعرف سبب اختيارها لي من بين جميع الفتيات، ولم أعرف سرّ ذلك حتى بعد مضي وقت طويل. يا ترى هل كانت تريد أن توثّق أكثر علاقتي مع عالم التّوبة؟ وتحرص أن تضعني على طريق سريع للتّوبة؟ لا أدري. لكن فيما بعد، وقبل أن أخرج من المدرسة، سألتها: «سيدتي، لماذا سلّمتني المكتبة؟ ألم تندمي؟ أتعرفين لو لم أذهب إلى تلك المكتبة، لكنت أكثر سعادة؟». أجابت: «اسمعي، يا خندان، كنت أعلم أنك الوحيدة التي يمكنها بعقلها ودقّتها وعلمها أن تجد الله، لقد تعلمت أثناء

السنوات الطويلة التي قضيتها مع التائبات أنّ كلّ إنسان وبطريقته يمكن أن يجد الله، وأنت بدا عليك أنّكِ قارئة ومستمعة واعية. لاحظت روحك المتمرّدة، لكنك تفكّرين بالأمور مليًّا، كنت أعلم أن ذلك التفكير سيحدّ من التمرّد لديك. في النهاية، وحدها تلك الكتب هي من روّضتك».

كانت عَلاقتي، في البداية، مع المكتبة لها طابع مختلف. حين جلست في المرّة الأولى إلى طاولة صغيرة بوصفي مسؤولة إعارة وتسلُّم الكتب، جاء ذلك بدافع الخوف والسعي إلى الطهارة. في المساء، وبعد صلاة العصر، كان عليّ فتح باب المكتبة والجلوس إلى طاولة سوداء. سرعان ما اكتشفت حقيقة أن تلك المكتبة هي مكان مذهل لعزلتي. من الليلة الأولى، شعرت بمتعة لا مثيل لها في ممرّات تلك الصالة، حيث تُركت بين الخزائن عدّة ممرّات ضيّقة وطويلة ومتماثلة. عرفت أنّ المكتبة تفصل عالمي عن عالم أولئك البنات اللاتي حوّلهن سبيل التّوبة إلى مجموعة كائنات مكلومة، لا يعرفن شيئًا سوى مواضيع العذاب والنار والقيامة. بعد أسابيع عدّة، استطاعت فتّانة بأسلوبها الماكر وبذكاء، وبعد محاولات عدّة أن تقنع زينب كي تعمل هي الأخرى معي في المكتبة.

وجودنا معًا، أثناء الساعات التي كنّا نقضيها في المكتبة، جعلتنا نستغني عن الأخريات. عمومًا، كانت المكتبة خالية. فكّرنا بقراءة كتاب لكننا لم نعرف بأيّ كتاب نبدأ. خطر لي أنّ أصعب شيء في حياة الإنسان هو اختيار كتاب للقراءة. أشرنا إلى كتب عدّة ثم تراجعنا. كنّا نختار كتابًا، نتصفّحه ثم نغلقه ونبدأ الكلام. كانت فتّانة تعتقد أنّ متعة

الحياة الكبرى هي ليست القراءة بل التكّلم. قالت عن أختها ميديا: «هي لم تعرف متعة التكلّم». كنّا نجلس طويلًا بينما تواصل سرد القصص، تروي قصص الأفلام والمسلسلات التلفزيونية... إلى أن حدث في أحد الأيام أمر غريب.

بينما كانت المكتبة خالية كما كلّ يوم، وأنا أنصت بحماس لإحدى قصص فتّانة التي ترويها وتحلّق مع الحديث على أجنحة الخيال، توقّفت فجأةً، وتسمّر نظرها على جهة نحو داخل المكتبة. صاحت بصوت يشعّ فرحًا، خندان، خندان الصغيرة توجد فراشة في المكتبة، نعم توجد فراشة هنا».

منذ زمن طويل، لم أشاهد فراشة. قلت: «أنت تكذبين يا فتّانة، فراشة في الخريف! كيف يمكن لفراشة الوصول إلى هنا؟ لا بدّ أنك تكذبين». لكن فتّانة، التي لا يفوتها شيء وشديدة الملاحظة، كانت قد وجدت فعلًا فراشة جميلة في صدع صغير على سقف المكتبة. حينما رأيتها، صرختُ من شدّة الفرح: «كلّا، فتّانة أنت صادقة، انظري يا لَها من فراشة، انظري كم هي رقيقة». يومذاك، وبصعوبة بالغة، استطعنا أن نجعل الفراشة تطير. لحقنا بها في زوايا المكتبة. كانت تطير بين الكتب وتحطّ على المصابيح. تطير فوق الطاولات. بقينا نتبعها. كانت تنفض بعضًا من رمادها الناعم في كلّ مكان تحطّ فيه، إلى أن أمسكنا بها فوق رفّ للكتب. وضعت فتّانة الفراشة بين دفتي كتاب تفسير وأغلقت عليها الكتاب. قالت: «غدًا افتحيه، حينها ستجدين كم هي رائعة».

اكتشفنا في الأيام التالية حقيقة مذهلة، وهي أنّ تلك الفراشة لم تكن الوحيدة في المدرسة. كانت شقوق وصدوع ذلك المنزل الكبير مليئة بالفراشات. لم نستطع أن نفسّر كيف للفراشات أن تظهر في هذا الخريف البارد. لكنّنا قمنا باصطياد جميع الفراشات التي في المكتبة حتى تحوّلت إلى سرٍّ عظيم في حياتنا. إنّ اصطياد الفراشات التي لم يكن يراها أحد سوانا، أضفى على أيامنا سعادة ومتعة غريبة. لم نكشف سرّنا هذا لزينب كويستاني، حتى إننا وضعنا الكتب التي فيها الفراشات في مكان لا تبلغه يد أحد.

مع قدوم الشتاء كنّا نوقد المدفأة مساءً، وفي دفء المكتبة نستمتع بمشاهدة فراشاتنا سرًا.نادرًا ما كان يرتاد أحد المكتبة. أحيانًا تأتي إحدى المدرّسات لاستعارة كتاب أو إعادة كتاب، بسرعة. في اليوم الأول، أخذت زينب كتابًا، تركته مفتوحًا إلى جانب مصحف. كانت تلك الليلة من أسعد ليالي حياتي في المدرسة، حيث كلّ شيء يذكرنا بالمكان الذي نعيش فيه. كنّا نعلم تمامًا بأنّه، وبمجرّد بدء ساعات العبادة ودروس التوبة، علينا أن ننسى كل أحاديثنا وأسرارنا. كانت فتّانة في بعض الأحيان تقول خائفة: «انظري يا خندان، يومًا بعد يوم، الجميع هنا يزدادون بياضًا». بالإضافة إلى اللون الأبيض، لاحظتُ أن الوجوه أيضًا تستطيل بصورة لافتة، ويخبو بريق الحياة في العيون. شعرت أنّنا نكتسي لون الأموات».

في الصباح، كانت تجتمع أمام المغاسل ظلال بيضاء مثيرة. فيض التعليمات والتوجيهات حول الابتسامات والنظرات والحركات حوّلنا جميعًا إلى كومة كائنات تمرّ بعضها بجانب بعض، وبعضها

يرمق بعض بنظرات جامدة لا حياة فيها. في كلّ ليلة من تلك الليالي الطويلة، كنّا نسمع فجأة صراخ إحداهنّ، فنتأكّد من أنّ الشيطان ما زال موجودًا في الجوار ولم يغادرنا. على ضوء المصابيح الخافتة، كنت أرى بعضَهن يوبخن الفتيات الخائفات، قائلات: «بسملن، ردّدن البسملة، بسم الله»... كان صدى تلك الصرخات المتواصلة يحرمني من النوم. أمّا فتّانة، فلم تكن تشعر بها قطّ، تظّل مستغرقة في النوم. لكن فضولًا شيطانيًا كان يدفعني لحمل قنديل والخروج من الغرفة لرؤية تلك الوجوه. حين ينتهي كلّ شيء ويسود الهدوء، أجد صعوبة في العودة إلى النوم. في لحظات الهدوء والصمت، كنت أفكّر بذلك الرجل. كان في تلك الليالي الباردة والماطرة، يوقد في داخلي رغبة شديدة للخروج وتلمّس البرد والمطر. تدفعني قوة عجيبة للخروج والمشي في السهول أمام المدرسة. كنتُ أعلم كم هي قاتلة هذه الرغبات، أعلم أنّها محرّمة وضدّ قوانين المدرسة، لكنّني لم أستطع منع نفسي من التفكير بها. قلّت ساعات نومي ليلة بعد أخرى، كنت أبقى مستيقظة في الوقت الذي ينام فيه الجميع. كنتُ أُنصت إلى إيقاع الليل، وأتسلّل في الممرّات بين الغرف لأسترق السمع لكلام فتيات يتحدثن وهنّ نائمات. كنت أشاهدهنّ يمشين نائمات. لاحظت كيف نهضت ليلى فزعة قلقة. انهارت ليلى قبل الجميع. مال لونها نحو البياض حتّى صار من الصعوبة تمييز لونها عن بياض الجدار. حين كنّا نروي صباحًا مناماتنا لزينب كويستاني، كانت هي تخرج من الغرفة باكية وتقول: «لا فائدة من أيّ شيء... لا جدوى».

ذات مرّة، استيقظت من النوم في منتصف الليل. شاهدتها وأنا

مستلقية فوق سريري. لمحتها تحت جنح ضوء خافت. كانت ليلة دامسة الظلام، نهضت وجلست على طرف سريرها. لم يسبق أن رأيتها على تلك الحالة. نهضتْ بهدوء، وضعتْ رأسها بين كفّيها وبدأت بالبكاء. سألتها بصوت منخفض: «لماذا تبكين يا ليلى؟». في الواقع لم أتوقّع إجابتها: «لأنه لا جدوى، أنا آثمة وسأظلّ كذلك». قلت لها: «أنت من الأخوات الجيدات». قالت: «هذا كذب، كذب، فأنا كلّ ليلة أرى أحلامًا خطيرة، كلّ ليلة يتراءى الماضي كلّه أمامي، لا أستطيع أن أتوب». كانت لدى ليلى رغبة حقيقية في التّوبة، لكنها لم تتمكّن من التحرّر من جسدها. كان عدد كبير من الفتيات يرغبن في التوبة حقًّا ونسيان كلّ ماضيهنّ، لكنّ ليلى كانت أكثرهنّ رغبة. كان يلفّها خوف وندم أكبر من خوف شينو التي ظلّت تعيش في عذاب الروح. بعد أيام، ساء وضع ليلى جدًا، انتابتها حالات حمى وصارت ترتجف بطريقة مخيفة، حتى إنها لم تعد تحضر دروس الصباح، كما امتنعت عن تناول الطعام. جاءت زينب كويستاني مع مدرسات عدّة لرؤيتها. تجرّأتُ حينها وقلت: «لا بدّ من نقلها إلى المشفى». أجابت زينب: «الآن، يتصارع الإيمان والإثم في روحها صراعًا مخيفًا، دعوها وشأنها. لقد بدأت تجد طريق الحقيقة بنفسها».
كانت مهتاب تستيقظ في الليل وتضع يدها على جبين أختها ليلى، تجفّف العرق المتساقط عنها في صمت وتغطيها جيدًا وتسقيها بعض الماء. لم أجدهما تتحدثان معًا ولو مرّة واحدة. تصالحتا معًا وعبرتا عن محبتهما بعضهما لبعض صمتًا. فكلما تكلمتا، تشاجرتا. أحيانًا وبعد أن ينام الجميع، تروي لي أحلامها واحدًا بعد الآخر. كانت تحلم بمدينة بيضاء كل أشجارها وبيوتها وسكّانها بيض. تحلم بعدد

كبير من الرجال عيونهم بيضاء، كان البرد قاتلًا في أحلامها.

في أحلامها، كانت الورود تموت بردًا وكذلك الطيور والحيوانات البرّية. شعرت في البداية أن مشكلتها هي تمكّن البرد من جسدها، لكن فيما بعد وجدت أن حمّى البرد موجودة لدى أخريات أيضًا. في الطابق السفلي أصيبت فتيات عدة فتيات بتلك الرجفة. كنّا نغطّي ليلى بأغطية الغرفة كلّها، ومع ذلك لم تكن تبارحها الرجفة. حينما كنتُ أمسك بيدها لآخذها إلى الحمّام، كانت برودة يدها فظيعة تصيب أطراف أصابعي بالخدر من شدّتها. ذات مرة، قالت لي: «لا يمكنني أن أرتاح إلّا في النار، لا أستطيع العيش إلّا في الجحيم». ومرّة أخرى قالت لزينب: «لدي ميول مخيفة نحو النار، فقط النار يمكنها أن تجعل مني إنسان فاضلة». لا أعرف إلى أيّ درجة كانت زينب قد عرفت الداء الذي أصاب ليلى، لكن أنا على يقين بمدى برودة هذه المدرسة السيّئة. تفاقمت حالة ليلى الصحية نتيجة اليأس والكآبة والخوف والصمت المنتشر في المدرسة. كانت فتّانة تقول: «إذا كان أمامنا سبيل فهو إيجاد المزيد من الفراشات. كلّما جمعنا المزيد منها، زاد شعورنا بوجود هدف لحياتنا». كنّا نمضي كلّ يوم وقتًا طويلًا في البحث عن الفراشات بسرّية تامّة. فاق عددها توقّعاتنا. قالت فتّانة: «لطالما كانت الفراشات موجودة بكثرة، ولكنّنا لم نكن نراها قبل الآن. الآن يمكننا رؤية هذه الأعداد الهائلة منها». امتلأ المكان بالفراشات. في الممرّات وعلى السقف وتحت الطاولات وعلى السجاد وحواف النوافذ والستائر. كنت أخاف كثيرًا أن يرانا أحد ويخبر زينب. عمومًا لم نكن نعلم إن كان جمع الفراشات هو

عمل ينافي التّوبة أم لا. حسب فتّانة: «لا أعرف، ربّما كان عملنا هذا ممنوعًا. هكذا أظنّ»، لكنّها لم تكن خائفة. كانت تكمل بالقول: «المهمّ هو وجود مكان نخبّئ فيه الفراشات».

في ليلة، بينما كنّا نراقب الفراشات، قالت بصوت منخفض: «ربّما تساعد رؤية ليلى لهذه الفراشات الجميلة في شفائها، من يعلم، ربّما شيء جميل كهذا يكون سبيلها إلى الشفاء». بعد يوم واحد، أخبرنا ليلى عن سرّنا، على أملٍ أن يخرجها صيد الفراشات من ذاك العالم البارد. لكنّها لم تفهم قطّ عمّا نتحدث. اصطحبناها مرّات عدّة إلى المكتبة وأطلعناها على خزينتنا من الفراشات. قلنا لها: «انظري إلى تلك الفراشات، انظري، ربّما تنسيك هذه الأشياء الصغيرة والجميلة الخوف والحمى»، قلنا لها: «إن هذه الفراشات أنقذتنا من الخوف والكآبة». كانت تفرح لحظة. أحيانًا، كان وميض فرح وابتسامةٍ خفية يجد طريقه إلى شفتيها. لكن سرعان ما يعود الخوف والرجفان والكآبة إلى وجهها. حتى إنّها، بعد كل زيارة لها إلى المكتبة، كانت تسوء حالها أكثر من السابق. قالت فتّانة: «ليس شرطًا أن يفهم جميع الناس الفراشات». بعد كل زيارة، كان البرد يكتم أكثر على أنفاسها. قلت: «أولئك الذين يتوبون بصدق يتعرّضون لحالة البرد هذه بصورة كبيرة، أجسادهم لا تقاوم البرد، يرتجفون وينهارون أكثر. هذا البرد الذي يصدر من جسد زينب كويستاني ليس خرافة أو أكذوبة، هو ليس مجرد نظرات قاسية وجامدة، إنما هو برودة جسدٍ تائبٍ».

في إحدى الليالي، قامت ليلى وخرجت من غرفتها. حينها، كنت وسط الممرّ، أنظر إلى طيف الرجل الواقف بالقرب من الدرج. عند

رؤيتي لليلى، سلّمت الطيف إلى الليل. لحقت بها وهي تنزل على الدرج إلى الأسفل. دهشتُ منها وهي تدخل، مخزنَ المحروقات ودون خوف. المخزن عبارة عن غرفة صغيرة تقع بالقرب من المطعم. فتحتْ الباب بهدوء ووقفتْ وسط صفائح النفط. نظرت من حولها في الاتجاهات كافة، كما لو أنّها تبحث عن شيء ما، ثم جلست القرفصاء وسط البراميل والصفائح. لم أشأ حينها أن أقطع عليها لحظات الانفراد والراحة تلك، لذلك عدت بهدوء إلى سريري، غطيتْ نفسي جيدًا ونمت حتّى حلول ساعة صلاة الفجر.

في الليالي التي لم تكن ليلى تنام في الغرفة، كنت أنام نومًا هادئًا بعد أن أسمع حكايات فتّانة عن ميديا والقمر. لم يخطر في تفكيري أن يكون القدر السيّئ بانتظار ليلى. في تلك الأيام كانت إحدى المدرّسات تتحدّث لنا عن صفات الشيطان الباردة والساخنة، وقبل النوم، كنت أحاول إيجاد علاقة بين مغزى تلك الدروس وبين حياتي. حاولت أن أفهم ليلى عن طريق ذلك التقسيم، لكن سرعان ما داهمتنا تلك الليلة المرعبة والتي مازلت حتى الآن، وبعد كلّ هذه السنوات، أتذكّرها جيدًا وأعيش رعبها.

لسوء حظّي، أخذني نوم عميق ولم أستيقظ إلا على أصوات الصراخ وضوء لهيب كبير. أجفلني الصراخ والعويل. سبقتني فتّانة وخرجت من الغرفة. حينما نزلنا على الدرج، رأينا جميعًا تلك المسكينة تلتهمها ألسنة النار وهي واقفة وسط الممرّ، تبعد مسافة عدّة أمتار عن غرفة زينب. لم تكن تصرخ، ولم تكن تتحرّك، إنما وقفت تنظر إلينا. كانت الفتاة التي تحترق هي ليلى. في البداية، لم يتعرف

عليها أحد سواي. ناديت: ليلى... ليلى...

خرجت زينب وباقي المعلّمات برؤوس حاسرة وشعرٍ أشعث. كنّ ينظرن إلى كتلة النار وهي تقترب منّا. كانت النيران مستعرة ولم يتمكن أحد من الاقتراب منها. تقدّمت نحونا واقفة. كلّما اقتربت، بدت لي أجمل وسط النار. كانت بالملاحة نفسها حين رأيتها في اليوم الأول تحت شمس باحة المدرسة الخلفية. للحظة، مدّت يدها من بين النيران لتفتح باب إحدى الغرف. لكن، وبسرعة، سحبت يدها كما لو أن حرارة النار قد أصابتها بدوّار. وسط حالة الهلع، وحدها فتّانة أدركت الموقف ولم تَخُر قواها أمام المشهد المرعب، وسرعان ما أحضرت بطانية مبللة. حاولت أن تغطي بها النار وهي تصرخ منادية: «أطفئوا... أطفئوا». لكن للأسف، لم يبادر أحدٌ، وسط الدخان والنيران إلى فعلِ أيّ شيء. بعد لحظات، لم أعد أرى ليلى. كنت أرى فقط فتّانة وهي تلهث وتصرخ: «أطفئوا...» وتنقل البطانيات من الغرف واحدة بعد أخرى لترميها فوق النيران. لكنّ البطانياتِ أيضًا كانت تحترق، وتظهر ألسنة اللهب من تحتها. ليلى التي بدت بيضاء كقطعة ثلج بين النار، بدأت تذوب وتختفي لحظة بلحظة. بدأت روائح جسدها المحترق تنتشر في أرجاء المدرسة. ما أثار انتباهي واستغرابي هو حالة الذعر والخوف التي سيطرت على زينب وباقي المدرّسات. ابتعدن عن المكان وارتبكن أمام ما يجري، ولم يقتربن إلا بعد أن ذابت ليلى في النار وتحوّلت إلى رمادٍ أسودَ. طوال ذلك الوقت، كانت إحداهنّ تمسكني من الخلف من نطاقي. لم أكن أعرف ما أو مَنْ هي؟ ثم حين استدرت، كانت مهتاب تراقب احتراق أختها

وهي ترتجف، تعضّ على شفتيها دون أن تستطيع الصراخ. أدمت شفتيها حتّى صار كل ثوبها وثوبي أيضًا ملوّثين بالدماء. في النهاية، وقبل أن أتمكّن من الإمساك بيدها وتهدئتها قليلًا، خرّت أمامي فاقدة الوعي.

لم يؤثر انتحار ليلى في غرور زينب. وقد لاحظنا ذلك فيما بعد، حين كانت تروي لنا عن داء الانتحار حرقًا، المنتشر بين النساء والفتيات هذه الأيام. أمّا نحن، فقد تولّد لدينا جميعًا ميلٌ شديد ورغبّة ملّحة نحو الموت.

في الصباح ذاته، بعد أن قمنا بتنظيف ما تبقّى من جسد ليلى، جاء عدد من رجال الشرطة، كانوا جميعًا قصيري القامة وبدينين بصورة لافتة للانتباه، حقّقوا معنا. أمّا فيما يتعلّق بي، فقد ظلّت رائحة احتراق ليلى عالقة في أنفاسي. كنت مذعورة، لفّ رأسي دوار. بدأتُ بالبكاء. ظلّت فتّانة تردّد: «لو أنّ واحدة أخرى ساعدتني، لكنت أنقذتها، لما تركتها تحترق». استمرّ الجميع بالبكاء طوال اليوم، ماعدا فتّانة التي جلست على سريرها وهي تراقبنا بصمت. نقلوا مهتاب بسيارة الشرطة إلى المشفى، وبقيت هناك أشهرًا عدّة. قُبَيل صلاة العصر، كانت زينب قد تماسكت قليلًا. جمعتنا وقالت لنا: «ثمّة حدٌّ فاصلٌ بين التّوبة وتدمير الذات، فاصل رفيع غير مرئي، هو حدٌّ لا تراه سوى الأرواح المؤمنة. من تجاوز هذا الحدّ يدخل دائرة الكفر. الهدف من التّوبة هو لجم الروح وتعلّم الالتزام، وليس قتل النفس. الله وحدَه يمكنه أخذ الروح التي خلقها إلى جواره. إحراق الجسد هي رغبة من عمل الشيطان. الشهوات جميعها حارّة، الرغبات كلّها حارّة، لكن

أحيانًا، تمنح الرغبات حرارتها لأشياء أخرى، حتّى تربط التّوبة مع الخطيئة. لا يستطيع الإنسان التحرّر من الشهوة بإحراق نفسه، إنّما يتمّ الأمر فقط بتذليل الجسد وتحقيره وترويضه بالعبادة».

لم أستطع سماع زينب حتّى النهاية. قبض حزن عميق على روحي. قالت لي فتّانة: «خندان، يا خندان الصغيرة، لا تحزني، التّوبة هي أن نصبح أشخاصًا مغتمّين. عليك أن تعلمي أن الحزن سيؤدّي بنا إمّا إلى الموت وإمّا إلى التوبة». دون أن أفهم شيئًا من كلامها في تلك الليلة، أخذت منها قطعة المرآة وهرعت إلى الحمّام. دخلت ونظرت إلى المرآة. لم أجد ابتسامتي.

بعد موت ليلى، اختفت تلك الابتسامة من حياتي. فقدت الابتسامة سنوات طويلة ولم أستعدها إلا بفضل روح فتّانة وحيويّتها التي جعلتني أبتسم من جديد. منذ تلك الليلة، ماتت الابتسامة التي تجعلني أحيانًا أنظر إلى الحياة كما لو أنّها لعبة.

20

حين علم نصرالدين المعطّر نبأ وصول قافلة الإيمان، كان في قرية صغيرة على سفح جبل في الشمال، مشغولًا بإنهاء القسم الأخير من «كشكول العشّاق». كان مرتاحًا وهادئ البال، كانت تمرّ عليه أيام لا يشغله شيء سوى العمل وتعديل تراجيديا العشّاق القدماء. أثناء إبحار نصرالدين في عالم مدوّنته العجيبة، كانت قافلة الإيمان تسير في أعداد هائلة من الأتقياء والصالحين في موكب طويل من قرية إلى أخرى، منطلقة من الجنوب نحو المناطق الوعرة والجبال الشاهقة. كان عدد المنضمّين إلى الجيش الجرّار يتزايد. عمل الملّا كوثر باخوان بكل استطاعته ليبث روحًا جديدة ووعيًا جديدًا في القرويين. كانت لديه دومًا قناعة بأن الحياة في أحضان الطبيعة وعدم ارتياد المدارس وفساد النخب السياسية، عملت جميعها على تشويه أخلاق هؤلاء القرويين. لكن على كلّ شكوك ملا كوثر، فقد استقبلت جميع العشائر قافلته، التي لديها بنات ارتكبن الخطيئة، بحرارة وحماسة كبيرتين.

البيشمركة الذي نقل لنصرالدين نبأ وصول قافلة الإيمان، تحدّث في حماسة طفل، عن فتاة ترتدي ثوبًا أبيض وتجلس على كرسيّ أبيض على منابر المساجد، وتسرد حكاية غابة جعلها العشّاق المتمرّدون موطنًا لهم. ولأن البيشمركة كان قد نسي اسم الفتاة، لم يعرف نصرالدين في البداية أيّة فتاة يمكن أن تكون قد هربت وصارت دليلًا لتلك القافلة. في الليلة نفسها التي سمع فيها المعطّر قصّتها، كان

الثلج يتساقط بغزارة، غطّى المنطقة كلّها، لكن دون أن تردعه عاصفة الثلج والبرد القادم من الشرق، لبس جواربه الطويلة وغادر القرية في وقت متأخّر وانطلق متّخذًا طريق الجنوب. حينها، كان يمتلك قدرة هائلة لشقّ الطرقات في الليل وسط الثلوج. منذ لحظة خروجه وإلى منتصف اليوم التالي، لم يصادف نصرالدين أحدًا في الطريق، سوى جماعة من القرويين كانوا ينقلون امرأة مريضة إلى بلدة قريبة. لكن عندما نزل أكثر، علم من المارّة المكان والطريق التي تسلكها القافلة. عند المساء، وصل إلى القرية التي يتوافد إليها المؤمنون منذ يومين من جميع المناطق المجاورة، لكي يسمعوا الخطب الحماسية للملّا كوثر والتي سيلقيها في ليلة المسجد الأبيض العظيمة. مع وصوله إلى القرية، سمع قصة الفتاة من عدّة قرويين وبصور مختلفة، حيث قيل إنّها من «غابة الشهوات» أو من «وادي الزناة». كان عليه أن ينتظر ساعات أمام حانوت من الصفيح إلى أن يبدأ الاجتماع.

امتلأت ساحة الجامع بسرعة بمئات من النساء والرجال، الذين كان معظمهم قادمًا من القرى المجاورة. لم يكن نصرالدين، مثل أيّ غريب آخر، موضع تساؤل أو شكوك أحد. لا سيما أنّه كان يسأل ويسمع دون أن ينطق بكلمة تثير الشكّ حوله.

مع بدء مراسم الخطاب واندفاع وحماسة الذّكر، وسط عشرات النساء قارعات الدفوف اللاتي يرافقن القافلة منذ أيام عدّة، رأى نصرالدين معصومة في ثياب بيضاء. فيما بعد، قال نصرالدين أنّه لم يتغلّب عليه الحزن والألم في حياته مثلما فعلا به تلك الساعة. لدى رؤيته لمعصومة وتأكّده من كشفهاللمخبأ السريّ للعشّاق، تولّد لديه

شعورٌ أبعد من اليأس وفقدان الأمل. أصابه إحساس بخوف كبير على مصير العشّاق الآخرين.

منذ يومين، كان متلهّفًا ليفهم تفاصيل الحكاية. ها هو الآن أمام هذا المسجد ليسمع بأذنيه أقوال الملّا كوثر باخوان وهو يسمّي «عشقستان» تلك، أي «موطن العشّاق» باسم «شيطانستان»، أي «موطن الشيطان»، ويحكي بلهجة الوعيد عن المصير الأسود للزناة وأطفالهم غير الشرعيين. تكلم عن زوجات غير شرعيات وعن العلاقات المحرّمة. كان يصرخ بأعلى صوته: «تعالوا لنشعل النار بحقل الظلمات هذا. تعالوا لنطلق عِنان يوم الشرف والكرامة. تعالوا لنبنيَ حدائق الأخلاق». عندما شاهد نصرالدين السخط والهياج لدى الناس، وشاهد مئات المسلّحين القادمين من عشائر وقبائل مختلفة، والنساء القادمات من قمم الجبال الشاهقة، وبعضهم من القرى والمناطق الدافئة، عندما شاهد كيف أنّ الجميع يدعم هذا الحشد، تأكّد أنّه لا حلّ سوى أن ينطلق قبل الغروب لكي ينقذ العشّاق. الآن أيضًا، يقول نصرالدين بألم شديد: «أملي الأخير إنقاذهم». هو يعلم أن القافلة تمرّ على القرى ببطء، وتتوقّف في كلّ قرية لأخذ قسطٍ من الراحة ولجمع المزيد من المسلّحين. تضمّ إليها المزيد من المؤمنين المكلومين، تحذّر الشباب والفتيات من نداء الشهوة الشيطانية. كان كلّ ذلك يتيح فرصة جيدة حتّى يتمكّن العشّاق من إخلاء الوادي. لكن إلى أين؟ لم يكن يعلم. قبل انتهاء مراسم الحفل، وقبل عودة القرويين، قرّر نصرالدين أن ينطلق بهدوء دون أن يثير انتباه أحد وأن يغادر تلك المنطقة نحو موطن العشّاق.

في اليوم التالي، عند الظهيرة، وصل نصرالدين، ونزل على السُّلّم ذي الألف درجة. لكن قبل النزول، حين لمح فوق كتف الوادي ذلك الصفار الذابل، شعر بإحساس ثقيل يضغط على صدره. لم يسبق له قطّ أن رأى هذه الأرض بهذا الوجه من الذبول واليباس والأسى. حتّى الهواء لم يكن كما في السابق. يومذاك، كانت الرياح باردة وقاسية جدًّا، تهبّ من الجهات الأربع وأحيانًا، في جهة ما، وتتحوّل إلى زوبعة مجنونة. كلّما نزل أكثر وحاول الإنصات لم يسمع سوى صوت المياه الهائجة. لا صوت لعصفور، لا أثر لكائن حيّ. ظنّ لحظات أنّ العشّاق قد قاموا بإخلاء الوادي قبل وصوله إليه. ولكن عندما نزل واجتاز الجسر الخشبي الصغير، ظهرت له أرض رمادية حزينة، خيّم عليها لون زوال وهلاك مفاجئ. وجد الرجال والنساء والأطفال خائفين منزويين منعزلين وصامتين أكثر من أيّ وقت مضى. كان قد سمع عن الأحداث التي جرت في الغابة أثناء الأشهر الثلاثة الأخيرة، سمع أنباء متفرّقة وغير مفهومة عن قصّة تماثيل العشّاق المنسيّة، وقصّة مآتم بروانة وعن صمت فريدون وموت الطيور وهروب معصومة ورحيل سيامند. حتّى يومنا هذا، لم يفهم نصرالدين سبب ذلك الهلاك المفاجئ. يهزّ برأسه ويقول: «ما كان ينبغي أن تكون جنّة العشّاق في ذلك الوضع». عندما رأى بروانة أول مرّة، كانت في حالة من الضعف والاكتئاب بحيث كاد لا يعرفها. يقول: «ظهرت بروانة من بين الأشجار مثل كائن من غبار ورماد». ظنّت بروانة أنّ ذي العينين الزرقاوين هو من أرسل نصرالدين إلى الوادي الميت. روت له بحسرة وكرب حكاية صمت فريدون وحزنها المستمرّ. عبرا أرض متصدّعة مغطّاة بآثار الثلوج متّجهين إلى الورشة.

حين رأى نصرالدين فريدون وسط الفراشات الصغيرة، تراءت كلّ الأشياء كما لو أنّها خرافة. ظلّ وقتًا طويلًا يتأمّل الفراشات. كان عددها هائلًا يصعب مشاهدتها واحدة واحدة. كان قد لوّن بعضها بألوان تدلّ على العشق، وبطريقة جميلة كما لو أنّه نفث فيها روحًا لكي يجعلها كائنات حيّة. لكنّ رؤية فريدون على تلك الهيئة أرهبته، إلى درجة أنّه حين كان يتحدّث عن تلك اللحظة في السنوات التالية، كان يجهش بالبكاء. يومها، وقف أمامه لأربع ساعات وهو يتحدّث إليه. هزّه بقوة وبكى على كتفه، تحدّث عن ذكرياتهم المشتركة وعن أيام حوض السباحة، عن أمسيات التسكّع أمام المكتبة، عن السُّكر في الطرقات، عن نزهات الربيع وعن مشاجرات السكاكين أيام المراهقة. تحدّث عن نصب الفخاخ في السهول وعن أيام الأعياد، عن قصص الحبّ العابرة واللعب مع الأصحاب. لكن كلّ ذلك لم يجدِ نفعًا. لم يرفع فريدون رأسه ولو مرّة واحدة لكي يرى من ذا الذي يكلّمه. خرج المعطّر من الورشة في وقت متأخّر من الليل، مشوّش الذهن، فاقد الأمل، محطّم النفس. جلس قرب صخرة كبيرة أمام بروانة وميديا اللتين كانتا بانتظاره منذ ساعات عدة خارج الورشة. قال نصرالدين في يأس: «لا فائدة من أيّ شيء. أنا أبحث في ذاكرتي الآن، أتذكر عبارة قديمة جدًّا لفريدون. جملة، قالها لنا أنا وكوفاند في إحدى سهراتنا في الأستوديو في المدينة. قالها ولم يكن حينها يهتمّ أحدنا بتلك العبارات. لكن اليوم، وفقط اليوم، أدركت ماذا قصدَ حين قال «سيأتي يوم أترك كلّ المتع الصغيرة خلفي، سأوهب نفسي لعبادة خاصّة خلف جدار سميك جدًّا لا أحد يستطيع اختراقه؛ لأعيش مع خيالي وأحلامي». من الواضح أنّه كان يعني هذا اليوم. فلا قوة ولا

أحد يمكن أن يخرجاه من خلف تلك الجدران. حتى نحن، لا يمكننا فعل أيّ شيء سوى البكاء».

أكّد نصرالدين على ضرورة إخلاء الغابة، على كونه واثقًا من بقاء فريدون وحده. حسب بروانة، بعد أن أدار فريدون ظهره للعالم وسط هذه الحجارة والأشجار المخيفة، لم يبق ما يقوله لها. كتبت ميديا على الدفتر: «مات الحُبّ، لنبحث عن شيء آخر». في طريق العودة، لم يتوقّف نصرالدين عن التفكير والتحسّر. قالت بروانة: «يا نصرالدين، إنّ الحياة مثل شربة ماء، كلما سقطت قطرة لا بدّ أن يحلّ محلّها قطرة أخرى. لكن في هذه الغابة، تمضي الدقائق ولا شيء يحلّ مكانها، تمضي الفصول وتترك خلفها فراغًا رهيبًا. تنتهي أرواحنا لحظة بلحظة ويتحرّر بياض شاسع».

مرّا بين الأشجار والأدغال والخيام المهملة والمدمّرة، بين بيوت من الطين الآيلة للسقوط. قالت بروانة: «السماء هنا تبدو أثقل، البرق هنا يقسّم السماء والأرض والمياه بسهولة أكبر، النساء يتحوّلن بهدوء إلى بقع سوداء، لا شيء يصمد هنا، الرياح تحمل الكلمات، الرياح تأخذ العَلاقات، لكن إلى أين تأخذها؟ لا أحد يعلم».

جمع نصرالدين، في تلك الليلة، أفراد القبيلة ليخبرهم الحقيقة. لكنّه كان حائرًا للغاية، لا يعرف من أين يبدأ. شعر الجميع بحالة الحَيْرة والارتباك التي يعاني منها نصرالدين. تكلّم ببطء عن هروب معصومة. هيمن اليأس على صوته أكثر فأكثر. تحدّث عن قبض المؤمنين على معصومة، وأخبرهم عن قافلة الإيمان التي هي في طريقها إليهم. قال:

«مجموعة من البشر في طريقهم إلى هنا لتدمير هذا المخيم». ثمّ قال: «خلال أيام سينزل من ذاك السُّلّم أو من درج آخر رجال مسلّحون، دراويش بأيديهم سيوف، ونساء يقرعن الدفوف، سيهبط الجميع إلى هذا الوادي. حينها، لن يبقى لكم الوقت الكافي لتنقذوا أطفالكم وتعبروا بهم إلى الجهة الأخرى من النهر. لن تجدوا فرصة للخروج من الحصار الذي بالتأكيد سيُفرَض بإحكام على المنطقة. حينئذٍ سيطوفون بكم على القرى قرية قرية، سيعرضونكم بوصفكم مرتكبي فاحشة، إلى أن يصلوا بكم إلى المدن الكبرى. لا شيء سوى الموت والذلّ بانتظاركم. تأكدوا أنّ لا وقت لديكم للتفكير، لا وقت للندم، واعلموا أنّ ليس على هذه الأرض شبرٌ واحدٌ يمكنكم أن تجدوا فيه مأوى أو ملاذًا لكم. الحلّ الوحيد هو انتشاركم السريع في الأرض، مغادرة هذا الوادي كالبرق، التبعثر مثل نثر كمشة رمل بين الحصى. كان علينا أن ندرك الأمر سلفًا، لكن فات الأوان وانتهى الأمر... الآن تدقّ أجراس الخطر، دعونا نذهب. اجمعوا أمتعتكم ودعونا نغادر، ارموا بالأشياء الثقيلة إلى النهر، حتى يجرفها إلى مكان بعيد. اتركوا البيوت والخيام في مكانها. فقط احملوا حياتكم على أكتافكم واصعدوا وعودوا إلى العالم. وليتوجه كلٌّ منكم إلى جهة مختلفة. كلٌّ يسلك سبيلًا مختلفًا. إذا سُئلتم إلى أين تتجهون، أجيبوا بأنكم ذاهبون إلى تلك القافلة المتوجّهة إلى وادي الزناة».

جعل كلام نصرالدين المعطّر الجميع في حالة صدمة من أنّ قيامة الغابة قد قامت. كان كوفاند أقربهم مسافة إلى نصرالدين. بدا أشبه بشخص سقيم، عيناه مليئتان بالابتسام. حرّك يديه وشعره وقامته

بصورة غريبة. أحيانًا، كان يتصرّف مثل نبيّ وأحيانًا مثل شخص مشوّش الذهن غير طبيعي. قال: «دع الأمر. دعونا نموت. فلنمت... لن أخرج من هنا، هنا عالم مختلف. اذهب أنت، اذهب وأخبر الجميع بأنّ هنا حدود عالم آخر، ليس من حقّهم أن يخطوا خطوةً واحدةً داخل هذه الأرض».

لم يسبق أن رأى نصرالدين كوفاند إلا في حالة اتزان. أمّا اليوم، فها هو يتكلّم بطريقة مثيرة للانتباه إذ لا يبدو أكثر من متيّم مجنون. وضع نصرالدين يده بتروٍّ على كتف رفيق أيام المدينة قائلًا: «هذه ليست المرّة الأولى، يا كوفاند، التي يضطرّ فيها الناس على ترك أحلامهم. نحن نعيش زمنًا رهيبًا. حتّى يتمكّن الإنسان من العيش، عليه أن يتخلّى عن أحلامه. ينبغي لنا أن نتعلّم كيف نعيش، كيف نمضي حياتنا وسط هذه النيران ونتجاوز الصعاب واحدة تلو الأخرى. عندما تُقتل الأحلام، تبقى الحياة هي الشيء الوحيد الذي له معنى، الكرامة الخاصّة لأجل الحياة والحقّ الطبيعي للإنسان في الحياة. يوجد في هذه البلاد مراحل تكون الحياة هي أهمّ شيء وكل شيء، المهمّ هو أن يعيش الإنسان. الآن، هنا، الأمر الأهم لنا هو أن نعيش. طالما ضحيت في سبيل الحبّ. لكن أن ينال المرء شرف الحياة ليس بالأمر القليل!». ترك كوفاند كتلة الخوف تلك واتّجه نحو عالم تماثيله، نحو مخلوقاته الأسطورية. تبعه نصرالدين ودل آرام. كان يمدّ يده إلى حماماته النارنجية ويقول: «الحياة ليست أهمّ ولا أكثر روعة من تماثيلي هذه. الحياة ليست أعظم من كلّ هذا الحُبّ الذي أراه، الحياة ليست أعظم من تلك المدن المرسومة في خيالي.

نصرالدين المعطّر يا صاحبي، قل الحقّ، كثيرًا ما تكون الحياة أصغر منّا. قل الحقّ، اذهب، اذهب وقل لهم إنّ الحياة أصغر منّي». مثل مجنون، رفع عصاه قائلًا: «الحياة أصغر منّا، الحياة أصغر منّي». مضى في الغابة حتّى اختفى بين التماثيل والأشجار والظلام. بدأ الظلام يسدل ستائره. استمرّ كوفاند في الحديث عن قصص العشق التي لن تنتهي أبدًا. تحدّث عن الوعود وعن المشاعر الصادقة التي تحرّر الإنسان من اليأس والتشاؤم والعجز. قال: «إنّ الحبّ الجبان، الحُبّ الذي لا يحلم، الحبّ الذي يسعى للموت، هو حبٌّ ميت لا محالة. أنت من وجدت هذه الأرض يا نصرالدين، أنت من زرعت فيّ حُلمًا جعلني أبحر بالخيال. والآن مَنْ عساك تحاول أن تخلّص؟ يا صديقي عشّاقك هؤلاء مضى عليهم فصلٌ وهم ميّتون الآن. اذهب، اذهب الآن واحمل جثث أمواتك، اذهب من هذه الغابة ودعك منّي».

وسط برد ورياح الليل، تكلّمت دل آرام وقالت: «أنا أحبّك يا كوفاند، أنا معك إلى الموت، إلى الجحيم، إلى أرض إبليس، أنا معك». بين كل فاصل في حديث كوفاند المتواصل، كانت دل آرام تقول: «سأبقى معك، حتى لو ذهبت إلى النار، أو إلى أرض من الأشواك، حتّى إلى قلب الفناء، إلى نهاية العالم، سأبقى معك».

في زاوية من الغابة، أمسك الاثنان بعضهما بأيدي بعض وقالا: «شكرًا، شكرًا أيّها الصديق، شكرًا لك». ثم اختفيا ولم يرهما نصرالدين بعد ذلك. بحث في كلّ شبر ومخبأ في الغابة، بحث في جميع أطرافها، لكن دون فائدة. صرخ بصوت مرتفع: «كوفاند، لا أريدكما أن تموتا، لا أريد أن أحمل وزر موت أحد. أنا نادم، تعالا

لنخرج معًا من هنا». لكنّه لم يسمع ردًا سوى أزيز الريح الباردة وخرير المياه المرتطمة بالضفاف. صرخ ونادى حتى تعب من الصراخ، ثم حمل مع عدد من الرجال مصابيحًا وتقفّوا أثرهما، بحثوا لساعات طويلة في كلّ مكان، كان يصرخ مناديًا: «شرف الحياة ليس أمرا صغيرًا، اخرج يا كوفاند». لكن بلا جدوى، لم يردّ عليه كوفاند. ظلّ يصرخ والليل والرياح تحملان صوته. وقف لبرهة بعد أن شعر أن نداءه لا يصل إلى الهدف. كان صوته ينتشر بصورة عجيبة. تحمل الريح كلماته وتنثرها في كلّ مكان. حتى هذه اللحظة لم يستطع نصرالدين ادراك أسرار وألغاز تلك الليلة، لم يفهم السرّ في أرواح أولئك العشّاق. أحيانًا يقول: «ربّما كان السبب يكمن في كوني لم أعشق في حياتي»، وأحيانًا أخرى، كان يفسّر ما جرى لكوفاند بطريقة عجيبة، ينهض واقفًا في حرارة الأستوديو ويقول: «أتعرفين يا خندان، حين أفكّر الآن بالأمر، أرى أنّ ما فعله كوفاند هو ما كان ينبغي فعله. إنّه، وقبل أن يصل إلى ذاك الوادي، كان قد عاش هنا وفي هذه المدينة أيامًا عصيبة وبائسة. عندما ومضت فكرة وطن العشق في رأسه، وجدها خطوة أمل نحو الخلود. صار لديه بعض الأمل. مهما كبر الإنسان سنًّا ومهما صار ثاقب البصيرة، لا يستطيع أن يتخلّى عن الأمنيّات. هناك آمالٌ هي أخطرُ على المرء من مرض السرطان. أعتقد أنّ كوفاند كان يدرك لو أنّه تخلّى عن الأحلام والأمنيات، سيواجه الهشاشة والعدمية كلتيهما التي أصابت بقيّة العشّاق حينها. كان مستعدًّا لأن يموت في سبيل ألا يواجه تلك العدمية واللامبالاة وجهًا لوجه».

حين يتحدّث نصرالدين عن تلك الليلة، يقول بغصّة وألم:

«خنذان، لقد فعلتُ كلّ ما بوسعي، حاولتُ ألا أترك أحدًا هناك في مواجهة الموت. ليس لي ذنب بذلك، فقد بحثت في الغابة كلها، ناديت ملء صوتي أمام كلّ شجرة، لكن فات الأوان، كان الليل يمضي وتمضي الساعات بسرعة وتقترب منّا أعداد كبيرة من البشر. كنت أعرف تمامًا لو أن الصقيع نزل ليلتها، ما كان لينجو أحد من تلك المجموعة في الطرق والممرّات الجبلية. لا، لا ذنب لي يا خنذان».

في تلك الليلة، صارت الغابة كما لو كان يوم الحشر. تمّ رمي كلّ الأشياء في النهر، الذي جرفها بدوره مع أمواجه وفيضانه الجامح. قامت الأمهات بسرعة بربط صغارهنّ إلى صدورهنّ في خرق ممزّقة. ارتفع صدى صيحات الرجال في كلّ مكان وهم يستعدّون لسفر طويل عبر الثلوج. كانت ليلة باردة لكنّها منيرة للغاية. كانت بروانة تشعر ساعة إثر ساعة، بأنّها تتحوّل إلى رماد أحمر وتحيط بها هالة فضّية، ذلك الغبار الذي يتناثر من جسدها غطّى جميع الأشجار والحجارة والكائنات من حولها. دار نصرالدين عليهم واحدًا واحدًا، عانق جميع رفاقه، ووعدهم بلقاء قريب. كان بعضهم يبكون وهم يتعانقون، أمّا بعضهم الآخر فكانوا لا مبالين. تركوا الغابة دون توديعها ولو بنظرة. اجتازوا الجسر الخشبي الصغير وصعدوا السلّم نحو الأعلى. بروانة هي آخر من خرجت من الغابة. ظلّت حتّى آخر لحظة تعانق فريدون وهي تودّعه، لكن دون جدوى. في منتصف تلك الليلة القارسة، قبّلته القبلة الأخيرة. قبلة حملت العواصف ملحمتها وخبّأتها بين طيّات الغابة. لم تقل بروانة شيئًا، أمسكت ميديا بيدها وسحبتها نحو حافّة الوادي، ميديا التي لم تكف عن الكتابة حتّى آخر لحظة. ظلّت تحدّق

في القمر وتكتب كلّ شيء، مثل مجنونة تلاحق الضوء والحرف، تتبع عويل الريح. وسط تلك الفوضى والصخب، لمحت ميديا كالبا بين الرجال. كانت تعلم أنّها ليلة لقائهم الأخيرة، لكن يبدو أنّ كالبا، لم يفكّر بميديا ولو للحظة واحدة. لم يكن يفكّر بأيّ شيء، فقط كان ينتظر النجاة بصمت. أمّا شهلاء التقية، فوقفت وسط تلك القيامة بيدها مصحفها وهي تصرخ وتستنجد بالله. تخاطب العشّاق: «الليلة، هي ليلة الله، ليلة امتحانه القاسي، توبوا، ينبغي أن تتوبوا، الليلة هي ليلة نزول النور، ليلة الانتقام». مع تلك الصرخات والصياح، كان الذّعر يتمكّن من بروانة أكثر وتستحيل غبارًا أكثر. كانت ميديا تستغرق في وحشة عيني كالبا حيث كانت نظرته معلّقة في السماء وعلى حافّة الوادي فقط. استمرّ صوت شهلاء يصدح باسم الله ملء الغابة وهي تصعد نحو الأعلى. صعد كالبا دون أن يلتفت لشيء، دون أن يلقي النظرة الأخيرة على حبّه الميت، ميديا. صعد السُّلّم نحو عتمة السماء وسلّم ميديا إلى فراغ بارد وقاتم.

كان الأشخاص الذين صعدوا في تلك الليلة أولًا ووصلوا إلى الأعلى، وبمجرد وصولهم، يختارون دون انتظار أو تردّد، طريقًا ويمضون مباشرة. حتّى إنّه حينما وصل نصرالدين وبروانة وميديا إلى الأعلى لم يجدوا أحدًا هناك.

حتّى آخر لحظة، ظنّت أنّ كالبا ربّما كان ينتظرها في الأعلى عند نهاية السُّلّم. لكن عندما صعدوا، لم تجد أحدًا هناك. استقبلهم فراغ سحيق. كانت رياح باردة تعصف بتلك السهول والجبال. ألقت نظرة في جميع الاتجاهات لكن كما لو أنّ الليل والبرد والغيوم البيضاء قد

ابتلعت الجميع. لا أثر لأيّ إنسان هناك. خيّم صمتٌ رهيبٌ وأرخى بجناحَيه على الجبال والوديان. وقف نصرالدين خائر القوى أمام الفتاتين، إحداهما تراقب القمر والأخرى جامدة كأنّها ميّتة. قال نصرالدين: «علينا أن نمشي الليل كلّه، علينا أن نتضرّع إلى الله بأن نتمكّن من الوصول إلى قرية قبل شروق الشمس».

وقفت بروانة آخر مرّة على حافّة الوادي ونظرت إلى الظلام اللامتناهي حيث بقي فريدون ملك في تلك الأرض الممتدة نحو اللانهاية، مستمرًّا في رحيله الخيالي. آخر مرّة تأمّلت حلكة الظلام في الوادي. كانت قوة خفية تسري فيها وتجرّها نحوه، لكنّ مكر الطرق وألغاز تلك الجبال البعيدة وشهوة تغيير الأماكن والأزمان، كلّ ذلك جعل بروانة تطير من جديد وتقف على الطريق.

خشي نصرالدين من ألا يتمكّن هذان الكائنان الهزيلان من مقاومة العاصفة في جوف الوديان والأغوار، وألا يصمدا أمام زوابع الليل الباردة. في الطريق، حدثهما عن بيت الرجل العجوز وأخبرهما بأنّهما إن أسرعتا فسوف تصلان عند الفجر إلى بيته. قال: «إنّه كهلٌ غريبُ الأطوار. أمنيّته هي أن يستقبل الهاربين. هو لا يبالي بأسباب فرارنا، إن كان بسبب الحبّ أم بسبب السياسة، أم لأسباب أخرى». لا يبدو أن إحدى الفتاتين كانت تنصت إلى كلام نصرالدين. كانت ميديا التي لفّت دفاترها بمنديل أبيض تنظر باستحياء إلى الرجل الذي ترافقه في هذا الليل بين الوديان والسهول.

طال الليل بوقاحة. تفوح من الطرق رائحة فصل مجهول. حينما

كان يمرّ الغرباء الثلاثة بالقرب من العشب الراقد، كان يحطّ على أوراقها الكامدة قطرات ندى تشي بموت قادم. كان نصرالدين يشعر ببروانة وهي تبكي لحظات ومن ثم تصمت. توجّهوا نحو سهول ممتدّة ومفتوحة تبعث في الروح إحساسًا قاسيًا بمسافات لا نهائية وممتدّة من الليل. تسلّقوا مرتفعاتٍ ما زالت تحتفظ بلهاث ومشقّة المارّين الأوائل. في الأماكن العالَية، كانت السماء تثقل كاهلهم. تلك السماء والطرق والهواء بثّوا ذعرًا شديدًا في قلب الفتاتين. مع أنهما ابنتا الليل والسهر الطويل في عبابه، إلا أنّهما الآن غريبتان وسط هذا العالم. رائحة الأوراق الميتة بين حجارة الجبال، ظلال الحجارة الضخمة المثير للرهبة، الاستلقاء القاتل للظلام على جوانب سواقي الخريف، كلّها أشياء تثير الرعب. في لحظة ما، فقدوا الألفة مع كل شيء، لم يعد البرد ولسعات الريح تُحتمل.

لم تتكلم بروانة. نصرالدين الذي أحسّ أكثر منهما بالخواء الذي يجلبه الليل خطوة بعد خطوة، كان يشعر مثلهما بتلاقي قطبي سفر خفي في روحه. كان يشعر بخمود وبرودة نارٍ متّقدة في قلبه. وكلّماً مضى الوقت، كشف الليل عن المزيد من مواهبِه، ممّا جعل نصرالدين يدرك أكثر عمق الهوّة التي بدأ الجميع يغرقون فيها.

أحيانًا كانوا يسيرون بسرعة في السهول وبين الصخور، وأحيانًا أخرى، كان الموت يبطئ من خطاهم. رأى نصرالدين وميضًا أحمرَ يشعّ من بروانة. شعاعٌ ذهبيّ يبعث ببريق مدهش على بقايا الثلج المتراكم من الليالي السابقة. لم يتكلّم أحدٌ. نصرالدين يعلم أنّ الليلة سوف تشهد حدثًا كبيرًا. كان يفكّر في قرارة نفسه بالأعوام الأخيرة،

بالمجازر التي ارتُكِبَت بحقّ العشق والعشّاق، وبأحلامه التي حاول انطلاقًا منها أن يخفّف من معاناة العشّاق. كان صوتٌ خفيٌّ يصدر من روحه ويقول: «لقد رهنتَ نفسك لأمور لم تفهمها يومًا». رمق الفتاتين المنهارتين اللتين تتبعانه مقتنعا بأنّهما ضحيّتان للعبة عجيبة اخترعها هو في خياله. لم يشكّ يومًا بأن تكون نتائج آماله وطموحه بهذه الخطورة على مصير هؤلاء الأشخاص. قال له الصوت نفسه: «كان عليك أن تدرك الحياة بصورة أعمق ومن ثم تحلم».

عند الفجر، تحوّل كل شيء إلى صقيع. أحيانًا، كانت تسقط صرّة دفاتر ميديا من بين يديها. وأحيانًا أخرى، تتوه بروانة بين الظلال والحقيقة. شعر نصرالدين وكأنّ قوةً ما تؤخّر طلوع الفجر. بدا لهم كأنّ المناطق التي يجتازونها غارقة في الليل غرقًا أبديًّا. واليوم يقول نصرالدين: «طوال تلك الليلة، سألتُ بروانة سؤالًا واحدًا فقط وهو: لا بدّ أن يوجد مكان أفضل، لا بدّ من وجود وطن أفضل نلجأ إليه». لم يكن هناك جواب لدى نصرالدين. لم يدرِ بماذا يجيبها. في بعض اللحظات، وكمحاولة منه لكسر الصمت الرهيب الذي يلفّ الطبيعة وكائنات الكون النائمة حولهم، كان يستعجلهما: «أسرعا، ينبغي أن نصل إلى مكان يأويكما قبل أن ينبلج الصباح». وفي لحظات أخرى، يقول بحسرة: «من المؤسف أننا لم نجد حتّى الآن ملاذًا. لو كان الوقت صيفًا، ربّما صادفنا خيامًا للبدو»، لكنّه شعر أنّ كلامه يكرّس الصمت والعزلة لديه ولدى الفتاتين أيضًا. أخيرًا، انتهى الليل. فجأةً، لمح ضوءًا من بعيد، ضوءًا ضاعف من الشقاء في أعماقهم عشرات المرات.

قبل الشروق، وصلوا إلى قرية صغيرة، نائية بين الجبال. ثلاثة غرباء في هذه المنطقة. سبق لنصرالدين أن زار هذه القرية، لكنّه لم يقم فيها طويلًا. رجل مسلّح بابتسامة أنثى، برفقة فتاتين منهكتين في صباح باكر وفي تلك القرية!. أثار هذا المشهد انتباه المصلّين من القرويين الذين ما زال بعضهم يحتفظ في أجسادهم ببرودة أحواض الوضوء. تابع نصرالدين سيره دون أن يلتفت لأحد، دون أن يسأل أحدًا. توجّه مباشرةً إلى بيت العجوز موسى خزاناس، العجوز الذي الملُقّبَ بـ «مُضيف الشياطين»، فقد كان يستقبل في بيته الهاربين والمشكوك في أمرهم، يخبئهم في مكان متواضع مقابل القليل من المال. لكنّه، في السنوات الأخيرة وخوفًا من المصائب، كان قد ترك هذا العمل. منذ أن اندلعت الحروب بين جماعات سياسية مختلفة، حروب إبادة، وشكّلت في الجيش فرق متوحّشة للدمار وإبادة البشر، وصار رجال الدين يطبّقون الشريعة بلا رحمة على المذنبين والزناة. لذلك لم يعد العجوز موسى يستقبل أحدًا. لكنّ نصرالدين كان واثقًا من سعّة صدر الرجل الطيب. سبق وتعرّف إليه في المدينة. تعود معرفتهما إلى أحد الأيام، حينِ دخل العجوز موسى بمعطفه الطويل إلى أستوديو نصرالدين المعطّر. حينئذٍ التقط له صورة فوتوغرافية جميلة جدًّا، ثم عرض نسخة منها في واجهة الأستوديو. لفتت الصورة التي أظهرت هيبة ذلك العجوز وسحره انتباه المارّة في الشارع أمام الأستوديو. ثم كانت الصورة سببًا في جعل موسى شخصية معروفة. ومنذ ذلك اليوم، شعر العجوز بعرفان كبير تجاه ذلك المصوّر. وحتى في الفترة التي قضاها نصرالدين في الجبال، كانا يتراسلان من وقت لآخر، وقد زاره في بيته عدّة مرّات أثناء رحلاته الطويلة في سبيل

العشّاق وحكاياتهم. العجوز الذي تنبّأ يومًا في صباه، في ربيع خلّاب، بقدوم خريف مفاجئ قبل الأوان. خريفٌ يطيح بجميع الفصول فصلًا إثر آخر. ولهذا لُقب بالخزاناس، أي المتنبّئ.

قال خزاناس: «أتعرف يا نصرالدين، لم أشهد في حياتي خوفًا وظلامًا كما في هذا الفصل. لكن ولأنني مدينٌ لك، لا أستطيع أن أرفض لك طلبًا. هذا بالإضافة إلى ضرورة ألّا تبقى الفتاتان هكذا بلا مأوى. لكن تأكّد أنّني أعيش في قرية، ليس فيها رجال جيّدون وكرماء. لم تعد روح التسامح موجودة كما في السابق. معظمهم ينظرون إليّ على أنّني متستّر على السارقين والشيوعيين والشياطين. لذلك، إن كنت تشعر بوجود خطر، وقبل حدوث ما لا يحمد عقباه، فتّش لهما عن مكان آخر. أمّا الآن، فلا يوجد سوى غرفتي الصغيرة تلك، اذهبوا إليها واحتموا هناك».

غادر نصرالدين بيت العجوز فرحًا. فرحٌ طفولي. فبعد تلك الليلة الرهيبة، اطمأن بعض الشيء لأنّه استطاع أن يؤمن للفتاتين مكانًا يحميهما. قرّر أن يعود ويتقصّى عن مصير العشّاق الآخرين. وإذا استطاع وسمح له الوقت، سوف يعود ويكرّر المحاولة مع فريدون وكوفاند. سوف يذهب إلى القرية حيث يسكن على سفح جبل مرتفع ويجلب مدوّنته. كان يعلم أنّ أمامه طريق طويل بين الأدغال والغابات وأوراق الأشجار السامقة لكي يقطعها. رسم في ذهنه مسار رحلته الطويلة. رحلةٌ عبر الجبال. سوف يقوم بإرسال ميديا وبروانة إلى بلد آخر... خطّة غير مقنعة أبدًا.

في تلك الغرفة، وقفت بروانة وميديا بعضهما في مواجهة بعض مثل ظلّين، مثل كائنين تفوح من جسديهما وثيابهما وأنفاسهما رائحة الليل. وضعت ميديا صرّة دفاترها على رفٍ. بينما تغلغل دفء الصباح إلى جسد بروانة فشعرت باسترخاء واستلقت على سجادة في الغرفة. بعد لحظات قليلة من الصمت والتأمّل في السقف، غلبهما النوم. نامتا نوم شخص على موعد مع الموت. نامتا بهدوء. كان الموت يتسلّل من بقعة بيضاء، من شارع بعيد أيضًا، من أعماق الغابة والجبال، من دروب المدن. كان الموت يتقدّم نحو تلك الغرفة ببطء غريب. الجميع يشعر بتقدّمه ويسمع هسيسه. لكن مع ذلك، لم يغيّر أحدٌ شيئًا من إيقاع حياته. لم يقل أحدٌ للموت: «أيّها الموت، لا تقترب من هنا! امضِ في طريق آخر!».

21

حينما لا نجد فراشات حقيقية، كانت لدى فتانة القدرة على صنع فراشات خيالية، تخلق فراشات لم يكن لأحد أن يراها سوانا، أنا وهي. كانت تلك اللعبة هي وميض الأمل الوحيد لحياتنا، ما عدا ذلك لا شيء سوى امتعاض وعصبية زينب، وكمّ الواجبات الدراسية الكبير. بالإضافة إلى الفواصل اليومية للعبادة، كان علينا حفظ الآيات وأحاديث النبي عن ظهر قلب، وكذلك علينا دراسة حياة الصحابة. تحوّل وسواس النظافة والوضوء يومًا بعد يوم إلى عبءٍ ثقيل وداءٍ قاتل. كنت، في بعض الأمسيّات وقبل أن يحين موعد سرد الحكاياتَ، أطّلب من فتانة أن ترويَ قصة ميديا والقمر لكي ننسى كلّ شيء. فتجيب فتانة: «منذ الصغر، بل منذ ولادتها، أحبّت ميديا القمر. كانت لا تُفّوت ليلة مقمرة إلا وتشاهد القمر وتتأمّله بحبّ، حتى إنّ الأطباء قالوا لوالديّ إن سبب بُكمها يعود إلى الشعور بعدم قدرتها على التكلّم مع القمر، هي تعلم أن صوتها لن يصل إلى القمر، لذلك استمرّت في عشقها بصمت».

في كلّ ليلة، وقبل أن تنهيَ فتانة القصة، كنت أغفو، فتتوقّف عن الكلام وتلجأ هي الأخرى إلى النوم. لكن وبعد ساعات عدّة كانت توقظني دمدمة أقدام ذلك الرجل المجهول وهو يمشي فيستدرجني إلى ممرّات المدرسة الصامتة.

بعد موت ليلى، كان أحيانًا طيف الرجل يبعث في روحي السعادة، وأحيانًا يجعلني في قمّة التعاسة. في بعض الليالي، كنت

أتمنّى أن أصل بسرعة إلى عالم حدائق ريحانه، ففي تلك العتمة، وحدها رائحته الساحرة تثملني... وفي ليالٍ أخرى، كنت أشعر أنّه سبب شقائي فأقول: «أيها الظلّ السيّئ، أيّها الطيف المجهول، اذهب ولا ترجع ثانية إلى هذه المدرسة، هذا المكان ليس لك، أتفهم أيها الغبي، هذا المكان ليس لك».

في وقتٍ آخر، كنت أشعر أنّ روحي متشظية بين عدّة قوًى ومخاوف وأحلام. سمعت صوتًا صادرًا من أعماقي يقول إنّ عليّ من الآن فصاعدًا أن ألعب تلك اللعبة، اللعبة التي سبق ولعبها الجميع، لكي أحرّر بقايا المخلوق المسمّى بروانة من بحر الهواجس والأحلام. لكن يبدو أنّ زينب كانت تقرأ أفكاري هذه، هي تعلم أنّ كآبة وألمًا كبيرين قد سيطرا على روحي بدل تلك الابتسامة الخامدة على وجهي. مع ذلك لم أعرف الراحة بسبب عينيها المليئتين بالشكّ. كنت أحاول دومًا أن أخفي عنها وجهي أو أتمنى أن أفقد وجهي الحقيقي والذي مازالت تراه وجهًا شيطانيًا. في الليل، كنت أحاول أن أجد لنفسي نظرة أخرى، أحاول أن أصنع لنفسي وجهًا جديدًا، وجه ليس أحمق لدرجة كبيرة إنّما يكشف عن كلّ شيء بمجرد النظر إليه. كلّما زادت لديّ الرغبة في التغيير، كانت مخاوفي. وكلّما خشيت أكثر، ازددتُ شقاءً. دومًا كانت فتّانة تهمس طالبة أن أتماسك وألّا أُظهر غضبي، أن أُخفي وجهي الحقيقي خلف ستار ضبابي أبيض وبارد، وعلّمتني كيف أحني رأسي بحرص وأتماسك أثناء المشي.

علّمتني كيف أخطو وأن أبدي خشوعًا وخشية من الله في خطواتي. بعد مدّة قصيرة من التدريب والتعب في سبيل تغيير نفسي

لأصبح كيانًا ذا وجهين مختلفين، تعلّمت كيف أذهب وأجيء دون أن ينعكس الفضول الذي تضجّ به روحي في عينيّ. كان التدريب المتواصل أمام مرآة فتانة مجديًا، تعلّمت كيف أفصل بين روحي وملامحي. لكن كان عليّ الالتفاف على شكوك زينب الفظيعة والتي تتحدّث كلّ يوم ساعات وساعات عن شهواتنا، وعن صدى شهواتنا في ابتذال أجسادنا الخاوية. في المساء، كنت أستحضر أقصى درجة من خيالي لكي أؤلّف أحلامًا لا تدع مجالًا للشكّ لدى زينب. أولًا جعلتُ أحلامي خالية تمامًا من الرجال وكررت أيّامًا عدّة بأني لم أعد أحلم بالرجال كما في السابق، ثم بدأت بخلق حيوانات خرافية، فأروي أحلامًا عجيبة عن قطط برؤوس كثيرة، قطط حمراء وبنية، عن تنانين متلاصقة وضفادع مجنحة، عن عصافير كبيرة تصنع أعشاشها فوق رؤوس البشر. لكن زينب كانت تنظر إليّ بشكّ وتقول: «غالبًا ما تُغيّر الشهوات صورها وتظهر في صورة حيوانات، وهذه هي المصيبة لديك، لا أسلوب واضح لظهور شهواتك، أنا متأكّدة من أنّ تلك الحيوانات ليست سوى صورة من صور الشهوة». ثم أدخلتُ الورود والبساتين والخضار والأشجار والشلالات إلى أحلامي، لكن ظلّت زينب تنظر إليّ بنظرة التشكيك نفسها وتقول: «ماذا تفعل هذه الممالك الجميلة في أحلامك؟ أخبريني هل ما زال للجمال قيمة لديك؟»، حينها كان رأسي يصاب بدوار ولا أعرف ماذا أقول، كان عليّ تعقيد حبكة أحلامي قليلًا حتى لا تفهمها بسهولة. فتانة هي السبب، هي من فتحت الباب أمام كلّ ما جرى من أحداث غريبة ومثيرة بعد ذلك. قالت لي يومًا في الحمام: «من الأفضل أن نؤلّف أحلامًا يصعب تفسيرها، أحلامًا لا توجد في كتب التفسير التي بحوزتها».

ويدأنا أيامًا عدة نبحث في جميع كتب تفسير الأحلام الموجودة في المكتبة. كنتُ أعلم أن زينب تحتفظ ببعض الكتب في غرفتها، تقرؤها باستمرار. حينها، بالكاد كنت أفهم شيئًا من تلك الكتب، لكنّ فتّانة قالت وهي تمسك بطرف حجابها الأسود وتلهو به: «أنا أفهم منها جميعًا يا خندان، أفهمها كلّها». كعادتها الطفولية السيئة، كانت تضع خطوطًا تحت الأسطر التي تعتبرها مهمّة. بعد فترة، جاءت وروت حلمها الذي أثار شكوك زينب أول مرّة. قالت بأسلوب يثير الدهشة: «حلمت بحبل المشنقة وقد حطّت عليه عدد من الفراشات الملوّنة!». جعلتها زينب، يومئذٍ، تعيد سرد الحلم مرّات عدة، ولأن فتّانة ليست من النوع الذي يرتبك ويشوّش بسهولة، لذلك كانت تستطيع أن تعيد سرد الصورة كاملة في صورة حُلم. بعد أيام أخبرتها عن حُلم آخرَ جعلها تزداد ضيقًا، تحدثتُ عن ساحة خالية يتساقط عليها الثلج ثم تشرق الشمس، يتساقط الثلج والشمس مشرقة، وفجأة تمتلئ الساحة بالمارّة، وأثناء لحظات تتحوّل إلى صحراء شاسعة. يبدو أنّ أحلامًا كهذه كانت غريبة على زينب، هي التي يرتبط كلّ شيء في تفكيرها بالانقسام بين الشيطان والملائكة، أو بين الشّهوة والطّهارة. سألتني: «هل كانت توجد نافورة ماء في الساحة؟»، قلت: «لا، لم يكن فيها أيّ شيء». كانت بداية الدوار والتشويش، حيث لم تقتنع بسهولة، لاسيما لم يسبق لها أن رأت أحلامًا كهذه ولم تكن تصدّق بأنّه يمكن لأحدهم أن يحلم بها. صار لديها شكٌّ أكبر من السابق تجاهي وتجاه فتانة. منذ اليوم الأول، قلت لفتّانة ألّا نسترسل أكثر وأن نتوقّف عن تلك اللعبة. لكن وهي المنتشية باللعبة قالت هامسة: «يا إلهي، لقد أخبرتك أنّه يصعب عليها تفسير هكذا أحلام، ألم أقل لك! لو أنّنا نعمل بحذر

سوف نغرقها في بحر من الشكوك والريبة». لكن مع ذلك لا يغيّر الأمر شيئًا من حقيقة أن وسواسًا مؤثرًا يحرّك زينب من داخلها. الآن هي تحاول أن تصل إلى مصدر أحلامنا. روت فتّانة حُلما آخر: «حلمت بذئب يحمل القمر على رأسه، ذئبٌ يجري بين الكروم والبساتين والقمر يجري بجانبه، كان يقفز فوق الأنهار ويتوقّف القمر فزعًا فوق رأسه». وأنا قلت: «حلمت بأرتال من الثياب مصفوفة علىَ حبال غسيل في فناء طويل وعلى الحبال تقف طيور وعصافير مختلفة». «حلمت بعاصفة، عاصفة خالية من كلّ شيء تعصف بأرض قاحلة». «حلمت بالرمّان، رمان أحمر بلون الدم، متناثر في مقبرة بيضاء بين القبور». كانت تزداد حيرةُ زينب وقلّة حيلتها أمام أحلامنا. وبدأنا نبالغ في التمثل بهيئة أختين تائبتين، نُحكم رباط حجابنا أكثر، نجعل وجوهنا تبدو طويلة وأكثر شحوبًا، نمشي بسرعة، مع ذلك لاحظنا أن زينب، وكذلك بقيّة المدرسات، تراقبننا بشكل أكبر. بعد الدروس وحين ذهابنا إلى المكتبة، كنا حريصتين أن لا يعلم أحد بلعبتنا مع الفراشات، لكن أحيانًا كانت فتانة بذاتها تهمل قوانين السّلامة. من جهة أخرى، تزداد قناعةً أن الصعوبات التي تواجهها زينب في تفسير أحلامنا تجعلها أكثر عدوانية، هي متأكدة من أن زينب تقوم بتدوين أحلامنا وتستشير المدرّسات الأخريات أيضًا، في محاولة لأن يجدن معًا تفسيرًا لها. قلت: «لم يعد يهمّ زينب بعد الآن إن كانت أحلامنا أحلام شيطان أم ملائكة، بقدر ما يهما أن تكشف هل هي صادقة أم كاذبة. كانت تخشى من أن نسلك طريقًا آخر، بين الكفر والإيمان، طريقٌ قاتم ومجهول ولا تدركه هي». استمرت فتانة في رؤية فراشات مختلفة الألوان والأشكال وجلبها بسعادة إلى المكتبة، أحيانًا ومن

شدة الفرح، كانت تنسى في أي كتاب وضعت فراشاتها فتقول: «يومًا ما سنواجه مشكلة كبيرة». منذ البداية، حين قدومنا إلى المدرسة، حذّرتني دومًا من ألا أتصدر أمام أعين المدرسات، لكن إلى جانب كلّ مَكرِها تغرق أحيانًا في خيالها ومتعها الطفولية. ظلّ الخوف يتملّكني، لو رأتها زينب في تلك اللحظات لكانت النتائج كارثية عليها، إلى أن حدث ما كنت أخشاه، وانقلبت الأمور رأسًا على عقب.

أما الآن، فأنا أتساءل لماذا حدث ذلك الأمر الغريب قبل مساء بروانة بليلة؟ هل كانت الأحداث مرتّبة سلفًا لكي تجرّنا إلى تلك الكارثة القاتلة، والتي لم أستطع التحرّر منها حتى هذا اليوم؟

في ليلة قارسة، وبعد انتهائنا من الدروس، كنّا نراقب من نافذة أحد الممرّات تساقط ثلج ناعم تتناثره رياح باردة على أرض الفناء الخلفي للمدرسة. ثم ذهبنا معًا إلى المكتبة. بدا كل شيء طبيعيًا. نادرًا ما يمر أحد من الممرات، وكانت جميع أبواب غرف المدرّسات مغلقة. قلت: «ربّما بعد تعب يوم قارس كان الجميع يأخذ استراحة طويلة». فتّانة تحب، في أيام البرد، دفء المكتبة كثيرًا. حين وصلنا إلى المكتبة، بقينا لحظات نتأمّل ثروتنا من الفراشات. تحدثت كما لو أنها ناعسة وبدأت بصنع فراشات خيالية واحدة تلو أخرى. تختار لهم في خيالها ألوان الأجنحة ولون البقع الصغيرة عليها، غبارها الناعم الحريري. كانت تضيفها إلى سحر الشفق، تحت الفضة المتساقطة من ضوء القمر في ليالي الخريف وكانت تحرّرها. تقول: «هذه الفراشات لأجل الأزمنة الغابرة الجميلة، وهذه لأجل ليالي الموت الباردة». قلت: «هذه الليلة القارسة هي ليلة الحكايات يا فتانة، لماذا

لا تسردين لي حكاية من حكاياتك». تلك الليلة، وخلاف عادتها، خلاف طريقتها في سرد الحكايات، أمسكت كتابًا لتفسير الأحلام وصارت تبحث بين خزائن الكتب، روت قصة الأميرة التي تخفي بين جواريها شابًّا في ثياب فتاة لكي يضاجعها في الليل. كانت أجواء الحكاية تستحوذ على فتّانة استحواذًا كبيرًا، فتروي وتروي، متعة السرد حطّمت حدود كلّ المخاوف الأخرى لديها... لم يعد للخوف معنى أمام حبّها للاسترسال، في تلك اللحظات أصبحت قوة السرد لدى فتّانة أكبر من قوة الموت. حذّرتها: «أخفضي صوتك يا فتانة»، لكنّها أجابت: «دعيني أروي ولو مرّة واحدة حكاية بصوت مرتفع». كانت تجول في المكتبة وهي تحكي عن عالم الأميرة الخيالي، الأميرة التي تمكّنت من خداع جميع الملوك والأمراء، وكيف رفضت الزواج من أبناء الملوك والوزراء وهي تلاحق ليالي الشهوة والمتعة الحرّة. قالت: «ابنة الملك لم تكن لتبدّل لياليها المظلمة بأسرَّة من ذهب، هي لا تتخلّى عن لياليها المليئة بالأسرار مقابل مال وجاه الممالك. إنّها لا تبدّل سحر تلك المتعة السرّية بأيّ متعة وسعادة علنية. هي تعلم أن سرّ المتعة، ومتعة الأسرار أعظم من كلّ المتع، تعلم أنّه لا يوجد شيء اسمه متعة علنية، أو متعة حلال».

في تلك اللحظة، وكأنّ الأرض انشقّت وخرجت زينب من بطنها، وجدناها أمامنا. كانت صرختي القوية كفيلة لكي تنتبه فتّانة أنّ شيئًا جللًا قد حدث. عندما رأت فتّانة زينب، قالت مبتسمة ودون أن تنهار: «آه آنستي كنت أروي قصة أميرة خائنة...». زينب التي يبدو أنّها سمعت القصة كلها، تغيّر لونها، لم يسبق أن رأيت شخصًا بتلك

الصورة من التشوّه والخوف والشقاء والغضب. مع ظهورها، تسلّلت موجة برد فظيعة إلى الغرفة. بردٍ خدّر جسدَها وروحها وأنفاسها. بردٍ لا أعلم إن كان خيالًا أم حقيقة.

بعد أن تمالكت زينب نفسها قليلًا، نادت بقيّة المدرّسات، حضرن جميعًا. أعادت زينب كلّ الكلام الذي سمعته من فتانة، وأثناء حديثها، كانت تمسك بها، كما لو أنّها تخشى أن تهرب. وقعت المصيبة الكبرى حين رأت زينب كتاب تفسير الأحلام بيد فتّانة. أخذته من يدها وقلّبت صفحاته. يبدو أنّ فتّانة كانت لا تزال في نشوة تلك المملكة، فلم يبدِ عليها الخوف. كانت هذه اللامبالاة تُرعب زينب. عندما فتحت زينب كتاب التفسير وشاهدت الخطوط تحت بعض الأسطر والعبارات المهمّة، تحوّل غضبها إلى شكّ. كانت ترغب، وقبل أن تقول شيئًا، أن تتأكّد من مصدر شكوكها، تريد أن تتحقّق من كذبة الأحلام. كلّما تصفّحت الكتاب أكثر، واجهت حساسية غريبة، وتأكّدت أنّنا تصرّفنا حسب قوانين الحُلم، قمنا بالتفاف شيطاني وأدّينا لعبة ماكرة جدًّا. قالت زينب: «لا أصدّق أن يكون وراء هذه الوجوه والنظرات أرواح بهذا الكمّ من الشرّ والإثم تتظاهر بالتوبة». قامت بقيّة المدرّسات بإخراج كتب تفسير الأحلام الأخرى من المكتبة، وبدأن بالبحث عن العبارات والمقاطع التي تحتها خطوط، حتّى الخطوط التي وُضِعَت أحيانًا اعتباطًا ودون أن تقصد منها فتّانة شيئًا. أول من شاهدت أول فراشة، هي المدرسة ذات الوجه الطويل، التي كانت تدرّسنا سيرة الأنبياء. لا أذكر أنّني وضعت فراشات في كتب التفسير. فيما بعد، قالت فتّانة أيضًا إنّها لم تضع أيّ فراشات بين كتب

التفسير. بقينا سنوات طويلة، وفي كلّ ليلة، نتجادل حول هذا الأمر ونختلف بشأنه. الآن أتهم فتّانة بأن تكون، وفي ساعات الإهمال، قد وضعت تلك الفراشة في كتاب تفسير الأحلام، بينما تتّهمني هي بأنّني أنا من وضعتها في إحدى ليالي الغضب بقصد إظهار الجرأة. اكتشاف تلك الفراشة، كانت كافية لأن يبدأ الجميع بتفتيش الكتب كتابًا كتابًا كالمجانين، أن يفتحن المجلّدات الضخمة صفحة صفحة، بحثًا عن فراشاتنا. لمّا وجدت زينب كلّ تلك الفراشات، ازدادت غضبًا وشكًّا ودهشة. حشرتنا في زاوية، وبدأت تفتّش في جيوبنا بحثًا عن أشياء أسوأ، فعثرت على قطعة المرآة. حينها، أعلنت زينب بجنون وبوضوح عن ظهور الشيطان في أرواحنا وفي وجوهنا. تحدّثت بصوت سُمع في أنحاء المدرسة عن تلك الأحلام التي كنّا نرويها أثناء الشهر الأخير، وعن القناع الكاذب الذي لبسناه. قالت: «أنا درّست هاتين المذنبتين الإيمان، ولكنّهما تعلّمتا صناعة الأقنعة. تعلّمتا كيف تعيش كلّ منهما بحياتين وروحين ووجهين. قناعهما هو الصلاة والعبادة، لكنّ روحيهما في الخفاء مشغولة برغباتهما الشيطانية. هذا ما كنت أخشاه، هذا ما يجعل جسدي يرتعش غضبًا. ما أخطر ذلك القناع الذي يأخذ المرء إلى عبادة الله وهو في الجوهر يلعب مع الشياطين... يا لَلهول كم هو خطير!».

في تلك اللحظة، حينما كانت زينب تتكلّم بصوت حزين ومنكسر، شعرت أنّها، قبل أن تقصدنا، كانت تتكلّم عن نفسها، تتحدّث عن لعبة الأقنعة العجيبة والتي أنا متأكّدة من أنّها طوال حياتها كانت تخشاها. في ذلك المساء البارد، قامت بصبّ جام غضبها

وحقدها ويأس آخر فصول حياتها المثقلة، علينا، بينما كانت الفتيات الأخريات يراقبن بصمت كيفية جرّنا أنا وفتّانة من أكتافنا. يشاهدن المدرّسات وهنّ يرمين الفراشات. كانت الفراشات تسقط على الأرض والجميع يدوس عليها. كانت زينب تصرخ: «انظرن إلى نظام السحر، انظرن إلى السحر والسحرة في أوّل دار للتّوبة في البلاد!». بينما كانت تمسك المرآة بيدها، وفي نوبة غضب وانفعال، رمتها إلى الجدار فتحطّمت. أثناء وعظها وغضبها، أصدرت أمرًا بإنزال ثياب وفراش الجميع؛ لأنها ترى بأنّ كلّ شيء صار في هيئة شيطان، ولم تعد تلك الأفرشة تنفع للنوم. أصدرت أمرًا بخلع ملابسنا لأنها ليست سوى جلابيب للشيطان، لم يعد لها عَلاقة بالتوبة. قامت مدرّستان وبسرعة، بسحب أثوابنا وقامت أخريات مع تائبات عدّة كنّ يردّدن طوال الوقت: «أستغفر الله العظيم من كلّ ذنب عظيم». قمن بكنس ثيابنا وأخذننا نصف عراة. كانت لدي رغبة للصراخ، للضحك من كل قلبي أو البكاء، لكنّي تجمّدت ولم يصدر مني أيّ ردّ فعل. لاحظت أنّ فتّانة بدأت تفقد الاطمئنان والهدوء الذين أبدتهما في البداية، وظهر عليها خوف مفاجئ من عواقب الأمور. حين مررنا أمام الأخوات التائبات والمدرسات، سمعتهنّ يقلن: «هاجمت الشياطين المدرسة، إنّه من أفعال السحر والسحرة». في تلك الليلة المثلّجة، سحبونا إلى فناء المدرسة الخارجي، وكذلك ألقوا بفراشنا ومخدّاتنا وثيابنا. كانت زينب تروح وتجيء بسرعة بين التلميذات وتقول: «كلّما أظهر الشيطان عنادًا أكبر، ينبغي أن نكون نحن أيضًا أكثر عنفًا. خوفي الأبدي هو من الأقنعة، لا أريد تائبة مقنّعة، لا أريد لتائبة أن تعطيَ الله والشيطان المساحة نفسها».

عندما وصلنا إلى الباحة، كان علينا أن نقف حفاةً على الثلج. تسلّل برد الليل بصورة قاتلة إلى عظامنا. حدث كلّ شيء بسرعة عجيبة، لم يعد لديّ طاقة وسط ذلك البرد لسماع زينب وهي تردّد العبارات نفسها التي طالما كانت تكرّرها منذ أشهر. أعلم أنّها، كما هي عادتها، تستغيث بالنار، أعلم كما في اليوم الأوّل لقدومنا، سوف تقوم بحرق كلّ أمتعتنا. اجتمعت جميع الفتيات في دائرة كبيرة حائرات وخائفات. وكنّا، أنا وفتانة، في الوسط مع المدرّسات. قامت زينب برشّ الفراش والمخدّات بالنفط. أخفيتُ وجهي بين يديّ لكي لا أرى ما يجري، أمّا فتّانة ودون أن تنطق بكلمة واحدة، كانت ترمق الفتيات واحدة واحدة، بينما زينب تبتهل إلى الله بطريقة غريبة. أخرجت من صدرها مصحفًا صغيرًا، وبدأت تتلو آيات التوبة والتسامح بصوت عالٍ، تدعو الله أن يشمل جميع البنات برحمته، تدعو أن يعطيَها الله القوة والعزيمة لكي تتغلّب على الشيطان الذي دخل قلوبنا. شبّت النار بالأمتعة، استمتعتُ قليلًا بالحرارة التي خفّفت عنّي قسوة البرد. عرفت أن الجميع يعتبرنا مخلوقين قذرين. بعد أن عادوا إلى الداخل، وضعونا في غرفة منفصلة في القبو، تبعد فقط أمتارًا عدة عن المكتبة. قالت زينب: «إنّ أخطر شيء الآن هو اختلاط هاتين الروحين الرذيلتين مع أرواح اجتازت مرحلة من مراحل الطّهارة. علينا أن نبدأ معهما من البداية». لم نعلم، أنا وفتانة، ما البداية؟ من أين تكون البداية؟ قالت فتّانة: «خندان، ربّما سيتمّ فصل بعضنا عن بعض يوم غد». بقيت طوال الليل أتقلّب، وبينما بدا الهدوء على وجهها، كانت تتجوّل في الغرفة باطمئنان غير مسوَّغ: «ما بك يا خندان الصغيرة؟ هل أنت مريضة أم أنّك تعانين البرد؟».

كانت كلماتها وأسئلتها سخيفة لي. صرختُ مستاءة: «كلّا، لست مريضة، ولا أعاني من البرد، لا شيء». جسدي وروحي كانا بحاجة إلى هواء يحرّكهما، هواء قوي يرفع عبء الليل وعتمة تلك الغرفة عن كاهلي. نهضت وصدى صراخ وعويل ذلك المساء يدوّي في رأسي. شعرت أن الغرفة أصغر من أن تحوي كلّ تلك الفوضى والصراخ. بدأت أستعيد أمام عيني صور الفتيات التائبات، كلام زينب، الفراشات المتساقطة. كنت أرى بروانة. بروانة، رفيقة الليالي الطويلة وشريكتي في غرفة صغيرة. بروانة الشوارع. بروانة آخر صباح من اليُتم. رأيت ليلى وسط النار. رأيت نفسي في أجزاء تلك المرآة المحطّمة. شعرت أنّي أستطيع أن أقلّب كلّ شيء من شدّة الغضب، صرخت: «لماذا علينا أن نعيش هنا؟». تقدّمت فتّانة نحوي، لم أفهم ما قالته. أمسكتني وحاولت أن تهدئني بعض الشيء، لكن قوة داخلية دفعتني. مع شدّة تلك القوّة، كان كلّ شيء يتحرّك. رأيت النوافذ الصغيرة تُفتح. ريح قوية دفعت الباب. خرجتُ من الغرفة ورافقتني تلك الريح، خرجت وتبعتني فتّانة، ذهبت إلى الممرّ وضجيج الريح من خلفي ولكن كلّ شيء كان هادئًا أمامي. كانت المدرسة غارقة في الصمت. خرجت وتبعتني تلك الريح، اتجهت نحو المكتبة، نحو الممرّات وإلى الغرف. صحت بصوتي المخنوق: «لماذا أخذت الفراشات يا زينب، اخرجي يا زينب، أين فراشاتي...». شعرت أنّ صوتي محبوس ولا يُسمع. ولكن في الوقت نفسه، سمعت صدى حروفي يدوّي في الممرّات بين تلك الرياح. كلّما صرختُ أكثر، ازدادت العاصفة قوة وصفقت الأبواب والنوافذ بشدّة أكبر. كان للريح هزير مرعب، حملت معها كلّ شيء. كانت الكتب تسقط من فوق الرفوف وبسرعة تخطفها الرياح

عبر الممرّات والغرف، أطاحت بالستائر، بينما أنا مستمرة بالصراخ: «زينب، اتركي فراشاتي يا زينب».

استيقظ الجميع في المدرسة على عويل الريح، التي بدأت تنتشر في جميع الاتجاهات ووصلت إلى الطوابق الأخرى. حملت الفراش وعصفت باللحف وأطاحت بالكتب وأسقطت الكؤوس والصحون على الأرض وطيّرت الثياب. وصلتُ إلى الطابق الأول، رأيت زينب تخرج من غرفتها شاحبة منهارة وخائفة وهي تهرع نحو الأبواب لتغلقها، تلتصق بوجهها قطع الورق المقوى الممزقة، وتسقط أمامها الكتب، تتعثر باللحف، وتنادي: «بسم الله الرحمن الرحيم».

«دعي فراشاتي يا زينب!».

وهي تستغفر: «استغفر الله العظيم. لا إله إلا أنت سبحانك، لا إله إلا أنت سبحانك!».

«زينب، فراشاتي، اتركي فراشاتي!».

خرجت جميع المدرّسات من غرفهنّ بشعر أشعثَ. أفرغت الريح خزائنهنّ وصرر ثيابهنّ، وبعثرتها في المدرسة، أطاحت بحجاب الفتيات من فوق رؤوسهنّ وحطّمت جميع النوافذ.

وقفتُ على الدرج، ومن هناك، شاهدت كيف تتلاعب الرّيح بجميع مخلوقات تلك المدرسة، كيف تحطّم المصابيح وتلفّ السجاد بعضها على بعض. كانت تعصف بالفتيات في الممرّات والغرف مثل الدمى. علِقت قدما زينب باللّحف في الطابق الأول.

حاولت المُدّرسات ضبط الأبواب لتخفيف الطرق والتخبّط الذي حطّم زجاجها. كان الجميع يصرخ. لقد تهتُ بين نفسي وبين ربهم من جهة، وبيني وبين هزير الريح من جهة أخرى.

بالإضافة إلى الصراخ والعويل رغبتُ بالبكاء أيضًا. نعم، حين شاهدت تخبطها بين اللحف والأغطية والكتب، ورأيت المدرّسات وقد التفّت سبحاتهنّ حول أعناقهنّ، وحملت الريح أوشحة الفتيات إلى السقف وعلى قضبان النوافذ، حينها راودتني رغبة شديدة بالبكاء. لكن مع تحطّم المصابيح وانطفاء الشموع غرقت المدرسة في الظلام، ممّا جعلني أصاب بالانهيار أكثر. شعرت بتلك الرياح الباردة تصبّ عليّ عرقًا أسود اللون. عرقًا قطراتهُ كلّها من الظلام... كنتُ أنادي وأبكي، لكنّ رأسي ظلّ مرفوعًا. لم أعد واثقة إن كنتُ أنصت لصدى روحي، أم إنني صدى أصمّ لتلك الأرواح الأخرى التي تنادي وتبكي هي الأخرى. كنت أصرخ ولكن لا أعرف ما الذي أقوله. لم أسمع سوى صوتٍ مكتوم صادر من حنجرة مجروحة. مع كل صرخة، كنتُ أزداد ضعفًا. مع كل دمعة، كانت قواي تنهار أكثر، وكلّما ضعفت أكثر، أُصبح أكثر هدوءًا وخمولًا. هدأت معي العاصفة أيضًا. رفعت رأسي وأحسست بوهن وخمول، شعرت أنني أهوي وتهوي الريح مع قواي. أنهارُ وتنهارُ هي مع ركبتي، بينما كنت أسقط سمعت عويل وجلجلة الأخوات التائبات وهنّ ينزلن السلّم أفواجًا. كنّ يركضن فوق جسدي وروحي.

فتحتُ عينيّ، أبصرت الظلام يحملني معه، ومن بعيد يناديني ظلام أكثر حلكة. كنت أغوص وسط بحر من الظلام، ظلام الخلاص،

عالم ليس فيه مدخل ولا مخرج. ليس فيه رؤية ولا سمع، لا فراشات فيه ولا شياطين.

لا أعرف كيف استيقظت، لكن حينها كان الصباح باردًا، سمعت صوت عمّتي وأبي يتحدّثان إلى زينب كويستاني في الطرف الآخر من غرفتي. سمعتها تقول: «خندان فتاة صغيرة، لكنّها في تمردها متأثرة ببروانة وتقتدي بها، وها هي بروانة تموت... نعم اليوم سوف تموت بروانة». لم أفهم تمامًا عبارة: «بروانة ستموت» ماذا يعني ذلك! رفعت رأسي ونظرت انطلاقًا من النافذة، كان الثلج قد غطّى الباحة. يا إلهي، طوال ليلة البارحة وأثناء غيبوبتي كان الثلج يتساقط. ثم رأيت فتّانة واقفة أمام باب المدرسة مع أشخاص عدّة غرباء.

«يا إلهي هذه فتّانة! يا لَها من فتاة غريبة، ماذا تفعل في هذا الصباح الباكر عند الباب؟».

في الوقت نفسه، كان أحد ما يفتح باب الغرفة ويقول بصوت هادئ:

«خندان، خندان الصغيرة، انهضي. أعلم أنّك مستيقظة... انهضي، دعينا نذهب!».

22

منذ اللحظة التي بدأنا فيها تلك الرحلة، مررنا عبر مناطق عدّة وأقاليم غريبة. قطعنا أرضًا حجرية ومناطق مهجورة ومفرغة من البشر منذ وقت طويل. مررّنا من جانب أعمدة أبنية ومدن مدمّرة. كنّا يومئذٍ أنا وفتّانة، في المقعد الخلفي لسيّارة جيب يقودها شابٌّ صغيرُ السنّ، هو أحد أبناء عمومة بروانة. كان أبي وعمّتي يتصدّران مقدّمة السيّارة وعيونهما مثبّتة على الطريق. لم يكن قد مرّ وقت طويل على انطلاقنا حين بدأت تظهر غابات محترقة. عبرنا منطقة قال عنها السائق الشابّ: «في الأسبوع الفائت، كانت ميدانًا لمواجهة عنيفة بين جيوش عدّة».

لاحظت أنّ سيّارتنا ومن مسافة لا بأس بها، تسير فوق الدماء. وجدنا جثث عددٍ كبيرٍ من القتلى مرميّة على المرتفعات والمنحدرات، يبدو أنّ الثلوج الغزيرَة التي تساقطت مرّات عدّة متتالية، لم تستطع أن تغطّي كل سواقي الدماء التي تسيل من المرتفعات ثم تجري في الطرق والسهول الواسعة. حتّى مسافة ساعات عدّة، لم تقع عينيّ على شيء سوى الدماء. دماء وثلج. حتى الطيور الصغيرة كانت تحطّ على برك الدماء. أعاد مشهد الدماء إلى ذاكرتي مساءً غابرًا في بداية ربيع مضى، حين مشينا أنا وبروانة بين دماء الأضاحي وطرقنا باب بيت فريدون ملك، حين كانت بروانة تتجنب برك الدماء لتبقى نظيفة.

قاد السائق السيارة بسرعة كبيرة بين سواقي وبرك الدماء تلك. رذاذ الدم وصل إلى نوافذ السيارة. كان السائق يعرف أسماء عدد كبير من القتلى ويذكرهم بنشوة كبيرة. كانت مجموعة الأسماء خليطًا

من أسماء كردية وفارسية وعربية. كل أمتار عدّة، يشير بإصبعه نحو مكان ويقول: «ها هنا قتل النقيب سعيد. وهناك دمّرت كتيبة الملازم محمود. استشهد تحت تلك الصخرة الملازم شيخو. تحت تلك الشجرة، انتحر العقيد علي عبادي».

كان متعايشًا بصورة غريبة مع عالمه وعالم الأموات. ذكّرته عمّتي مرارًا بالجهة التي نقصدها وأيّ الطرق ينبغي أن نسلك. عند الظهيرة، وصلنا إلى نبع ماء بالقرب من هيكل مسجد قديم ومهدّم، لم يبق منه شيء على حاله سوى ساحة الصلاة. صلينا جميعًا، شكرنا الله على نعمه اللانهائية. بعد أن قضمنا بعض التفاح وشربنا الشاي، استأنفنا الطريق. وقفنا مرّات عدّة أثناء الرحلة. مررنا بقبور عدّة لكفار قدماء وقمنا برميهم بالحجارة. يبدو أنّ عمّتي لديها معرفة بشأن تلك القبور، قالت: «هذا قبر باونور مريخور الذي أكل لحم حيوانات ميتة. وهذا قبر نوري بيزل الذي كان يتحوّل إلى خنزير بعد صلاة العشاء جزاء أعماله السيّئة. أمّا هذا، فهو قبر ويسي جنوكه الذي نشر وباء الطاعون».

لم نتفوّه أنا وفتّانة بكلمة واحدة من لحظة صعودنا إلى السيارة أمام باب دار التّوبة. كنّا على طول الطريق نفكّر في أختينا، حيث علينا حضور حفلة موتهما. خيّم على قلبينا حزن وخوف شديدان، لا يتناسب مطلقًا مع حالة اطمئنان وراحة عمّتي ووالدي والسائق. شعرت بالطريق يطول ويطول ولا ينتهي. عبرنا أرضًا مليئة بهياكل آلاف وآلاف الحيوانات كانت تمتدّ من جانب الطريق إلى نهاية الأفق، أكوام وأكوام. قال السائق: «هذه الأنواع المختلفة أُبيدت العام

الماضي حين رُشت الغازات السامّة». في تلك البقعة العجيبة، كانت عظام الحيوانات والبشر قد اختلطت بهيئة مثيرة. حدقت جيدًا وقلت: «يا الله متى تنتهي صورة كل هذا الموت؟ يا الله متى سنخرج من بحر العظام والجثث هذا؟». لكن هيهات! فلم ينته بحر الجثث والعظام.

أخيرًا، حين وصلنا إلى القرية، لم يبدُ أنّني كنتُ قد خرجتُ من ذلك البحر، بل كان صوتٌ ما يهتف لي: «أنتِ الآن تقفين في أحضان الموت».

منذ أيّام عدّة، صار موضوع القبض على العاشقين الفارين من الغابة هو الحديث الشاغل للناس في تلك القرى. ومن ضمن تلك الموجة من الأخبار، نقل بعض المخبرين خبر إقامة فتاتين هاربتين في بيت العجوز موسى خزاناس. وكذلك الحديث عن قافلة الإيمان التي، ومنذ أسبوع، توزّعت إلى مجموعات عدّة تتقفّى أثر أقدام العاشقين. بعد أيام قليلة من إيداع نصرالدين بروانة وميديا في بيت العجوز، وصل إلى القرية رجال بيدهم دفاتر وقبضوا عليهما في الغرفة الصغيرة. في مساء اليوم نفسه أرسلوا في طلب عمّتي ووالد فتّانة.

وصلنا إلى القرية في وقت متأخّر من الظهيرة. حين نزلت من السيارة وشاهدت ذلك الصخب وتلك الفوضى العارمة، شعرت بحرارة ورائحة موتٍ أعمى تتصاعد من كلّ شيء في تلك القرية. مع لحظة نزولي، رأيت الموت مثل طائر أسودَ واقفًا على حافّة. قلت لفتّانة: «انظري يا فتّانة إلى ذلك الطائر، إنّه طائر الموت».

قالت: «هذه ليست ليلة تأليف القصص والحكايات يا خندان، ليست ليلة للخيال».

كاد الخوف يقتلني. مع ترجّلي السيّارة استبدّ بي بردٌ لاذع ومؤلم، تسلّل إلى عظامي، بردٌ أشبه بألم طعنة خنجر مفاجئة في الجسد.

قلت: «فتّانة، ليس لي حاجة للخيال في هكذا لحظات. لم أشعر، في أيّ وقت، بعجزي عن النظر إلى الحياة وجهًا لوجه، لكن رؤيتي للموت ليست خيالًا. ذاك طائر الموت وكفى».

شعرت بوجود الموت هناك. هو في مكان قريب جدًّا، يقف بالقرب منّا. أنا أشمّ رائحته في الهواء، أن أتلمّسه في خطواتي. حين وصلت إلى وسط القرية كان حشد لا نهائي من البشر واقفًا في حلقة كبيرة، لكنّي لم أر شيئًا سوى مزيج خطير من الألوان والأصوات. كنت مشوّشة للغاية. لم أكن أعلم إلى أين وفي أيّ جهة أسير إلى أن أمسكتني عمّتي من ساعدي وأخذتني وسط الجموع. أمسكتُ بكلّ طاقتي بيد فتّانة وسحبتها معي. انتبهت أن عمّتي تجرني بقوة في طريق صاعد. رأيت أناسًا كثر، منهم بيدهم سلاح وآخرون يحملون الدفوف واقفين في تجمّعات على جانبي الطريق. قالت فتّانة: «اتركي يدي يا خندان، سوف أذهب بنفسي. يا الله، يمكنني أن أذهب وحدي».

قلت: «فتّانة، إن تركنا أيادي بعضنا فسوف نضيع، سوف نضيع، لا تتركي يدي».

كانت عمّتي تتقدّم بسرعة الريح وهي تقول: «اصمتا واخفضا رأسيكما إلى الأسفل، لا تنظرا إلى أحد». قالت فتّانة: «إذا لم أمشِ

وحدي، فسوف أسقط أرضًا. لا أستطيع أن أجاريكما في السرعة».

لم تعر عمّتي شكوى فتّانة أيّ اهتمام. كنت أتأمّلُ المشهد كلّه بنظرة بائسة. ثم رأيت رجلًا بدا جسده ذهبيًا من عدد أحزمة الرصاص التي لفّ بها صدره. قلت لفتّانة: «انظري، هذا هو الموت، هذا هو الموت... إذا لم يكن ذلك الطائر موتًا، فإنّ هذا الرجل هو الموت عينه».

رأيت أخوتي واقفين في صفٍّ أمام بيت صغير، لكن كما لو أن الشيطان يتلاعب بالصور، كما لو أن شخصًا وضع مرايا عدّة خفية، كانت الصور تتراءى لي متكرّرة ومختلطة، تتداخل الوجوه بعضها بين بعض. رأيت رتلًا طويلًا من الرجال، كلّهم بدَوا يشبهون أخوتي، يلبسون الثياب نفسها، ولهم النظرة نفسها. عبرنا زقاقًا ثم مضينا في زقاق آخر، لكن كما لو أنّنا نعبر عبر انكسار مرآة، مرّة أخرى وجدنا أنفسنا في المكان نفسه. مشينا لكن من جديد وجدنا أنفسنا في بداية المشهد نفسه والطريق نفسه. كانت الأعين كلها تنظر إلينا بنظرة اللوم نفسها والشك. قلت: «انظري يا فتّانة، إنّي أشمّ رائحة الموت من أخوتي».

دون أن تعلّق على كلامي، همست: «شكل البناء في هذه القرية يشغل بالي، تشغلني بيوتها، أتساءل لماذا نوافذها صغيرة هكذا، لماذا الأبواب واطئة بهذه الصورة والأسقف منخفضة».

لم تعطني فرصة لأجيبها. أكملت: «أتعرفين يا خندان الصغيرة أنّ هذه البيوت أشبه بالقبور. باحات البيوت تذكّرني بالمقابر».

انتبهت عمّتي إلى همسنا. أسرعت خطاها بصورة أكبر وشدّتني من يدي بعنف وقسوة. توغّلنا أكثر في العالم المكسور والمتداخل لرجال يلوحون بخناجرهم. قلت: «كأنما هؤلاء الرجال مصنوعين من غيم أو غبار أو رماد أسودَ. إنّ صورهم تتداخل... وجوههم تنكسر، تختلط أجسادهم بطريقة غير معقولة، انظري إليهم، هم ليسوا أنفسهم، لكن في النهاية هم ليسوا سوى أنفسهم». قالت فتّانة مستاءة: «يا الله، يا رحيم، هذه الفتاة تقتلني بأحاسيسها في هذا المساء، يا الله أنجدني في هذا اليوم. لا بدَّ أنّي سأموت بسبب أحاسيسها تلك».

هذه المرّة، صرخت عمّتي: «اصمتا! ألا يمكن أن تمشيا دون ثرثرة، ألا تستطيعا ذلك؟».

أزعجني ردّ فتّانة وصراخ عمّتي. كانت فتّانة تقوم بتغيّر مجرى الحديث، ولكي تنال عطفًا، تأتي بمواضيع أخرى. قالت: «خندان الصغيرة، أنتِ مدينة لي، لماذا لم تخبريني عن قدراتك في إثارة العواصف؟ لماذا؟ يا إلهي! كم كانت ليلة أمس رائعة! يا لَها من ليلة رائعة! هل تذكرين كيف جعلتِ كلّ شيء في فوضى، كيف قلبتِ كلّ شيء رأسًا على عقب، جعلت كلّ شيء في مهب عاصفة مجنونة. أتذكرين... هاا، أتذكرين؟».

أجبتها غاضبة: «آه... ليس لي أيّ عَلاقة مع العواصف يا فتّانة».

قالت: «لا، لا يمكنك أن تسخري منّي، أنتِ من أثرتِ تلك العاصفة. كلّهم يعلم أنّك أنتِ من أثرتِ تلك العاصفة».

مرة أخرى تدخّلت عمّتي بعنف: «اصمتا...».

سكت وتأمّلت عمّتي، كنتُ أعلم أنّ في عوالمها وفي شرائعها لا مكان للرحمة والشفقة. هكذا هو تفكيرها بأنّ على المرء أن يلتزم بالشريعة تمامًا، ثم يعود القرار إلى الله بشأن كلّ الأمور، هو صاحب الأمر في من تنزل عليه اللعنة ومن تنزل عليه الرحمة. لكن، ولسبب مجهول، تعتقد بوجود عَلاقة قوية بين عقاب بروانة وطهارتي من جهة، وبين إيمانها ومصيرها من جهة أخرى. هي تعتقد إن لم تنل بروانة جزاءها، فسوف تحزن روحها في الجنّة.

في تلك الظهيرة الباردة، حين كنّا نتسلّق فوق ثلج الطريق الصاعد، كنتُ واثقة من أنّها، بطريقة عجيبة، كانت تلاحق طيف الجنّة. منذ الصباح لاحظت في عينيها الطمع في الجنّة يشعّ في بؤبؤ عينيها. لاحظت أنّها تستحيل كتلة من نار ونور لتحقيق رسالتها في تواصلها مع الله. تمسك يدي وتمضي. هدّني الصقيع، لكن مع كلّ معانة البرد، كنتُ أستطيع أن أدرك أنّ الطمع في الجنّة يمكن أن يحملها على الكفر، يمكن أن تدفعها الرغبة في الجنّة أن تعاديَ جميع شرائع الإنسان والله.

أخيرًا، وصلنا إلى بيت العجوز موسى خزاناس، لكن فيما بعد، تبيّن لي أنّ كلّ بيت في هذه القرية متصل بصورة ما مع بقية البيوت، بحيث في كلّ غرفة باب يؤدّي إلى غرفة أخرى ومنها توجد أبواب تقود إلى أماكن أخرى. وجدت أخوتي مرّة أخرى أمام ذلك البيت، لكنّ هذه المرّة، كانوا محاطين بعدد من المسلّحين والأئمة. أشارت فتّانة إلى أحد الأبواب وهمست في أذني: «خنذان، إن ميديا وبروانة موجودتان في إحدى تلك الغرف، إنهما هناك».

حدثت جلبة، تعالت أصوات بعض الأئمة وهم يتلون الصلوات. سيطر صوت تجميع السلاح على جميع الأصوات الأخرى. بدتِ الوجوه في مخيّلتي بصورة معقّدة بحيث يصعب تمييز بعضها عن بعض. فكّرت مليًّا بما قالته فتّانة وتساءلت: «تُرى هل يمكن أن تكون تلك العاصفة قد ثارت فعلًا بتأثير نظراتي وأفكاري؟ يا الله هل يمكن أن تحدث هكذا أمور، هل يمكن؟» ومن شدّة الضجيج، لم أستطع أن أفهم. كان عدد من النساء يضربن الدفوف بالقرب من جدار واطئ. تساءلت: «يا إلهي أيّ منهم ضيوف وأيّ منهم سكّان القرية نفسها؟» لا جواب، كلّ الوجوه غير واضحة وغير معروفة، حتّى خطر لي أنّي لا أعرف أخوتي أيضًا ولم أرهم من قبل. كلّما شاهدت يدًا قلت: «هذه هي يد الموت»، كلّما شممت رائحة قلت: «هذه رائحة الموت»، وكلّما سمعت صوتًا قلت: «هذا صوت الموت». أحيانًا حين كنت أشاهد حركة الرجال الجماعية، كنتُ أشعر أنّ الأرض تنزلق من تحت أقدامهم. في الطرف الآخر، وتحت شمس ما بعد الظهيرة الخجولة والتي لم تقلّل من الزمهرير قطّ. وفي باحة صغيرة، جلست نساء أمامهنّ عدد من السطول الكبيرة. لم أر من قبل مثل ذلك المشهد. قلت لفتّانة: «تلك السطول مليئة بالدم!».

ردّت: «غير صحيح. ليس الأمر كذلك. لا بدّ أنّ أحد الأتقياء الميسورين قد تكفّل بمصاريف كلّ هؤلاء الضيوف. وهذه السطول مليئة بماء كماء الموالد».

مثل حمقاء مشوّشة لا تعرف بما تنطق قلت: «هل سيأكلون ومن ثم يقومون بقتلهما؟».

أجابت فتّانة التي ترى الأشياء بوضوح أكبر: «أو ربّما يقتلوهما ومن ثم يتناولون الطعام. بعضهم لا يبدو عليهم الجوع، وبعضهم الآخر يظهر عليهم التعب والجوع».

تجاوزت كلّ مخاوفي وسألت عمّتي: «أين هي بروانة؟».

أوّل مرّة تردّ عمّتي بوضوح: «إنّها في تلك الغرفة ذات الباب الأخضر، يمكنكِ أن تذهبي إليها».

سألت: «هل يمكنني أن أراها؟».

أجابت: «نعم يمكنك رؤيتها، لكن دون أن تتكلّمي معها».

اصطحبتنا إلى غرفة كبيرة مكتظّة بالنساء، لكنهنّ جميعًا كنّ نائمات. تقدّمت نحونا فتاة صغيرة ونبهتنا: «هؤلاء السيدات قضين الليلة في الطريق، والآن قررن أن يرتحن إلى أن يحين الوقت، وبعضهنّ طلبن ألّا يوقظهنّ أحد حتّى موعد الطعام».

غادرنا إلى غرفة أخرى مليئة بسيّدات جميلات يسرحن شعورهنّ أمام المرايا. قالت فتاة صغيرة تشبه السابقة: «هؤلاء السيدات المحترمات يتزيّن للانتقام».

ذهبنا إلى غرفة ثالثة. كانت مجموعتين من النسوة بشعر أشيب منحنيات الرأس فوق قطع من القماش الأبيض. أخبرتنا سيدة أنّ هؤلاء النساء المسنّات مشغولات منذ سنوات عديد بتحضير هذين الكفنين لأجل هذا اليوم. وفي غرفة معتمة، وجدنا نساء عدّة يبتهلنَ ويسبّحن بسبّحاتهنّ، وبصمت يقرأن وينفخن في العالم في جهاتهنّ

الأربع. قالت لنا إحداهنّ: «هؤلاء النساء يقمن بإبعاد الشيطان عنّا وعن القرية».

في النهاية، وصلنا إلى غرفة فارغة، فيها نافذة تطلّ على غرفة أخرى. جاءت امرأة ناضجة، بعينين مكحلتين، تضع نطاقًا ذهبيًا لمّاعًا، قالت: «الفتاتان موجودتان في تلك الغرفة، يمكنكما رؤيتهما من النافذة».

أخيرًا، وبعد أشهر طويلة، رأينا أنا وفتّانة أختينا عبر تلك الفتحة. كانت بروانة جالسة على سجادة تنظر إلى النافذة، كانت نحيلة وضعيفة أكثر من قبل بمرّات. بدا وجهها أكثر تألّقًا، حتّى إنّني شعرتُ بأحلامها تظهر في عينيها. كانت تنظر إلى النافذة بصمت. في البداية، لم تلمحني، أو ربّما هي الأخرى لم تعد تميّز الوجوه لكثرة ما رأت أثناء اليومين الفائتين. ولكن عندما أمعنت النظر، نهضت واقفة بدهشة، اقتربت من النافذة، كانت لا تزال كما هي، ممشوقة القامة، بنظرات تفيض بالجمال والتألّق، كما لو أنّها حين رأتني تذكّرت شيئًا ما أو شخصًا ما. شخصٌ لم تره منذ وقت طويل. حائرة ومرتبكة، تقدّمت وقالت: «خنداان، أنتِ هنا! كيف حالك، أختي الصغيرة، كيف حالك؟».

فاضت عيوننا بالدموع.

قلت: «بخير، أنا بخير يا بروانة، لا بأس بي، أعيش في دار للتوبة».

لا أعرف إن سمعتني أم لا. تأملنا بعضنا قليلًا، ثم جاءت المرأة ذات العينين السوداوين والنطاق الذهبي. أمسكتني من كتفي بلطف

وقالت: «يكفي يا ابنتي، يكفي. دعي عمّتك أيضًا تلقي عليها نظرة».

أثناء اللحظات القليلة تلك، لم أرفع عيني عن بروانة ولو ثانية واحدة، ولم ألق بنظرة واحدة على ميديا.

حتّى إنّ فتّانة ظلّت سنوات تلومني وتقول: «نظرتُ بمحبّة وود إلى بروانة أيضًا. نظرتُ إلى أختك أيضًا كما نظرت إلى أختي».

في ذلك اليوم، كان عليّ أن أنتهز الفرصة أمام تلك النافذة وألقي بنظرة إلى ميديا أيضًا، ميديا التي كانت تأمّل من أعماق عالمها الصامت نظرة محبّة قبل لحظة الموت. تقول فتّانة دومًا في ساعات الغضب: «أثناء الأيام القليلة الماضية، الجميع شاهدهما. بلا شكّ، كانت نظراتهم نظرات حقد واستخفاف، فقط أنا وأنت، نحن أختاهما، كان علينا أن نلقيَ عليهما نظرة رحمة ومحبّة. أمّا أنتِ فلم تنظري بهذه النظرة إلى أختي».

بقيت أحمل في قلبي حسرةً منذ ذلك اليوم. حسرة أني تجاهلت ميديا، حسرة أنّي لم أستطع أن أقول لبروانة ما في قلبي، ولم أستطع ضمّها إلى صدري وأقول لها بأنني أرغب أن أموت معها. حين تركت عمّتي النافذة، نظرت إلى عينيها. رأيت فيهما ارتياح وطمأنينة. كانت سعيدة، ظلّت لحظات غير مهتمّة بشيء من حولها. كانت فقطتدور في فضاء متعتها الروحية. لم أصدّق مدى السعادة والراحة التي بدت على امرأة مثلها، امرأة لم أشاهدها من قبل إلّا في حالة حقد وغضب. لم أصدّق أن يشعّ الفرح على وجهها. كان جليًّا أنّها تتذوّق متعة كبيرة، متعة تنعشها وتحييها كما لو أنها في ذروة النشوة.

حينما خرجنا من الغرفة، لاحظت أنّ لون فتّانة قد تغيير تمامًا وصارت شاحبة. التصقت بي قائلة: «كلتاهما خائفة، كلتاهما خائفة للغاية».

لكن، كان من الواضح أنّنا، أنا وهي، كنّا خائفتين أكثر. عبر باب واطئ، دخلنا ساحة أخرى مليئة بالجزّارين وبالماعز المذبوح. عشرات الرؤوس من الماعز معلّقة على الأعمدة وعلى الأرض كلها ملطّخة بالدماء. كان الجزّارون مشغولين بالذبح وسلخ الجلود. وفي زاوية من الباحة، وضعت عدة رؤوس في وعاء كبير. كانت رائحة الدم الحار تنبعث من أيدي أولئك الأطفال وهم يدورون حول الجزّارين، قرب وعاء رؤوس الماعز وهم يحدّقون في عيونها.

هناك، قادتنا امرأة ضخمة وقوية، قالت لعمّتي: «سنأخذ الفتاتين إلى تلك المصطبة المرتفعة. يمكنهما أن يأخذا قسطًا من الراحة هناك، كذلك يمكنهما أن يشاهدا ما يجري في الساحة. أرى ألّا تنضما إلى القافلة فأنا أشفق كثيرًا على الفتيات، وخاصّة إذا كنّ في هذا العمر».

كانت القرية سلسلةً مشوّهةً من المنازل والغرف والأبواب والطرق. كانت كلّها متصلة وكلّها مفتوحة بعضها على بعض. كانت كلّ الأماكن متّصل بعضها ببعض بطريقة ما، حتى إنّي لم أكن أشعر بانتقالي من مكان إلى آخر. كانت أشبه بمتاهة، يشكّل الثلج والبشر والحجر جدرانها. في بعض الأماكن شعرت أنّ البشر واقفون عوضًا عن الجدران. وعلى النقيض من ذلك، في أماكن أخرى، كانت الجدران تحاصرنا بدل البشر. في البداية، ظننتُ أنّ القرية صغيرة

ونائية، لكن الآن، وبعد أن فُتحت الأبواب، وجدتُ أنّ كلّ باب يؤدّي إلى طريق حجري، وكلّ طريق يمرّ بين منازل عدة وغرف وأزقّة. كلّما صعدنا أكثر، شعرت بأنّ القرية تظهر أكثر، لكنّ الجدران والبيوت كلّها كانت خالية. لا شيء هناك سوى الثلج، الثلج والحجارة. في النهاية، وصلنا منزلًا صغيرًا أجمل من كلّ البيوت. منزل يطلّ على سهل كبير. من الواضح أنّه آخر بيت في القرية ومن بعده تأتي أرض خالية، تبدأ المراعي والبيادر. صعدنا سُلّمًا إلى الأعلى، إلى أن وصلنا إلى صالة مزيّنة، صالة في صورة بيت عصري. من هناك، شاهدنا جميع الطرق التي مررنا عبرها وعيوننا على الأفق البعيد والقريب. شعرت أمام تلك الصالة بفراغ كبير. شعرت أنّني لست سوى روح هشّة وفارغة وعديمة الإرادة. بعد الآن، لا أترقّب أية معجزة، لا شيء في القريب والبعيد سوى بياض الثلج. شعرت أن لا شيء سوى البرد في هذا العالم. فقط البرد. عندما وصلنا إلى تلك المصطبة القارسة، تركتنا عمّتي التي تعيش أسعد لحظاتها، تركتنا وعادت لكي تتفاخر في القرية وتُظهر قوّتها وسلطتها. حينها، ولأنه تمّ إبعادنا عن أختينا، كانت فتّانة غاضبة وحزينة. كلانا شعرت أنّنا مرميّتان خارج الزمان والمكان اللائق. أول مرّة، رأينا العالم بكلّ قبحِه البارد والأبيض والفارغ. أوّل مرّة، اكتشفنا العَلاقة المثيرة بين الدّم والصقيع. بعد سنوات من ذلك، ظلّ لون الثلج يذكرني دومًا بلون الدّم. دائمًا، كان لون الثلج المخجل يخفي لون الحياة. كان ذلك البياض، الذي يخفي ألون الطبيعة في الخيال، يأخذني إلى كلّ الاحمرار المرعب للتمزيق والتجريح الإنساني. شعرت أنّ بروانة تموت بسبب هذا الصقيع، وأنّنا موجودون هنا بسبب هذا البياض اللانهائي. صرتُ حينئذٍ أكره كلّ

شيء أبيض. أجد كلّ بياض قاتلًا. حين خرجت القافلة كنت غارقة في عالم الخيال. سمعت فتّانة صوت الدفوف فهرعت قبلي إلى حافّة السطح. رأت بروانة وميديا وسط الحشود وقد أحيطتا بطوق أبيض كبير. كانتا تمشيان ببطء خلف عدد من حاملات الدفوف والمسلّحين وأناس محترمين. ومن بعيد، سمعنا قارئًا يتلو بصوت شجي: «الحمد لله ربّ العالمين»، فيردّد الجميع بحماس وهيجان: «الحمدُ لله ربّ العالمين»، كانت بروانة تتقدّم بهدوء دون أن تنظر إلى أحد، تمسك بيد ميديا وتخطوان معًا. كان والدانا وأخوتنا، أنا وفتّانة، يسيرون في الصفّ الثاني، خلف حاملات الدفوف. اقتربت منّي فتّانة مذعورة، أمسكت يدي وقالت بصوت خافت ومرتجف: «أولئك هم أخوتي».

كانت تحيط ببروانة هالة كبيرة من سديم رقيق. حين اقتربوا من المصطبة التي نقف عليها، ضغطت فتّانة بقوة على يدي وقالت: «خندان الصغيرة، انظري إلى تلك الفراشات التي تحيط بهما، انظري إلى الفراشات».

مع اقترابهم نحونا، كانت الفراشات تظهر لنا بوضوح أكبر. لاحظت مع مرور القافلة أن بعض الفراشات تبقى في هواء الليل النقي ثم تطير باتجاهنا. بينما نقف نحن على المصطبة التي تحميها مظلّة من القشّ بثيابنا الطويلة وحجابنا الأسود، لم نكن نثير انتباه أحد سوى تلك الفراشات. حتّى بروانة وميديا مرّتا من أمامنا في قافلة موتهما ولم تنتبها لوجودنا. تراءت لي بروانة مثل شرنقة طريّة من الكتان. استطعت وسط ذلك العالم الشاسع أن أرى مدى تمزّقها وانهيارها. استطعت أن أرى تماسكها وانحلالها وسط أولئك الناس،

بين الثلج، في الجبال المرتفعة والشامخة من حولنا. استطعت أن أشمَّ رائحة جلدها. بشرتها الرقيقة التي طالما رأيتها سنوات طويلة بجانب أصص الزهور ينتثر عنها غبار سحري... استطعت أن أقرأ أحاسيسها الذابلة، استطعت أن أرى روحها المنهكة. شعرتُ وكأنّها لا تحمل في قلبها غمًّا ولا كربًا. لم تكن منفعلة ولا ساخطة. لم تكن تولي اهتمامًا بالموت المتوقّع والذي يلاحقها ببطء. كان تقدّمها الوقور يقول: «حسنًا، فلنذهب». كنتُ أسمع الصوت المنبعث من أعماقها وهو يقول: «حسنًا، فلنذهب».كأنّها هي من دعت الناس إلى حضور موتها. وجدتها مسرعةً لحظات، لكن لم أجدها قطّ مرتبكة ومضطربة. كانت خطواتها كما في سالف الأيام تمامًا، حين كنّا نمشي على الطريق الرئيس في المدينة، حين كانت تشعّ جمالًا، تطغى بألقها على وهني وبلادتي. شعرتُ أنّها الآن أيضًا تغطّي بجمالها برودة وقسوة هذه الليلة، تمامًا كما في ليالي الربيع السالفة.

في لحظة، أردت أن أصرخ: «لا تقتلوها!»، كما لو أنّ فتّانة قرأت ما بداخل روحي، فضغطت على يدي: «اصمتي يا خندان، لا جدوى، لا تقلقي عليهما، موتهما راحة».

لاحقًا، تحدّثنا، أنا وفتّانة، مرارًا عن راحة ذلك الموت. كنت دائمًا أقول: «لولا وجود الفراشات، لكان كلّ شيء بخير، الثلج الراقد في السهول. عمّتي وهي تتجوّل بين حاملات الدفوف. أبي الذي طأطأ رأسه وهو يخطو بثقة وارتياح. قارئ الصلوات. الأغنية المتعطّشة للدم. الأقرباء الغاضبون والحزانى، الجميع كان راضيًا ومسرورًا». عندما وصلت قافلة الموت إلى طرف القرية، وقبل أن

تصل إلى المقبرة بعدّة أمتار، توقّفت. قالت فتّانة: «لا، لن يقتلوهما في المقبرة. هناك من يمنع دفنهما في المقبرة. يعتقدون أنّه لا يجوز تدنيس الموتى فيها».

بعد لحظات، وقف الجميع تحت شجرة ضخمة، لا تبعد عنّا كثيرًا. قلت: «فتّانة، تلك شجرة موت بروانة».

لقد قرروا أن يقتلوهما تحت تلك الشجرة. كانت فتّانة تراقب وتزداد شحوبًا واصفرارًا وارتجافًا. ظلّت صامتة برهةً ثم قالت: «صدقتِ يا خندان، تلك هي شجرة موتهما، تلك هي شجرة موت أختينا».

رأينا عمّتي مع سيّدتين جميلتين وصاحبتا نفوذ في تلك المنطقة. أمسكت النسوة بأيديهما وأخذوهما نحو الشجرة. شجرة ضخمة جدًّا ونصف عارية وعالية للغاية. شعرت أنّ بعض فروعها نازلة من السماء. نظرت إلى جذرها وجذعها، لمحت فيها قوة تلك الأرض. تصورتُ إبداع تلك الأرض التي أخرجت جسدًا بهذه الضخامة والارتفاع. كذلك، ومن زاوية أخرى، وجدت في تلك الشجرة عَلاقة كبيرة ومعقّدة وخفية بين السماء والأرض. شعرت بتضامن شيطاني بين الارتفاعات الشاهقة للعالم، وبين الأعماق المظلمة للأرض. ظلّت صورة تلك الشجرة مطبوعة في ذاكرتي سنوات طويلة. كنت أراها في أحلامي المخيفة. وأحيانًا، في أحلام اليقظة، كنتُ أرى أني أموت تحتها. رأيت نفسي أختنق بين فروعها وأغصانها. في ذلك المساء، تمعّنت أكثر من الجميع في تلك الشجرة. ظهرت

بروانة وميديا صغيرتين هزيلتين أمامها. بدت الفراشات كما لو أنها تتشاجر مع الشجرة. كان عددها في ازدياد، لكنّها لم تلفت انتباه أحد. لوهلة، تصورت أن ميديا وبروانة أيضًا تراقبان الفراشات. رأيتهما ترفعان رأسيهما نحو الفراشات، لكن لم يثر الأمر انتباه أحد. لم يلحظ أحد كيف تلتقي أرواحنا في تلاقي نظراتنا، نحن وهما، إلى تلك الكائنات. كان الناس في تلك الساعة مشغولين بمشاهدة مجموعة إطلاق الرصاص، التي بدأت بالتدريج تبعد الناس عن الشجرة وتخلي مساحة بينهم وبين أول صفٍّ من المشاهدين. كانت مجموعة إطلاق الرصاص تتكوّن من أخوتي وأخوة فتّانة وبعض أقرباء العائلتين. بعض الشباب غير المعروفين من هنا وهناك طلبوا الحضور والمشاركة. يبدوا أنّهم قدموا من مناطق بعيدة ومجهولة لكي يسهموا في هذه المراسم. والآن لم يكتفوا بأن تكون مشاركتهم فقط بالمشاهدة في هذه الأوقات المباركة. لكن، تقدّم إمامٌ وأصدر أوامره بأنه لا يحقّ حضور أحد سوى أخوة وأقرباء الفتاتين. قام الإمام نفسه، وبعد هدوء وترقّب، بتلاوة آيات طويلة. حين انتهى من التلاوة، عاد إلى مكانه. حينها رفع أخوتي وبقية مجموعة إطلاق النار أسلحتهم. في تلك اللحظة، كانت بروانة في مواجهة حقيقية مع الموت. كان مساء موتها يشرق من الأفق... الجميع في انتظار صوت الرصاص. خيّم صمت غريب وأرخى بجناحيه على المكان كما لو أنّ الكون كلّه في حالة كسل وتثاقل شاعري. كان الكون ساكنًا يراقب بعينين متراخيتين، الأشجار والجبال والثلوج كلّها تراقبهم. في اللحظة التي علا صوت الرصاص، امتلأ الجوّ بسحابة غبار. كنتُ واثقةً من أنّ بروانة تتحوّل إلى غبار حريريّ ناعم ومشعّ. صمتتِ البنادقُ بينما

ظلّت بروانة واقفة. سقطت ميديا لكنّ بروانة كانت لا تزال واقفة. لم يبدُ عليها أنّها ستسقط، لكنّها كانت تتناثر بطريقة مثيرة... غبارها يحطّ على الأجسام والوجوه والأشجار. في تلك اللحظة، كانت بروانة مثل نسمة تنتشر في جميع أرجاء الكون. كان عدد الفراشات في تزايد. بعضها كان يطير في دورة صغيرة ثم تموت، لكنّ القسم الآخر كان يقاوم أكثر كما لو أنّها شاهدٌ ساحر وخفيّ، لكي يحمل سرَّ تلك الليلة في أعماق حياتِها الهشّة.

سقطت بروانة... رأيتها كيف هوت ببطء. انحنت بهدوء... بهدوء وضعت رأسها على الأرض... وسقطت. مع سقوط بروانة، طارت الفراشات جميعًا في موجة كبيرة نحو عباب السماء. اقتربت نساءٌ عدّة من بروانة وميديا ووضعوهما على بطانيتين خضراوين لُفّ عليهما كفنين محضّرين سلفًا في صرّة سوداء. كنّا نرى كلّ شيء من بعيد. لم نعرف دقائق عدّة ماذا يحدث، لم نستطع رؤية الحقيقة الواضحة أمام أعيننا. بعد لحظات طويلة من التأمّل، أدركنا أنّ هذا ليس فقط مساء الخوف والرعب، بل إنّه مساء حقيقة موت أختينا. تبادلنا النظرات، أنا وفتّانة، وأدركنا أنّهما ماتتا. أغمضنا أعيننا وهما ميتتان. كنّا نرى موتهما في السماء، بين الثلج وعلى الطرق. بدا العالم بعد تلك الحقيقة أكثر كآبة وحزنًا، بدا أشدّ حرارة، بدا جحيمًا. رأيت حرارة موت الجسدين في دائرة كبيرة تذيب كل الثلج الأبيض، وتكشف عن قسوة وشرخ وخراب تلك الطبيعة.

اقترب إمامٌ من الجثتين المكفّنتين وطلب من بعض الشباب تحضير القبر. كانت لديّ رغبة شديدة في أن أذهب وأرى جسد

بروانة الهزيل. أن ألقي النظرة الأخيرة على حياةٍ هدأت واستقرّت بعد كلّ العواصف التي مرت بها. شعرت بفراغ كبير، فراغ لا حدود له. شعرت بيأس ينهي كل الغضب والتمرد الذي في قلبي. أيقنت أنّ عليّ الآن أن أعيش بلا حُلم، بلا خيال. قالت فتّانة بصوت يشوبه البكاء: «لو قاموا بقتلهما في الليل لكان أفضل. على الأقلّ، كان لميديا أن تشاهد القمر». عانقتها بحرارة وبكينا معًا. حينما عانقتها بقوة، شعرتُ أنّه بعد الآن سترتبطنا عَلاقة أخوّة أبدية. اعتقدت أن تلك اللحظات جعلت منّا شاهدتين إلى الأبد على ذلك اليوم. يومٌ قد يدور وسط كل العواصف، وعلى البلاد جميعها، على الطبيعة وعلى الحيوانات. يومٌ من الصعب الإمساك به أو نسيانه أو أن يصبح يومًا عاديًا مثل بقيّة الأيام.

لم أترك يد فتّانة إلى أن نزلنا في وقت متأخّر من الليل أمام دار التوبة. شعرنا معًا بقسوة تلك الليلة. تقاسمنا معًا قشعريرة الموت. بكينا بحرقة أثناء الوقت الذي مرّ ونحن متعانقتان، تحت مظلّةٍ، في قرية حرمتنا من رؤية تلك الأيادي القذرة مثل يد إبليس التي رمت بروانة وميديا في حفرة وغطّتهما بالتراب. كنّا نبكي ولم نشعر بالمكان ولا بالزمان. كنّا متعانقتين بطريقة يصعب تمييز بعضنا عن بعض، غير عارفتين بما يحدث من حولنا. لم نشعر كيف تركوا شجرة الموت خلفهم وعادوا. حاولت عمّتي ونساء أخريات، وبذرائع عدّة، أن تفصل بعضنا عن بعض. بعد محاولات عديدة، استطعن ذلك، لكن لم يستطعن فكّ أيدينا قطّ. مثل تلك الجثتين اللتين يرقد بعضهما في حضن بعض، كنّا نحن أيضًا يبكي بعضنا في حضن بعض. عندما

أخذونا، ساعة بكائنا، إلى السيارة وأغلقوا بابها علينا، رأينا كيف غادرت مجموعة الناس والقتلة من الآباء والأخوة الملطّخة أيديهم بالدماء، غادروا وهم يتحلّقون حول عددٍ من الطاولات الطويلة والمزيّنة والتي مُدّت في عشرات الصالونات الكبيرة. أمّا نحن، فواصلنا بكاءنا مثل طفلتين. لم يكن أحد غيرنا يبكي. لم يكن هناك صوت صراخ سوى صراخنا. كانت تصدر من القرية كلّها رائحة الراحة والرضا لأنهم نفّذوا قرارهم أمام الله، والآن ينكبون على الموائد براحة بال وراحة ضمير. في أجواء الطمأنينة والراحة تلك، كان حزننا، أنا وفتّانة، يعكر صفو فرحتهم. حين وجدوا أن لا شيء يجعلنا نهدأ، قالت امرأة: «خذوهما إلى داخل السيّارة وأغلقوا عليهما الباب».

عبر نافذة السيّارة، شاهدنا آلافًا مؤلّفة من الفراشات وهي تحلّق ثم تهوي فوق سهول الثلج الممتدة إلى اللانهاية. لم نكن نعلم إلى أين تتّجه، لكنّ الواضح أنّ تلك الفراشات كانت قد أنهت دورة حياتها دون أيّ سبب مقنع لظهورها في ذاك الشتاء البارد. جاءت لكي تنقل روح بروانة إلى الجهة الأخرى، لبحر الفناء الأبدي. جاءت للموت مع بروانة. قالت فتّانة ذات مرّة: «خندان، ألم تكن تلك الفراشات هي روح بروانة؟ ألم تكن روحها ذاتها، وقد حوّلها الموت فصارت حديقة فراشات كبيرة. آه يا خندان، لا أحد يستطيع الإجابة عن هذا السؤال».

في تلك الليلة، وإلى أن امتدّ الظلام إلى اللانهاية، ظلّت الفراشات تحلّق وتموت. رأيتها كيف تدور في دائرة كبيرة ومتعِبة ثم تسقط.

بقيت سنوات طويلة، حتّى بعد أن تركت مدرسة الأخوات التائبات أيضًا، أظنّ أنّه ربّما كانت تلك الفراشات من خيالنا وهواجسنا، أنا وفتّانة. اعتقدت دائمًا أنّها مجرّد صور من صنع خيالنا المغتال والمقموع داخل أرواحنا. لكن فيما بعد، حين قمتُ باسترجاع كلّ شيء ساعة بساعة من ذكريات ذلك اليوم، تأكّدت أنّنا لسنا وحدنا من رأينا الفراشات في ذلك اليوم المشؤوم، لسنا وحدنا من لاحظ في الليلة الحزينة الغبار الجميل المتساقط والمتناثر في الهواء، بل إنّ آلاف الشباب والبنات القريبة أعمارهم من أعمارنا والذين ذاقوا بصورة من الصور عذاب ورعب تلك الليلة، هم أيضًا شاهدوا جيش الفراشات المتناثرة. كانت الفراشات قد ملأت المنطقة كلّها، انتشرت في كل المدن، هطلت بصورة مثيرة فوق البيوت والساحات والطرق والحارات. ملأت العالم حتّى اليوم التالي، في باحات جميع المدارس، وداخل كل السجون، وساحات الحَافلات والميادين البائسة، في الأودية والغابات البعيدة، وفي ساحات الحرب الخامدة. امتلأت كلّ هذه الأماكن بغبار الفراشات. لكن مع ذلك، فقط نحن الاثنتان سمينا ذلك المساء بمساء بروانة (مساء الفراشة). استخدمنا هذه التسمية سنوات، مثل شيفرة سرّية. رمز لا يدرك معناه أحد سوانا. رمزٌ، نذكره كلّما أردنا الحديث عن الموت وعن الحياة غير المكتملة، أو كلّما أردنا أن نتحدّث عن عالم كلّ طرقه وأبوابه مغلقة. كنّا نتحدّث عن مساء بروانة، ونتذكّر الفراشات التي تاهت في ليلة شَتَويّة ولم تجد أمامها فرصة لحياة أخرى. من حين لآخر، كنّا نحكي حكاية الممالك الصدئة في دواخلنا، كنّا نتحدّث عن قصّة المدن الصامتة التي لا يصل الأوكسجين إلى ساحاتها التعِسة. عن الأماكن التي لا أحد يرى ما

يجري خلف جدرانها. نتحدّث عن فاجعة برك الماء التي تغرق نفسها بنفسها وداخل نفسها، ودون أن نشعر، كنّا نعود للحديث عن مساء بروانة.

أثناء سنوات طويلة قضيناها معًا، وإلى جانب القيام بواجباتنا الدينية، قمنا، بتخصيص وقتٍ لتأليف القصص. كانت القصص هي المجال الوحيد الذي يجعل بعضنا أكثر قربًا والتصاقًا ببعض. ألّفنا معًا، وخطوة بخطوة، قصة القلعة المغلقة، نسجنا حكاياتٍ عن بلادٍ يكون الزمن فيها ساكنًا. عن فتيات حاولن الطيران من نوافذ السجون. عن سيداتٍ رغبن اجتياز سواحل طويلة ثم فشلنَ. كانت القصص كلّها تؤدّي بطرقٍ مختلفة إلى مساء بروانة، مساء الفراشة. كان أبطالنا دومًا نصف بشر ونصف كائنات أخرى. كانت فتّانة راوية ساحرة تخلق كائنات نصفها من ورد ونصفها إنس. نصفها سمك ونصفها الآخر إنس، نصفها ببغاء ونصفها بشر. ودائمًا، كانت تسمّي ليلة موتهم بأسماء مثل مساء الوردة، أو مساء السمك، أو مساء الببغاء. ومع نهاية كلّ قصّة، كنّا نبكي. كان مساء بروانة، مفتاحنا نحو إعادة بناء تجربة العالم. حتمًا، وكأيّ عقلين صغيرين، كنّا نفكّر بالأشياء من بداياتها الأولى. نعود إلى الأمّ الأولى لخلق العالم. إلى المعاني العميقة والمقصد من خلق الإنسان والكون. دائمًا، كانت قصصنا تقع بين عالمين، عالم مستمرّ يتكرّر إلى الأبد، وعالمٌ تطير مخلوقاته. يسقط كلٌّ منها، وفي مساء موتٍ ما، على الأفق الحديدي لنهايته. في ليالي دار التّوبة، كثيرًا ما كنت أسأل فتّانة: «فتّانة، يا ترى مع أيّ عالم نحن متّصلون؟ مع أيّ قسم من هذا الكون نحن مرتبطون؟ مع العالم

الذي وضعتْ قوانينه إلى الأبد، أم مع الجزء الذي تستولي على سكّانه أحلام الطيران الشيطانية...».

بعد تفكير قصير تجيب: «نحن واقفتان بين كلا العالَمين ونراقب. نحن نروي الحكايات، رواة الحكايات ليسوا ملزمين بأيّ عالم».

أثناء سنوات طويلة، تحايلنا، أنا وفتّانة، على الخوف والوَحدة. وجدنا حياتنا وحريتنا في تأليف القصص. كانت تلك الليالي الغريبة والتي هي امتداد لمساء الفراشة، تأخذنا نحو التخفّي وإعادة اكتشافنا لأنفسنا وللعالم، تأخذنا نحو القراءة المتعمّقة في مكتبة دار التّوبة. كنتُ أفكّر مليًّا: «ليس من المستبعد أن يكون مساء الفراشة هو مجرّد مساء قُرّر فيه قدر بعض الأشخاص فقط. ربّما يأتي زمن مختلف عن هذا. ربّما لا تحوي الأعوام القادمة في تقويمها مساءَ الفراشات».

كانت فتّانة تجد متعة كبيرة في سرد القصص بعدّة أساليب مختلفة، تصوغ الحدث نفسه بطرق عدّة وصور متنوّعة. القصّة التي كانت ترويها اليوم، تعود لسردها بطريقة أخرى في الليلة التالية. كانت تقول: «متعة سرد القصص هي متعة لا تقدّمها الكتب. حين تروين حكاية ما، يمكنك أن تحكي كلّ شيء فيها كما تشائين، دون أن تتركي أثرًا لأيّ ذنب. لا أحد يمكنه أن يثبت بالدليل أنّك قد صنعت عالما».

بعد مدّة من مغادرتنا مدرسة الأخوات التائبات، قلت مرّة: «يا فتّانة، أنا قرّرت أخيرًا أن أدوّن قصّتنا، القصة الحقيقية لمساء الفراشة، دون مبالغة ودون أيّ إضافات خيالية». قالت: «آه يا صديقتي خندان، تأليف كتاب يعني صنع عالم مغلق، عالم لا يمكن لأحد أن يغيّر فيه

شيئًا. أنتِ بذلك تضعين بروانة في مكان موصد، تأخذينها إلى عالم هي لا تحبّ أن تعيش فيه... أنا على يقين أنّ أيّ إنسان حقيقي لا يتمنّى أن تكون حياته ضمن كتاب».

أجبتها: «تأليف كتاب يعني إحياء بروانة، يعني تحرير بروانة من أزقّة الموت اللانهائية، تحريرها من العالم المظلم. يا فتّانة، عليّ أن أنتشل بروانة من النسيان والإهمال. عليّ أنا أيضًا الخروج من ظلمات كلّ ذلك العجز والعبث. لا بدّ أن يكون لي إلهام وهدف في الحياة، عليّ أن أجد من جديد تلك الفتاة المسمّاة خندان، الفتاة التي ضيّعتها أثناء سنوات طويلة وسط الهموم والأحزان».

بعد تلك الليلة، حتّى فتّانة بذاتها لم تكن تعرف كيف أقضي حياتي، كيف أبكي أمام كلّ فراشة، وأيّ ألم تركه موت بروانة في قلبي. في آخر مرّة، شعرت أنّ عمري وأحلامي وهواجسي كلّها امتداد لتلك الليلة القارصة المثلجة. كلّما تملّكني إحساس بالخجل، كنت أقول لا بدّ أنّه إحساس بذنب موت بروانة. كانت كلّ ذكرى ترميني في بحر من الخيال... فأقول إنّه ذنب تلك الليلة. حتّى حينما كان حبّي ورغباتي يتعلّقان بانهيار تلك الروح الخجولة لتائبة مرتابة، كنت أقول: «آه، إنّه ذنبها، أيّتها الفراشات». كل الأشياء التي تصدر منها رائحة الحياة أو رائحة الخوف تجرني نحو مساء الفراشة. أينما أذهب، أقع في شِباك ذلك العالم الذي لم يتوافق مطلقًا مع حياتي المتناقضة في دار التّوبة. لكن في النهاية، وأمام كلّ المخاوف، كان عليّ أن أبحث عن مدخل أستطيع أثناءه أن أعيد صنع صور للعالم الذي تمزّق في خيالي. في كلّ مرّة، بعد ذلك الحُلم، كنت أبحث

عن يَدَي بروانة، أريد أن أخرجها من بين الخراب ومن مقبرة الزمن، لكي أشعر من جديد بحضورها. رغبت أن أصل إلى يوم، إلى عالم، إلى حقيقة، يكون فيها الرب وبروانة أصدقاء. عالم تكون المحبّة هي عنوان علاقتهما، ينظر بعضهما إلى بعض بمحبّة ويفتحان صدريهما بعضهما لبعض.

الأخير

بعد أسبوع من مساء بروانة، وصلت معصومة إلى المدرسة مرتدية معطفًا بنيًّا طويلًا وخمارًا أسود اللون. لم تتحدث إلى أحد. ظلّت منزوية أيّامًا عدّة. لكن فيما بعد، ومع مرور الوقت، استطعنا أنا وفتّانة التّقرب منها. إنّ الذي جعلها تخاف أكثر وتتجنّبنا هو معرفتها أننا أختا كل من ميديا وبروانة. كان لديها منذ البداية شكوك تجاهنا، بصعوبة استطعنا أن نزيل عنها بعض مخاوفها وتردّدها، كان قد خيّم على روحها وسواسٌ وتشاؤمٌ شديدان. كانت تظن أنّنا نريد أن ننتقم منها. في كثير من الأحيان، كان الجميع في المدرسة يستيقظون على صوت صراخها. في البداية، لم نتقبّلها، لكن بعد أن تحدثنا إليها واستمعنا لحكاياتها الطويلة والاستثنائية حول أيام «بلاد العشق» العجيبة، حين روت حكاية بروانة وميديا في الأسابيع الأخيرة لهما في الغابة، وفاضت عيناها بدموع الندم والأسف، لم يبق في قلوبنا تجاهها أيّ حقدٍ. لكن في اليوم الذي ماتت فيه، كان عليّ أن أقول لها: «أنت لم تقتلي أحدًا. أنت غير مذنبة. الذنب لم يكن ذنبك». كان من الصعب تخليصها من الإحساس بالذنب ومن تأنيب الضمير والاعتقاد بأنها خائنة. ومن جهة أخرى شكوك زينب تجاهها منعها من أن تصدق توبتها وصلاتها.

في مساء بروانة، وبعد عودتنا من بين غبار موت الفراشات إلى المدرسة، لم تتكلّم زينب، فقط تأمّلت وهلة عيوننا المحمرة والدامعة، ثم عادت من جديد لتغلق باب غرفتها على نفسها. كانت لا تزال آثار

العاصفة واضحة في أرجاء المدرسة. ذهبنا، أنا وفتّانة، إلى غرفتنا، لم نحضر الدروس أيّامًا عدة. تركتنا زينب لكي نعيش أحزاننا على أختينا بهدوء، بل أكثر من ذلك، سمحت لبعض الطالبات أن يتقدمن إلينا بواجب العزاء. وبعد مرور أشهر عدّة، عاد كلّ شيء كما كان. عادت حياتنا في دار التّوبة إلى سابق عهدها.

قصّة حياتي أثناء تلك السنوات، هي قصّة مثيرة بحدّ ذاتها، قصّة مختلفة ومؤثّرة، تستحقّ أن أرويها في يوم من الأيام في مكان ما، لا سيما أنّ لديّ رغبة، وقبل أن أغادر العالم، في إلقاء نظرة إلى التغيّرات الغريبة التي أصابتنا أثناء تلك الأعوام. كانت أعوام عدّة توازي عمري كلّه، بل أطول وأكثر تأثيرًا من كلّ أيام عمري. في الأشهر الأولى، بعد مساء بروانة، بدأ الخوف والفراغ يحتلان روحي تمامًا، وهذا الفراغ هو من قادني إلى جنون فتّانة في تأليف القصص وسردها. إنّ القصص التي كنّا نؤلّفها عن العالم والحياة وعن المدن، كانت تشغلنا وقتًا طويلًا. لكن في كلّ ليلة، وبعد انتهائنا من حكاية، كنت أبقى ساعات عدّة على السرير وأنا أفكّر بهذه الحياة، وهذا التفكيّر بدوره جعلني أتأمّل بعمق في أعماق نفسي. أنهكني التعبّد والدّعاء، لكن لم يغيّر ذلك شيئًا من شكوكي وأسئلتي. شعرت أن أكثر الساعات صدقًا في عبادتي هي الأوقات التي أفكّر فيها بالحياة والجمال، بالخَلْق وأسرار الإنسان. لكن دومًا كنت أشعر أنّ رأسي يكاد يتصدّع بين حقيقة رب أجده قد نسّق بين جميع مشكلات الكون وخلق توافقًا فيما بينها ووضع الواحدة إلى جانب الأخرى، وبين رب يهيّئ عقابًا دمويًّا لأجل رغبات صغيرة وسهلة لإنسان. كاد رأسي ينفجر من تلك

الأفكار. أحيانًا كاد الشكّ يقتلني، فأشعر أنّي غارقة في ظلام عميّق وأنّي لا أفهم شيئًا. لا يوجد شخص أسرُّ له بحالة الحَيْرة التي أعانيها. في تلك الأيام لم تكن فتانة تفكر بشيء، فقد كان جلّ تفكيرها منصبًّا على كيفية تأليف حكايات متنوّعة. كان لديها شغفٌ لسرد جميع حقائق الكون والتي نعدّها حقائق مسمومة ونارية، عن طريق القصص الخيالية. عشت فترة طويلة أعاني الوَحدة والتردّد وتحاصرني الكثير من الأسئلة. كانت حالة الارتباك والحَيْرة تتفاقم لديّ، مثل مريضة، مثل مجنونة كنت أبحث عن شيء ولا أتمكّن من الوصول إليه، لا أتمكّن من الوصول إلى الحقيقة. لم تعد لي حيلة، كان عليّ أن أخبر زينب بكلّ شيء. ذهبت إليها في خلوتها... استمعت إليّ من البداية باهتمام وصبر. حين تكلّمت عن نفسي وكاشفتها حول تساؤلاتي، تفهّمت آرائي، شعرتُ أنّها امرأة، إن بادرتَ بنفسك للحديث معها عن أسرارك وهواجسك الداخلية، وتقاسمت معها أفكارك، تنصت برويّة ولطف، أمّا إن حدث واكتشفَتْ، هي، سرًّا من أسرارِك، فحينئذٍ تنظر إليك كما لو أنكِ الشيطان ذاته.

كنتُ أستقي معظم تساؤلاتي حول الرب والدنيا والشريعة وقوانين الطبيعة، من الدروس التي نتلقّاها في المدرسة. لكنّي كنتُ أقوم دومًا بتحليلها بأسلوب مختلف. كانت زينب تقول لي: «إن الفراغ الذي تركه موت بروانة داخلك، لن يملأه سوى إيمان قوي بالله وبأنبيائه».

كانت تعلم أنّني مخلوق صغير تتلاعب بي الأسئلة الكبرى. أحيانًا كثيرة، كنت ألتزم الصمت. استمرّت فتّانة في سرد حكاياتها عن مخلوقات نصفها بشر ونصفها الآخر ريح أو غيم. لكن لم يكن

بمقدوري أن أسمعها. حتّى إنّه لم أعد أهتمّ بحديث معصومة عن الأيام التي قضتها مع بروانة، فقط كنت أتجوّل في المدرسة مثل درويش متصوّف أصابه الدوار من كثرة الذّكر. بينما زينب تراقب بتمعّن حالة الشقاء والتخبط التي أعيشها. كانت الأيام تمضي وأنا أفكّر في الله في نشوة وحبّ وخيال أكبر وأكبر.

مع مرور الأيام والسنوات، بدأتُ أتوصّل إلى رؤية الرب بالطريقة التي تتناسب مع حقيقة الإنسان والطبيعة. لم يكن بحثي عن الرب فقط مبعثه العبادة والصلاة وقراءة وحفظ الآيات، كما بقية التائبات، بل حاولت أن أجد الرب في مكان آخر. أحببت أن أخوض طريقًا أقصر إليه، رغبت أن أراه بهيئة أخرى، لم أكن أجده في تلك الكتابات والنصوص مطلقًا. أعتقد أنّ الرب يكمن في الكون عامة وفي جوهر تنوّع العالم.

في إحدى ليالي المصارحة والجدال مع زينب كويستاني، قلت لها:

«أستاذة، إنّ شريعة الرب ليست ضدَّ ذلك الجوهر الذي جعله مثل قانون في أرواحنا وإرادتنا وفكرنا وشهواتنا. بل إنّ جوهر الرب هو في تلك القوانين المخفية وغير المعلنة والقوية والتي تزرع حبّ الحياة في المخلوقات. كلُّ ما يقودُنا إلى حبّ الحياة هو إلهي».

كانت الأعوام تمضي، وبدأ التأمّل والتفكير المتواصل يترك آثاره عليّ. أحيانًا كانت أفكاري تقودني إلى عالم بعيد كلّ البُعد عن عالم زينب، والتي لم تعد تعاملني معاملة مُدرّسة متشدّدة، بل صارت في

كثير من الأحيان تناقشني محترمة آرائي. بعد تعب من التفكير، كنت أذهب إلى فتّانة قائلة: «دعينا نروي قصة مساء بروانة».

لقد كانت تستهلّ كل حكاية، بحكاية عشق ميديا للقمر. ثم تعود من تلك البداية إلى السؤال حول آدم وقصّة طرده من الجنّة أو أسئلة تتعلّق بالكون. ثمّ تأخذ الأمور بيُسر مفرط، فأستدرجها بالحديث إلى مكان أبعدَ. قلت ذات مرة: «آدم وحَواء تعلّما شيئًا ما في الجنّة. لقد حطّما جدارًا، كشفا سرًّا. إنّ طرد آدم وحواء من الجنّة لم يكن لعنةً؛ لأنّ الله لا ينظر إلى الإنسان كشيطان. انظري يا فتّانة، انظري إلى هذه الأرض الواسعة، هذه الأرض كانت لآدم مكانًا ليكمل فيها تجاربه، ليستمرّ في اكتشافاته. الأرض هي مختبر كبير، يختبر الله فيها طاقات الإنسان وقدراته انطلاقًا من قيامه بتجارب. الجنّة عالم تكون الحياة فيها ذاتَ لونٍ واحدٍ، بينما الأرض هي عالم تعطش للاكتشاف، عالم رغبةٍ يأخذ الإنسان نحو الارتقاء. انظري يا فتّانة، أناَ الآن وبعد كلّ هذه الأعوام، أنظر إلى بروانة وميديا كنموذج لأشخاص يختبرون طرق أخرى مختلفة في الحياة. لقد اختبرتا طريقًا لم يصل بهما إلى نتيجة لسبب من الأسباب، لكنّي واثقة من أنَّ الله راقبهما وهما تسيران في تحقيق تلك الرغبة الأصيلة والتي هي جوهر نزول آدم من الجنة. آه، آه يا صديقتي، أنا أرى أن الله ومنذ أن خلقَ الإنسانَ، زرع فيه روحَ البحث عن سُبُل أخرى، عن مكان آخر وحياة أخرى. اسمعي، أعتقد أنّ الرغبة في الطيران وفي الحرية هما من الأمنيات الإلهية».

أجابت بخوف: «هذا يعني أنّ آلاف الأشخاص وآلاف المؤمنين، لم يتوصلوا بدقّة إلى فَهم جوهرِ الرب». قلت في حماسة: «لا شكّ،

لا شكّ، إنّ إدراك جوهر الرب ومعاني وجوده العظيمة، هو أمر صعب لقدرات البشر الصغار».

كنت أتحدّث بهذه الأمور إلى زينب كويستاني. فتنتابها حالة يأس وضيق أمام الأسئلة التي أوجّهها إليها. كانت تمنعني من الإفصاح عن أفكاري إلى فتيات المدرسة. قالت ذات مرة: «السبيل الذي يُوصّل إنسانًا إلى الله، يمكن أن يوصل إنسانًا آخر إلى الشيطان».

في أحد الأيام، بدا أنّها فكّرت مليًا. طلبتني وقالت: «خندان، خندان الصغيرة، لا بدّ أن تعودي من جديد إلى المكتبة، لا بدّ أن تعودي إليها».

لم يسبق لي مطلقًا أن رأيت زينب بتلك الصورة، متحمّسة وثائرة، ومفعمة بالشوق إلى الحياة. أردت أن أعرف سبب قرارها بإعادتي إلى المكتبة، لكنّها اكتفت بالقول: «اذهبي، اذهبي وانتهى الأمر». بعد انقطاع طويل، عدتُ مرّة أخرى إلى عالم الكتب، لكن هذه المرة بروح قارئة مفعمة بالفضول والأسئلة. في تلك الفترة جاءت إلى الدارِ مُدرّسة صغيرة وخجولة، اسمها شاوغار، بقدر ما كانت خجولة، كانت مليئة بالأسرار والألغاز. هي الأخرى صارت من روّاد المكتبة. فيما بعد، جلبت لي عددًا من الكتب غير المتوفّرة في المكتبة، كلّما رجعت من إجازتها، كانت تجلب معها عددًا من الكتب تحتفظ بهم بعيدًا عن أعين زينب لكي نقرأها أنا وهي فقط. وحين لاحظت اهتمامنا أنا وفتّانة بالقصص، أعطتني عدّة مجموعات قصصية. في تلك المكتبة، وبين صفحات الكتب، بدأت أشعر أنّني

أصير شخصًا آخر، وأنّ الأعوام التي عشتها في دار التّوبة قضت على جسدي تمامًا. ماتت كلّ شهواتي أمام الحزن والخوف والشكّ. الرجل الذي كان يظهر لي في الليل، صار ظهوره نادرًا. بعض الليالي، كانت تنتابني رغبة في مناداته. أردت أن أقول له: « لماذا لا تأتي كما السابق؟» لكن التفكير المتواصل هدّ جسدي وقضى على شهواتي. لقد قضى الشكّ بنفسي وبالرب والعالم على الشوق إلى شمّ وتخيّل ذلك الرجل. وخلاف ذلك، كنت أشعر أن المكتبة أيقظت فيّ شهوة أخرى، شهوة التبصّر والاكتشاف والتفكير بصورة مختلفة. أخذتني القراءة بنهم والتأمّل اللامحدود إلى أماكنَ رهيبة. أحيانًا وأنا أمشي مع شاوغار، كنت أقول لها: «أستاذة، ما معنى أن يكون الله قد خلق العالم بوجه متنوّع ولا يقبل التنوع؟ ماذا يعني أن يمتلك الله ذاته رغبة عظيمة في الخلق، رغبة كانت سببًا لخلق ملايين النجوم والشموس، رغبة جمعت فيها حكمة برعم إلى جميع حِكَم الكون الأخرى. ماذا يعني ألّا يتقبّل رغبة الخلق والبَصيرة لدى الإنسان؟

ما معنى أن يخلق إلهٌ الكون ويجعله في فلك، ومن ثم يكون ضدّ قدرة الطيران والتجديد والتغيير في الإنسان؟ الله الذي أعطى لكلّ شيء الحقّ في الحياة، وحقّ أن يكون له مكان، حقّ أن ينموَ ويكبر، أعطى الحق للأشجار أن تُظهر جمالها، اخضرارها وطراوتها الحيّة. لقد أعطى الحق للحيوانات بالحرية في إطار وجودها، لماذا ينبغي ألا يعطيَ الحقّ للإنسان الذي هو أعظم خلقه وأروعه؟ لماذا ينبغي ألا يسمح للعقل الذي هو أعظم شيء في هذا الكون أن يفكّر، أن يختبر أشياء جديدة، أن يشكّ، وأن يُخطئ؟

ما معنى أن يكون مَن خلق كلّ صور الوجود المتنوّعة، وكلّ تلك الكائنات المتناقضة والمختلفة على الأرض، ولم يقل قطّ أنّ الأسد أكثر تباركًا من الكناري، أو الكناري أكبر من النحلة، كيف له أن يمنع التعايش بين الأديان، أو أن يقبل بالعبودية، أو أن تجري تفسيرات مختلفة في ظلّ حكمه، تفسيرات حول المساواة في الحقوق؟ اسمعي يا أستاذتي، كلّما أمعنتُ النظر في هذا الكون العظيم أدركتُ أكثر أنّ أكبر عاشقٍ للاختلاف والتنوّع هو الرب ذاته. ولكي نتمكّن من رؤية هذا الجوهَر علينا أن نتأمّل الكون عامّة، حتى نبصرَ عظمة الله، وألّا نكتفي بتبصره انطلاقًا من أسطر عدّة في الكتب. أنا أرى أنه كفر، وذلك الكفر هو تصغير للرب واختزاله في معنى واحد وكلمة واحدة. والمؤمن الصالح ليس من ينكبّ على دراسة كتب الدين، بل هو من يرى الله في عظمة هذا الكون، وجهاته، وفي عموم المعجزات، هو ذلك الذي لا يكتفي بالبحث عن الله فقط بين دفّات الكتب، بل يبحث في كلّ مكان عن معنى وجود الرب».

في النهاية قلت: «إنّ الرب خلق الإنسان في ملايين الصور، أعطاهم ملايين الوجوه، كيف سيسامحنا إن نحن نظرنا إليه بصورة واحدة، كيف سيسامحنا إن رأيناه بوصفه حاكمًا ضيّق الأفق ومحدود الخيال يحمل بيده كتابًا، يفتح صفحاته ويأمر حسب ذلك الكتاب؟ أستاذة، إن هذا لتصغير وتقليل من قوة الرب تعالى الشاسعة والعظيمة والخلاقة».

يومًا بعد يوم، صرت أدرك أنّني لم أقترف ذنبًا يستحق سنوات طويلة من التّوبة. لم تقترف فتاة في تلك المدرسة ذنبًا إلّا في خيالها.

ذات مرّة، قلت لزينب التي أضفى عليها العمر رزانة ووقارًا أكبر: «أستاذتي، إنّ الوحيدين الذين ينبغي أن يتوبوا هم أولئك الأشخاص الذين يستخدمون الله لإهانة الآخرين وإيذائهم وكرههم من البشر، الذين لا يمكنهم العيش في عالم دون أن يُكفّروا الآخرين، ويجهدون في سبيل خلق عالمهم واستخدام الرب لتهميش وتذليل الآخر. إنهم يفسرون الرب بطريقة يظهرونه عدوًّا للإنسان. في الحقيقة، هؤلاء هم عديمو الإيمان، هم من ينسبون إلى أنفسهم طهّارة وفضيلة كاذبة وخادعة، ينسبون السوء إلى الآخرين، هم العاجزون عن رؤية الرب في الجانب الآخر، جانب السوء والفضيلة الوهمية التي قاموا هم بإيجادها.

ظلّت فتّانة ومعصومة تستمعان إلى تفسيراتي أعوامًا وتتأملان العالم بفضول. قالت فتّانة: «دائمًا، كنت واثقة من أنّني لم أرتكب ذنوبًا، لم أشكّ يوما في براءتي». أما معصومة، فكانت تبكي الليل قائلة: «لكن من يكن خطّاءً أمام الناس يكن خطّاءً أمام الله أيضًا». قلت: «لدى الله مقاييس، ولديه لكلّ شيء ميزان خاصّ لا يشبه ميزانًا آخر».

حتّى ولو كنت أرى الرب بطريقة أخرى، فما زال خوفي من الرب على حاله، مثل خوف معصومة. أشعر أنّ الخشية منه لن تغادر قلبي بسهولة. لكني أعزّي نفسي وأقول إنّ الإنسان هو من زرع الخوف من الرب وهذا الأمر لا عَلاقة له بجوهره. لكثرة تفكير معصومة بالجزاء وبجهنّم، زادت مخاوفها عشرات الأضعاف، إلى درجة، لم يكن لديها القدرة على النظر إلى الرب على أنّه محبّة وعشّق. حتّى بعد أن غادرنا

مدرسة الأخوات التائبات أيضًا، ظلّ الخوف من الرب ملازمًا لها. كانت ترى الرب دومًا مثل عين سيّئة النية، بحيث يترقب دومًا اصطياد أخطائها. كانت تجد الرب مثل رجل يقوم بجَلدها، مثل حارس عند صخرة يعاقب فوقها الإنسان. إلى آخر يوم في حياتها، لحظة استلقت على فراشها ودون أيّ إشارة واضحة تدلّ على اقتراب الموت، حين سلّمت روحها، ظلّ الخوف من الرب ومن الطيور يلازمها.

أثناء السنوات التي قضيتُها مع زينب كويستاني، لم يروادني شعور بأنّ هذه السيدة يمكن أن تتجرّأ وتغيّر طباعها وسلوكياتها. كان على كلّ فتاة جديدة تأتي إلى دار التّوبة أن تمرّ بجميع مراحل التّوبة والترويض. وكانت زينب، في تعاملها معهنّ، تزداد من عام لآخر شدّة وعنفًا. وعلى النقيض تمامًا، فقد كانت تبدي تجاهي لينًا ورحمة. كانت حريصة على نفوذها في المدرسة، تخاف أولئك الرجال التابعين لوزارة الأوقاف والذين يقومون بزيارة المدرسة كلّ فصلمرّة، ليختبروا إيماننا وعقيدتنا، إنها تخشى من عدم رضاهم. كانت تخشى التفكّر بالتّوبة بطريقة مختلفة، طريقة لا تتوافق مع المفهوم الموجود ضمن دفاتر أولئك المسؤولين، الذين كانوا يقودون أرواح الناس ونفوسهم في وزارة الشؤون الدينية. في النهاية، لم يحصل أيّ تغيير ملموس في ذلك العالم. أحيانًا، حين كنّا نتمشّى معًا في الليل، وبعد إزالة حاجز الخجل بيننا، بمثابة مُدرّسة وطالبة، كانت تقول: «يا خندان، أرى أنك تبصرين الرب جيدًا، تبصرين الرب في جميع صور وجوده، وهذا الأمر يسرّني، لكن الديّن، وفي جزء كبير منه، لا ينظّم العَلاقة بين الرب والإنسان، ربّما ينظم علاقة الناس بعضهم ببعض،

وعَلاقة الإنسان مع الإنسان. إذا ساد ذلك التنوّع الذي خلقه الرب في حياتنا، وإذا اختبره الإنسان وجربه، كذلك إذا أيّده الحكام، حينها كلّ الروابط سوف تنهار. يا خندان، ينبغي أن تعلمي أنّ الأحلاف وصناعة الأشخاص المروّضين والخاضعين هو جوهر هذه المدرسة. وأنتم هنا لكي لا يتضعضع هذا الالتحام. أي، أن لَجْم الإنسان للإنسان باسم الشريعة هي مسؤوليتنا. لسنا عاجزين عن التعمّق في معنى الرب، أعمق ممّا تبديه هذه الوظيفة، لذلك، وإذا أهملنا كلّ شيء وعملنا حسب رأيك، حينها ينبغي لنا أن نهدم هذه المدرسة. علينا أن نغيّر الكثير من الأشياء في هذا العالم، علينا أن نفتح أبواب الحياة على مصراعيها أمام الكثير من الأمور الجديدة، والتي ليس بمقدوري الحديث عنها».

استمرّت عَلاقتي مع زينب بهذه الصورة فترة طويلة. معظم فتيات الدار كنّ ينظرن إليّ كما لو كنت مريضة أو مختلة. لم يكن أحد يهتمّ لكلامي سوى معصومة وفتّانة، وكذلك المدرسات لم يعطينني فرصة الاقتراب منهنّ، سوى شاوغار. الجميع رأى محبّة زينب واقترابها مني شيء طبيعي.

خلال تلك الأعوام، رحلت عمّتي، وكذلك أمي وأبي رحلوا إلى مثواهم الأخير، وكل مراسيم العزاء تمت في بيت عمّتي. أمّا أخوتي، فقد غادروا البلاد الواحد تلو الآخر في أوقات وطرق مختلفة، استقروا في بلدان الغرب. لم أتمكّن في الحصول على عنوان لأيّ منهم، لم يرسلوا ولو برسالة واحدة. كانت هديتهم الأخيرة لي هي مبلغ كبير من المال ومذكّرة صغيرة موقعة من الجميع تفيد بتنازلهم

عن ملكية منزل العائلة لصالحي. منذ وقت طويل، كنت قد قرّرت ترك الدار والعودة لأكمل حياتي في ذلك البيت الخالي والمظلم، أن أحتفظ بالمال للأمور المعيشية وأتفرّغ لكتابة هذه الرواية.

واجهت الدولة مشكلات كبيرة وضعفًا مفاجئًا وبدأت بالانهيار. واجهت البلاد مصيرًا مجهولًا، ظهرت عدة قوى وأحزاب وجماعات غريبة من حيث لا ندري. لم يكن لدي القدرة ولا الرغبة في معرفة ما يجري خارج أسوار دار التّوبة من تغييرات سريعة في البلاد. الشيء الوحيد الذي كان يجعلني على عَلاقة بذاك الخراب هو الانقطاع المستمرّ للتيّار الكهربائي عن المدرسة. في أحد الأيام، زار المدرسة أساتذة دين عدّة وقالوا بأن الفتيات اللاتي أنهين مراحل الإقامة في المدرسة يمكنهن الخروج ومتابعة رسالتهن في المدن والقرى. في ظهيرة أحد أيام الربيع، قمنا أنا وفتّانة ومعصومة بجمع أمتعتنا، ودون أي تصوّر عن مستقبلنا، تركنا المدرسة وتوجّهنا في سيارة جيب صغيرة إلى المدينة. هناك، دخلنا وسط عالم التغييرات المثيرة والسريعة التي حصلت بعيدًا عنّا ودون علمنا. حافظت معصومة على نمط اللباس الموحّد نفسه الذي كنّا نرتديه في المدرسة، لكنّنا أنا وفتّانة بدأنا بارتداء الثياب الملوّنة. ويومئذ استطعت أن أعيش بحرية أكبر مع الفراشات. منذ اللحظة الأولى، فتحت كلّ نوافذ البيت، البيت الفارغ الذي لم يبق فيه شيء على حاله سوى أصيص الزهور والذي عثرت خلفه على تمثال العاشقين الصغير مغطّى بالغبار. ذلك التمثال الذي قامت بروانة، وقبل سنوات عديدة، في ليلة مظلمة، بإخراجه من ورشة صامتة وسط غابة نائية وأرسلته مع شاب أزرق العينين.

نمتُ في الليلة الأولى دون فراش ودون وسادة، على أرض قاسية بين كل ذكريات طفولتي مع بروانة. في منتصف الليل، شعرت بقدوم الفراشات. شعرت بتناثر غبارها الرقيق في هواء المنزل الصامت. شعرت ببروانة تقول لي نحن هنا وسنبقى هنا، ومنذ تلك الليلة، لم تتركني الفراشات وحيدة. كانت موجودة دائمًا، قريبة من مصباحي، قريبة من مقعدي وطاولتي الصغيرة التي أكتب عليها هذه القصّة، قريبة من محبرتي. كانت حياة الشقاء قد قضت على جسدي جرّاء القصص المرعبة التي عشتها وسمعتها. كنت أقول: «أنا أعدّ نفسي ميتة إلى أن يحين اليوم الذي أكتب فيه قصة بروانة». عندما باشرت بالبحث عن حقائق القصة الأولى، استغربت جدًّا من سرعة انهيار جميع الأماكن المهمّة التي جرت فيها الأحداث، ولم يبق لها أيّ أثر. لم يمض وقت طويل بعد خروجنا من دار التوبة حتى أغلقت أبوابها بسبب نقص الغذاء والطعام عنها، ممّا أدّى إلى إخلائها وتفريق الفتيات والمدرسات اللاتي كنّ فيها. ثم قام أحد الأحزاب التي انتعشت في المنطقة بتحويل الدار إلى مقرّ لمنظّمة صغيرة، وفيما بعد وأثناء حرب شرسة، قامت إحدى الجماعات بحرق المنظمة وذبحت جميع العاملين فيها. لم يبق من المبنى سوى أنقاض وسط سهل لم تطأها قدم مخلوق بعد ذلك. وانتشرت خرافات تقول إن أرواح القتلى ما زالت موجودة في باحة تلك المدرسة تبكي وتطلب النجاة والخلاص.

في يوم ما، أردنا أنا ومعصومة الذهاب إلى موطن العشق البعيد (عشقستان)، والتي كانت مسرح جميع الأحداث المثيرة لهذه الرواية. بحثنا أيامًا عدة بلا هوادة في المنطقة كلّها، بحثنا بين السهول

والجبال والغابات دون جدوى، لم نجد تلك الأرض، لم نجد سوى أرضيياب قاحلة وسط وادٍ لا يمكن لأحد أن يعيش فيها. كانت النيران والحروب والفيضانات قد أطاحت بها مرات ومرات. يبدو أن نصرالدين أيضًا حاول قبلنا العودة إلى تلك البقعة من الأرض، لكنّه لم يجدها، مع أنّ جميع القرويين في المنطقة يعلمون بوجود وادٍ مرعب في مكان ما يسمّى «وادي الزناة». ثم بحثت وقتًا طويلًا في مصير فريدون ملك وكوفاند ودل آرام، لكنّني لم أتوصل لأيّ نتيجة. سمعت قصصًا غريبة ومتناقضة عمّا أصابهم، لكنّها لم تكن جميعها صحيحة، بعضهم كان يقول: «قام عناصر قافلة الإيمان بقتل العشاق الثلاثة ورموا جثثهم في النهر». لكن جميع الأشخاص الذين سبق لهم ورؤية «عشقستان» حينها، يؤكّدون أنّ الغابة كانت قفرًا وخالية حين نزولهم إليها، ولم يقع أحد من العشاق في قبضتهم. أنا الآن لا أنتظر أي خبر، لكن ومع ذلك ربما في يوم من الأيام يأتيني شخص بنبأ صحيح أو ربما، ذات مساء، يأتيني رجل ويقول أنا فريدون ملك أو كوفاند النحّات! وإلى ذلك الحين لن أنتظر أيّ شيء... حين بدأت بكتابة القصّة كان نصرالدين هو دليلي الوحيد.

سمعت، أوّل مرّة، اسمه من معصومة. اتفقت معها أثناء سنوات طويلة أن تحتفظ باسمه وعنوانه وألّا تبوح بهما لفتّانة. في الواقع، رغبت أن أحوز أنا وحدي على خفايا بداية ونهاية الأحداث وأجعل جميع الأسرار بعيدة عن متناول فتّانة، التي تحوّلها بثقة وتنسج منها قصصًا محكية. في المدرسة لم تكن معصومة متأكّدة فيما إذا كان نصرالدين المعطّر لا يزال حيًّا أم مات. لكنّها، وعن طريق نساء

الدفوف، علمتُ أنّه هو من أخرج البنات من الغابة وأخذهن إلى بيت العجوز موسى خزاناس. ثم عندما خرجنا من الدار وعن طريق إحدى معارفها التي كانت قد عرفتها في مشغل للخياطة، كشفت سرّ دفاتر ميديا. الدفاتر التي كان أحد أبناء خزاناس قد احتفظ بها في الصرّة البيضاء نفسها ومن ثمّ سلّمها لنصرالدين المعطّر، وكان حينها قد انتهى من الخدمة العسكرية وعاد إلى العمل في أستوديو التصوير القديم.

قبل أن ألتقيه في حفلة تلك الليلة، وقبل أن أقدّم نفسي «أنا خندان الصغيرة، الفتاة التي أشيع عنها افتراءً أنّها تثير العواصف». مرّرت مرّات عدّة من أمام الأستوديو دون أن أتجرّأ على الدخول إليه. فيما بعد، وحين تعرفت إليه، في البداية روى قصّة هروبه من أيدي المسلّحين الذين لاحقوه في الجبال. كان نصرالدين يحتفظ بمدوّنة العاشقين في مقرّ إقامته، على أمل العودة إلى بروانة وفتّانة. سلك الطريق الصعبة نفسها في رحلته، وقبل وصوله سمع من بعض العابرين خبر مقتل بروانة. بالمصادفة أيضًا، تمّ إنقاذه من قبل أحد معارفه والذي حذّره من كمين نصبه له بعض الرجال الذين كانوا يبحثون عنه. قام نصرالدين باتّباع طريق جبلية وعرة للغاية، وبعد أن سار على قدميه أيامًا بحذر ومعاناة من الجوع والبرد والخوف، سلّم نفسه لأول وَحدة مسلّحة للجيش. ثم بعد ذلك، قضى سنوات عدّة في صحراء الجنوب وفي مستنقعات الحرب الآسنة ساعيًا إلى الموت. لكن حين اقتنع بأنّ الموت ما زال بعيد عنه وأنّ للحياة أبوابًا أخرى مفتوحة أمامه، عاد بصورة مفاجئة إلى المدينة، وقف بحذائه العسكريّ أمام محلّ رضا

دلخوش، محلّ بيع العصير. نصرالدين الذي كان يعتقد بأنّه لن يموت بسهولة، رسم لنفسه مخططًا لحياة جديدة وقرّر أن يعيش حياة سعيدة مهما كان الثمن، وأن يضحك ويسعى إلى الأفراح حيث تكون، يتعرّف إلى الفتيات الجميلات ويتحدّث مع نساء جميلات المنطق. حين ظهرت في حياته، كنت فتاة صغيرة وخجولة، بصعوبة وجدت فسحة لي في حياته، لكنّه أبدى تحمُّلًا وصبرًا تجاهي. أحيانًا، كان يتعب، وأحيانًا كان يُقسِم بأنه لن يكملِ معي هذه اللعبة. حاول كثيرًا أن يأخذني إلى طريق مسدودة، لكنّه، في النهاية كان يعود ويدخل معي في تصوير ذلك العالم الذي يراه الآن كالخيال. هو من أعطاني دفاتر ميديا، وطلب منّي تعهدًا أن أحفظها في جميع الظروف الصعبة، من فيضان ونار وخوف وكوارث. وهو من عرفني على عُقد ومشكلات حياة فريدون، وهو من أخذني إلى بداية وأعماق ذلك الحبّ الذي انتهى مع مساء بروانة.

حين التقيا بعد وقت طويل، هو ومعصومة وجهًا لوجه، ونظر بعضهما إلى بعض، لاحظت أنهما يشعران بذنب كبير. وجد نصرالدين في معصومة إحدى ضحاياه الأحياء، وبالمقابل، كانت معصومة ترى في نصرالدين أحد مهزومي اتهاماته. ولكن، على روحه الطافحة بالندم، كانت لديه ابتسامة ماكرة. يبتسم كما عادته في وجه فتاة خجولة ويقول: «سيّدتي الصغيرة، من يصدّق أنّ كلّ هذا ليس من وحي الخيال. مَنْ يصدّق أنّها ليست قصة خيالية نقوم أنا وأنت بتدوينها...". رمقته بابتسامة لا تشبه مطلقًا ابتساماتي القديمة وقلت: «من قال غير ذلك؟ ربّما تكون القصة كلّها مجرّد إحساس».

هزّ برأسه قائلًا: «اكتبي يا خنداان الصغيرة، اكتبي. الكتابة أفضل من إثارة العواصف».

لكن لم تعد لديّ الرغبة في الكتابة بعد ذلك: «يكفي، لا توجد قصة تحكي عن كلّ هذه الدماء من أزمنة غابرة. لا توجد قصّة ليست مزيجًا من الواقع والخيال. وليس من حقّ أحدٍ أن يطلب منّي سردَ كلّ شيء حول زمن فات الأوان لأحيائه من جديد».

كنت أضع قلمي وأقول: «نعم، يكفي...»، أعلم أنّ هذه المخطوطة التي أراها صغيرة هي شيءٌ لن يفهمه أحد. تخيّلت نصرالدين وهو يأخذ المخطوطة من يدي أمام الأستوديو ويقول: «انتهت... أخيرًا انتهت حكاية مساء بروانة؛ يا سيّدتي، ارمي ذلك الحجاب وعيشي حياتك. كوني حرّة بعد الآن». وأنا بدوري أقول له: «لا يا أخي نصرالدين، من قال إن حكاية مساء بروانة قد انتهت... من قال إنّني لن أكتبها كاملةً من جديد؟».

يرفع يده، وبابتسامته الخجولة تلك الشبيهة بابتسامة الإناث يقول: «تأكّدي أنني سأقرؤها الليلة، سأقرؤها من الصفحة الأولى إلى آخر صفحة فيها».

أنا أعلم أن فتّانة تقرأ هذه الرواية الآن، بحسد وغيرة وغضب كبير، لكنّها آخِر مرّة، عانقتني وقالت: «لا تهتّمي يا خنداان، لا تحزني من أجلي، فليكن الأمر هكذا، فليكن...».

ها أنا أضع قلمي وأقول كفى. أتأمّل الفراشات، أتأمّل المنزل، انظر إلى ذلك الضوء المنسدل بعد ظهيرة يوم صيفي، أقف على شرفة

المنزل أرى أن المسلخ لم يعد له وجود، وكذلك مزاد العابرين. فقط هناك تجمّع لآلاف عربات الخضار، وفي وسط تلك العربات، هناك موقف للحافلات... أقف وأقول في نشوة: «هذا يكفي». أشعر أنّ شيئًا غريبًا يحدث في داخلي كما لو أن قوّة قد اخترقت روحي وأحدثت صدعًا يسمح بمرور رياح محاصرة. أنهض وأستنشق الهواء ثمّ أصرخ:

«ياالله، يا إلهي العظيم... إنها ذات الرائحة، ها هي الرائحة التي افتقدتها منذ سنوات وسنوات».

أنهضُ... أتبع تلك الرائحة في الغرف والممرّات وفي كل مكان، وأقول:

- يا الله... يا الله... إنها ذات الرائحة.

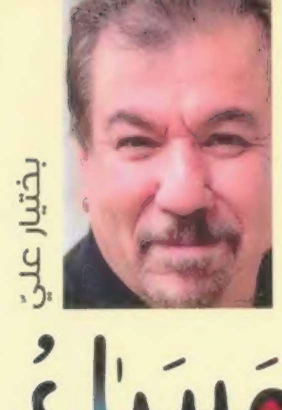
أعود من جديد إلى الشرفة، أرفع يدي، أستنشق هواء المساء المفعم بالعطر وأصرخ:

- هذه الرائحة الذكية هي فوح الريحان، إنها فوح الريحان الطاهر.

أقف منتصبة، ومرّة أخرى، أقول بفرح شديد:

«ذات الرائحة، رائحة الريحان... الريحان...».

تمت



بختيار علي

مساءُ الفراشة

في ثمانينيات القرن المنصرم، وتحديدًا في كردستان العراق: شقيقتان مليئتان بالحياة والرغبة في الحرية، تواجهان مصيرين مختلفين في مدينة معزولة بسبب الحرب.

في مزيج باهر من الخيال والواقع، يصور المؤلف ببراعة كل من عالم بروانة المتمرد والثائر، وعالم ضحية هذا التمرد أختها خندان.

الرواية عبارة عن رحلة ثاقبة من خلال روح المجتمع الشرق أوسطي بانقساماته وسقوطه، وأيضا تفسير للجانب المجتمعي المتعصب المطلق ضد الرغبة في العيش بحرية ودون قيود. (الناشر)

- ينتمي بختيار علي إلى صفوة عظماء الأدب العالمي.

(علي أشرف درويشيان، رئيس رابطة الكتاب الإيرانيين).

- بختيار علي هو واحد من أعظم كتاب الأدب الشرقي.

(فاضل ثامر، رئيس اتحاد الكتاب العراقيين).





@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com